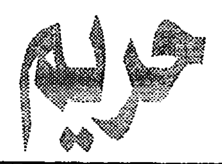

كتاب
سطور
صوفيا لين بول
ترجمة ودراسة: د. عزة كرارة
حريم محمد على باشا
رسائل من القاهرة (١٨٤٢ - ١٨٤٦)

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيونى

الإسكندرية

صوفيا پول



محمد على باشا

ترجمة : ودراسة دكتورة عزة كرارة

الطبعة الأولى

١٩٩٩



إدوارد لين بريشة آخيه
ريتشارد لين

صوفيا پول وبيئتها





نفيسه بريشة ريتشارد لين

عزة كرارة

حينما ظهرت في لندن عام ١٨٨٤ ، الطبعة الأولى لكتاب «المرأة الإنجليزية فى مصر»[١] بقلم صوفيا پول (١٨٠٤ - ١٨٩١) ، أخت المستشرق المعروف إدوارد لين (١٨٠١ - ١٨٧٦) ، حازت قبولاً حسناً من القارئ الإنجليزى ، يدل على ذلك ما جاء فى مقال بقلم الرحالة كنجليك[٢] حيث يقول : «إن هذا الكتاب الممتاز ، وهو نتيجة المشاهدات الشخصية للكاتبة ، يعطينا فى بضع صفحات معلومات عن السر الغامض للحريم الشرقى ، تفوق فى غزارتها أى مصدر آخر» .[٣] وبعد عام من هذا التاريخ ، ظهرت فى ١٨٤٥ ، طبعة أمريكية لهذا الجزء الأول[٤]. أما الجزء الثانى

---

(١) The Englishwoman In Egypt: Letters from Cairo, written during a Residence there in 18342,3, & 4 with E.W.Lane Esq., author of "The Modern Egyptians" By his sister. London. Charles Knight and Co., 1844 2 vols.

(٢) صاحب كتاب «إيوثان» .Alexander W. Kinglake. Eothen. London 1844

(٣) مقالة : The Rights oF Women, in The Quarterly Review, Dec. 1844. p. 108

(٤) نشره عام ١٨٤٥ فى فلادلفيا G.B. Zieber والنسخة مطابقة تماما لطبعة ١٨٤٤ الإنجليزية باستثناء حذف الرسالتين ٩ و١٦ .

للكتـاب وهو الذى يضم وصفاً لـلاحتفالات بزفـاف زينب هانم، ابنة محـمد على باشا، فقد طبع فى لندن عام ١٨٤٦[٥]؛ ولم تصدر أى طبعات أخرى للكتاب منذ ذلك الحين[٦].

كان «الحريم الشرقى» يثير اهتمام وفضول الغربيين منذ أن بدأ الرحّالة منهم يجوبون الشرق ويهتمون بأمره من كافة النواحى. هذا الحريم الذى تعيش فيه النساء المترفات فى شبه عزلة تامة عن العالم الخارجى الذى يحيط بهن وخصوصاً عالم الرجال الذين لا يمتون لهن بصلة القربى. فى بداية القرن التاسع عشر، كان يعرف بالحريم العالى، وتعيش فيه النساء المصونات التابعات للولاة من الأتراك وما تبقى من حريم المماليك الذين قضى محمد على باشا على سلطانهم. وكان يستحيل

---

(٥) The Englishwoman in Egypt: Letters from Cairo, written during a Residence there in 1845-46, with E.w.Lane.. etc, by his sister. Second Series, 1946.

(٦) اضطرت المترجمة أن تلجأ إلى مكتبة جامعة كمبردج لتحصل على صورة للنسخة التى لدى الجامعة والتى تعتبر من ضمن الكتب النادرة "Rare Books".

بطبيعة الحال، على أى أجنبى أن تطأ قدمه هذه الأماكن المحرمة الخطورة. وقد أفرد لين فى كتابه[٧] فصلا عن حياة المرأة فى منزلها كزوجة وكأم مع ذكر الملابس وأدوات الزينة وغيرها من الأشياء التى تخصها. ولكن رغم دقته المتناهية فيما وصف، إلا أن معلوماته فى هذه الموضوعات غير وافية كما تقول أخته فى إحدى رسائلها (فبراير ١٨٤٤) لأنها مستقاة من غيره من الرجال وليست مشاهداته الشخصية. يقول لين: «كثير من رجال الطبقة الوسطى المتزوجين بل وبعض أفراد الطبقة العليا، يتحدثون بحرية عن أحوال الحريم إلى من يبدى تجاوبا مع آرائهم الأخلاقية ولا سيما إذا كان الحديث يدور دون الاستعانة بمترجم»[٨]. وكان لين ممن اتقنوا اللغة العربية، وكان كذلك يتحدث العامية المصرية بطلاقة، وهذا ما مكنه من معرفة أشياء كثيرة عجز غيره من الأوربيين عن معرفتها. ولكن خبايا الحريم العالى أى حريم علية القوم حيث يغلب الطابع التركى، ظلت مغلقة أمامه وأمام كل رجل غريب.

كانت زيارات لين لمصر، مثلما قال «ليس فقط للتسلية وزيارة الأهرام والمعابد ولإشباع فضول عابر، ولكن لكى ألقى بنفسى بين شعب سمعت عنه روايات متناقضة؛ أريد أن أتبنى لغتهم وعاداتهم وملبسهم لكى أتمكن من دراسة أدبهم، إن رغبتى هى أن أرتبط ارتباطا كليا بسكان مصر من المسلمين». وبالفعل كان هذا ما فعله. وصل إلى الاسكندرية فى ١٩ سبتمبر ١٨٢٥ وهو فى الرابعة والعشرين من عمره واتجه لتوه إلى القاهرة التى طالما اشتاق لرؤيتها. ارتدى ملابس أهل البلد من الأتراك وأقام فى منطقة شعبية بجوار باب الحديد، ولم يختلط إلا بالمصريين ومن على شاكلته من الأجانب أمثال هاى وبيرتون، وتجنب الاختلاط بمجتمع الفرنجة الآخرين. وسمى نفسه «الفقير لله» الشيخ منصور الذى صار يعرف به، أحب لين القاهرة حبا جما ولم يفتأ يشتاق ويحن للرجوع إليها بعد عودته إلى إنجلترا عام ١٨٢٨. اصطحب معه، بجانب حبه الشديد لمصر، عادات اكتسبها جعلته كما

---

(٧) An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians. 1836.

(٨) Lane, Chap. 6, p. 175 أسقط عدلى نور الفقرة الأخيرة من هذه العبارة فى ترجمته بالرغم من أهميتها. (نور، ف٦ ص ٢٠٣).

يذكر أحد أصدقائه «شرقيا حقيقيا»، منها حبه للنارجيلة التي أصبح مدمنا لها وكذلك بدايته لعمله اليومي بالبسملة. كما اصطحب معه أيضا جارية صغيرة تدعى «نفيسة» من سبايا حرب المورة، كان صديقه هاي قد اشتراها وأهداها له وهو في مصر، وجاء بها لين لتعيش معه ومع والدته في إنجلترا. قام الاثنان بتثقيف نفيسه وتعليمها وأخيرا تزوجها عام ١٨٤٠ بعد أن ضغط عليه هاي أن يقدم على هذه الخطوة الحزينة (ولولا وجودها في البيت وتعوده عليها، ما كان قد تزوج البتة؛ إذ انه كان منقطعا كلية لعمله وليس لديه من الوقت ما يتسع لمعرفة النساء).

في عام ١٨٣٣ رجع لين إلى مصر، وبقي بها حتى ١٨٣٥ ثم عاد إليها للمرة الثالثة سنة ١٨٤٢ واصطحب معه زوجته نفيسة وأخته صوفيا پول وولديها: ستانلي وريچينالد، وذلك بعد وفاة والدته سنة ١٨٤١ التي كانت أخته وولداها يقيمون معها. في هذه الزيارة ظل بمصر سبع سنوات، انشغل فيها انشغالا تاما بمشروع قاموس عربي/إنجليزي، وكان لين دءوبا لا يكل ولا يتعب فانكب على عمله بكل طاقته، يقرأ المصادر العربية التي جلبها له الشيخ الدسوقي وكان يساعده في فهمها[٩]. يتسع وقته لدراسة المجتمع المصري كما كان يفعل في زيارتيه السابقتين، ثم إنه كان قد أكمل كتابه في هذا الموضوع من كل الجوانب المتاحة له. لم ينقصه سوى معرفة دخائل أمور الحريم العالي الذي يغلب عليه الطابع التركي اي طابع الحكام. رأى لين أن شقيقته صوفيا يمكنها أن تملأ الفراغات التي جاءت في كتابه بأن تدون ما تشاهده وما تسمعه وما يجول بخاطرها بهذا الصدد وسوف تقوم بهذه المهمة على الوجه الأكمل بارشاد منه. ترددت صوفيا في البداية إذ أنها لم تكن قد خاضت تجربة الكتابة من قبل. ولكن لين اقترح عليها أن تتخيل أنها تكتب خطابات شخصية لصديقة بانجلترا تصف لها حياتها في القاهرة، وذلك ليزيل عنها رهبة الكتابة للنشر العام. وفعلا بدأت تدون سلسلة من الرسائل لصديقة وهمية أو بالأحرى لكل امرأة إنجليزية يهمها أن تعرف شيئا عن مصر، هذا البلد الذى اكتسب أهمية سياسية وثقافية كبرى في بداية القرن التاسع عشر[١٠].

---

(٩) انظر: أحمد أمين، «الشيخ الدسوقي ومستر لين» في «فيض الخاطر» القاهرة ١٩٦٥.

(١٠) يذكر ادوارد سعيد في كتابه «الاستشراق» أنه قدر أن ٦٠,٠٠٠ كاتبٍ كتبوا عن الشرق الاوسط من ١٨٠٠ الى ١٩٥٠ .Edward W. Said, Orientalism, p. 204

كانت الرحّالة من الأجنبيات يحاولن جهد طاقاتهن أن يحظين بزيارة «الحريم» وبذلك يتفوقن على الرجال الذين لا معرفة لهم بنساء مصريات سوى الغوازى والعوالم ومن على شاكلة «كوچك هانم»، صديقة الكاتب الفرنسى جوستاف فلوبير. أما السيدات المحترمات فمحجبات ومصونات فى حريمهن. كان زيارة الأجنبيات تتم بشتى الطرق وغالباً ما يكون الخدم هم الوسطاء؛ ولا شك أن الفضول كان من الجانبين؛ إذ إن سيدات الحريم كن أيضا يتشوقن لرؤية هؤلاء النساء السافرات اللاتى لهن مطلق الحرية فى الترحال حيثما يردن. وغالباً ما كانت هذه الزيارات فاشلة إذ يغلب عليها التكلف ولا يتعدى الحديث بعض عبارات المجاملة الجوفاء والملاحظات السطحية عادة عن طريق الإشارة أو الترجمة؛ لذلك جاءت غالبية روايات الزائرات الأجنبيات أقرب إلى السطحية وتعبيراً عن أفكارهن المسبقة عن الشرق عامة، فهن لا يرين فى الحريم سوى كل ما هو قبيح وتافه.

تذكر هاريت مارتنو Harriet Martineau التى زارت مصر فى ١٨٦٤ فى كتابها «الحياة الشرقية: حاضرها وماضيها»[١١] إن ما أثار الغضب فى نفسها وأحزنها حينما زارت حريماً فى القاهرة وآخر فى دمشق، هو ما لاحظته من تفشى الكسل والجهل والتفاهة فى ربوع هذه الحياة، فالنساء لا روح لهن ولا عقل وأغلبهن حسب قولها، يشتكين من عسر الهضم والتخمة وترجع هذا إلى إكثارهن من تناول الأطعمة الدسمة والسكرية مع قلة الحركة، وتنصحهن باستخدام حبل للقفز! وكذلك فلورنس نايتنجيل Florence Nightingale التى جاءت فى رحلة إلى مصر لزيارة الآثار، وتمكنت من الدخول إلى حريم سعيد باشا بالإسكندرية، قالت «يا للملل الذى يسود هذا القصر الفخم. سوف يظل فى ذاكرتى كدائرة من الجحيم!»[١٢] وأيضاً الرحالة الألمانية إيدا هان هان Ida Hahn Hahn لم تر فى الحريم سوى صور للمذلة والاستعباد[١٣]. وكذلك إميليا إدواردز Emelia

(١١) Harriet Martineau: Eastern Life, present and Past, London 1848.

(١٢) Florence Nightingale, Letters from Egypt, London 1854.

(١٣) Ida Hahn-Hahn: Orientalische Briefe, Berlin 1842.

Edwards تذكر إن حريم العظماء يسوده جو من الكآبة، فالاهتمامات محدودة وتنحصر فى نزهة بالعربة فى طريق شبرا والتطريز وتدخين النارجيلة والسجاير وآكل الحلوى والحديث عن المجوهرات والقيل والقال وليس هناك إلا قلة تهتم بالسياسة؛ حقا إن فى القاهرة والإسكندرية تزخر «لوجات» الأوبرا كل ليلية بحريم الخديوى والباشوات ولكن حريم الغالبية العظمى من الطبقات الوسطى والتى فوقها بقليل، لا يمتلكن عربات فخمة صنعت فى لندن ولا طريق شبرا يتنزهن فيه ولا أوبرا يظهرن فيها، فهن بدون أى نوع من نشاط ذهنى مفيد، بل وتنفصهن حتى سبل التريض واستنشاق الهواء الطلق. من الواضح أنهن يعشن فى حالة من الملل المستديم لا اهتمام لهن بما يدور حولهن من أحداث، وتذكر إميليا أنها قابلت فى الأقصر، شابة تنتمى إلى الطبقة الوسطى تسكن فى منزل ضيق لا حديقة له ومحاط بمنازل أخرى. وتعلق الكاتبة بقولها إن هذه الشابة تعيش راضية فى هذا السجن مثل العصفور فى القفص، وتستغرب من أنها ولدت ونشأت فى الأقصر، ولكنها لم تر الكرنك مع قربه من مسكنها؛ وحينما سألتها إن كانت ترغب فى مرافقتها إليه، ضحكت وهزّت رأسها. ترى إميليا إدواردز أن أسعد النساء فى مصر؛ هن فى الواقع زوجات الفلاحين اللاتى رغم فقرهن المدقع فإنهن على الأقل، يعملن بجد وهمة فى الحقول الواسعة فى الهواء الطلق تحت أشعة الشمس الساطعة!(١٤).

واضح أن هؤلاء السيدات اللاتى أبدين آراءهن عن الحريم الشرقى لسن سيدات عاديات جئن إلى مصر مع أزواجهن وأصدقائهن للتمتع برحلة نيلية، ومشاهدة الآثار الفرعونية التى فتنت بها أوربا فى بداية القرن التاسع عشر حين اكتظت القاهرة بالأوربيين من كافة البلاد وخصوصا من إنجلترا، وحين كان اللوردات وأسرهم يستأجرون «الدهبيات» الكبيرة ويبحرون بها إلى أسوان ووادى حلفا، يعيشون فيها وكأنهم فى ماى فير Mayfair بخدمهم وأطقم السفرة الفضية وصناديق كبيرة مليئة بالمأكولات من محل فورتنام وميسون -Fortnum And Ma

(١٤) Amelia Edwards, A Thousand Miles Up the Nile, London 1877.

son's في لندن[١٥]. إن السيدات أمثال هاريت مارتنو وفلورنس نايتنجيل وإمليا إدواردز من طراز آخر حتى في بلادهن، إنهن ثائرات على الأوضاع السائدة ويمثلن روح التجديد الذى بدأ يطغى على المجتمع الإنجليزى مع الثورة الصناعية التى شملت البلاد وأدت إلى تغير ملحوظ فى نظم الحياة حين اكتسبت العاملة فى المصنع شيئا لم تحظ به «سيدة» الأوساط العليا، ألا وهو الاستقلال المادى؛ صار للعاملة في المصنع مركز اقتصادى تحسدها عليه سائر النساء. كانت «السيدة» فى أوائل القرن التاسع عشر لا عمل لها سوى أن تنال رضاء الرجل الذى يقوم بالإنفاق عليها وأن تبلغ درجة الكمال التى يتطلبها عائل الأسرة من زوجته وبناته. ومع زيادة ثراء الطبقتين العليا والوسطى، زاد عدد النساء اللاتى لا عمل لهن سوى قراءة الشعر والروايات والزيارات والانغماس فى القيل والقال. ثم إن «السيدة» لم تشجع إطلاقا على ممارسة أية رياضة بدنية، اللهم إلا فن رقص الصالونات. كان على «السيدة» أن تصان وترفه قدر المستطاع، وانقطعت صلة سيدة الطبقة العليا عن الحياة ومشاغلها نظرا لزيادة ثراء الرجل. كانت المرأة تعتمد اعتمادا كليا على الرجل الذى يعولها إذ ليس لها أى حق فى الملكية الخاصة وكل ما تملكه من ميراث أو هبة من والديها، يصبح حينما يعقد عليها زوجها، حقا مطلقا له، يتصرف فيه كما يحلو له دون استشارتها أو حتى أخذ رأيها، ولم تتغير هذه الحال، إلا بصدور قانون ملكية المرأة المتزوجة عام ١٨٨٢[١٦].

هاريت مارتنو (١٨٠٢ - ١٨٧٦) كاتبة محترفة تضم أعمالها روايات وكتبا ومقالات فى التاريخ والاقتصاد السياسى - الاجتماعى والمسائل الدينية والرحلات، كما أن لها ترجمة لأوجست كونت Auguste Compte. كرست كل اهتمامها لقضية تحرير العبيد ورفضت رفضا باتا، نظرية التدنى الفطرى لبعض الأجناس؛ وقد رحبت حينما عرض عليها بعض الأصدقاء مصاحبتهم فى زيارة لمصر عام ١٨٤٦ إذ كانت مشغولة وقتئذ بدراسة الخلفية التاريخية والدينية للكتاب

(١٥) السفن السياحية النيلية من فئة النجوم الخمسة ليست بدعة حديثة!

(١٦) Married Women's Property Act. cf. Trevelyan, 4, pp. 49-56.

المقدس. كانت تعتنق مذهب اللا أدرية Agnosticism الذى شاركها فيه كثير من مفكرى القرن التاسع عشر. وكانت تزدرى كل من يأتى مصر للنزهة فقط «إذ إن خبرة هذه الزيارة تستحق الدراسة العميقة بما يشاهد فيها من عجائب». وحاولت أن تؤكد فى كتابها أن حضارة روحية متقدمة كانت معروفة على ضفاف النيل منذ ثلاثة آلاف سنة على الأقل قبل ظهور المسيحية. درست خلال رحلتها إلى مصر وسوريا وفلسطين الديانات المصرية القديمة واليهودية والمسيحية والإسلام وخرجت بنظرية التطور الدينى وأن كل عقيدة تضيف تبصرا جديدا لما قبلها. ولكن اهتمام مارتنو الأساسى كان بمصر القديمة وإن أعارت بعض الاهتمام لمصر المعاصرة. وفى فصل موجز من كتابها تشكو من انعدام أى معلومات أو إحصائيات يمكن الاعتماد عليها كما تلوم الإدارة المصرية على كثير من المساوئ السائدة. وبطبيعة الحال لم يرق لها نظام «الحريم» الذى لم تر فيه سوى نوع من العبودية وأن تعدد الزوجات مهين لكرامة المرأة؛ ورأت أن مثل هذه الحياة تبعث على الكسل الجسمانى والعقلى.

وفلورنس نايتنجيل (١٨٢٠ - ١٩١٠) جاءت فى زيارة لمصر بصحبة بعض الأصدقاء عام ١٨٤٩ لتستجم من انهيار عصبى انتابها بعد أن رفضت الزواج من شخص تعلقت به تعلقا شديدا ولكنها رفضت الزواج منه، كما تقول لأنها فزعت من قضاء بقية حياتها معه مثل ماضيها، كسيدة من علية القوم مرفهة منعمة. كانت تعانى من صراع داخلى فى نفسها بين ما ظنته مشيئة الرب ورغبات الشيطان. كانت ثائرة على الأوضاع الاجتماعية التى تحتم عليها نوعا من الحياة تراها تافهة لا معنى لها وتتوق للتحرر من القيود التى تفرضها عليها أسرة محبة ومجتمع لا يفهمها. تقول إنها وجدت الراحة النفسية التى تبحث عنها فى المعابد المصرية القديمة وأنها أثناء وجودها بين آثار القرنة فى غرب الأقصر، سمعت صوت الرب يناديها؛ وتكتب فى مفكرتها: «اليوم أتممت الثلاثين، وهو العمر الذى بدأ فيه المسيح رسالته. من الآن أترك الأشياء الصبيانية، فلا حب، ولا زواج، أفكر فقط فى مشيئة الرب». كانت مصر بالنسبة لفورنس نايتنجيل عتبة تتبلور فيها أفكارها وتتجاوزها لحياة جديدة ومختلفة كل الاختلاف عن حياتها السابقة. بعد مغادرتها لمصر بأربع سنوات، قامت حرب القرم، وكرست نايتنجيل حياتها

للتمريض رغم معارضة ذويها الذين لم يرضوا لها مثل هذه المهنة المحتقرة ولكنها اصرت وأبلت هي ورفيقات من مثيلاتها بلاء لا مثيل له ورفعت من شأن مهنة التمريض الى اعلى المستويات.

اما اميليا ادواردز (١٨٣١ ـ ١٨٩٢) فكانت كاتبة محترفة مثل هاريت مارتنو ومثلها ذات شخصية قوية. تعيش بقلمها الذى أعطاها استقلالا ماديا أغناها عن الحياة الزوجية التقليدية وأكسبها حرية مطلقة في التصرف. جاءت في زيارة إلى مصر وقامت بالرحلة النيلية المعتادة من القاهرة إلى أعالي الصعيد، ونتج عن ذلك كتاب يصف مشاهداتها، ولكن ما هو أهم هو أنها اكتسبت في هذه الرحلة ولعا بالآثار المصرية وانتابها خوف على مصير هذه الروائع التي سوف تنتهي إلى فناء إذا تركت وشأنها عرضة للنهب والسلب العشوائي. كانت تحزن للتدمير والتخريب الذي يصيب المعابد والتماثيل ولهذا حينما رجعت إلى إنجلترا أسست عام ١٨٨٢ بمساعدة ريجينالد ستيورات بول (ابن صوفيا بول) الذى كان يعمل بالمتحف البريطاني، «صندوق تمويل الكشف الأثرى بمصر»[١٧] وتركت كل اهتماماتها وكرست حياتها لجمع المال والمعونة للعناية والكشف الصحيح على أيدى خبراء مختصين، عن الآثار المصرية الفرعونية التى كانت تعتبرها تراثا لا لمصر وحدها بل للإنسانية جمعاء، ومن الضرورى إنقاذها بأى ثمن. تبنت الأثرى فلندرز بترى Flinders Petrie وساعدته بنفوذها. وحينما توفيت، أوصت بخمسمائة جنيه لجامعة لندن "University College, London" لإنشاء كرسى للآثار واللغة المصرية القديمة، وكان بترى أول أستاذ يعين، حسب رغبتها؛ وهذا أول كرسي في المصريات يؤسس في بريطانيا.

هؤلاء السيدات يختلفن اختلافا كليا عن صوفيا بول، التى كانت تمثل إلى حد كبير المرأة الإنجليزية العادية. ولكن المرأة الإنجليزية العادية في النصف الأول من القرن التاسع عشر لا تكتب كتبا تطبع وتنشر للقرأة العامة؛ المرأة الإنجليزية العادية لا تجرؤ أن تتحدى أصول اللياقة التى يفرضها المجتمع على المرأة المهذبة

---

(١٧) تعرف الآن باسم «جمعية الكشف الأثرى بمصر».

الصالحة. الكتابة معناها خروج المرأة من مكمنها إلى الصدارة وظهورها وسط الساحة أمام الجميع، وهذا لا يجوز في مجتمع محافظ مثل إنجلترا، يرى في المرأة - ولو نظريا - رمزا للبراءة والعفة، فهي ربة البيت، والزوجة المخلصة والأم العطوف الحنون، ما لها وللظهور أمام الجمهور. أما هؤلاء النساء الجريئات اللاتي يرغبن في الإفصاح عن آرائهن بالكتابة فعليهن أن يواجهن العاصفة ويتحملن المشاكل التي لا نهاية لها مع الناشرين أما إذا خانتهن الشجاعة اللازمة فباستطاعتهن أن يتوارين خلف اسم رجل كما فعلت چورج إليوت والأخوات برونتي و(چورچ صاند في فرنسا).

من ناحية أخرى بإمكان المرأة التي ترى في نفسها ميلاً للكتابة الأدبية، أن تختار نمطا من الأدب يعتبر ثانوياً في هذا المجال وهو كتابة المذكرات والخطابات، وكان وصف الرحلات يعتبر واحداً من هذا النوع، ولذلك نجد عدداً لا حصر له من هذه الكتابات بأقلام سيدات. كانت كتبهن تنشر وتقرأ على نطاق واسع ولكن الغالبية منها لم يعد طبعها وطواها النسيان[١٨]. يقول ستانلى لين - پول في مقدمة كتابه «القاهرة» عام ١٨٩٢ إن كتاب جدته «المرأة الإنجليزية في مصر» يكاد يكون منسيا رغم أنه ينقل صورة صادقة عن القاهرة وأهلها منذ خمسين سنة.

تنتمى صوفيا پول إلى هؤلاء السيدات الإنجليزيات اللاتى يحترمن التقاليد. كتبت كتابها عن مشاهداتها في مصر بما في ذلك زيارات عديدة لحريم الوالى محمد على باشا، ولم تكتب اسمها على غلاف الكتاب بل ذكرت فقط أنه بقلم «أخت إدوارد لين». ثم إنها أكدت في مقدمة كتابها أن أخاها هو الذى شجعها على الكتابة وكأنها تعتذر لخوضها هذا المجال[١٩].

وحدث الشيء نفسه بعد ذلك حينما صدر كتاب به صور فوتوغرافية

(١٨) عن كتاب الرحالات من النساء، انظر: Elaine Hobby, Virtue of Necessity 1988.

(١٩) من الطريف أن إليوت واربيرتون Eliot Warburton ذكر في كتابه «الهلال والصليب» لندن ١٨٤٤ ص ٧٠.

The Crescent and the Cross, London 1944 p. 70 أن صوفيا «رحالة مغامرة» A most enterprising traveller.

لفرانسيس فريث Francis Frith للقاهرة وسيناء والقدس وأهرام مصر، مع تعليق وشرح لكل صورة وكتب على الواجهة أن هذا الشرح بقلمي صوفيا پول وريجينالد ستيورات پول (ابنها)[٢٠]. وفي الكتابين اعتمدت على اسم وسمعة رجل، في الأول أخيها وفي الثاني ابنها.

ولدت صوفيا پول (١٨٠٤ - ١٨٩١) في هريفورد وهي صغرى أولاد ثيوفيلوس لين Rev. Theophilus Lane القس بإحدى الكنائس في هذه المقاطعة، وأمها، صوفيا جاردنر تنتمي بالقربى من ناحية الأم إلى الرسام المشهور جينسبورو Gainsborough وكانت سيدة لها شخصية قوية وذكاء لماح. تولت، بعد وفاة زوجها ١٨١٤ رعاية أولادها، ثيوفيلوس وريتشارد وإدوارد وصوفيا وكان البيت الذي يضم الأسرة، تسوده الأخلاق الحميدة والتقوى حسب تعاليم الكنيسة الإنجيلية. ولكن يبدو أن الأخ الأكبر صادفته مشاكل في شبابه جعلته يتصل برفاق سوء وأبعدته عن أسرته والدليل على ذلك رسائل خطية موجودة في مكتبة جامعة كمبردج، يخاطب فيها أخاه ريتشارد ويشكره على عطفه وتضحياته ويذكر أيام الصبا تحت رعاية أمهم الحنون. في خطاب آخر ينعي فيه وفاة الأم ويبعث بتحياته «للغالية جدا، صوفي»؛ وفي آخر يبدى قلقه لأنه لم يتلق رسالة من «صوفي» ويرجو أن تكونَ قد قررت أن تسافر إلى مصر مع «نيد Ned» أي إدوارد. كما يشكر على الهدايا التي بعثتها له «صوفيا» وأيضا «نفيسة»[٢١]. هنا يبدو أن الرباط الأسرى ظل قويا بين الأخوة حتى في ظروف غير مواتية.

تزوجت صوفيا عام ١٨٢٩ إدوارد ريتشاد پول الذي نال إجازة الحقوق من كمبردج (كلية ترينتي هول) ولكنه انخرط في سلك القساوسة وعين في كنيسة بلندن[٢٢]، حيث ولد أبناهما إدوارد ستانلي (١٨٣٠ - ١٨٦٧) وريجينالد

---

(٢٠) Cairo. Sinai. Jerusalem. and The Pyramids of Egypt: A series of sixty photographic views/by Francis Frith; with descriptions by Mrs poole and Reginald Stuart Poole. Pub. London, N.Y.: J.S. Virtue {1860} Loc: Harvard. Fine Arts: XCage XFA 10359. 393. 10 Folio. Photographs dated 187 5.

(٢١) Cambridge University Library, MS Add. 8843. Edward Lane Papers.

(٢٢) Venn. Alumni Cantabrigienses. Part 2. vol 5.

ستبورات (١٨٣٢ - ١٨٩٥) . كرس ستانلي لين پول ، ابن إدوارد ستانلي[٢٣] ، حياته مثل والده وخاله للدراسات العربية فأكمل عمل لين في القاموس بعد وفاته ، وكتب سيرته[٢٤] التي يقول فيها إن صوفيا قررت بعد وفاة والدتها ١٨٤١ ، أن تصحب أخاها وزوجته ومعها ابناها إلى مصر وأبحروا من لندن في أول يوليو إلى الإسكندرية . وجدير بالذكر أن كاتب السيرة يذكر أن «مسز پول كانت تعيش في السنوات الأخيرة بصفة مستمرة مع والدتها» ولا يورد أي ذكر لزوجها . ويكمل القول بأنها منذ أن رافقت أخاها إلى مصر «لم تغادره حتى وفاته» كما أن عدة مصادر رجعت إليها ، لم تشر إلى وفاة ريتشارد پول ، هذا بالرغم من تتبعي لتنقلاته العديدة في كنائس مقاطعات إنجلترا المختلفة في السجل الخاص بأسماء جميع القساوسة سنة بسنة "Crockford" ويبدو أنه لم يتعد كونه مساعدا للقسيس وآخر ذكر له كان عام ١٨٨٤ . وقد أشيع عنه أنه كان يدمن الشراب ، وربما كان هذا سببا في عدم وفاقه مع زوجته ، وكذلك في تنقلاته المستمرة دون الحصول على مركز مناسب لثقافته ومؤهلاته . كما يفسر تجاهل أسرته التام له ؛ إذ كان إدمان الخمر يعد في هذا العصر من النقائص الكبرى .

خلال الزيارة الثانية لمصر ، فكر لين في تأليف قاموس إنجليزي / عربي مستندا في ذلك إلى «تاج العروس» الذي جمعه السيد محمد مرتضى الزبيدي في القرن التاسع عشر ، وشجعه في هذا المشروع الضخم المكلف ، صديقه اللورد برودو Lord Prudhoe الذي أصبح فيما بعد الدوق نورثمبرلاند Duke Of Northumber-land وتولى الإنفاق على جمع المادة اللازمة في القاهرة وأيضا تكاليف طبع وإخراج هذا العمل الفذ ، بالإضافة إلى منحة سنوية قدرها ١٥٠ جنيها لمساعدة لين في إعالة أسرته . وتبع ذلك منحة سنوية قدرها ١٠٠ جنيه من الحكومة البريطانية من ميزانية «الخدمات الخاصة **Special Services**» .

---

(٢٣) نسى ابناه وسلالتهما لقب «لين» بالإضافة إلى لقبهم الأصلي «پول» .

(٢٤) Stanley Lane-Poole. Life of Edward Lane, prefixed to part VI of the Arabic-English lexicon. Published separately, London 1877.

وأعود إلى سيرة ستانلى لين - پول التى يقول فيها إن السنوات السبع التى قضاها لين وأسرته فى ثالث زيارة له لمصر ، كانت فترة سعيدة جداً - رغم العمل المتواصل فى القاموس؛ إذ نعم فيها بوجود زوجته وأخته وولديها اللذين أضفيا بهجة وشباباً على حياته ، حتى إنه سمح لنفسه ولأسرته برحلة إلى الأهرام ، دامت ثلاثة أيام ، وكانت النزهة الوحيدة التى قام بها خلال هذه الفترة . وحينما وصلت الأسرة إلى القاهرة ، أقاموا فى بادئ الأمر بمنزل القنصل العام البريطانى ، إلى أن وجد لهم «عثمان أفندى»[٢٥] منزلاً مناسباً لم ينعموا به كثيراً بسبب العفريت الذى يسكنه ، وقد أفاضت صوفيا فى ذكر هذه القصة فى رسالتين لها . ويذكر لين - پول المجتمع الذى اندمجت أسرة لين فيه ويتكون من الإنجليز المقيمين فى القاهرة ، أمثال مستر ليدر المبشر الإنجليزى وزوجته وكذلك الطبيب الإنجليزى الدكتور أبوت (الذى قام برعاية صوفيا ونفيسة ، حينما أصيبتا بالكوليرا وحمى التيفوس) والقنصل العام ولفيف من المهتمين بالشرق وحضارته وكلهم من الغربيين . وهنا نرى اختلافاً فى نطاق معارف لين عمن كان يصادقهم فى زيارتيه السابقتين ، كان معارفه يقتصرون وقتذاك على المصريين وعلى أمثاله من الأوربيين الذين يعيشون فى مصر عيشة أهلها ، وكان هذا ليتعرف على العادات والتقاليد من أفواه المصريين أنفسهم ، حتى إنه صادق من يسميه فى مقدمة كتابه «الشيخ أحمد» الذى يبدو من القصص التى يرويها عنه لين شخصاً مدّعياً وتافهاً ولكنه أفاده بمعلومات ضمنها كتابه عن عادات وتقاليد المصريين فى ذلك الحين؛ يقول لين - پول بصراحة «إن لين كان آنذاك كثير التردد فى أوقات الصلاة على المساجد ويتصرف مثل المسلمين ، وذلك لكى يكتسب ثقة من يريد الكتابة عنهم»[٢٦] . ولكن الأمر تغير حينما بدأ

---

(٢٥) كان جندياً سكوتلندياً يدعى ويليام تومسون ، اعتقل أثناء حملة ١٨٠٧ على مصر ، واعتنق الإسلام وصارت له مكانة مرموقة فى الأوساط التركية . كان على صلة وثيقة بأبناء جنسه ، يمهد لهم سبل العيش فى المجتمع المصرى ويقوم بكافة لوازمهم حسب قول لين ، كان يعمل بالقنصلية البريطانية . ولا شك أن «عثمان» كان له فضل كبير على لين فى جمع معلوماته عن أهل البلد .

(٢٦) Stanley Lane-Poole, Life of E.W. Lane, p. 131.

فى القاموس. إذ كان رفاقه إما من الإنجليز مثله أو مصريين من علماء وشعراء ومثقفى القاهرة. كما أن كثيرا من الرحالة ممن جاءوا لزيارة مصر أو من المارين فى طريقهم إلى الهند كانوا يحضرون مقابلات لين أيام الجمعة من كل أسبوع وهو اليوم الوحيد الذى كان يسمح فيه لنفسه بشىء من الترفيه ومقابلة الزوار، وكانت زوجته وأخته تقابلان الأوربيين وزوجاتهم وبعض الرحالة من السيدات أمثال هاريت مارتنو، فى غرف الحريم. أما الشيخ الدسوقى الذى كان يأتى كثيراً إلى منزل لين ليعمل معه فى القاموس. فيقول إنه لم يحظ أبدا برؤية امرأة من أهل البيت. وذاع صيت لين فى هذه الآونة وعرف الجميع أنه عالم قدير وله حظوة مع علية القوم فى إنجلترا وقد أوفد له محمد على باشا رئيس وزرائه، أرتين بك ليعرض عليه استعداد الحكومة لتقديم أى مساعدة يطلبها[٢٧].

لعلى قد أفضت فى الحديث عن إدوارد لين، ولكنى وجدت من المفيد أن أقدم خلفية للحياة التى كانت تعيشها كاتبتنا صوفيا. فنشأتها الأولى وتربيتها فى بيئة محافظة دينية تظهر واضحة فى رسائلها وهى تعكس الحركة الفكرية فى إنجلترا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر حينما تسربت، كما يقول المؤرخ ترڤيليان، نزعة قوية إنجيلية تبشيرية **Evengelicanism** فى مختلف طبقات المجتمع دون استثناء العليا منه (كرد فعل لاتجاه اليعاقبة **Jacobins** فى فرنسا الذى ينادى بالعقلانية دون الارتباط بالدين)[٢٨]. وتميزت الأسرة الفيكتورية بالتمسك الدينى القوى حسب تعاليم الكنيسة الإنجليزية البروتستنتية مع التقوى الشديدة والصرامة فى مراعاة المثل الأخلاقية العليا والفضيلة[٢٩]. وكان التعبير عن هذه

(٢٧) كان قد حظى بمقابلة محمد على باشا عدة مرات من قبل حينما كتب جزءا كبيرا عنه فى كتابه «وصف مصر» الذى لم ينشر. المخطوطة الأولى موجودة فى أكسفورد Bodleian Library, Departmet of Western Manuscripts. MS. Eng. misc. d 234. f.5

(٢٨) من الجدير بالذكر أن بعض مشايخ هذا العصر من المصريين لاحظوا الفرق بين الفرنسيين والإنجليز فى هذا المجال فيقول عنهم الجبرتى فى حوادث المحرم من سنة ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م: «الفرنساوية لا يتدينون بدين ويقولون بالحرية والتسوية. وأما هؤلاء الإنكليز فإنهم نصارى على دينهم ولا يخفى عداوة الأديان».

(٢٩) G.M. Trevelyan, Illustrated English Social history: 4, Pelican Books, 1964

المعنوى الدينية هو الاهتمام الدءوب بالخير العام والإصلاح الاجتماعى، ولم يقتصر الحماس التبشيرى على بعض القساوسة، بل تعداه إلى علمانيين من ذوى النفوذ أطلق عليهم أيضا اسم «القديسين Saints» مثل القساوسة المبشرين، وقد تبنى بعض منهم مثل ولبرفورس Willberforce وباكستون Buxton قضية تحرير العبيد، وأدى تأثيرهم إلى صدور قانون عام ١٨٣٣ بتحريم تجارة العبيد فى المستعمرات البريطانية. وهذا يفسر كره صوفيا الشديد لمجرد فكرة اقتناء العبيد، كما يفسر أيضا نظرتها التى قد تبدو متعالية على المجتمع المصرى، ولكن ذلك ليس نتيجة كبر أو عطرسة وإنما لأنها مقتنعة فعلا أن المصريين ومن شابههم من الشرقيين، مثل الأطفال بحاجة إلى من يتولى أمرهم ويهيمن عليهم ويقودهم إلى سواء السبيل[٣٠]. وتبدو صوفيا دائما كفاعلة خير، تحركها فى تصرفاتها عوامل إنسانية من العطف والشفقة. وهذه الظاهرة ليست غريبة على كتابات الرحّالة من الأوربيين فى القرن التاسع عشر، وقد أفاض المفكر القدير إدوارد سعيد فى شرحها فى كتابه «الاستشراق»[٣١]. فصوفيا ابنة عصرها وتعطى صورة واضحة لوجهة نظر الغرب بالنسبة للشرق بل وشعور الأوربى الدفين تجاه الشرقيين. وإدوارد لين نفسه - بالرغم من ملبسه وطريقة معيشته وانغماسه فى الحياة المصرية - مدرك تمام الإدراك أنه مختلف. ينتمى إلى مجتمع حضارى أرقى وأرفع من هذا المجتمع الشرقى الذى أغرم به. ولا شك أن صوفيا وإن كانت قد اعتنقت كثيرا من العادات الشرقية فى ملبسها وتصرفاتها وهى فى مصر، إلا أنها مازالت المرأة الإنجليزية التقليدية بمشاعرها وأفكارها وهى تظهر هذا بوضوح فيما تكتب.

وليس أدل على ذلك من موقف صوفيا تجاه أقباط مصر. تروى فى رسالة بتاريخ مارس ١٨٤٥، عن حالة وفاة فى منزل واحد من أغنى أغنياء الأقباط. تقول «لم يدر بخلدى أن أناسا من علية القوم فى الكنيسة القبطية لا يزالون فى ظلمات دفينة تسمح بمثل هذه التصرفات المفزعة الحمقاء». ولكنها تذكر مطمئنة، أن

(٣٠) هذه النظرة واضحة فى رواية «روبنسون كروزو» للكاتب دانيل ديفو (١٧١٩).

(٣١) Edward W. Said, Orientalism, Vintage Books, 1979

هناك من يسعى لتبديد هذا الجهل عن طريق المدارس التبشيرية التى توفر تعليما مسيحيا متحررا، وهى تضم عددا كبيرا من أطفال الأقباط بالإضافة إلى اليهود والمسلمين. وتنهى هذا الخطاب بقصة أم «عربية» تسببت بجهلها فى إصابة ابنها الصغير بالعمى وموته بعد ذلك؛ وتحمد الله على خلاص الطفل من عذاب أكيد إذا عاش وهو فاقد النظر. فأبناء مصر - فى نظر صوفيا - أقباط ومسلمون على السواء، فى ضلال مبين يعوزهم العقل المفكر الذى يهديهم سواء السبيل. وقد احتفظت فى أغلب الحالات بعباراتها كما هى، رغم حدّتها أحيانا وذلك لأنها تعكس تفكيرها وربما تفكير القراء الذين تخاطبهم وتظهر بجلاء نظرتهم المتعالية بصفة عامة. ولكنى فى بعض الحالات سمحت لنفسى أن أزيل من الترجمة بعض الألفاظ والعبارات التى تمس الدين وقد تجرح شعور المصريين من مسلمين وأقباط.

تقول صوفيا فى مقدمة كتابها، إن أخاها وضع تحت تصرفها مذكرات له غير منشورة لتقتبس منها ما تحتاج إليه؛ ولقد فعلت هذا، إذ نجد فقرات كبيرة من رسائلها تحوى معلومات مستقاة حرفيا من كتابات لين وغالبها من مخطوط «وصف مصر» الذى لم ينشر قط. ولقد تصرفتُ فى هذه الإضافات، فحيث وجدتُها مناسبة للموضوع المذكور وتضيف إليه جانبا مفيدا أو طريفا، تركتُها كما هى، أما إذا رأيت أنها ترهق الموضوع بتفاصيل لا داعى لها، فقد سمحتُ لنفسى بحذفها. وهذا ما حدث فى الفصل عن أهرامات الجيزة حيث أبقيتُ جزءاً يصف فيه لين أول اقامة له عام ١٨٢٥ فى إحدى المقابر وما صادفه من مغامرات. ومن الطريف أن النسخة الأولى لمخطوطة «وصف مصر» بها ملاحظات هامشية بالرصاص بخط لين لمساعدة صوفيا فى كتابتها إذ يقول «يمكنك إضافة هذه القصة مع البداية: أقام أخى، أثناء زيارة طويلة للأهرامات فى ١٨٢٥، بإحدى هذه المقابر .... ثم أكملى النص مع إبدال ضمير المتكلم، بكلمة أخى[٣٢]. وهذا يلقى الضوء على ارتباط لين بكتاب أخته.

---

(٣٢) BL. Add. MS. 34080, fol. 264. as quoted by J. Thompson in his article, E.Lane's "Description of Egypt" p. 574.

أما الجزء الذى حذفته، فيتضمن مقاييس الممرات العديدة فى الهرم الأكبر وما شابه ذلك من معلومات لا تفيد كثيراً إذ إن ما لدينا حالياً من مقاييس أكثر دقة، كما لا تمت بصلة لموضوعنا الأساسي. ولقد استغنيت أيضاً عن الرسائل المستقاة بالحرف الواحد من كتاب لين فى «وصف مصر» مثل الرسالة التى تتحدث عن تاريخ مدينة القاهرة وأخرى عن تاريخ مصر من الفتح العربى حتى عصر محمد على، وكذلك الرسالة التى تتضمن وصفاً لتُربة مصر وفيضان النيل والتى تصف المناخ والرياح وريّ الأرض ومواعيد زراعة النباتات المختلفة، وكلها بقلم إدوارد لين وهى جافة إلى أقصى حد، ليس بها أى عنصر ذاتي أو إضافة شخصية. ولقد حذفتُ أيضا رسالة يصف فيها لين مقابلة أجراها بعض معارفه من الإنجليز مع ساحر دجال وكيف تمكنوا من إزاحة النقاب عن جهله وغشه. ورأيتُ أن حذف هذه الرسائل المقحمة أصلاً، لن يسئ إلى الكتاب بل بالعكس. سوف يُبقى على وحدة النص من حيث الموضوع وأسلوب الكتابة.

وتذكر صوفيا أنها حينما تزور حريم علية القوم، كانت ترتدى الزى الإفرنجى بدلا من التركى الذى ترتديه عادة فى المنزل وخارجه، وذلك لأنها كما تقول، تحظى باحترام أكثر. وهذه ظاهرة لاحظها غيرها من الرحالة وتبين تغيراً واضحاً فى النظرة التى طرأت على المجتمع المصرى. ففى عام ١٨٢٥ حينما جاء لين إلى مصر لأول مرة، لاحظ أنه بملابسه التركية وشكله الذى يشبه الأتراك، يفرض على المجتمع المصرى احتراما لا يناله إذا ما ظل بمظهره الأوربى. ويذكر الرحالة هنرى وستكار Westcar سنة ١٨٢٤ الملاحظة ذاتها، إذ يقول إن الذى يلبس الزى الإفرنجى يعامل بجفاء وخشونة ولكن إذا ارتدى الملابس التركية وسار فى الشارع وحامل نرجيلته يخطو أمامه، يلقى معاملة مختلفة من «العرب»؛ فالجميع يفسحون له الطريق، والجالس يقوم ويحييه باحترام[٣٣]. وقد طرأ اختلاف بيّن فى بحر عشر سنوات، إذ نرى لين يكتب عام ١٨٣٤ فى مفكرته الخاصة، محاولته ألا يبدو تركياً بسبب ملبسه وذلك لأن «الأوربيين يلقون الآن فى مصر، احتراماً أكثر»[٣٤] ثم

(٣٣) J. Thompson, Of the Osmanlees, or Turks, p. 21.

كشط كلمة «احتراما» وجعلها «حماية». ومثل هذه الملاحظات تلقى ضوءاً على تغير الوضع بالنسبة للأوربيين والأتراك بسبب سياسة محمد على باشا الخارجية. وبالمثل، نجد أن صوفيا تلقى احتراما أكثر حينما تزور الحريم العالى بملابس أوربية (فبراير ١٨٤٣). ومن الملاحظ أيضاً أن «نفيسة»، زوجة لين لا ترافق صوفيا فى زياراتها هذه، فهى رغم مكانتها الراهنة، لا تعدو أن تكون الجارية السابقة التى تباع وتشترى فى سوق العبيد، وعلى هذا فغير لائق أن تجلس مع «الأسياد».

وقد استطاع لين فى كتابه عن عادات وتقاليد المصريين فى أوائل القرن التاسع عشر أن يترك للأجيال اللاحقة صوراً عن ماض كان لا يزال يمثل بقايا مجتمع العصور الوسطى الذى ما لبث أن اندثر تماماً لما لحقه من «جنون» التجديد ومحاكاة كل ما هو أوربى. ولكن لين لم يستطع أن يقدم صورة كاملة؛ إذ إن هناك خبايا لا تراها إلا امرأة، وهذا ما فعلته شقيقته؛ لقد أكملت صوفيا صورة أخيها وأضافت جانبا مهما جدا لكتابه عن المجتمع المصرى فى ذلك الحين. ومن البديهى أن كل صورة يقدمها إنسان لابد أن تتأثر إلى حد ما بشخصيته وذاته وبعوامل أخرى تسيره، وهذا ما حدث مع كاتبينا، بدرجة أكبر لدى صوفيا وأقل لدى أخيها.

تقدم صوفيا صوراً صادقة للمجتمع القاهرى، وبالذات الجانب النسائى منه دون تكلف أو رياء. كما تبدى آراءها بلغة توحى بالصدق، فهى تارة تمدح وتارة تلوم وأحيانا ليست بالقليلة، تكون متأثرة بخلفيتها وتربيتها، ولكن فى كل المواقف تتسم بالصدق، وهذا يسهل على القارئ مهمة الوصول إلى الحقيقة. فهى تصف القاهرة فى الأربعينيات من القرن التاسع عشر من وجهة نظر امرأة غربية تعلمت من أخيها أن تلاحظ كل ما هو مهم وطريف. تطوف القاهرة فوق حمارها وهى ملتفة بملابسها الشرقية التى تخفيها كلية ما عدا عينيها؛ تجول بهما هنا وهناك، تلاحظ وتسجل فى ذاكرتها ثم على الورق؛ الشوارع بما تحتويه من عناصر بشرية وغير بشرية، الأسواق، المساجد والمارستان، القلعة والمواكب الخاصة والعامة التى تطوف بالعاصمة، وبالطبع، تأخذنا أيضاً داخل بعض مساكن الطبقة

---

(٣٤) Ibid. p. 25. n. 26. MS. diary. 35 GIA.

الوسطى من المصريين لنرى معها كيف تعيش النساء وما هي أحوالهن.

وبعد أن تتقن التفاهم باللغة العربية، تقتحم الحريم العالى. صحيح أن العنصر السائد فيه هو التركى، ولكنها تعرف أن أغلب السيدات ثنائيات اللغة، ينطقن بالعربية والتركية. تقول إن الفضل فى دخولها حريم الوالى، يرجع إلى صديقتها مسز ليدر، زوجة المبشر الإنجليزى فى القاهرة والتى لها حظوة لدى سيدات الحريم العالى. ونرى صوفيا دائما بصحبة هذه الصديقة فى زياراتها لحريم محمد على سواء بقصر الدوبارة أو بالقلعة أو فى الاحتفالات بمناسبة زفاف زينب هانم، صغرى بنات الباشا. ولكننا نسمع من صوفيا أن هناك دائماً عناية مميزة تختص هى بها دون غيرها - وذلك ليس بالطبع لمركزها الاجتماعى فهى لا تنتمى لأسرة أرستقراطية - ويبدو هذا واضحا حينما يسمح لها هى بمفردها أن تتأمل المجوهرات والتحف الثمينة التى أهديت للعروس. ولا تذكر صوفيا السبب لهذا الشرف الذى اختصت هى وحدها به وتترك القارئ يظن أو لا يظن ما يشاء. يبدو لى أن السبب فى ذلك واضح وهو أنه كان معروفا أنها أخت الكاتب الكبير إدوارد لين الذى كان قد قابل الوالى عدة مرات ليكتب عنه ولا شك أنه قد ذاع أن أخته سوف تكتب كتابا عن الحريم. وكان محمد على يحرص أشد الحرص على أن يبدو بصورة مبهرة فى أعين الغربيين، صورة تظهره مجددا وعصريا[٣٥]، ولذلك حرصت نساء الوالى أن يقدمن لصوفيا كل ما يسرها وكشفن لها عن كل شيء مبهر؛ وهى من ناحيتها لم تسمح لنفسها أن تورد إلا ما هو جدير بالذكر والإطراء ،كما حرصت أن يكون وصفها لأفراد أسرة الوالى مجملا دون تفصيل دقيق وذلك مراعاة لأصول اللياقة (سبتمبر ١٨٤٣). فحينما تصف نظلة هانم[٣٦] تذكر أنها شديدة الشبه بوالدها وبالذات بالنسبة لعينيها ذات النظرات الفاحصة اللماحة وتمتدح ابتسامتها المشرقة، وصوفيا فى هذه المناسبات مجاملة إلى أقصى حد (يناير ١٨٤٤). وهى تشيد دائما بفضل محمد على وتمتدح تسامحه الدينى واستتباب الأمن فى البلاد تحت ولايته. ومن الواضح

---

(٣٥) حذا حذوه حفيده إسماعيل باشا الذى استضاف الكاتبة الألمانية لويز مولباخ Louise Muelbach التى نشرت كتاب «رسائل من مصر» عام ١٨٧٠ تشيد فيه بفضل محمد على وإسماعيل.

(٣٦) يذكر الجبرتى (المحرم ١٢٢٩هـ/ ديسمبر ١٨١٣م) فى وصف زفاف نظلة هانم على محمد بك الدفتردار، «ما قدم إليها من الهدايا والأمتعة والجواهر والتحف من الأعيان

انها حريصة لا تريد أن تسبب لنفسها ولا لأخيها أى مشاكل لدى السلطات (كما حدث بعد ذلك للكاتبة لوسى دالف جوردون Lucie Duff Gordon حينما تبنت قضية «أهل البلد» الذين يساقون بالسخرة لحفر قناة السويس) .

ومن المعضلات التى صادفتنى كمترجمة ، أن صوفيا وبالطبع لين من قبلها ، يشيران دائما إلى «مسجد الحسنين» وصوفيا تؤكد ذلك فى حاشية لها (نوفمبر ١٨٤٢) حيث تشير إلى أن «الحسنين ، هما الحسن والحسين ، حفيدا الرسول» . ولم يسعفنى بعض من استشرتهم من المطلعين فى هذا المجال الذين أكدوا ما جاء فى المصادر التى لجأت إليها (أهمها المقريزى والجبرتى) وهى تشير دائما إلى «مشهد أو مسجد الحسين» أو «المشهد الحسينى» . ولكن لين حجة لا يستهان به والشيء المحير فعلا هو لماذا استخدم لين هذه التسمية ؟ وما مصدره ؟ حاولت أن أعثر على الإجابة فى كتابه «المصريون المحدثون» ولكن دون جدوى .

شيء آخر سبب لى بعض الأرق ، وهو أن صوفيا تشير فى وصفها لقصر القلعة أثناء الاحتفالات بزفاف زينب هانم ، أن بعض أجزاء أرضية الصالونات غطيت «بالحصر» وهذا يتنافى وفخامة المكان وذوقه الرفيع الذى تكرر ذكره باستمرار ، والمؤلفة مع هذا تشيد بالسجاد التركى الذى يكسو غرفة نظلة هانم فى قصر الدوبارة (يناير ١٨٤٤) ، بل تذكر أيضا السجاد الرائع الموجود فى صالونى مقابر أسرة محمد على (فبراير ١٨٤٤) . وتفسيرى لهذا التناقض البين ، هو ربما ، أن السجاجيد الثمينة أزيحت مؤقتا ريثما تنتهى الاحتفالات وينقطع سيل الحشود من

وحريماتهم . . . حتى من نساء الأمراء المصريين المنكوبين ! (أى المماليك بعد مذبحة القلعة ١٨١١م) وقد تكلفوا فوق طاقتهم ، وباعوا واستدانوا وغرموا فى النقوط والتقادم والهدايا . . . ما أصبحوا به مجردين ومديونين . وكان إذا قدمت إحدى المشهورات منهن هديتها ، عرضوها على أم العروس ، التى هى زوجة الباشا ، فقبلت ما فيها من المصاغ الجوهر والمقصبات وغيرها . . فإن أعجبتها تركتها ، وإلا أمرت بردها قائلة : «هذا مقام فلانة التى كانت بنت أمير مصر ، أو زوجته ؟ !» فتتكلف المسكينة للزيادة ونحو ذلك . مع ما يلحقها من كسر الخاطر وانكساف البال . . . » وقد أوردت هذا النص مطولا لما يظهر فيه من تعسف وجبروت محمد على تجاه زوجات المماليك . وقد يفسر هذا تصرف نظلة هانم المتعجرف تجاه السيدات اللاتى جئن (مرغمات) لأداء فروض الولاء والطاعة فى رابع يوم العيد . ولعل صوفيا لم تدرك هذا الموقف الدقيق ولكنى استبعد أن يكون لين غافلاً عنه .

النسوة الوافدات من كل حدب وصوب. ولكن من ناحية أخرى، نجد أن لين يذكر في مخطوطته «العثمانيون في مصر»، عن القصور، أنها كثيراً ما تضم في داخلها، مزيجاً غريباً من الإسراف والتقتير الشديدين في وقت واحد![37] ظاهرة محيرة فعلاً!

لا أريد أن أرهق القارئ بمزيد من المشاكل التي صادفتني وأشعر أني أثقلت عليه بهذه المقدمة الطويلة التي يمكن أن يتغاضى عنها ويقدم على قراءة ما هو أجدر وأهم وهي رسائل «شقيقة إدوارد لين» التي عشتُ معها حقبة طويلة، قادتني إلى مجالات غنية في تاريخ مجتمع بلدنا أوشكت أن تندثر. آخر ما أود ذكره فيما يخص كتاب «المرأة الإنجليزية في مصر»، أنه حينما وصلت القاهرة أول نسخة للجزء الأول منه، سببت إحباطاً لصوفيا وأخيها! أولاً، لأن الناشر قد غيّر عنوان الكتاب الذي كانا قد أسمياه «رسائل من حريم إنجليزي في مصر»[38] وثانياً، لأن خلطاً قد حدث في الصور وثالثاً، لأنهما وجدا بعض الغلطات والملاحظات التي كان بإمكانهما تداركها لو أتيح لهما مراجعة النص قبل نشره[39].

تُرى هل زدت عليهما خيبة الأمل بتغيير عنوان الكتاب مرة ثانية؟ ربما... ولكن، ما هو أهم، هل كان لين سيغفر لي حذفي لفصول كاملة من مخطوطة كتابه «وصف مصر» الذي طالما تمنى أن ينشره كاملاً أو أجزاء منه؟ أرى أنني بتعديلي هذا قد خيبت بعض أمله وجعلت العمل خاصاً بصوفيا وحدها، تقدمه في كثير من الأوقات وتكمل كتابه عن المصريين المحدثين ولكن... ليست كتابعة له. وفي هذه الحال يحق أن يوضع اسمها على الغلاف بشخصها، دون أن تتوارى خلف شقيقها، إدوارد لين.

عزة كرارة

---

(٣٧) Thompson, "Of the Osmanlees, or turks" An Unpublished Chapter from Edward Lane's Manners and Customs... p. 34.

(٣٨) إن تسمية لين وصوفيا للكتاب، في الواقع، أكثر طرافة وجاذبية، ولكن يبدو أن الناشر فضل الاسم الذي يعكس الجو السياسي الاستعماري في إنجلترا في ذلك الحين، وكأن عينيه تنظران إلى فرصة احتلال مصر سنة ١٨٨٢.

(٣٩) خطاب لين بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٨٤٤. Bod.Lib.Ms Eng.lett.d 165,fols. 149-50.

مقدمة

المؤلفة

كانت الرغبة فى اختصار فترة الفراق بينى وبين أخى المحبوب، هى أول وأقوى سبب دفعنى للتفكير فى مرافقته إلى البلد الذى أكتب منه الآن والذى كان قد عزم على زيارته للمرة الثالثة. ومما زاد هذه الرغبة فى نفسى، تلهف أثارته كتاباته فلم يحتج الأمر إلى إقناع كثير حتى اتخذت قرارى؛ وما إن تبلورت الفكرة حتى وجد أخى حججا عديدة تعضدها. فسوف تكون فرصة أحظى فيها بالتعرف على طريقة حياة نساء الطبقات العليا فى هذا البلد ومشاهدة أشياء كثيرة مثيرة فى حد ذاتها لا تتاح فرصة رؤيتها إلا لامرأة. وقد أوحى ذلك إليه بفكرة جمع معلومات ذات طابع فريد وطريف تشبع فضولى من ناحية، ومن ناحية أخرى، يمكننى كما اقترح، أن أضمها فى كتاب على شكل خطابات شخصية لصديقة. وعلى سبيل التشجيع لى فى اتخاذ هذه الخطوة، وضع تحت تصرفى مجموعة ضخمة من مذكراته غير المنشورة التى يمكننى أن أقتبس منها ما أريد وأضمه لرسائلى؛ ولكى يخفف من رهبتى فى الكتابة للنشر ويهوّن علىّ تدوين انطباعاتى وملاحظاتى دون تقيد وحرج، وعد بأن يختار بنفسه الخطابات التى يراها صالحة ويعدها للطبع. وهذه المجموعة من الخطابات المقدمة من اختياره وأخشى أن يظن القارئ أن عاطفته نحوى قد أثرت فى حكمه، ولكن يحدونى الأمل فى أن تلقى حسن القبول لما تتضمنه من مادة قيمة من قلم إنسان تكاد تكون مصر مألوفة له مثل ألفته لإنجلترا.

صوفيا پول



شكر وإهداء المترجمة

فى إحدى أمسيات السبعينيات من هذا القرن، جمعنا مجلس مع الصديق العزيز المغفور له الأستاذ أمين مرسى قنديل، مدير دار الكتب آنذاك، أذكر أننا تجاذبنا أطراف الحديث فى شتى الموضوعات من بينها الترجمة والكتب المترجمة؛ حينذاك تفضل الأستاذ الجليل وقدم لى كُتَيباً صغيراً طوله ١٥ سم وعرضه ١٠ سم ويحتوى على ٢٤٧ صفحة من الورق الرقيق الأصفر طبع بأحرف صغيرة جداً. كان الكتيب طبعة فيلادلفيا لعام ١٨٤٥ . قال لى الأستاذ قنديل وهو يناولنى إياه: «خذى هذا وترجميه فهو يستحق الترجمة».

ومرت الأيام والسنون وشغلت عن الكتيب بأمور الحياة، حتى جاء يوم كنت أصنف فيه الكتب التى اكتظت بها مكتبتى فعثرت على الكتيب القديم الذى كان قد أهداه لى الأستاذ قنديل. بدأت أقرأ فيه فوجدت مادة غنية تضفى ضوءاً على حياة الحريم أيام محمد على باشا، وتذكرت وعدى القديم للصديق الكريم وظلت فكرة ترجمته تراودنى من حين لحين، ولكن الانشغال الدائم الذى لا ينقطع، منعنى من الشروع فى العمل، وفى التسعينيات من هذا القرن بدأت أكرس بعض الوقت لترجمة الكتيب وظللت مثابرة حتى أتممته أخيراً.

إلى ذكرى مرسى بك قنديل، أهدى إليه شاكرة، كتابه باللغة التى أرادها، العربية.

مارجوت، غامرت وجاءت إلى مصر بعد مائة سنة من زيارة إدوارد لين الأولى لها؛ ولكنها أكملت فيها رحلة حياتها، عشقت مصر وأحبت أهلها وكانت تمنى نفسها دائماً أن تكتب مذكرات تصف فيها تجاربها. إلى ذكراها أقدم ترجمتى هذه.

محمد عبد الحليم كرارة، أديباً وشاعراً، وطنياً، فخوراً بمصريته؛ غرس فى بنتيه منذ الصغر، حب مصر وحب اللغة العربية التى نقل إليها روائع الشاعر

الألمانى الكبير جوته بالشعر العربى المقفى الرصين (فاوست بجزأيه وإفيجينيا فى طوروس). كانت تراجمه دقيقة وحساسة. إلى ذكراه أقدم ترجمتى هذه.

هند كرارة، أستاذة اللغة العربية، كانت خير معين ومشجع لى طوال فترة الترجمة. غاصت معى فى بحور القرن التاسع عشر بكل حماس وشغف وكانت يوماً بيوم أثناء فترة الترجمة، تسأل عن مغامرات صوفيا وعن جولاتها فى أنحاء القاهرة. إليها وإلى زوجها الدكتور إبراهيم شعلان، أتقدم بخالص الشكر على ما بذلاه من مجهود فى مراجعة النص.

محمد علوان، معجزة فى عالم الكمبيوتر، ألجأ إليه كلما «عصلج» جهازى وانتابه ما يصيب مثل هذه الأجهزة الإلكترونية من «عسر هضم» وفى لمح البصر، بمقدرة سحرية يداوى الجهاز مما ألم به من وعكة، إلى المهندس محمد علوان، أتقدم بوافر شكرى وعرفانى بالجميل.

أخيراً وليس آخراً إلى مصطفى، المراجع والناقد والملهم، أدين إليه بكل شىء، فالفضل والشكر له دائماً، على كل شىء.

أشعر ببعض الأسى لأنى لا أستطيع أن أشكر - كما كنت أود - السيدة كاثرين دوبرى ابنة أوستن لين - پول بن ريجنالد لين - پول بن إدوارد ستانلى پول بن صوفيا پول التى قابلتها فى أكسفورد حيث تقيم، وطلبت منها بعض المساعدة بالنسبة لسيرة جدتها الأولى وأخبرتها بأنى بصدد إتمام ترجمة لكتابها إلى اللغة العربية ونشرها فى مصر، وظننت أنها سوف تُسر لهذا النبأ خصوصاً وأن النسخة العربية لن تكون مجرد ترجمة لهذا الكتاب فحسب، بل ستكون أيضاً أول إعادة نشر للكتاب الأصلى الذى طبع ١٨٤٤ - ١٨٤٦. وعَدَتْ ثم تراجعت، ولعل لديها أسباباً لذلك.



الرســـالة

الأولى

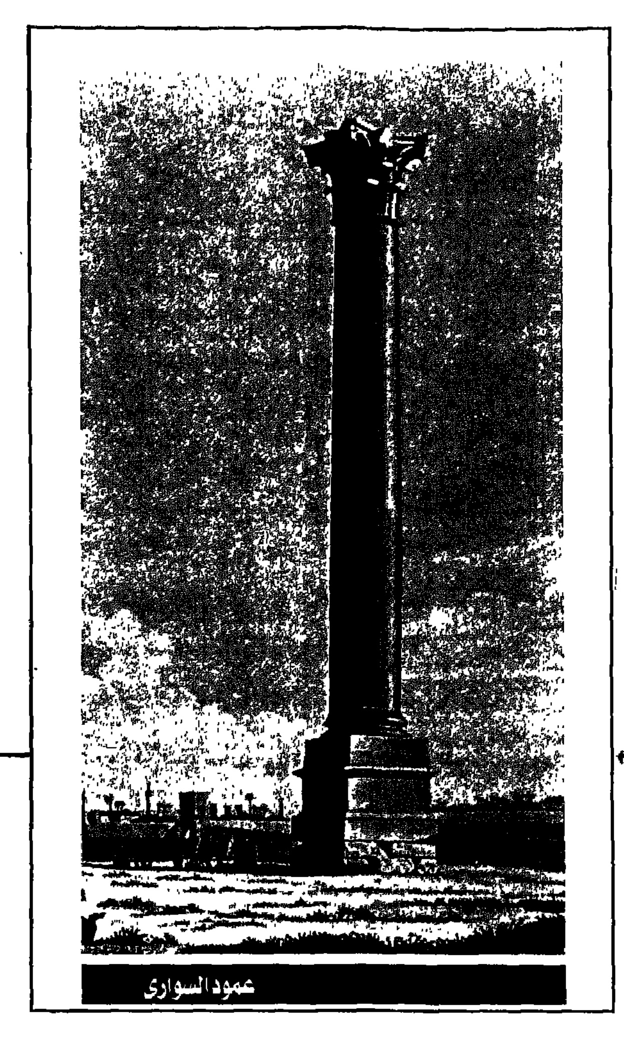
الوصول إلى الإسكندرية ووصف المنظر العام للمدينة

الاسكندرية،
يوليـــو ١٨٤٢،

صديقتى العزيزة،

إن نعـمــة دخـول الميناء بعـد نهـاية أول رحلة طويلة تحرك فى النفس مشاعر عميقة بعيدة الأثر كـمـا تمثل بلا شك حـقـبـة مـدهشـة فى حـيـاة كل مـسـافر. ظللت أنا و ابناى[١] من الصباح البـاكـر ندقق النظر بلهفة، وساحل مصر المسطح الوتير يمتد أمام أعيننا لنرى واحدة أو أكثر من تلك المعالم التى طالما سمعنا أو قرأنا عنها فقط حتى الآن. وكان أول شيء لحناه، هو برج العرب القائم فوق ربوة صغيرة، وبعد هنيهة رأينا الفنار الجديد

(١) إدوارد ستانلى پول وريچينالد ستيورات پول.



عمود السوارى

على شبه جزيرة فاروس. وجيشا من طواحين الباشا التى دلت على اقترابنا من الإسكندرية، وكذلك بدا العمود (الملقب عادة باسم پومپى) وكأنه يرتفع من الخليج. يعرض الشاطىء للبحر الأبيض المتوسط ساحلا رمليا منبسطا طويلا موحش المظهر عامة وخصوصا بالقرب من الإسكندرية، إذ لا نرى غرب هذه المدينة سوى مسطح من الصخور والرمال الصفراء الجيرية مع وجود بعض أشجار النخيل المعوقة النمو التى ربما تزيد من وحشة المنظر العام.

المرفأ القديم أو الغربى[٢] (المسمى قديما بميناء العَوْد الحميد) أعمق وأكثر أمنا

(٢) ساد منذ نهاية القرن الثامن عشر إطلاق «الميناء الجديد» على الميناء الشرقى الذى عرف =

من المرفأ الجديد (المسمى بالميناء الكبير). أما الأول الذى كان فيما مضى قاصرا على سفن المسلمين فقد فتح الآن لاستقبال سفن جميع البلدان، فى حين أن الآخر الذى كان يعتبر ميناء للكفار يكاد يكون مهجورا. وتعرقل الدخول الى المرفأ القديم، كتل من الصخور تخترقها ثلاثة ممرات طبيعية، الأوسط منها أكثرها عمقا ؛ كما تسبب الصخور هياجا شديدا فى البحر، عانينا جميعا منه، و أنا خاصة. ولا يمكننى أن أصف لك مدى الراحة التى شعرت بها حينما وطأت قدماى أرض الساحل بعد أن عبرنا مياه الميناء الساكنة. وهنا رأيت لتوى الكثير الذى يستحق الذكر، ولهذا سوف أسمح لنفسى بكتابة خطابين أو ثلاثة قبل وصولنا إلى القاهرة التى لم يتأثر المجتمع العربى فيها بالمستحدثات الأوربية، حيث أرجو أن أحظى بمشاهدة الكثير مما يهمك فيما يتعلق بالأحوال الشعبية للمجتمع النسائى. لن أذكر الكثير عن فئة الرجال من الشعب حيث إن أخى قد قام بوصف شامل لهم شهد على صحته الكثيرون الذين لا يشتبه فى تحيزهم له، كما قد تكون الحال بالنسبة لى، بصفتى أخته.

ولكن الاسترسال في سرد طريقة رسوّنا و المشاحنات المتعددة والعنيفة من قبل المراكبية العرب[٣] لنقل مجموعتنا، وأيضا الاستقبال اللطيف الذى قوبلنا به فى بيت المكوس وسعادتنا حينما تمتعنا بالهدوء والراحة فى فندقنا، كل هذا سوف يُؤجِل الخوض فى مواضيع أكثر أهمية، وأنا متلهفة لوصف الناس الذين أحاطوا بنا والشوارع والأزقة المفعمة بالضوضاء والضجيج التى مررنا بها. أما الطرقات المؤدية الى حى الفرنجة الذى كنا نقصده، فضيقة بدرجة تجعل اعتراض أى شيء لنا أمرا مرعبا حقا. وقد استطاع الاهالي، بسبب هذا الضيق أن يمدوا الحصر فى حالات كثيرة من فوق أسطح المنازل عبر الطريق طلبا للظل، مع ترك فتحات صغيرة هنا وهناك لدخول الضوء، ولكن أطراف هذه الفتحات غالبا ما تكون ممزقة فتتدلى أجزاء الحصر المقطوعة إلى أسفل، وباختصار فالمنظر العام كئيب وبائس جدا. ولكن لا ينبغى أن أشكو من ضيق الطرقات إذ إن فى بعض الأماكن التى لا تحجب الحصر فيها وهج الشمس نجد ظلا وارفا بسبب طريقة بناء المنازل، وهذا شيء

قديماً بالميناء الكبير، وتسمية الميناء القديم على الميناء الغربى الذى عرف قديماً باسم «العَوْد الحميد» وفيه أنشأ محمد على ميناءلسفنه الحربية. وبعد ذلك سمح لسائر السفن بالدخول إليه فى وقت كتابة الرسالة.

(٣) غلب على الأجانب فى هذا العصر أن يطلقوا كلمة «العرب» على الأهالى من المصريين.

مرغوب فيه جدا فى هذه البلاد المشمسة. و فى الواقع، لم نجد ما نهنئ عليه أنفسنا كثيرا حينما وصلنا إلى حى الفرنجة الذى يكاد يبدو أوربيا فى ظاهره، وحيث التناقض واضح بينه وبين المنطقة العربية من المدينة بشارعه الواسع وميدانه الفسيح الجميل، ولكن القيظ فيه على أشدّه فأسرعنا إلى فندقنا، ونعمنا بنسيم كان يسرى خلال الحجرات. و قيل لى إن كثيرا من الناس يفضلون مناخ الإسكندرية على القاهرة ويذكرون أنه أصح، ولكن قاهريا أكد لى خطأ هذا الادعاء إذ إن الجو قد يكون بالفعل أقل حرارة، ولكنه شديد الرطوبة، ورغم أن السكان ينعمون بنسيم البحر، إلا أن هذا الترف لا يخلو من بعض المنغصات.

لكن دعينى أخبرك عن العنصر البشرى، حيث لم يبدُ لى فى أول وهلة سوى عظماء أجلاء فى شتى الحلل البهية يتكاتفون مع شحاذين بؤساء، تكتظ بهم الطرقات الضيقة حتى بدا كأنهم مجتمعون لاحتفال عام. ولكننى حينما دققت النظر، وجدت أن هناك اختلافات عديدة فى أسلوب الملبس بين الطبقات الوسطى والعليا، وبصفة عامة نجد أن للشرقيين (حتى الخدم ذوى الملابس الحسنة) طريقة متميزة وحضور مترفع يجعل الأوربى الذى يلمحهم لأول مرة بملابسهم الفضفاضة ويلاحظ طريقة تصرفهم، يحتار فى وضعهم الاجتماعي. أعتقد أننى قد شاهدت هنا أفرادا من معظم أقطار البحر المتوسط، ويصعب علىَّ أن أنقل لك تصورا كاملا لمثل هذا المشهد؛ فالفارق شاسع بين الملابس الغنية المبهرجة للطبقات العليا وبين الأردية المهلهلة للفقراء الحفاة، كما أن كثيرا من الصبية ممن تجاوزوا مرحلة الطفولة، فى حالة من العرى التام، وهو أمر فى غاية الغرابة. ولقد تأثرنا تأثرا شديدا للعدد الكبير من الأشخاص المصابين بالعمى الجزئى أو الكلي، وخصوصا الكهول منهم، ولكن أسعدنا الاهتمام الواضح الذى يلقونه من الجميع ليفسحوا لهم الطريق. ويخيل لى أن كل من زار هذه البلاد قد لاحظ الاحترام البيّن الذى يُكنه الصغير للكبير، وأن هذا الاحترام لا يُفرق بطبيعة الحال بين الشحاذ والأمير، إذ إنهم شبوا على الاعتقاد بأن الشرف فى «الرأس الأشيب»، وهذا الشعور الجيد ينمو حينما يشتد عودهم، ويؤثر تأثيرا حميدا فى سلوكهم. أما الأطفال الصغار المساكين فيبعثون فى قلبى الألم و الحزن برؤوسهم المدلاة فى ضعف وأطرافهم الهزيلة التى تظهر بوضوح أن نهاية شوطهم فى الحياة قد قرب،

كما تحزنني رؤية أمهاتهم الحانيات عليهم دون أن يدركن ما ينتظرهن من أحزان في المستقبل. وقد ترين من هذا أنني لا أتوقع أن يتخطى مرحلة الطفولة سوى القلة من هؤلاء، وأنت على صواب في هذا إذ لا يمكنني أن أرى هذه المخلوقات الصغيرة وأتخيل أنهم سوف يبقون على قيد الحياة، ويتخطون أخطر مرحلة للنمو هنا ء وهي فترة التسنين. لعلني كنت قليلة الحظ حين لم أشاهد من بين الجموع الغفيرة من الأطفال الذين مررنا بهم في الطريق سوى اثنين فقط استطاعا رفع رأسيهما بطريقة مستقيمة، وفي الواقع رأيت أن كل الأطفال في حالة سيئة جدا، إذ تعلو سمرة بشرتهم مسحة من بياض تشبه مرض الجذام، كما أن حالتهم العامة تتسم بالكآبة والتراخي والصبر على البلوى، تأثرت لهذا تأثرا عميقا.

من دواعي الأسى أن نرى أشد حالات الفقر واضحة جلية في الطبقات الدنيا، كما دهشت لمظاهر الكسل و التراخي لدى طبقة العمال، ولكن قيل لي إنهم عند العمل يفوقون غيرهم نشاطا وقوة احتمال. ولعلهم في هذا يشبهون جمالهم الصبورة في طبعها مع الفارق أن هذه كثيرا ما تزمجر إذا زادت الحمولة على كاهلها، وترفض النهوض من مبركها حتى يخفف بعض الحمل، في حين أن الأعرابي يسمح بأن تكوّم فوق كاهله الأثقال، وكأنه لا إحساس له بالمذلة مثل أي عربة أوقاطرة. والسايس العربي يجرى بجوار جواد سيده لعدة ساعات وفقا لرغبة سيده دون أي تذمر. وقوة هؤلاء القوم البدنية تدعو فعلا للعجب، ولقد سنحت لي مشاهدة هذا عند نقل أمتعتنا من السفينة.

أما نوافذ الفندق الذي نزلنا به، فتطل على ميدان كبير، وتعوزني الكلمات لوصف جاذبية هذا المنظر مع غرابته ؛ اختلافات شتى في الملبس واللون والهيئة تميز سكان أفريقيا وبلاد الشرق، ولكن أكثرها تميزا مظهر بدوي الصحراء الغربية المهيب الجسور وهو متدثر بجلبابه الصوفي الواسع أو عباءته ذات القلنسوة التي تبدو أكثر ملاءمة لشتاء روسيا. وبطبيعة الحال جذبت المرأة المحجبة انتباهي بقناعها الداكن الذي يخفي كل جاذبية سوى نوع من الجلال في الهيئة، هذا إلى جانب جمال باهر في الأعين السوداء الكبيرة التي يزيدها وضوحا – فوق ما حبتها الطبيعة من تميز – خط من الكحل، يحيط بالأهداب، وكونها الشيء الوحيد

الظاهر من الوجه. ويمكنك تخيل الضوضاء والهرج والمرج فى الطرقات إذا سمعت صياح الحمالين، «اوع»، «جوردا»،«ساكن» باللغات العربية والإيطالية والتركية، وهي تدوى فى كل مكان، وفي كل لحظة.

فى الميدان الكبير أمام الفندق، نرى قوافل من الجمال محملة بقرب الماء وبالات البضائع، تسير الهوينى بحذر وتؤدة حتى فى هذا المكان الفسيح، وتتميز عن باقى الدواب بخطواتها الساكنة التى لا يسمع لها دبيب، وبمشيتها المتعاظمة التى فيها كثير من التأنق. ولا يفوتنى ذكر المحال التجارية بالإسكندرية إذ إنها أكثر شبها بالخزانة منها إلى الحجرة، وهذه هى الحال، كما سمعت فى أغلب المدن التركية والعربية. فمكان الجلوس من الحجارة أو الطوب يمتد بطول الطريق من الجانبين وارتفاعه حوالى ثلاثة أقدام، و مثلها أو أكثر قليلا فى العرض، يجلس فوقه التاجر أمام محله، يدخن أو يباشر أعماله. ومن الطريف حقا أن نرى السهولة التى يكسبون بها معيشتهم كما يبدو، والحقيقة أنهم أناس قانعون جدا، لهم فلسفة خاصة فى الحياة، فإذا عملوا لحسابهم الخاص لا يرهقون أنفسهم لأكثر مما يكفيهم، إذ لديهم اعتقاد قلما نجده فى أوربا، أن فى الكفاية ما يغنى عن الزيادة، و هذا يجعلهم سعداء إذ إن «منتهى الثراء هو تجاهل المال».وقد لاحظت عند منعطفات الطرق أو حيثما وجد بعض البراح، مجموعات من الرجال والنساء، يفترشون الأرض وأمامهم سلال، بها خبز وخضروات للبيع.

أما حى الفرنجة فيقع جنوبى شرق المدينة على ساحل الميناء الحديث. ولعل اختيار هذا الموقع كان لتيسير عملية إرساء وإبحار البضائع ؛ أما الآن بعد فتح الميناء القديم أمام سفن الفرنجة، فلم يعد لهذا المكان ميزته السابقة. ويوجد فى الجهة الشرقية من الميدان الكبير مبنى ضخم يعرف باسم «الوكالة الجديدة» ويسميه الأوربيون «أوكاليه» لاستقبال التجار وغيرهم من مريدى الميناء الحديث، وهو عبارة عن بناء يحيط بفناء مربع فسيح، يحوى فى طابقه الأسفل مخازن تطل على الفناء، فى حين أن الدكاكين ومداخل المساكن تتجه إلى الخارج. ولقد أمدنى أخى بمعلومات خاصة بالفنار الحديث وها هى كما وردت بألفاظه: « الفنار الحديث، خَلَفٌ متواضع للبناء القديم الذى شيده سوستراتوس الكنيدى ويلقب

التسمية القديمة أيضا ، و منظره إلى حد ما مهيب ، إذا شوهد من بعيد . وكثير من المؤرخين العرب يذكرون المرآة التلسكوبية المعدنية فى أعلى المنارة القديمة التى كانت السفن تراها وهى فى عرض البحر على مسافات بعيدة جدا . ويخبرنا المقريزى أن اليونانيين استخدموا خطة ماكرة لهدم المنارة أو الحصول على مرآتها العجيبة وذلك بأن لجأ أحد مواطنيهم إلى خليفة العرب الوليد بن عبد الملك ، وادعى أنه أشهر إسلامه ، وهرب من ملك بلاده الذى أراد قتله ؛ ثم أخبر الأمير أنه اكتسب من بعض الكتب فى حوزته ، القدرة على اكتشاف موطن الكنوز فى باطن الأرض ، وأنه تأكد من وجود كنز ثمين من النقود والمجوهرات تحت أساس منارة الإسكندرية . وقد خُدع الأمير بهذه القصة الملفقة ، وأرسل بَعض العمال مع الرجل الماكر للقيام بهدم المنارة ، ولكن بعد أن تم هدم أكثر من نصف البناء استولى الفزع على صاحبنا اليونانى الذى فر هاربا إلى وطنه ، وهكذا ظهرت وبانت خطته الخبيثة . ويذكر المؤلف نفسه أن جزءا من المنارة سقط نتيجة زلزال فى عام ١٧٧ من الهجرة أى ٧٩٣-٧٩٤ ميلادية ؛ وأن أحمد بن طولون شيّد فوقه قبة خشبية ، كما وجدت لوحة معدنية غائرة فى الأرض فى الجهة الشمالية مكتوب عليها بأحرف يونانية قديمة ، طول الحرف الواحد ذراع وعرضه شبر ، ولعل هذا هو النقش الكتابى الأصلى الذى وضعه المهندس الأول للمنارة و فحواه حسب استرابون كالآتى : «سوستراتوس من كنيديوس بن دكسيفانيس للآلهة الحامية ، من أجل البحارة» . كما يذكر السيوطى (وهو مؤرخ وعالم من علماء الدين وسمى بالسيوطى نسبة إلى مسقط رأسه بلدة أسيوط فى صعيد مصر) أن سكان الإسكندرية كانوا يستخدمون أيضا المرآة السالف ذكرها ليحرقوا بها سفن أعدائهم إذ كانوا يوجهونها بحيث تعكس أشعة الشمس المتجمعة فيها .

أما بالنسبة للممر المعبد الذى يربط الحصن والفنار بشبه جزيرة فاروس فيعرف الآن باسم روضة التين نسبة لبعض شجيرات التين التى تنمو هناك ؛ كما أن الطرف الجنوبى الغربى الصخرى يدعى رأس التين ، وبه قصر الباشا وبعض المبانى الأخرى ، وأيضا جبانة للمسلمين متاخمة للمدينة .

و قبل أن أنهى خطابى هذا على أمل أن أمدك فى خطابى القادم بوصف عام

موجز للمدينة لا يفوتني التنويه بصوت المؤذن الأخاذ، وهو يدعو المسلمين الى الصلاة، ولا أظن أن ما نشعر به من تأثر يرجع لسماعنا هذه الأصوات الرنانة لأول مرة فحسب، بل يجدر بنا أن نشعر بالإعجاب المستمر بهؤلاء القوم الجادين فى عبادتهم. ولا شك فى أن منظر المسلم وهو يؤدى صلاته يبعث على الاحترام والإجلال، كما أن انغماسه الكلى فى تعبده، بعيد كل البعد عن العالم حوله حتى ولو كان فى سوق مزدحم، يثير الدهشة. والصلاة فى مكان عام شيء عادى جدا بالنسبة للشرقيين، ولا يعُده المسلمون أمرا غير مألوف، فلا ينبغى أن نظنه نوعا من التباهى أو الرياء الكاذب



الرســـالة
الثانية

وصف معالم الإسكندرية الأثرية

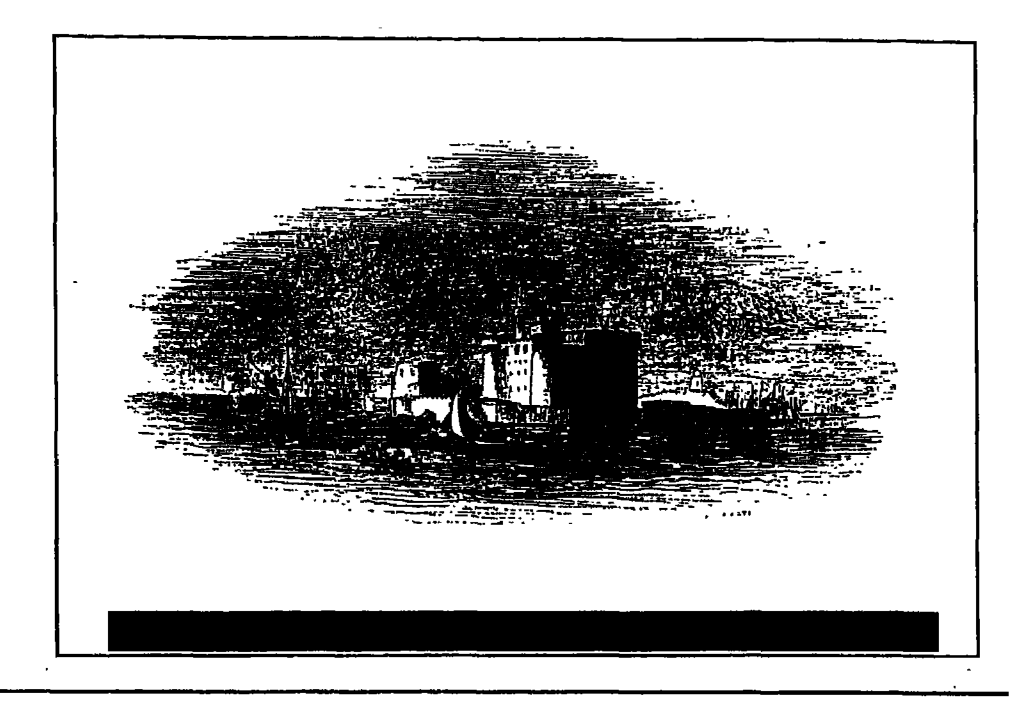
الإسكندرية،
يوليـــو ١٨٤٢

صديقتى العزيزة،

لن تطول إقامتنا فى هذا المكان، إذ لا يوجد به ما يسترعى الاهتمام سوى ما يربطه بالماضى ؛ ولكنى سوف أسرد لك باختصار كل ما أثار انتباهنا.

لم يخب ظنى فى الإسكندرية، إذ أننى لم أكن أتوقع الكثير. وقد شيّدت على برزخ ضيق من الأرض، يربط شبه جزيرة فاروس بالساحل مكونا ميناء مزدوجا كما وصل قديما الجسر الذى سمى بالهبتاستاديوم نظرا لطوله الذى بلغ سبع ستاديات[٤]. وقد تكونت رقعة الأرض التى قامت

(٤) الستاديوم مقياس عند اليونان والرومان يعادل نحوا من ١٩٠ مترا.



عليها المدينة الحديثة من تراكم الرمال المتوالى على جانبى الهبتاستاديوم، ولاشك فى أن الوضع الحالى يناسب مدينة تجارية أكثر من القديم. أما المنازل، فمعظمها بُنى من الحجر الجيرى الأبيض وكمية هائلة من الملاط والجص، وبعضها بنيت فيها جدران الأساسات فقط من الحجر وما يعلوها من الطوب، والنوافذ عامة إما عادية أو على هيئة مشربية خشبية تبرز إلى الخارج؛ غير أن نوافذ بعض المساكن مثل التى يقطنها الأوربيون أو قصور الباشا ومحافظ الإسكندرية وقلة أخرى، من الزجاج، والأسطح مسطحة ومغطاة بطبقة من الأسمنت. الهندسة الداخلية للمنازل لا تستثير الإعجاب رغم ما يبدو عليها من بذخ؛ وقد استخدم كثير من الأعمدة القديمة المصنوعة من الجرانيت والمرمر فى بناء المساجد والمساكن الخاصة.

والماء هنا رديء جدا، ويحصل السكان على ما يحتاجون اليه من صهاريج تحت المدينة القديمة (وسوف أخبرك عنها فيما بعد) تمدها بالماء أنابيب تحت الأرض آتية من القناة فى أوقات فيضان النيل وسبب رداءة الماء أنه حينما يأتى من النهر، يمر بتربة ملحة. ولكل بيت تقريبا صهريج، يملأ بواسطة قرب من الجلد، تحملها

الجمال أو الحمير، كما أن هناك في المدينة كثيرا من الآبار، بها ماء عكر.

ومما يضفى على الإسكندرية أهمية قصوى كمركز تجارى ومفتاح لمصر كونها الميناء الوحيد على الساحل الشمالى ؛ ولكن بخلاف هذا لا تبدو لى مكانا محببا للسكنى ؛ فمن حولها لانرى سوى البحر والصحراء، و ربما تناثرت هنا وهناك بعض دور الأثرياء، بينما تنتشر فى كل اتجاه كميات كبيره من كثبان القمامة. ولقد امتدح الكتاب القدامى هواء الإسكندرية الصحي، ويقول استرابون إن سبب هذا يرجع إلى موقع المدينة الذى يشبه الجزيرة فالبحر من جانب، وبحيرة مريوط من الجانب الآخر. ولكن الجو أصبح غير صحى فى السنوات الأخيرة، ولعل هذا يرجع إلى تحول البحيرة إلى مستنقع مالح، حين قام الجيش البريطانى عام ١٨٠١ بعمل فتحة، سمحت لماء البحر فى بحيرة أبى قير من اكتساح قاع بحيرة مريوط ؛ ولقد تكررت العملية بواسطة محمد على عام ١٨٠٣، و مرة أخرى بواسطة الإنجليز فى ١٨٠٧. وكان الدافع لذلك فى كل مرة، السياسة العسكرية ؛ وبعد تحقيق الهدف، تُسد الفتحة بسرعة نظرا لأنها كانت تحول دون وصول المياه العذبة إلى الإسكندرية، حيث إن مياه البحر كانت تعترض مجرى القناة. ولقد لوحظ أن مناخ الإسكندرية لم يتحسن أثناء اتصال البحيرتين، كما أن تبخر مياه بحيرة مريوط بعد ذلك كان له دون شك أثر ضار. كذلك فإن الرطوبة والأمطار أثناء الشتاء والندى الكثيف خلال الليل طول العام مصدر أذى شديد ؛ وحالات الحمى كثيرة جدا. ومن الملاحظ أن الطاعون يظهر فى هذه المدينة قبل ظهوره فى أى مكان آخر فى مصر بعدة أيام. ولكن بالرغم من كل هذه المساوئ، نجد من يفضل الإسكندرية مكانا للإقامة و يعتبر مناخها أحسن من مناخ وادى النيل المعروف بجوه الصحى.

هناك سلسلة من محطات لإرسال البرقيات من الإسكندرية إلى العاصمة، تمتد على مسافة مائة وعشرين ميلاً ٢١٠ كيلومترات)، وتتمثل هذه السلسلة من المحطات فى تسعة عشر بُرجا، تبدأ من شبه جزيرة فاروس (رأس التين)، وتنتهى فى قلعة القاهرة.

والأسوار التى تحيط بمنطقة المدينة العربية القديمة شيّدت من بضع سنوات فقط

عام ١٨١١ حين خشي محمد علي غزوا فرنسيا آخر، وأراد تحصين المكان. والسور يحمي المدينة من جهة البر، ويحيط بالصهاريج التي تمد الأهالي بالماء العذب. وللسور أربعة أبواب، ولا يمكنني أن أصف لك الخراب العام الذي يشمل المنطقة عند الدخول من البوابة القريبة من المدينة الحديثة التي تسمى «بوابة البحر»، حقا من الصعب تصور مثل هذا المنظر: أكوام «متلتلة» من القمامة وجرف الرمال تكاد تغطي كل المدينة القديمة! وفي هذه المنطقة المسوّرة يوجد، بجانب بعض معالم المدينة القديمة، ديران ومعبد لليهود وبعض المنازل والأكواخ لها حدائق مسوّرة، ينتشر النخيل بها عادة.

ولسوف تدهشين حينما أخبرك أن هناك أيضا تَلَّين كبيرين من الشقافة، أي كسارة الحجارة، يعلو كلا منهما حصن، يشرف على مساحة واسعة، وبدا لي غريبا جدا أن يقع الاختيار لبناء حصن في مثل هذا الموقع، ولكنني علمت أن هذا شيء مألوف إذ إن هذه المرتفعات الطارئة تكوّنت عبر السنين فوق تلك الأرض المسطحة نتيجة لأن الأهالي يتركون الخرائب المتداعية تتراكم، وبذلك يحدث تغيّر في تضاريس المنطقة. وهنا يمكن اقتفاء أثر الشارع الرئيسي الذي كان يمتد في خط مستقيم من ساحل الميناء القديم إلى باب رشيد الواقع في الطرف الأقصى، شرقي المنطقة المسوّرة؛ كما يمكن تبيان اتجاه الشارع الآخر الكبير الذي يقطع الأول بزاوية قائمة. لا ريب أنها كانت مدينة واسعة، ولكن من المحال الآن معرفة حدودها بدقة؛ على أن آثارها الباقية تدل أنها كانت مزدهرة وذات أهمية قصوى تفوق بكثير المدينة العربية التي خلفتها.

وبدافع الرغبة في رؤية المسلتين قبل اشتداد وهج النهار، استيقظنا مبكرين واخترقنا الميدان، ثم اقتحمنا حقل الأنقاض، حيث شاهدنا عددا من الفلاحين يتسكعون بين أكواخ حقيرة، وبعض الأطفال العرايا بأجسامهم الهزيلة يقفون أو يجلسون أمام المساكن. انتابني حزن شديد لمنظر أجساد هؤلاء الأطفال المساكين المتضخمة بشكل غير طبيعي، بينما أطرافهم النحيلة الصغيرة تبدو بالمقارنة في غاية الهزال. لاحظنا وسط الأكوام، فوهات بعض الصهاريج القديمة، أغلبها مغطاة بقاعدة رخامية مجوفة لمسلة قديمة. ويبدو أن الصهاريج كانت تمتد لمسافات كبيرة

تحت المدينة القديمة، ولا يزال عدد كاف منها مفتوحا، وفى حالة جيدة لإمداد المدينة الحديثة بما تحتاج إليه ؛ ولها أسقف مقوسة، تحملها أعمدة أو دعائم مربعة، وفى بعضها طابقان أو ثلاثة من الأعمدة والأقواس، الواحد فوق الآخر، وهذه واسعة جدا.

لم نر ما يستحق الذكر حتى وصلنا إلى المسلتين الواقعتين فى زاوية من هذه الساحة على مقربة من ساحل الميناء الجديد، أعنى مسلتى كليوباتره. وكل واحدة منهما مكوّنه من قطعة واحدة صلدة من الجرانيت الأحمر، ارتفاعها سبعون قدما تقريبا، وطول ضلعها عند القاعدة سبعة أقدام ونصف قدم. وهنا أتعجب، كما تعجب الكثيرون من قبلى، كيف تمكن قدماء المصريين من رفع مثل هذه الكتل الصلدة ؟ لاشك فى أن معرفتهم بآلات الرفع كانت قطعا هائلة، والدليل على ذلك ما خلفوه من عجائب. و يزين كل وجه من الأوجه الأربعة للأثر ثلاثة أسطر من الكتابة الهيروغليفية، وقد علمت من أخي، أن السطر الأوسط يحمل اسم ولقب تحتمس الثالث الذى يبدو، حسب أدلة قاطعة، أنه حكم البلاد قبل رحيل الإسرائيليين من مصر، بفترة وجيزة. أما الأسطر الجانبية، فقد نحتت بعد ذلك إذ إنها تحمل اسم رمسيس الأكبر أو سيزوستريس والكتابة الموجودة قرب قاعدة المسلة القائمة تكاد تكون مطموسة المعالم، فى حين أن الراقدة، لا يرى أغلبها بسبب القمامة المتراكمة فوقها. ويذكر بلينيوس أن رمسيس شيّد أربع مسلات فى هليوبوليس : ربما كانت مسلتا الإسكندرية اثنتين منها. وحيث إنهما أقدم بكثير من الإسكندرية، فالافتراض قائم أنهما حملتا من هليوبوليس لتزيين معبد أو قصر فى المدينة الجديدة. ونظرا لأن اسم رمسيس الأكبر نحت عليهما فقد نشأ الاعتقاد السائد، أنه هو الذى شيدهما. وتحتل قلعة مجاورة موقع برج قديم كان جزءا من السور السابق ذكره (أى من السور القديم للمدينة العزبية) والذى كان يسميه الرحالة الأوربيون « برج الرومان » إذ يبدو أنه رومانى الأصل. و على مقربة، حين وقفنا على تل من القمامة، أمكننا رؤية ساحل الميناء الجديد من وراء السور على يسار القلعة. وحينما احتل الجيش البريطانى الإسكندرية فى ١٨٠١، بدأت عمليات نقل المسلة الراقدة إلى إنجلترا، ولكن القائد العام اعترض على ذلك فأوقف العمل، ولم يستأنف مع أن الأثر قد قدمه لنا محمد على من بضع سنوات

مضت . بعد أن شاهدنا المسلتين ، حمدنا الله حينما رجعنا إلى الفندق ، إذ إن الشمس كانت قد حميت ، وأصبح وهجها شديدا .

بالقرب من البوابة الشرقية ، على بعد حوالى ميلين ونصف ، موقع المعركة الخالدة التى دارت يوم ٢١ من مارس ١٨٠١ التى أصيب فيها السير رالف أبركرومبي ، قائد جيشنا الظافر بجرحه القاتل . وفي المكان الذى دارت فيه المعركة على أشدها ، بجوار ساحل البحر ، فناء مربع ، محاط بجدار ضخم ، مهشم الآن ، من الحجر الجيرى والطوب الكبير ، صفت طبقاته على النمط الرومانى للأبنية . وتعرف هذه الأنقاض باسم « قصر القياصرة » وهى موقع مدينة صغيرة سميت نيكوبوليس تخليدا لذكرى موقعة مشهورة ، انتصر فيها القيصر أكتافيوس على أنطونيوس.[٥]

مما لا شك فيه أن العمود المعروف باسم پومپى صرح عظيم ، فاسطوانته مكونة من كتلة واحدة من الجرانيت الأحمر ، طولها ثمانية وستون قدما ، وقطرها عند القاعدة تسعة أقدام حسب مقاييس أخي . أما تاج العمود فكتلة من الحجر نفسه ، يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام ، كما أن القاعدة تتكون من ثلاث كتل من الجرانيت الأحمر أيضا ، وارتفاعها معا يبلغ سبعة عشر قدما . وعلى هذا ، يكون مجموع ارتفاع هذا النصب الرائع ، خمسة وتسعين قدما ، أما الأساس ، وجزء منه حديث ، فطوله أربعة أقدام . واسطوانة العمود بديعة الصنع ، إلا أنها شوّهت مع الأسف بأسماء عديدة ، خطت عليها بأحرف ضخمة باللون الأسود ، وأغلب هذه الأسماء لأشخاص صعدوا إلى القمة بواسطة طائرة من الورق ، يطلقونها فى الهواء ويجعلونها تهبط بحيث يرقد حبلها على تاج العمود ، ثم يجذبون حوله حبلا آخر قويا مثل الذى يستخدم للقلاع والصواري ، ويتسلقونه مثلما يفعل البحارة . ولقد تمت هذه المغامرة عدة مرات غالبا بواسطة ضباط بحريين ، قاموا بكتابة أسماء سفنهم على اسطوانة العمود ، ومن زمرة المغامرين امرأة إنجليزية صعدت مرة إلى القمة . وهناك نقش يونانى على القاعدة ، لا يرى إلا لماما حينما تقع أشعة الشمس

(٥) وهو موقع منطقة مصطفى كامل الآن .

بزاوية مائلة على سطح الحجر. ولقد ظن جميع الرحالة منذ عصر بوكوك Pococke[٦] أن النقش قد طمس تماما حتى اكتشفه من جديد الكولونيل سكوير Squire الذى قام هو ومستر هاملتون Hamilton والكولونيل ليك Leake بفك رموز أسطره الأربعة (باستثناء بعض الحروف) التى تسجل الإهداء من « والى مصر » (واسمه لا يكاد يكون مقروءا) إلى «عظمة الإمبراطور المبجل، الإله الحامى للإسكندرية، دقلديانوس الذى لا يقهر.» ولقد تمكن بعد ذلك السير جاردنر ولكنسون Sir Gardner Wilkinson[٧] من قراءة اسم الوالى الرومانى وهو - پوبليوس. ولا شك فى أن النقش دليل على أن العمود أو البناء الذى شيّد فيه، كان مهدى للإمبراطور الرومانى الذى ظهر اسمه مسجلا، ولكن ليس هذا بالضرورة دليلا على أن العمود أقيم تمجيدا لهذا الشخص، وهذا تماما مثل النقوش التى على جانبى المسلتين التى لا تثبت كما أوضحت سالفا، أنهما شيدتا فى عهد سيزوستريس.

يجدر بى فى هذا المجال أن أذكر باختصار الأسطورة الخاصة بحريق مكتبة الإسكندرية الذى حدث فى عصر الخليفة عمر، وله صلة وثيقة بتاريخ العمود الكبير (معلوماتى مستمدة من أخي). يؤكد عبد اللطيف (البغدادي) والمقريزى أن هذا العمود كان فى الأصل جزءا من بناء رائع، يحوى مكتبة، أحرقها عمرو، القائد العربى بأمر من الخليفة عمر. ويورد أبو الفرج قصة حرق هذه المكتبة ولكن لم يصدقها الكثيرون نظرا لعدم ذكر هذه الرواية إلا عند قلة من الكتاب ولكن لماذا يذكر الكتاب حادثة ليست ذات شأن بالنسبة لهم ؟ فواضح من الطريقة السطحية التى عالج بها عبد اللطيف والمقريزى الموضوع، أنهما لم يعتبراه ذا أهمية. ذكرا القصة فقط لصلتها بتاريخ العمود العظيم فيقول الأول « هنا كانت

---

(٦) ريشارد پوكوك: زار مصر عام ١٧٣٧ وقام برسم بعض الآثار؛ هاله استخدام أحجارها فى شتى الأمور.

(٧) چون جاردنر ولكنسون: (١٧٩٧ - ١٨٧٥) من مؤسسى علم المصريات Egyptology فى إنجلترا، جاء إلى مصر عام ١٨٢١ وأقام بها عدة سنوات، تعلم خلالها العربية والقبطية والهيروغليفية. قام بأول مسح لأهم المناطق الأثرية بمصر والنوبة وكان أول من حاول ترتيب أسر وملوك الفراعنة. له كتاب ضخم مشهور عن «عادات وتقاليد المصريين القدماء».

المكتبة التى أحرقها عمرو بن العاص بأمر من عمر.» أما المقريزى فيقول « العمود من الحجر الأحمر المرقط، وهو صلب وصوّاني، وكان حوله ما يقرب من أربعمائة عمود، كسرها وقذف بها إلى البحر بجوار الشاطىء «خراجه» والى الإسكندرية زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ليمنع سفن الأعداء من الاقتراب من أسوار المدينة. ويقال (كما يضيف) «إن هذا العمود واحد من الأعمدة التى كانت فى رواق أرسطو الذى علم الفلسفة هناك، و أن هذه الأكاديمية كانت تضم مكتبة، أحرقها عمرو بن العاص بأمر من عمر.» فبعد أن استولى القائد العربى على الإسكندرية، طلب منه المدعو يحيي الملقب «بالنحوى» أن يفرج عن المكتبة المذكورة، ويسمح ببقائها فى حوزة أصحابها السابقين. أراد عمرو مجاملة الفيلسوف. وكتب إلى الخليفة، يستطلع رأيه بشأن هذه الكتب فوصله هذا الرد : « أما بخصوص الكتب التى ذكرتها فإذا حوت ما يتفق وكتاب الله، فكتاب الله يكفي، وإذا عارضت كتاب الله، فلا حاجة لنا بها، فأمر بالقضاء عليها.» وهكذا وزعت فى المدينة لاستخدامها وقودا للحمامات، وعلى هذا النحو أفنيت فى بحر ستة أشهر. يقول أبو الفرج «إسمع وتعجب !»[٨] وهوحينما يذكر هذه الواقعة، يتحدث عنها، وهو واثق من فداحة أهميتها، ولكنه كاتب مسيحي. أما المسلمون، فبالرغم من حبهم وتشجيعهم لكافه أنواع المعرفة، إلا أن لديهم عامة اعتقادا أن كتب المسيحيين ليست ذات نفع بل قد يكون لها تأثير ضار.

والآن أترك الإسكندرية وضواحيها لأذكر بايجاز شيئا عن النيكروبوليس القديمة أو «مدينة الموتى» التى لم أشاهدها بنفسي، لرغبتى الملحة فى الذهاب إلى القاهرة على عجل، وسوف أكتفى برواية أخي عنها. يطلق اسم نكروبوليس على قطعة من الأرض طولها حوالى ميلين تقع جنوب غرب موقع المدينة القديمة، بين

---

(٨) فى موضوع المكتبة وحرقها، انظر مصطفى العبادى «مكتبة الإسكندرية القديمة: سيرتها ومصيرها» طبعة اليونسكو باريس ١٩٩٢)، حيث يوضح المؤلف أن هذه القصة لا تستند إلى أصل تاريخى صحيح لأن المكتبة كانت قد اندثرت وانتهى وجودها بنحو قرنين ونصف قبل دخول عمرو بن العاص إلى الإسكندرية وذلك على مرحلتين، أولاً: احترقت المكتبة الملكية (الأم) عام ٤٨ ق. م أثناء حرب يوليوس قيصر فى الإسكندرية، وثانيا: دمرت المكتبة الإبنية الملحقة بمعبد السرابيوم عند عمود السوارى عام ٣٩١م بأمر الإمبراطور ثيودوسيوس.

الميناء القديم وبحيرة مريوط[٩]. والمقابر كلها منحوتة فى الصخر الجيرى اللين إلى حد ما ؛ وقد زار أخي بعضها، وكلها صغيرة بدائية الصنع بدون أى رسومات أو زخرفة فيما عدا واحدة واسعة، تستحق الفحص. يصف الغرفة الرئيسية بأنها مستديرة الشكل، تعلوها قبة، وحولها ثلاث حنايا صغيرة، بكل واحدة منها ثلاث دفنات على شكل توابيت مستطيلة منحوتة فى الصخر تستخدم لحفظ المومياوات و في الغرف الأخرى توابيت بالشكل نفسه. أما مدخل الغرفة الرئيسية المستديرة ، فتزينه أعمدة مستطيلة ملتصقة بالجدران و ناتئة بعض الشيء منها (pilasters) ويعلوها فوق التيجان ما يشبه القوس ولكنه مثلث الشكل (a pediment)، واضح أن هذه المدافن من عصر لاحق لتأسيس الإسكندرية. ويوجد بمحاذاة شاطئ الميناء حفائر أخرى عديدة، أيضا لمقابر، ولكنها أصغر حجما، وحيث إن كثيرا منها تحت مستوى البحر، فإن معظمها ممتلئ بالمياه إثر تآكل الحائل الصخرئ وتدفق الأمواج إلى الداخل. ولقد سميت بعض منها «حمامات كليوباترة » ولكن واضح أنها مقابر مثل الأخرى.

إذا كان وصفى للإسكندرية ومعالمها موجزا جدا فعذرى هو لهفتى الشديدة للمضى فى طريقنا، ولكن يجدر بى أن أذكر أنه رغم كون الإسكندرية الحديثة خليفة لواحدة من أعظم مدن العالم القديم، إلا أنها أحدثت فى نفسى إحباطا شديدا ولم تترك سوى ذكريات كئيبة حزينة. حقا إن التاريخ يضفى على هذا المكان أهمية خاصة فقد كان فى وقت ما أهم مركز للمعرفة المصرية، ومسرحا للعديد من الحروب والمآسى الدموية، وقد شهد استشهاد القديس مرقس وميلاد وحياة الكثيرين من آباء الكنيسة الأجلاء كما كان أيضا مرتعا للانشقاق والهرطقة. ولكن استعادة الأحداث الماضية والتأمل فيها هو المجال الوحيد الآن الذى يستحق الاهتمام.

---

(٩) موقع القبارى حاليا.



الرســـالة

الثالثة

الرحلة النيلية من الإسكندرية إلى القاهرة

القـــاهرة،

يوليـــو ١٨٤٢

صديقتى العزيزة،

وصلنا القاهرة بقلوب عامرة بالحمد والشكر بعد أن أتممنا رحلاتنا بالبحر والنهر.

عند مغادرتنا الإسكندرية استأجرنا قاربا حديديا (صندلا) يُستخدم عادة لنقل المسافرين فى طريقهم إلى الهند فى قناة المحمودية من الإسكندرية إلى النيل. وكان «الصندل» كبيرا جدا، له قمرتان واسعتان، الأمامية فرشت بدكك ومناضد وبدت نظيفة ؛ وهناك أربعة من الخيل تجر «الصندل» بسرعة بالغة تمتعنا معها بالهواء السارى المنعش الذى أوقعنا حينما جاء الليل فى غلطة مؤسفة ؛ إذ رقدنا طالبين الراحة، دون أن

نسدل «الناموسيات». وكانْ أصحاب «الصندل» قد كسوا الدكك الواسعة بالبسط. تصورى مثل هذا السرير فى مثل هذا الجو ! لقد غطتنا البراغيث، وهجمت علينا الخنافس السوداء الضخمة التى لم أشاهد مثلها أبدا فى انجلترا. ندمنا بعد فوات الأوان على غلطتنا، وأنا أنصح بشدة كل مسافر إلى مصر أن ينام صيفا وشتاء تحت «الناموسية». طبعا وبدون شك هناك شعور بالحر وضيق النفس، على الأقل لمدة ربع ساعة بعد زم الستائر، ولكن هذا هين إذا قورن بالهجوم المستمر للحشرات الطفيلية بأنواعها العجيبة على المسافر فى هذه البلاد الشرقية ! فى الواقع، سوف تظل معنا لمدة طويلة ذكرى هذه الليلة الليلاء على متن «الصندل» بدون «ناموسية»[١٠].

(١٠) حاشية المؤلفة: بعد كتابة النص أعلاه علمت أن شركة ملاحة شبه جزيرة الهند والشرق The Peninsular and Oriental Steam Navigation Company أصبحت تتولى نقل المسافرين من الإسكندرية إلى السويس. ومهما يكن الأمر فيجب أن أقرر هنا أن رحلتنا من

في صباح اليوم التالي وصلنا إلى موقع اتصال القناة بالنيل ووجدنا أن السفينة التي سوف تقلنا إلى القاهرة قد أبحرت مع جماعة إلى مكان احتفال ما، ولن ترجع قبل بضعة أيام. حقا كان موقفا لا نحسد عليه من شدة المعاناة. رسونا بين سلسلتين عاليتين من تلال الطمى المتزاكم عند حفر القناة، وقد جف بالطبع وصار الغبار يتناثر في الجو بكثرة، كما اكتظت أيضا فوق هذه التلال أكواخ، شُيدت بالطمي. الحرارة قاسية، وسحب الغبار منعقدة، ورائحة المكان كريهة، وزحام المراكب و«الدهبيات» التي تحف بنا - لمدة يومين بليلتيهما - شديد، وليس باستطاعتنا عمل اى شيء لتحسين موقفنا إذ من الضروري أن نبقى بجانب مدخل القناة لحين وصول سفينة النيل ؛ كان هذا الموقف أشد وطأة علينا من دوار البحر والمتاعب الأخرى التي صادفتنا من قبل في طريقنا إلى مصر. في الواقع كنت أرحب بدوار البحر الذي كان يفرض عليَّ البقاء في سريري فلا أرى إنجلترا الغالية وما تحويه من أحباء وأشياء عزيزة على النفس تختفي رويدا رويدا، إذ مهما طال أو قصر الزمن الذي يحدده المرء لزيارة بلاد أخرى ومهما كانت التطلعات ممتعة والاحتمالات مليئة بالأمل، فهناك دائما غصة يشعر بها المسافر - ولا يمكن وصفها أو توقعها - عند مغادرة الوطن ولكن... لأرجع إلى موضوعي الأصلي. أذكر أن شطي القناة عند سريانها على طول البرزخ الضيق من الأرض بين ملاحات مريوط وأبي قير، يتكونان من كتل ضخمة من الحجر تمنع إلى حد ما، تسرب الماء المالح إلى المحمودية التي تمد صهاريج الإسكندرية بالماء. ولا تكاد تسير هذه القناة في أي جزء منها في مجرى القناة القديمة للإسكندرية رغم أنها تعترضها في عدة أماكن. ولقد استخدم أكثر من ثلاثمائة ألف رجل لحفرها، ويقال إن ما يقرب من اثنى عشر ألفاً منهم لقوا حتفهم خلال عشرة أشهر، أكثرهم نتيجة للمعاملة القاسية والعمل المضنى وقلة الطعام المغذى والماء النقي. وكانت معداتهم الوحيدة للعمل هي الفئوس التي تستخدم بكثرة في الفلاحة المصرية، و حينما تكون الأرض

- إنجلترا إلى مصر كانت مريحة للغاية بفضل الباخرة الرائعة لهذه الشركة والخدمة الممتازة وشتى التسهيلات المطلوبة. ويقال إن عملية نقل المسافرين الآن عبر القطر المصري في طريقهم إلى الهند أصبحت مريحة جدا. ـ(المترجمة : الاختصار المألوف حالياً لهذه الشركة هو P & O).

رطبة، يجرفونها بأيديهم ويحملونها فى «مقاطف». ويبلغ طول القناة حوالى خمسين ميلا بريطانيا، وعرضها حوالى ثمانين أو تسعين قدما. كانت بداية ونهاية العمل فيها عام ١٨١٩ واطلق عليها اسم المحمودية تيمُنا باسم محمود، السلطان العثمانى الحاكم آنذاك.

وصلت سفينتنا المرتقبة بعد يومين، وسعدنا لمغادرة المحمودية ومنظرها الكئيب بفلاحيها الذين يبدو عليهم الفقر المدقع وبأكواخها الطينية المتراكمة فوق بعضها التى يغلب عليها الشكل المستدير، فتبدو فى ضوء القمر كأنها أبراج قلاع خربة ينبثق من فتحاتها هنا وهناك ضوء خافت أحمر. لا يوجد اتصال بين القناة والنيل ولهذا سرنا مرتجلين بضع دقائق بمحاذاة الشاطئ حتى وصلنا إلى السفينة، وغمرتنا السعادة حينما شعرنا عند دخولها بأرق نسيم يمكن تصوره وبرؤية ضفاف خضراء (بالذات من ناحية الدلتا) لواحد من أشهر أنهار العالم. ولقد شيدت مراكب النيل بطريقة تناسب تماما الملاحة فى هذا النهر، فقلوعها الكبيرة المثلثة سهلة الاستخدام، وهذه ميزة عظيمة حين تهب العواصف الفجائية التى كثيرا ما تعترض سبيلها، حينذاك تُضم القلوع فى أقل من دقيقة واحدة، وإلا أطيح بالمركب. حدث كثيرا أن كان جانب من سفينتنا تحت الماء تماما، ولكن مهارة الرجال تحول غالبا دون حدوث أية كارثة إلا فى القليل النادر و بالذات حينما يكون السفر ليلا. ولقد طلبنا ألا تسير سفينتنا بالليل، ولهذا استغرقت رحلتنا النيلية ثلاثة أيام.

هناك عادة يتَّبعها الملاحون المصريون فى بداية كل رحلة، حازت اعجابى الشديد، إذ حالما يمتلئ الشراع الكبير بالهواء، يصيح الريس «الفاتحة»، ويقوم هو وطاقمه، بصوت جماعى خافت، بتلاوة السورة القصيرة البسيطة التى يبدأ بها القرآن. ويا ليت شعبنا ينهج نهج المسلمين فى هذا المجال، ويعترف الجميع أن مصيرنا فى يد الله وحده، وأن كل سفر، وكل رحلة يجب أن تباركها العناية الإلهية.

مررنا أول يوم بمدينة فوّة حيث تحت أحد عشر مسجدا بقبابها ومآذنها الطريفة وكذلك بعض المصانع للحرف اليدوية. المساكن حقيرة، ولكن المنظر العام يبدو لطيفا عن بعد فالمآذن مطلية بالجير الأبيض، والمنازل تنم عن عز قديم، مضى.

وكانت بعض نساء وبنات المدينة على الشاطئ يملأن جرارهن وقت مرورنا بينما أخريات يقمن بغسل الثياب، وعند الانتهاء من عملهن، تقوم كل واحدة بغسل يديها ووجهها وقدميها، ثم تقفل راجعة، والجرة أو كومة الغسيل فوق رأسها. وتساعد «الحواية» (وهي قطعة من القماش ملفوفة على شكل حلقة توضع فوق الرأس) على انتصاب وضع الجرة، وكثيرا ما رأيتُ أثناء رحلتنا في المحمودية نساء يحملن جرارا كبيرة و ثقيلة، معتدلة على رؤوسهن، دون الاستعانة بالأيدى.

إن فوّة مثل مطوبس مشهورة بجمال نسائها، ولكن لا أستطيع إبداء رأى في هذا الصدد لأن سفينتنا لم تقترب من الشاطئ، وعلى العموم أرى أن الطبقات الدنيا عادة قبيحة جدا. رداؤهن المعتاد (وهو في الغالب القطعة الوحيدة من الملبس الذى يرتدينه بخلاف طرحة فوق الرأس) عبارة عن جلباب بسيط أزرق لا يختلف كثيرا عن جلباب الرجال، وهو أيضا غالبا أزرق اللون. ومن العادات الشائعة بين النساء المصريات من هذه الطبقة أن يضعن الوشم الأزرق على بعض الأجزاء من أجسامهن خصوصا المنطقة الأمامية من الذقن والشفتين، كما أن الكثيرات منهن يقلدن نساء الطبقة العليا بأن يصبغن أظافرهن بالحناء الحمراء، وهن أيضا يصففن شعورهن على شكل ضفائر رفيعة، تتدلى على ظهورهن. لا يجب أن أغفل عن ذكر ما تشتهر به فوّة من حسن مذاق ثمار الرمان الموجودة فيها بكثرة.

وصلنا قرية شبراخيت بعد المغرب بقليل، ورسونا بها حسب نصيحة الملاحين وبقينا هناك حتى الصباح حين شدّ انتباهنا الفلاحون، وهم يقومون بأعمالهم المختلفة بخمول واضح. وكنا نرى أثناء رحلتنا بعض هؤلاء المساكين، يقتربون من السفينة، وكأنهم يجلسون منتصبين على الماء، يجدفون بأقدامهم، ويحمل كل واحد منهم ثلاث بطيخات، واحدة في كل يد، وواحدة فوق الرأس، طريقتهم في السباحة غاية في الغرابة، ولكنها تبدو مريحة بالنسبة لهم.

في اليوم الثاني مررنا بمدينة سايس المشهورة، ولمحنا بعد ذلك الصحراء الكبرى وبحرها الذى لا يُحدّ من الرمال. وقد كانت سايس العاصمة القديمة للدلتا، ومن أشهر مدن مصر، كما يُزعم أنها مسقط رأس كيكروبس الذى يقال إنه قاد جماعة من أهل سايس إلى أتيكا في اليونان حوالى ١٥٥٦ سنة قبل الميلاد، وأسس مدينة

أثينا، وأقام بها عبادة مينرڤا[١١] (نيت المصرية) التى كانت الإلهة الحارسة لبلده. وهذا المكان مختنق تماما بالقاذورات، ولا جدوى اطلاقا من زيارة أطلاله ولكن لا شك أن أى حفائر تقام به سوف تكلل باكتشافات مهمة. والاسم الدارج للمكان هو «صا الحجر» أى «سايس الحجر» إشارة ربما إلى المعبد المنوليشى الذى ذكر هيرودوت أنه أروع المعالم الموجودة في ذلك الوقت. وأطلال سايس تبدو من النهر مثل كثبان عالية ممتدة على مساحة واسعة من الأرض، تتألف عادة من أفنية واسعة، طول كل منها حوالى نصف ميل ومثلها في العرض وسياجها عبارة عن جدران هائلة الأبعاد يبلغ سمكها حوالى خمسين قدما وارتفاعها أكثر بكثير، كما يتبين فى عدة أماكن، وقد شيدت من الطوب اللبن طول القالب الواحد حوالى خمس عشرة أو ست عشرة بوصة، وثمان فى العرض، وسبع فى السمك. ولقد سببت الأمطار، التى يندر سقوطها حتى فى هذه المنطقة من مصر تآكل هذه الجدران، فلا تكاد تميز من القاذورات التى اندثرت تقريبا كلية فيها، ولا يرى داخل السياج سوى بعض القطع الضخمة من الحجارة، وبقايا بعض الأبنية من الطوب اللبن، ربما كانت مقابر أو أضرحة، اكتُشفت، ونُهبت. وكان فى هذا المكان المعبد الشهير للإلهة مينرڤا المصرية الذى يذكر هيرودوت أن مدخله كان يفوق فى ضخامة أبعاده أى بناء آخر من هذا النوع، كما احتوى على تماثيل عملاقة ضخمة منها ما هو على هيئة أبى الهول. وفى الصدارة كان المعبد المُنوليثى المشهور الذى سبق أن ذكرته. وبلغ طوله إحدى وعشرين ذراعا، وعرضه أربع عشرة، وارتفاعه ثمانى أذرع. ويروى هيرودوت أن ألفين من البحارة استخدموا فى خلال ثلاث سنوات لنقل هذا الصرح فى النيل من جزيرة إلفنتين؛ كما كان يوجد أمام المعبد تمثال عملاق لشخص مضطجع (أو لعله جالس)، طوله خمسة وسبعون قدما شبيه بالذى كان أمام معبد «بتاح»[١٢] في منف، و كان هدية من الملك أمازيس؛ وخلف المعبد ضريح، لا يذكر المؤرخ اسم صاحبه، كما كانت هناك مسلات شامخة مقامة داخل السياج المقدس على مقربة من بحيرة دائرية الشكل مكسوة بالحجر. كانت

(١١) تستخدم المؤلفة التسمية الرومانية للإلهة اليونانية أثينا.

(١٢) تسميه المؤلفة ڤولكان وهو الاسم الروماني.

هذه البحيرة مسرحا للعروض الليلية لطقوس الأسرار المهيبة المتصلة بالشخصية التى لم يذكر اسمها، كما سبق أن قلت، وغالبا ما تكون «أوزوريس» إذ كان المصريون بدافع من الرهبة الدينية، يمتنعون عن ذكر اسم هذا الإله ؛ وعديد من المدن الأخرى في مصر تتنازع شرف احتواء رفات أوزوريس. وجميع الفراعنة الذين ولدوا فى هذه المنطقة، دفنوا داخل السياج المحيط بصرح سايبس المقدس، وقد شيد واحد من هؤلاء الملوك، ويدعى «أبريس»، قصرا منيفا. وكان الاحتفال الدينى الذى يقام فى سايس إجلالا للإلهة «نيت»، يعتبر الثالث فى المرتبة بين الاحتفالات الدينية العظمى التى كانت تقام بصفة دورية فى مصر القديمة، من حيث الأبهة والعظمة ولكن أفخمها قاطبة احتفالات بوباستيس وتليها بوصيرس، وكلاهما فى مصر السفلى. واحتفالات سايس كانت تعرف باسم«احتفال القناديل المتقدة» إذ كان من علامات الاحتفال بهذا العيد أن تعلق القناديل والمسارج المضاءة ليس حول منازل هذه المدينة فحسب، بل فى أرجاء مصر كلها.

ذكرت أن السفينة التى كنا سنبحر فيها من المحمودية، قد شغلت بنقل جماعة من الناس إلى مكان احتفال ما ؛ وسوف تندهشين حين أخبرك أن عادات وتقاليد المصريين المعاصرين، لا تختلف كثيرا عنها لدى السكندريين القدماء الذين كانوا يهرعون إلى الاحتفالات الإباحية فى كانوپ تكريما للإله «سرابيس»؛ إذ كانت أعداد لا تحصى من الزوارق تغطى صفحة القناة ليل نهار، تحمل الحجاج من الجنسين، وهم يرقصون ويغنون ويسكرون ويستبيحون لأنفسهم كل الموبقات التى سمحت بها الحرية الدينية قديما ؛ و كذلك فى وقتنا الحاضر، تتوافد جماهير الرجال - من سكان عاصمة مصر وأماكن أخرى - ومعهم عدد كبير من الغانيات إلى الاحتفالات بذكرى مولد السيد أحمد البدوى فى طنطا بالدلتا حيث يعج المكان بالراقصات والمغنيات اللاتى يقمن بالترفيه عنهم وتسليتهم، وحيث سمعت أن الخمور تحتسى بوفرة وحرية، وكأنها القهوة.

مررنا اليوم بقرية كفر الزيات التى كان يسودها هرج ومرج بسبب كثرة مريدى السيد البدوي، وهم يرسون هنا فى طريقهم إلى طنطا، ثم يبحرون من هنا أيضا إلى مواطنهم.

وصلنا إلى قرية نادر متأخرين، فرسونا عندها طوال الليل ؛ وفى الصباح وجدنا أنفسنا محاصرين بعدد كبير من الجواميس حسنة المظهر تقف فى الماء ؛ وألبانها هى السائدة فى الغالب، والزبد الذى يصنع منها ناصع البياض، حلوالمذاق. وكنا نرى هذه الحيوانات بكثرة إما واقفة أو راقدة فى الماء؛ إذ إن النيل ضحل جدا فى مناطق عديدة منه، كما تنتشر فيه الكتل الرملية المتحركة التى تسبب جنوح الزوارق بصفة متكررة، ولكن من السهل عادة إزاحتها بمدراة وحين يتعذر ذلك، ينزل الملاحون فى الماء ويبعدون السفينة بأن يدفعوها بظهورهم وأكتافهم ؛ و عندما تسكن الريح، يقوم الملاحون بسحب السفينة، حدث هذا عدة مرات أثناء رحلتنا حين كان الملاحون العشرة الذين يتكوّن منهم طاقم سفينتنا ينزلون إلى الشاطئ يجرونها بالحبال، ولا يبقى معنا على ظهر المركب سوى الريس ؛ ومن المدهش حقا أن نرى حسن إنجازهم لهذا العمل الشاق فى قيظ شهر يوليو، ولا يتوقفون للراحة إلا نادرا ولفترات وجيزة. ومن عادة الملاحين أن يغنوا أثناء سير السفينة بمصاحبة الموسيقى البدائية للدربكة والمزمار، ولقد وجدت شيئا مريحا جدا للنفس فى هذه الأغانى مع غرابتها بالنسبة لنا، فهى تنم عن سعادة دفينه، تتجلى فى نبرات أصوات المغنين، وهذا الشعور ينعكس على من يسمعهم ويؤثر فيه..

ومن أكثرالمراكب شيوعا تلك التى تعرف باسم «الخنقة» وتستخدم فى النقل والنزهة وهى طويلة وضيقة وبطيئة السير ؛ لها ساريتان وشراعان كبيران مثلثا الشكل ومقصورة منخفضة تنقسم عادة إلى وحدتين أو أكثر بنوافذ صغيرة مربعة، بها ستائرخشبية أو زجاجية وأيضا مصاريع، تنزلق من الداخل. ومن دواعى القلق الذى كان ينتابنا فى سفينتنا، انتشار الحشرات والبق والبراغيث، وكنت حقيقة قلقة على ولدىّ الصغيرين اللذين قاسيا الأمرين منها بصبر ومرح زاد من اشفاقنا عليهما، وكنت بسببهما أتمنى العودة إلى بيتنا المريح. ولاشك فى أن استخدام «الناموسية» أثناء الليل يخفف المتاعب إلى حد ما، و لكنها لا تزيلها كلية، إنها ضرورية جدا لمنع هجوم الزواحف الكبيرة أما بالنسبة للبق والبراغيث، فلا ينفع معها أى محاولات وقائية!

تبدو مراكب النبلاء الأتراك غاية في الأبهة، إذ تزين ألواح أبواب القمرات من الداخل ومن الخارج برسومات تمثل باقات من الزهور بألوان مختلفة، كما يرفرف العلم الأحمر الزاهى بالهلال ونجمة أوثلاث نجوم بيضاء على مؤخرة السفينة. في حين تبدو المراكب الأخرى أبسط وأقل رونقا، ولكن منظرها أيضا رائع.

لم نشاهد فى هذا اليوم من رحلتنا، أى شئ يستحق الذكر فيما عدا مجموعات النخيل الشامخة الأنيقة التى تضفى دائما طابعا مميزا وجميلا على الريف المصري. وتبدو القرى غريبة المنظر بأكواخها التى يتوّج كل منها ببرج حمام مخروطى الشكل، أقيم بعديد من القدور الفخارية و ارتفاع الواحد منها يضاهي غالبا ارتفاع الكوخ نفسه، وهذه ظاهرة سائدة فى معظم قرى المنطقة. لاحظنا العديد من جثث الماشية تطفو على سطح الماء أو ملقاة على شاطئ النهر، إذ ينتشر بمصر فى الوقت الحاضر نوع من الطاعون الحاد الذى يصيب الماشية، ولقد دام أكثر من ثلاثة أشهر وذكرَنا بالطاعون أيام موسى عليه السلام. كما لمحنا السراب عدة مرات أثناء رحلتنا وكاد صفاء مائه المضلل يبدد الوهم فالنيل عادة عكر خصوصا فى هذا الوقت فبأى شطط من الخيال يمكن تصور وجود بحيرة صافية المياه بالقرب من هذا النهر! وكانتْ فعلا ظاهرة غريبة ومثيرة، تحرك المشاعر الأليمة حينما نفكر فى العديدين من الذين هاموا فى الصحراء، وذاقوا مرارة خيبة الأمل من جراء هذا الخداع.

لا أستطيع أن أذكر شيئا عن جمال ضفاف النيل، فهى ترتفع فى أغلب الأماكن عمودية، وتحول لذلك دون الرؤية. أما من ناحية الدلتا فالضفة منحدرة تريح العين بخضرتها، ولكنها مملة ليس بها أى تنوّع. لا تظنى أنى أريد الاستهانة بالمنظر ولكن لا بد أنك سمعت أن ضفتي النيل تبدوان فى أبهي جمالهما شهرا بعد أن تنحسر مياه الفيضان، تاركا الطمى الخصب يملأ رحاب الوادي، فيغطيهما ببساط سندسى وضاء، كما تتوج الجزرالصغيرة فى مجراه بالخضرة المتألقة. ولكن رحلتنا صادفت وقت فيضان النهر.

لم نجد فى الليلة الثالثة قرية فى المنطقة نستطيع أن نرسو عندها، ولذلك قرر الريس أن يثبت السفينة بجوار جزيرة رملية لقضاء الليل بأمان. هنأنا أنفسنا

بقرب انتهاء رحلتنا النهرية. وفعلا في صباح اليوم التالي أمكننا أن نلمح الأهرامات الجليلة التي لم تكن واضحة بسبب موجات الهواء الساخن المتراكمة على سطح المنبسط الذي يفصلنا ؛ كانت على بعد ثلاثة فراسخ. وقد وصلنا بعد قليل إلى بولاق ميناء القاهرة الرئيسي، وعند وصولنا اضطررت أنا وزوجة أخي أن نرتدي الملابس الشرقية ؛ وجدنا هذا التبديل صعبا للغاية، وعند اتمامه شعرنا باختناق لا يمكن أن ننساه. تخيلي أن الوجه يسدل عليه باحكام خمار من الموسلين(*) المزدوج في الجزء الأعلى منه، و لا يظهر سوى العينين. وفوق رداء حريري ملوّن غطاء من الحرير الأسود، يحيطني من كل جهة، كنت مكبلة تماما باستثناء عينيّ اللتين نظرتا بفزع إلى العتبة العالية التي يجب أن أتسلقها وإلى الحمار الواقف فوقها الذي يجب أن أمتطيه. لا يوجد إطلاقا رداء ركوب أقل ملاءمة وأكثر عرقلة من هذا الرداء، ولو كان باستطاعتي الوصول إلى بغيتي دون لبسه، لكنت فعلت ولكنه من المستحيل أن أقتحم حريم النساء بملابس افرنجية ؛ علاوة على علمي أن المسلم يعتقد أن اللعنة تحل على «الرآئي والمرئي » لهذا أنا حريصة ألا أعرض أي مار في الطريق لما يعتبره خطيئة، أو أعرض أنفسنا للقذف واللعنات.

ولقد شرح أخي في كتابه « المصريون المعاصرون » الطريقة التي ترتدي بها نساء مصر الحبرة، كما أوضح أن السيدات التركيات يشبكنها من الأمام ظنا منهن أنه لا يليق أن تبدو السبلة أو القميص الملون من تحتها. أما رداء المنزل فملائم للطقس وجميل جدا بخلاف ملابس الخروج التي تبدو بشعة وغريبة.(١٣)

أنهي خطابي بوصف مختصر لرحلتنا من بولاق إلى القاهرة التي تبلغ مسافتها حوالي ميلين. ركبنا جميعا الحمير، يتقدمنا أحد الإنكشارية، وسرنا في بولاق مندهشين من الحالة الخربة التي بدت على هذه الضاحية ؛ قيل لنا إن بها بعض

(١٣) انظر كتاب لين، ترجمة عدلي نور، الجزء الأول، الفصل الأول «مميزات المصريين المسلمين وملابسهم» ص ٤٧ - ٦٩.

(*) كلمة مستخدمة في اللغات الأوربية muslin نسبة لنسيج رقيق من مدينة الموصل، ودخلت الكلمة اللغة الإيطالية ١٢٩٨ (Petit Robert, Paris 1970) والإنجليزية ١٦٠٩ (O.E.D. 1952).

المنازل الفخمة، ولكن لم يحالفنا الحظ أن نراها. ابتهجنا حينما خرجنا من أزقتها الضيقة إلى ساحة واسعة، ولكن سرعان ما شعرنا بضيق مؤلم من جراء الغبار الذى كان يتناثر مع خطوات الحمير الوئيدة ؛ وقتئذ شعرت بميزة الغطاء الذى لا يظهر سوى العينين. وأخيرا دخلنا القاهرة، وزاد ت دهشتى عشرة أضعاف.

ذكرت فيما تقدم أن طرقات الإسكندرية ضيقة، ولكنها تبدو فسيحة جدا إذا قورنت بالقاهرية ! المشربيات أى النوافذ العليا البارزة التى تواجه بعضها بعضا عبر الطريق، تكاد تتلامس، وكثيرا ما تكون على مدى ذراع فقط.

كان أول انطباع أحسست به عند دخول هذه المدينة ذائعة الصيت أننى ألج مكانا ظل مهجورا لما يقرب من قرن من الزمن، وفجأة ازدحم أهل بسكان لم يستطيعوا لفقرهم أو لأى سبب آخر، أن يُصلحوا من شأنه، ويُزيحوا من فوقه خيوط العنكبوت العتيقة المكدسة. لم أر من قبل مثل هذا العدد الهائل من خيوط العنكبوت التى لم يمسسها أو يؤرق ساكنيها بشر، عالقة ومتدلية من فتحات، تقود إلى ظلام دامس. وددت لو أن فى استطاعتى أن أقول إنى لا أهاب هذه المخلوقات، ولكن بصراحة، لا أظن أنه يوجد فى عالم الحشرات من هو أبشع منظرا من العناكب ذوات الأرجل السميكة السوداء.

مررنا بعدة شوارع مكتظة بالأهالى حتى وصلنا إلى مقامنا المؤقت، وهو منزل لطيف، تحيط به الحدائق. رأينا من حولنا أشجار النخيل الرشيقة، محملة بالثمار، وأشجار السنط والموز والبرتقال والليمون، وأيضا أشجار الرمان والكروم، تنوع بديع، لا ينقصه ليصبح رائعا سوى الحاجة الماسة إلى الماء المنعش ؛ فأوراق النباتات مغطاة بطبقة من الغبار، وتربة الحديقة تسقى بساقية يديرها ثور صبور، يخطو خطواته الوئيدة دون توقف، و لا يبدو عليه الكلل من جراء العمَل المضني، الدائم. إن تصميم الحدائق غريب حقا، إذ نجد الأرض مقسمة إلى مماش متوازية طويلة، تحدها على الجانبين قنوات، ثم تقسم ثانية بواسطة تلال من التربة، ارتفاعها حوالى نصف قدم إلى قطع مربعة صغيرة، طول كل ضلع ياردتان تقريبا، ويسمح بدخول الماء إلى هذه المربعات، الواحدة تلو الأخرى. حين أرى هذه القنوات والأحواض التى يكسوها الماء لفترة دون أن تمتصها التربة لا يسعنى إلا أن أرجع بذاكرتى إلى

حدائقنا الزاهية الجميلة فى انجلترا، وطريقتنا فى سقى الأزهار بعناية حتى لا يزداد تشبع التربة بالماء، فيسبب لها الضرر، كما لا يروق للعين. هذه الذكريات تجعلنى أجزم بأن فلاحة البساتين فى مصر لا جدوى منها، ولا تساوى العناء الذى يبذل فيها وتحتاج إليه. قد يكون مثل هذا القول تحيزا لوطنى ولما ألفته من مناظر طبيعية مختلفة كل الاختلاف عما أجده هنا. والسلام !



الرسـالة الرابعة

المنزل المسكون


موكب العروس

القـاهرة،
أغسطس ١٨٤٢

صديقتي العزيزة،

حينما كنت في مالطة رأيت عناصر مختلفة من البشر، وفي الإسكندرية تغيرت المناظر وتعددت الملابس، وظننت أنه لا يمكن أن أصادف في القاهرة أي شيء بعد ذلك يثير دهشتي، ولكنني كنت مخطئة، إن غرائب هذا المكان وسكانه تفوق كل توقعاتي. إن طريق شبرا يمر على مرأى من نوافذنا، ويحلو لي مشاهدة المواكب المتعددة التي تأخذ طريقها من المدينة و إليها.


موكب جنائزى

يضحكنى موكب العرس الذى تسير فيه العروس المنقبة الملتفة بشال عريض تحت ظلة من الحرير، وعلى جانبيها امرأتان، و أفراد القبيلة يعبرون عن سعادتهم بأداء حركات بهلوانية أمام «الموعودة»، ناهيك عن أطفال الجيران ألذين يشاركون أيضا فى الهرج والمرج فى مؤخرة الموكب. وأشفق على العروس التى تكاد تختنق دون ريب، وهى تسير لمسافة قد تطول أحيانا على قدميها تحت وهج شمس الظهيرة المحرقة، فى حالة تشبه الإغماء من شدة الإعياء. تسير العروس وحولها بعض الآلاتية، يدقون الطبول وينفخون المزامير حادة الصوت، فتنبثق أصوات يظنونها أنغاما موسيقية، وفى الوقت نفسه تطلق النساء المرافقات الزغاريد النشاز التى تصم الآذان.

أما المواكب الجنائزية فتملؤنى حزنا، إذ تحمل جثة الرجل المتوفى فى نعش

مفتوح لا غطاء عليه سوى شال يظهر من تحته شكل الجسد بوضوح ؛ أما جثة المرأة فتحمل في نعش مقفل يغطيه أيضا شال، كما يغطي شال آخر قطعة قائمة من الخشب، يعلوها بعض ما تزين به المرأة غطاء رأسها. وجثث الأطفال تحمل على مثل هذا النوع من النعوش.

سمعت مرة صوتا لن أنساه أبدا عند اقتراب موكب جنائزي ؛ كان صراخ حزن عميق، عبرة من قلب جريح متميزة بين ولولة النائحات المأجورات اللاتي يصاحبن الجوقة الجنائزية. هرعنا إلى النوافذ ورأينا رجلا يتقدم موكبا من النساء، ويحمل بين ذراعية جثمان طفل صغير ملفوف بشال، ينقله هكذا إلى مثواه الأخير. لا شك في أن صرخة الألم المبرّح عُصرت من قلب أم ثكلى يوشك أن ينفطر. هناك حقيقة أؤكدها دائما، وهي انه لا يوجد حب يفوق في قوته وعمقه، حب الأم لولدها والولد لأمه.

الجنائز التي تمر عديدة جدا، ولكن هناك مناظر أخرى أراها من نافذتي، تسليني وتجعلني أود لو استطعت اقتحام منازل هذه المدينة الغريبة وأيضا شوارعها وأزقتها. لقد قررت بعد تفكير عميق في الأمر، تأجيل زياراتي المعتزمة لحريم النبلاء حتى أتقن إلى حد ما اللغة العربية ؛ حقيقة إن التركية هي المستعملة عادة في هذه الأماكن، ولكن الجميع يفهم العربية، وحيث إنها اللغة السائدة في مصر، أرى أنه لا غنى لي عنها.

ولكن اهتمامنا الأول كان في الحصول على سكن ملائم، ولقد وجد أخي صعوبة شديدة في ذلك رغم المساعدات الكريمة من أصدقائنا الذين شملونا برعايتهم، وأسرونا بودهم ؛ كما أنني اكتسبت بعض الخبرة عن عادات وتقاليد الحريم من سيدتين سوريتين، عرضتا بكل لطف أن تكونا عونا لنا بشتى الطرق. وأخيرا وبعد طول البحث على مدى شهر بأكمله وجدنا ضالتنا ؛ منزلا مناسبا جدا، نقطن فيه الآن، ولكن الحلو لا يكتمل، وبسبب مشكلة غاية في الغرابة، نجد أنفسنا مضطرين للبحث عن سكن آخر في أقرب فرصة ممكنة. المنزل في الواقع ممتاز، وهو تجديد لبناء قديم، ولهذا سوف أصفه لك ليكون لديك فكرة عن المساكن الراقية في القاهرة ؛ كما أن تصميمه الداخلي سوف يوضح لك سبب المتاعب التي

تعرضنا لها .

الدور الأرضى مكوّن من فناء مفتوح للسماء، تحيط به حجرات ترتفع لعدة طوابق، و به خمس حجرات، الكبرى منها لاستقبال الضيوف من الرجال، تسمى المندرة فى وسطها نافورة ماء، ثم غرفة الشتاء، وأخرى صغيرة للنوم، ينزل بها الضيوف من الرجال ؛ بعد ذلك مطبخ وغرفة صغيرة للخدم ؛ على يمين باب الشارع تماما مدخل الحريم الذى يقود إلى درجات، تؤدى إلى حجرات النساء ؛ وباستثناء حجرات الدور الأرضى يعتبر البيت بأكمله «الحريم». فى الطابق الأول غرفة مرصوفة بالرخام، سقفها مفتوح من جهة الشمال، و به ميل إلى أعلى مما يساعد على دخول نسمة عليلة إلى المكان. هناك أيضا خمس حجرات أخرى بهذا الطابق، اثنتان رئيسيتان، تنقسم الأرض فى كل منهما إلى قسمين، الجزء الأكبر أى حوالى ثلاثة ارباع المساحة يرتفع بنحو خمس أو ست بوصات، أما الجزء المنخفض فمرصوف بالرخام، و يترك فيه «الخف» الخارجى ليظل الجزء المرتفع المغطى بالبسط طاهرا غير مدنس. ويلبس فى القدم بالإضافة إلى الجورب نوع من «الخف الداخلى» يصنع كله من الجلد المراكشى الأصفر اللون الناعم ويسمى «المزْ» أما الخف الخارجى الذى لا كعب له فيطلق عليه «البابوج». وكثيرا ما ينزلق هذا البابوج من قدمىّ وسوف يظل ينزلق لأننى لن أتعود أبدا مهما حاولتُ على طريقة السير بجرِّ القدمين كما تفعل نساء هذا البلد. وعند ارتداء ملابس الخروج أوالركوب يبدل «المز» بجوارب عالية من الجلد المراكشى وفوقها «البابوج» كالمعتاد ولونها دائما أصفر فاتح.

وجدران المنزل بيضاء مطلية بالجير، وأسقفها من الخشب المنحوت المنسق بطريقة تنم فى الغالب عن ذوق رفيع ؛ وبجانب الغرف التى ذكرتها، جناح خاص يتكون من ثلاث حجرات صغيرة، أرضيتها من الرخام، الأمامية للجلوس وأخرى للاسترخاء، وثالثة للحمّام. كنا نهنئ أنفسنا على هذا الترف ولم يخطر ببالنا أن هذا الجناح سوف يصبح أبغض مكان فى المنزل. أما الطابق العلوى فيتكون من أربع غرف، الرئيسية منها تطل على سطح جميل جدا، يرتفع بكثير عن سائر المنازل المحيطة، ونحن نتمتع بتناول طعام الإفطار والعشاء به تحت سماء صافية لا

مثيل لها فى العالم كله. نتذكر دائما أن هذا النسيم العليل الذى ينعشنا فى صباح و مساء الأيام التى تشتد فيها الحرارة والرطوبة، إنما يهب من ناحية وطننا العزيز، وهذا يضاعف من حبنا له.

بعد قضاء بضعة أيام هنا، دُهشنا حين علمنا أن الخدم لا يستطيعون النوم ليلا بسبب طرق متواصل وبسبب ظهور ما يدّعون أنه عفريت أو روح شريرة أو شبح. فى صبيحة يوم، أزعجنا صوت شجار تحت نوافذنا وعندما استفسر أخى عن السبب من أحد الخدم أجابه «الأمر ليس ذا بال يا أفندى ولكن الموضوع وما فيه هو أن بالحمام عفريتا». أردف أخي وهو العليم الخبير بمعتقداتهم «وهل رأيت حماما فى الدنيا لا تسكنه العفاريت؟» أجاب الرجل «بالطبع يا سيدى هو كذلك، ولكن هذا العفريت يقيم فى المنزل منذ زمن بعيد، ولن يسمح لأى ساكن آخر أن يبقى فيه دون أن يزعجه ؛ إنه لا يسمح ببقاء أحد أكثر من شهر واحد، اللهم إلا الشخص الذى عاش هنا قبلك والذى كان عنده خدم وحشم وجنود وعبيد، وحتى هو لم يستطع البقاء سوى حوالى تسعة أشهر لأن العفريت كان يؤرق نوم أسرته طول الليل». وبالمناسبة أذكر أن خادمتين تركتا الخدمة عندنا خلال الفترة القصيرة التى قضيناها فى هذا المنزل دون الإفصاح عن السبب، اختفتا فجأة، ولم ترجعا ؛ الآن بعد سماع قول الرجل أدركنا سر تصرفهما. فى الواقع كنا نحن أيضا نسمع ضجيجا مزعجا، يقلق نومنا، ولكننا كنا نعزو هذا لمظاهر الابتهاج التى كان يعبر بها جار لنا عن سعادته بمناسبة عرسه. كانت الاحتفالات غاية فى الافراط والاسراف ربما لأن العريس كهل عجوز، وعروسه صبية يافعة. لن أخوض فى وصف تفاصيل العرس، فسوف أذكر فى فرصة مقبلة الطريقة التى يحتفل بها القوم بالزفاف، يكفينى الآن القول بأن الضجيج كان يصم الآذان طوال ثمانى ليال، وعندما تعودنا وتيرة الضوضاء المستمرة أذعرتنا فجأة ثلاث طلقات مدوية من أسلحة نارية، رنت فى أرجاء منزلنا ومنازل الجيران وهزتها من أساساتها. ليس من المستغرب إذن أننا لم نسمع الأصوات التى أقلقت خدمنا المساكين، هذا بالإضافة إلى الضوضاء المتواصلة الآتية من الشارع.

بحثنا الموضوع، وعلمنا أن الرجل الذى كان يمتلك هذا البيت فى الماضى والذى

وافاه الأجل منذ فترة، كان أثناء إقامته هنا قد قتل بائعا متجولا دخل فناء الدار ببضاعته كما قتل أيضا جاريتين له ؛ أما إحداهما وكانت زنجية فقضى عليها فى الحمام. ليس من المستغرب إذن أن يكون لمثل هذه القصة التى تبدو واقعية أثر فعال فى أناس تعودوا الإيمان بالخرافات والخزعبلات. مع الأسف أن أخى كان يجهل هذه الحوادث حينما استأجر المنزل، ولو علم بها لأدرك أنه من المستحيل التغلب على المعتقدات خصوصا لدى الطبقة السفلى، وأنه من المحال أن تظل عندنا خادمة فى مثل هذه الظروف. أوضح البواب بطريقة طريفه السبب المفاجئ لاختفاء الخادمتين. «بالله لماذا تركتكما أمينه و زينب ؟.. طبعا يا سيدى خوفا على نفسيهما. حينما رأت أمينه العفريت صاحت لتوها : يجب أن أترك هذا البيت إذ لو صادف أن مسني، سوف أصاب بالهوس، وعندئذ لن أصلح للخدمة». وأردف البواب يقول «فعلا كان هذا ما سيحدث، أما بالنسبة لنا نحن الرجال فلا نخاف ولكننا نخشى على الحريم. لا بد أن تتدبر الأمر وتترك هذا البيت». كان هذا فى رأيه فصل المقال. قال له أخى «دعنا ننتظر بضع ليال أخر، وإذا ظهر العفريت هذه الليلة، استدعونى فى الحال ؛ كان من الممكن القبض عليه بالأمس، حينما قلت إنه قريب منك، وكنّا وقتئذ أعطيناه علقة ساخنة، تريحنا من مناوشاته إلى الأبد» واضح أن هذه الكلمات أفزعت الخادمين خصوصا أنهما صدرت عن سيدهم الذى يُكنان له كل احترام وتبجيل. صاح أحدهما «يا أفندى هذا عفريت، وليس ابن آدم، كما يبدو أنك تظن. بالأمس انتحل أشكالا خرافية، وحينما مددت يدى للقبض عليه، تحول إلى حبل أو شئ آخر تافه من هذا القبيل». فى الواقع إنهما خادمان ممتازان وسوف نأسف لو فقدناهما خصوصا فى الحالة التى نحن فيها، لذلك هدأ أخى من روعهما ووعدهما بالبحث عن سكن آخر، إن لم تكف المضايقات هنا. ولكنه ليس بالأمر الهين العثور على منزل مناسب خارج وسط المدينة ؛ إذ نرى من الضرورى للحفاظ على صحة ولدىّ أن نسكن فى غرب المدينة بالقرب من الضواحى حيث الهواء نقى وصحي، وحيث نُفذ أمر إبراهيم باشا بإزالة أكوام القمامة من مساحات واسعة من الأرض وزرعها بأشجار مختلفة مثل الزيتون والنخيل والسرو والسنط و غيرها. وهذه المزارع مفتوحة للجمهور ومناسبة جدا لنزهة الأطفال.

فاتنى أن أذكر لك أن الرجل الحقير عديم الضمير الذى كان فى الماضى يمتلك هذا البيت كان ـ ربما تكفيرا عن جرائمه ـ قد أوقفه على مسجد بشرط أن يظل فى حوزة مالكته الحالية طوال حياتها. وهنا يخطر ببالى حادثة لم نكن نفهمها حينذاك ولكن يمكن تفسيرها الآن فى ضوء ما حدث. فى اليوم السابق لانتقالنا هنا، أرسلنا أحد الخدم ليستأجر بعض النسوة لتنظيف البيت تحت اشرافه، وحينما وصل رفضت صاحبة البيت (واسمها لالا زار، أى حوض الزنبق) أن تسمح له بالدخول، قائلة «ارجع إلى الأفندي، واخبره أننى أقوم بخبز بعض القرص فى فرن المطبخ لأحملها باكرا إلى القرافة، و أوزعها على الفقراء والمساكين عند قبر المرحوم صاحب البيت الأصلي. وهذا عمل خير من أجل سيدك ومن أجلى أنا، وسوف يقدّرسيدك هذا». مسكينة ! واضح الآن أنها كانت تأمل أن يكون عمل الخير هذا بمثابة كفّارة تمنع بها أى مضايقات لمستأجريها وبالتالي، الخسارة المادية لها.

فى صباح اليوم التالى للحديث السابق، كان تقرير الخدم أفضل بكثير. قالوا إنهم أمضوا ليلة مريحة، وداعبنا الأمل أن نظل هنا، لكن فى اليوم الذى يليه قوبلنا بقصة غاية فى الغرابة. أخبرنا البواب بصوت يرتجف من الفزع أنه لم يذق طعم النوم إطلاقا ؛ لأن العفريت كان يطوف طوال الليل فى الشرفة الداخلية بالقبقاب ! وأنه طرق بابه عدة مرات بقطعة من الحجر أوشئ صلب. هنا بادرناه بالسؤال، لماذا لم يستدع أخي، كان الرد حاضرا، خوفا من العفريت الذى كان يتجول فى الشرفة ليلا، يطرق بعنف كل باب يقابله. تكررت هذه الأصوات عدة ليال، وكثيرا ما كانت تبدأ فى المساء قبل أن نأوى إلى فراشنا. لم نكتشف الجانى مما جعلنى أخاف على ابنىّ، لم أكن أخشى أى أذى جسماني، قدر ما خشيت الضرر النفسى و الجنوح إلى الخرافات والخزعبلات التى تفسد العقل البشرى أيما إفساد.

هناك حادث غريب آخر صاحب المضايقات التى تعرضنا لها، وهوعثورنا فى صباح عدة أيام متتالية على خمس أو ست قطع من الفحم ملقاة أمام الباب المؤدى إلى غرف نومنا. يدل هذا، حسب المعتقدات السائدة فى هذا البلد، على الدعاء بأن يحل الشر علينا، مثل قول «فلتسوَّد وجوهكم». الشيء الوحيد الذى يريحنى

فى هذه الظروف المزعجة أن ولدىّ يعتبرونها دعابة، تثير الضحك ويعتقدان أن هناك شخصا أو عدة أشخاص أشرار أعجبهم المنزل بدرجة جعلتهم يصرون على اقتنائه وطرد أى سكان فيه بواسطة الأصوات المزعجة والمضايقات المختلفة. ولكن الأمر أكثر جدّية بالنسبة للمسكينه لا لا زار فواضح أن تركة المالك السابق لن تكون أبدا ذات فائدة لها أو للمسجد. وسوف تندهشين حين أخبرك أن إيجار هذا المنزل لا يتعدى اثنى عشر جنيها فى السنة. والمنزل فخم، يفوق بكثير سائر المنازل الأخرى مما جعل أهل البلد يطلقون عليه اسم «بيت الأمير».

شىء واحد أسفنا له جدا، وهو اختفاء أمينة التى سبق أن ذكرتها فى أول هذا الخطاب، كانت أحسن خادمة عندنا بأسلوبها الوديع المهذب وسلوكها الفاضل المحتشم، ومع الأسف لم تصادفنى أخرى فى مثل كفاءتها. الخدم من الرجال ممتازون كما أن ولاءهم لأسيادهم شديد إذا عوملوا معاملة حسنة كما يستحقون. أما الخادمات، كيف أصفهن ؟ لا أظن أنهن يغتسلن سوى حينما يذهبن إلى الحمام العمومى أى مرة كل عشرة أيام أو كل اسبوعين. فى هذه المناسبات يحدث صقل عام (لا أجد كلمة أنسب لعملية الحمام هذه)، وتصفف شعورهن الطويلة فى جدائل عديدة لا تفك إلا عند الزيارة التالية للحمام. أقول هذا من الواقع ومن تجربتى الشخصية وتجربة أصدقائنا فى هذا البلد ؛ كنت ألاحظ أفعالهن، وأنا فى أشد الضيق والاستياء، طبعا باستثناء أمينه التى كانت جوهرة بينهن. هؤلاء الخادمات مخادعات إلى أقصى حد، إذا طلب منهن عمل يظهرن الاستجابة والخضوع ولكنهن فى الواقع يتهربن من أبسط الأشغال. وعلى عادة أهل البلد، لا يبدلن ملابسهن عند النوم، وإذا أضفت إلى هذا إهمالهن فى الاغتسال، نجد أن هؤلاء الفتيات لا يشعرن أبدا بالانتعاش والنشاط. مع الأسف أنهن لا يواظبن على تعاليم دينهن الذى يأمر بالاغتسال الدائم، وإلا كنّ أكثر نظافة، ولكن قلما نجد لدى الطبقات السفلى من النساء أى دين بالمرة.

حقيقة أنت محظوظة فى انجلترا بالنسبة لهذا الموضوع و سواه، لذا أرى من الضرورى أن تعطى خادماتنا الإنجليزيات حقهن من التقدير إن لم تكونى قد فعلت هذا بعد.



الرسـالة

الخامسة

رمضان

شهر الصيام:

١٨ أكتوبر،

رمضان ١٨٤٢

صديقتى العزيزة،

إن أهم موضوع يشغل أحاديث أهل هذا البلد فى الوقت الحاضر، هو حال النيل الذى لا يزال يرتفع حتى الآن (١٨ أكتوبر)، ويسبب قلقا شديدا وخوفا من تفشى الطاعون حينما تنحسر مياه الفيضان. فى عام ١٨١٨ استمر الارتفاع حتى ١٦ أكتوبر، ولكنه لم يتأخر هكذا منذ ذلك الحين أو قبله. ولقد غمرت المياه الجزء الأسفل من منزلنا بل إنها وصلت إلى ارتفاع قدم فى بعض شوارع القاهرة، وتدفقت فى عديد من المنازل.

اليوم هو الثانى عشر من رمضان، أى شهر الصيام. إننى أشفق من كل قلبى على كل صائم،

فالجو عاد ثانية شديد الحرارة، ومن المدهش حقا أن يحافظ المرء على هذا الفرض ويحرم على نفسه من مطلع الفجر إلى غروب الشمس، ولو جرعة ماء. أعتقد أن كثيرين جدا يلتزمون فعلا وبكل إخلاص بالصيام، وشوارع القاهرة فى هذا الشهر تعطينا حقا صورة مسلية لتصرفات الأهالى المختلفة. بعضهم يجلس عاطلا ممسكا بعصا مزركشة أومسبحة في يده، فى حين نرى أولادا يصومون لأول مرة، بل بعض الرجال أيضا، يحاولون الترفيه عن أنفسهم وتسلية صيامهم بألعاب صبيانية وما أكثر من يظهرون بشتى الطرق أن الصيام لا يساعد على تهذيب حدَّة طبعهم!

منذ بضعة أيام، رأيت بالقرب من مسكننا الحالي، قبل مغرب الشمس بقليل، امرأة عجوزا، تقود زوجها الضرير من يده، وتحمل غليونه معدًا ليتمتع به حينما يحل له ذلك. حنى الزمن والوهن منهما الظهر وحزنت لأنه من الواضح أنهما من الصائمين؛ كان منظرا مؤثرا يدعو إلى الشفقة والتبجيل فى آن واحد، وحيث إنه من الملاحظ أن العديد من المسنين يهبطون إلى مثواهم الأخير مع انتهاء شهر الصوم فقد شعرت نحوهما بالخوف من أن يلحقهما أذى.

أما علية القوم من المسلمين، فغالبا ما يُحولّون الليل نهارا خلال شهر رمضان، ولهذا قلما يُشاهدون في الطرقات. معظمهم ينامون من الفجر حتى العصر، ومنهم من يفطرون في الخفاء. لا أظن أن عامة الشعب يسلك مثل هذا المسلك ؛ في الواقع لا يستطيع أحد أن يسمع صيحات الفرح التي تعلو ويملأ صداها أرجاء المدينة حينما يطلق مدفع من القلعة وقت المغرب معلنا نهاية الصيام لبضع ساعات، دون أن يغبط القوم على نهاية يوم من أيام رمضان. لا يوجد صوت يضاهي روعة النداء لصلاة العشاء من المآذن العديدة. وقد ذكرت لك إحساسنا حينما سمعناه لأول مرة بالإسكندرية، ولكن هنا في القاهرة، فإن وقعه أعمق بكثير. أحيانا، حينما تكون الريح مواتية يمكننا سماع ما يقرب من مائة صوت رخيم في وفاق تام وقور ؛ يقف المؤذن بين السماء والأرض ينادي البشر لعبادة رب الكون... آه ! كم أتمنى كلما انطلقت هذه الأصوات مع نسيم الليل، أن يهمس كل مسيحي يسمعها بصلاة صامتة ترتفع إلى الملكوت الأعلى طالبة لهم الرحمة، فهم بأمس الحاجة إلى الشفقة إذ إن نور الإنجيل في بلدهم، ولكن وا أسفاه ! لقد حُجب عنهم هذا النور، وعَميت عيونهم بسبب التعصب، و أيضا (لأكون صريحة) بسبب سلوك كثير من الأوربيين المقيمين بينهم، والذين يدّعون أنهم مسيحيون، لهذا ومن أجل خطايا الآخرين، يبذل المسيحي الصادق جهده هباء. لست ممن يلقي اللوم جزافا ولكن كثيرين من أصدقائنا هنا، من ذوي المكانة الرفيعة، يضمون صوتهم إلى صوتي مستنكرين أفعال هؤلاء المسيحيين بالاسم فقط، الذين يسيئون باستهتارهم إلى سمعتنا لدى المسلمين، المتحاملين أصلا ضدنا. هذه المدينة ذات الأهمية الأزلية يمكن أن تعتبر الآن ضمن «الطرق المطروقة» على نطاق واسع، وأتمنى أن يأتي اليوم الذي لا نخجل فيه أن يقال : »هؤلاء مسيحيون».

إن أشهر التقويم الهجري قمرية، ومن ثم فهي تتخلف دوما عن الأشهر الميلادية ؛ فحينما يقع شهر رمضان في فصل الصيف يكون فرض الامتناع عن شرب الماء طوال يوم حار، صعبا وذا آثار وخيمة. يفطر المسلم الصائم عند مغرب الشمس ؛ وعادة ما تبدأ هذه الوجبة ببعض المرطبات الخفيفة مثل الفطائر والزبيب و نحو ذلك، حيث أن كثيرا من الناس يشعرون، بسبب الصوم الطويل، بضعف شديد

يحول دون تناولهم وجبة كاملة فى الحال، ولذلك نجد من «يشق ريقه» فقط بكوب من العصير أو بفنجان من القهوة. يتبع ذلك وجبة كاملة تقوم مقام العشاء المعتاد، يخلدون بعدها غالبا للنوم لفترة قصيرة. ومن الشائع أن يطوف مناد بعد المغرب بساعتين بالأحياء المختلفة، يقرع طبلة صغيرة عند باب كل بيت ويحيى أهله بكلمات إطراء. كما أن آذان صلاة الفجر يكون أبكر من المعتاد بحوالى ساعة ونصف ليذكر الجميع بحلول وقت تناول الوجبة الثانية ؛ والمنادى يطوف مرة ثانية بالأحياء المختلفة محدثا ضجيجا، يواظب عليه حتى يوقظ أهل كل بيت طَلَبَ منه هذه الخدمة. وهكذا ترين أنهم لا يوفرون جهدا ليذكروا الصائم بفترة الرخصة؛ ومما يدعو للعجب تنوع الأصوات التى تزعج ليالى هذا الشهر المتعب. وفجر كل صباح، يطلق مدفع الإمساك عن الطعام من القلعة محدثا دويا شديدا نكاد المدينة أحيانا، ترتج معه من أساسها. رغما عنا، نضطر لسماع تلك الأصوات التى ذكرتها من خلال فتحات مشربيات النوافذ. حقيقة أن نوافذنا مهيأة بضلف زجاجية علاوة على المشربيات الخشبية المنقوشة، ولكن الزجاج لا يغلق إلا فى الشتاء إذ إن النوم يتعذر خلال الموسم الحار إلا إذا فتحت جميع النوافذ، وإن أمكن الأبواب أيضا. قياسا على دهشتى لدرجات الحرارة الشديدة التى مرت بنا منذ مجيئنا، أظن أنه لا يمكنك تصور مداها. وقد حدث منذ بضعة أيام أن فتحت صندوقا من الكرتون مليئا بشمع الأختام ووجدت أن كل ما به، قد تحول إلى كتلة مستطيلة بشكل الجزء الأسفل للصندوق.

أما فيما يخص الحشرات فى مصر، فإنى أظن حقيقة أن الذباب أكثرها إزعاجا لكثرته ومضايقاته المستمرة. ومن الممكن وضع شبكات على الأبواب والنوافذ لمنع دخوله ؛ ولكن هناك أياما و أسابيع وأشهر تكون فيها وطأة الحر بمصر بالغة الشدة. فلا نرغب فى أن يحول أى شيء حتى الشبكات، دون مرور الهواء. البعوض أيضا مزعج جدا فى الصباح والمساء مما يقلل من متعة الاستيقاظ المبكر، وهذا يسبب لنا فعلا كثيرا من الضيق، إذ إننا نجد أمتع الساعات فى الصباح الباكر وفى الأمسيات العليلة بعد غروب الشمس. كما أن البق يكثر فى المنازل العتيقة ولكن لحسن حظنا، لم نتعرض لمضايقات هذه الحشرات المقززة. يقولون إن البراغيث مزعجة جدا فى هذا الموسم، ولكن الموسم لم يبدأ بعد بالنسبة لنا ؛

وأعتقد وأتمنى، أن يكون للنظافة في بيوتنا أثر فعّال لمنع اهتمامها بنا. وقد سمعت مرة من محاضر في التاريخ الطبيعي ما يفيد بأن هناك بعض الحشرات لا يليق ذكر اسمها في الأوساط الراقية ولهذا، لن أذكر اسمها هنا يا صديقتي العزيزة، ولكننا رأينا خمسة منها. لقد وصلت إلينا على خمس فترات مختلفة في لفائف من الأقمشة الجديدة من أحد الأسواق وهذا يجعلنا نمعن النظر بدقة شديدة في كل شيء جديد، يؤتى به لنا.

والجرذان أيضا، مزعجة للغاية ولا يوجد ما هو في مأمن من نهبها إلا إذا حُفظ في خزانات من السلك، أو عُلّق في السقف بعيدا عن الحيطان. إن هذه الحيوانات تجول وتصول في غرف نومنا أثناء الليل، ويبدو لي أحيانا أنها تدخل من النوافذ المفتوحة ؛ إنها عامة غير مؤذية ولكنها مزعجة بما يكفي. السحالي أيضا شائعة جدا ولكنها لا تضر إطلاقا، وكل اهتمامها ينحصر في مطاردة الذباب على النوافذ والسقف، و يبدو أنها تقتات عليه.

لم أكمل كتابة هذا الخطاب طيلة أسبوع بأسره على أمل أن أخبرك أن فيضان هذا العام قد انتهى، والآن يمكنني أن أبثك هذا النبأ ؛ ولكن يجب أن أذكر أولا أننا عانينا من عاصفة هوائية غير عادية مصحوبة بسحب من الغبار اضطررنا لشدّتها أن نغمض أعيننا، وننتظر بصبر حتى يهدأ إلى حد ما، عنفوانها. حينما هدأت العاصفة، ألقينا بناظرنا على المدينة فلم نر سوى أعالي المآذن فوق بحر من الغبار وأشجار النخيل الشامخة تنحني أمام اندفاع قوة الريح. لقد سمعت ذات ليلة منذ قدومنا إلى القاهرة، صوتا مخيفا يشبه هذا الإعصار ولكني لم أر عواقبه حتى هذه اللحظة. لم يكن ريحا مثل التي يسميها الشرقيون زوبعة أو ريح الخماسين أو السموم ؛ إنما هي ريح قوية جارفة تأتي من الشمال الشرقي. إنني أتعجب حينما أرى آثار القاهرة العديدة، كيف أمكنها تحمل مثل هذه الأعاصير القوية. ومن المعتاد أن يسبق ويتبع مثل هذه العاصفة، هدوء تام.

اليوم هو الخامس والعشرون من شهر أكتوبر ويتفق معه بداية انخفاض النيل ؛ وهو غالبا كما ذكرت، يبلغ مداه في أواخر شهر سبتمبر. وليس من المستغرب أن الفيضان عال، فالسبب لما حدث هذا العام والعامين السابقين، هو إنشاء عديد من

الحواجز الجديدة ؛ ولكن من غير المألوف إطلاقا تأخر الفيضان هكذا. لقد كان ارتفاعه شديدا يوم ٢٣ من هذا الشهر ثم انخفض الارتفاع يوم ٢٤ ، ولا يذكر أحد ممن نعرفهم من الأهالى أن هذا حدث من قبل.

فى الأشهر الثلاثة الماضية، عم وباء ممض بين الأبقار مما ذكرنا بالطاعون الذى ابتلى به هذا البلد أيام موسى، ولقد شعر الفلاحون البائسون بفداحة الكارثة أو بالأحرى يجدر بى أن أقول الذين يمتلكون ماشية ؛ أما أثرياء البلد فقد كانت خسارتهم باهظة. ولقد لاحظنا، وكما ذكرت لك فى خطاب سابق، فأثناء رحلتنا جنوبا فى النيل، رأينا عديدا من البقر والجاموس الميت، يرقد فى النهر، كما أن بعض الأصدقاء الذين تبعونا بشهرين، شاهدوا كثيرا منها على الضفاف ؛ بل إن أعدادا كبيرة من المواشى تموت فى كل أرجاء البلاد حتى الآن مسببة اضطرابا شديدا، وهذا ما جعلنى أعاود ذكر هذا الموضوع.



الرسالة السادسة

موكب المحمل

موكب المحمل

نوفمبر ٢٦

صديقتي العزيزة،

لقد رجعت لتوي من مشاهدة موكب المحمل الطريف، استعدادا لرحيل قافلة الحجاج الكبيرة إلى مكة. [١٤] قمنا مبكرين، ومضينا راكبين لمدة ساعة تقريبا حتى وصلنا إلى شارع المدينة الرئيسي المواجه لخان الخليلي، أهم سوق تركي بالقاهرة. إنني مقتنعة تماما أن الحمير هي أكثر وسائل النقل أمنا في طرقات هذه المدينة. والسيدة لا تمتطي سوى الحمار بعد وضع قطعة من السجاد فوق السرج. أما الأسياد فيستخدمون الآن الخيل أكثر من الحمير مع أنها تسبب متاعب عديدة لراكبيها. صباح اليوم مثلا، سمح للحمير التي تمتطيها أن تسلك طريقها وسط

١٤) لاحظ أن المؤلفة تصف هنا رحيل المحمل مع تحرك قافلة الحجاج إلى مكة المكرمة، في حين أن لين يصف فقط عودة المحمل إلى القاهرة Modern Egyptians, PP. 437-442..

الجمال المحملة في حين مُنعت الخيول مرارا من الاستمرار في السير . أما أنا ، فكنت أخشى أن تطيح بالات البضائع الضخمة بابنيّ من فوق الحمير ، ولم يزل هذا القلق بالرغم من العناية الفائقة التى بذلها أتباعنا الذين ظلوا يُحيطون كلا الولدين بأذرعهم ونحن نجتاز أخطر الطرقات . أؤكد لك أن المرور في شوارع القاهرة مفعم دائما بالمخاطر وخصوصا في مواسم الاحتفالات .

لقد استأجرنا لمدة يوم واحد ، غرفة بالطابق الأول تطل على الشارع ، وما كدنا نستقر في أماكننا حتى بدأت ضجة غريبة مصدرها شرذمة من الصبية مزودون بعصي ينهالون بها بالضرب على كل مسيحي ويهودى يصادفهم (هذه عادة مسموح بها في أيام هذا الموكب) . (١٥) وقد شاء سوء الطالع أن يُهاجم فرنجى على هذا النحو تحت نافذتنا ، ولم ينقذه بصعوبة سوى تدخل بعض الأهالى الذين أبدوا نحوه كثيرا من العطف . هنأنا أنفسنا اليوم على مظهرنا الشرقي ، وأننا أتقنّا التعامل مع ملابسنا حتى لا نثير الشكوك . أذكر أنه في ذات يوم تعثر الحمار الذى كنت أمتطيه فصاح أحد المارة من الأتراك « يا ساتر » ، ولا أظنه يطلب لى الستر لو علم أنى إنجليزية . إن التحامل ضد الاوربيين شديد خصوصا بعد ما يقال إنهم أشاروا على الباشا بضرورة الاهتمام بالجوانب المالية . ولكن دعينا اليوم من هذا الموضوع ، لأخبرك عن الموكب وهو لا يزال حاضرا في ذهني .

تقدم الموكب رجلان شاهران سيفيهما ، ويقومان من آن لآخر بمبارزة وهمية ؛ يتبعهما مهرج ، يمتطى صهوة جواد ، على رأسه طرطور طويل مدبب ، وله لحية كثة من التيل المجدول ويرتدى فروة كبش . وكان يمسك في يمينه عصا رفيعة ، وفي يساره رزمة من الورق يتظاهر بكتابة فتاوى قضائية وعلى وجهه تعبير الضاحك

---

(١٥) يذكر لين في الجزء ٢ من كتابه (ترجمة عدلى نور) ص ١٠٨ / ٩ : «هناك عادة غريبة يسمح بممارستها بمناسبة موكبى المحمل والكسوة . . يطوف جماعة من الأولاد شوارع القاهرة وقد تسلح كل منهم بقطعة قصيرة من رءوس السعف الغليظ ، تشق شقين أو ثلاثة من طرفها الأكبر إلى نصف طولها ، وتسمى «مقرعة» . فإذا دنوا من مسيحى أو يهودى طلبوا منه أن يمنحهم خمس فضة أو ستا قائلين : «هات العادة» . فإذا رفض انهالوا عليه بمقارعهم . وفي العام الماضى ضرب بعض الأولاد أفرنجيا ، جريا على هذه العادة ، فلجأ إلى وكالة كبيرة ، غير أن بعض الأولاد تبعوه ، وضربوه مرة ثانية ، فاشتكى إلى الباشا الذى أمر بتوقيع الجلد على شيخ الوكالة لعدم حمايته إياه . .

الباكي . يلى ذلك ، قبل الظهر بساعة ونصف ، مدفع القافلة النحاسى الصغير ، يتقدمه فرقة من المشاة النظاميين ، ويتبعه فرقة أخرى على رأسها جوقة بآلاتها الموسيقية الأوربية . لا يمكننى أن أمتدح العزف ، ولكنه كان على الأقل ، أقرب شيء للموسيقى مما سمعته في مصر . إلا أننى لم أستمع بعد إلى المحترفين من مطربى هذا البلد ؛ ولقد أخبرنى بعض الذوّاقة أنه إن لم ترق لى الألحان التى ينشدونها فسوف تبهرنى مهارتهم ونبرات أصواتهم .

تبع الجنود ، موكب ضخم من الدراويش . جاءت السعديّة في المقدمة ، يحملون رايات عديدة ، على معظمها أسماء الله ومحمد ومؤسس الطريقة ، مدوّنة على خلفية من الحرير الأخضر . كان أغلب هؤلاء الدراويش يقرعون نوعا من الطبول الصغيرة تسمى «الباز» تُمسك فى اليد اليسرى ، وتُقرع بسيْر قصير سميك ، بعضهم يدقون الدفوف ، والجميع يرددون هتافات دينية لأسماء وصفات الجلالة مع هز الرؤوس المستمر ذات اليمين وذات اليسار . ومما زاد من كون هذه الحركات ملفتة للأنظار أنهم كانوا يرتدون قلنسوات عالية جدا من الصوف ؛ شدَّ انتباهنا إليهم ما كانوا يلبسونه من مختلف الأزياء بالإضافة إلى الجدّية البيّنة فى مسلكهم . تبع هؤلاء الدراويش مجموعَة من طائفتهم الأم «الرفاعية» ، يحملون رايات سوداء ، ومثلهم يدقون الباز والدفوف ، ويرددون الهتافات ذاتها و فى مؤخرتهم ، فوق صهوة جواد ، جاء شيخهم ، رجل وقور فوق رأسه عمامة ضخمة سوداء . بعد ذلك مر دراويش «القادرية» يرفعون شعائر طائفتهم ، وهو عبارة عن أعواد من جريد النخيل مثل قصبة الصيد ؛ وأيضا شباك صيد شُدَّت على أطواق رفعت على عيدان طويلة ، تحفها وتتدلى منها أسماك صغيرة و كانوا يحملون رايات بيضاء . تبعهم فى المسيرة دراويش «الأحمدية» و«الإبراهيمية» براياتهم الحمراء والخضراء ؛ و بعدهم مباشرة ، جاء المحمل .

المحمل ليس سوى رمز للمُلك ، ولا يحتوى على شيء ، ولكن مُثبت فيه من الخارج فقط ، نسختان من القرآن فى غلافين من الفضة المذهبة . وهو يشبه الهودج المحمول فوق ظهر الجمل ، ويرافق قافلة الحجاج كل عام ويكون لهم ، إن جاز لى استخدام التعبير ، بمثابة الشعار . ويظن الكثيرون أنه يحتوى على الكسوة أى غطاء

الكعبة الجديد، ولكنهم مخطئون. إن أصل هذا الاحتفال، كما يرويه كتاب «المصريون المحدثون» هو أن: شجر الدُر، (وعادة تسمى شجرة الدر)[١٦] الأمَة التركية الجميلة، التي أصبحت الزوجة المفضلة للسلطان الصالح نجم الدين، ونصبت نفسها ملكة على مصر بعد وفاة ابنه - الذى كان آخر سلالة الدولة الأيوبية - قامت بأداء فريضة الحج فى هودج بهيج يحمله جمل ؛ ولعدة أعوام بعد ذلك كان هودجها الخالى يرافق قافلة الحج كرمز للدولة. وعلى هذا، صار من تبعها من أمراء مصر يرسلون كل عام مع قافلة الحجاج، ما يشبه الهودج و عرف باسم المحمل كشعار للسلطة وقد حذا ملوك دول أخرى حذوهم. كان غطاء المحمل عادة من الدمقس الأسود، ولكن الذى رأيته صباح اليوم، كان أحمر اللون، وقيل لى إنه يبدو رثا حين يقارن بالسنوات الماضية، يقول أخي : إن هناك فى الواقع تدهورا ملحوظا من حيث مظاهر عظمة هذا الموكب من عام إلى عام نتيجة لأن الدولة تقتصد من المال الذى كان ينفق لهذا الغرض ؛ ولكن بالنسبة لى ولمن لم يشاهده من قبل، كان المنظر مبهرا للغاية. لم يتقدم الموكب كما جرت العادة فى الماضي، عظماء القوم بملابسهم المذهبة، وكذلك الجمال لم تُزيَّن.

بعد ذلك جاء فوق صهوة جواد بهيج، الشيخ شبه العارى الذى ظل لعدة سنين مضت يتبع المحمل ويقوم بهز رأسه بحركة دائرية متواصلة، ويتقاضى على هذا العمل المجيد منحة من الحكومة. إذا كان هو الرجل نفسه الذى يقوم عاما بعد عام بهذه الحركة السخيفة (قيل لى إنه هو بعينه)، فإننى أعجب أن رأسه تحملت مثل هذه الحركات غير الطبيعية على هذا المدى الطويل ! تبعه عدد من الجمال والخيول المساقة، زينتها براقة ولكن غير مُكلفة. زُينت الجمال بطرق مختلفة ؛ بعضها تدلت أجراس صغيرة على جانبى رحال مغطى بقماش ملون، وغطى بعضها الآخر بجريد نخيل، أو ريش الطاووس أو رايات صغيرة مثبتة على رحال مزدان بالودع. ثم جاءت فرقة من الجنود النظاميين يتبعهم أمير الحج (أى رئيس الحجاج). ثم مر

---

(١٦) يجب التنبيه إلى أن لين يلتزم بالتسمية الأصلية وهى «شجرة الدر» ويضيف أن تسمية «شجرة الدر» شاعت فيما بعد، انظر: E.W.Lane, Modern Egyptians p. 440 ؛ يكتفى مترجم الكتاب، عدلى نور باستخدام الاسم الشائع «شجرة الدر» جـ ٢ ص ١٠٦.

عرض لمجموعة الهدايا التى توزع عادة أثناء الحج ؛ ثم عدد من الطبالين فوق ظهور جمال، يدقون طبولا ضخمة ؛ وبعدهم، مجموعة أخرى من الجمال المساقة وعدد كبير من حاملى المشاعل التى تغطى أطرافها العليا مناديل ملونه. » والمشعل قضيب فى أعلاه إطار اسطوانى من الحديد لوضع الخشب، وقد يكون هناك اثنتان أو ثلاث أو أربع أو حتى خمس من هذه الإسطوانات لحفظ النار. » فائدة هذه المشاعل، إنارة الطريق للقافلة التى تقوم بأكبر شوط من رحلتها أثناء ساعات الليل الرطبة. تبع هؤلاء فرقة أخرى من الضباط والجنود ثم محفّة وأمتعة أمير الحج. بعد ذلك مرت أول دفعة من كمية الماء الخاصة بالرحلة يحملها عدد من الجمال، فوق كل جمل أربع قرب ؛ وفى مؤخرة الموكب ظهر عدد من الجمال المساقة.

لو أن زيارتنا اقتصرت فقط على مشاهدة جمهور المتفرجين، كنا جنيْنا ما يكفى من جزاء. لقد كانت الحوانيت ودككها مزدحمة بالناس من كافة الشعوب بأزيائهم و سلوكهم المتنوع مما كان فى حد ذاته دراسة طريفة. وكذلك اكتظت نوافذ الطابقين الأول والثانىْ بالنساء والأطفال والعبيد، كما ظهرت هنا وهناك من خلال المشربيات، ملابس غنية فى تطريزها.

يبدو أن هناك إجماعا عاما بين كل الناس من كافة الطوائف على شيء واحد، وهو شراء أى شيء لأولادهم من كل بائع حلوى يمر، وما أكثرهم فى مثل هذه المناسبات ! ولهذا يتعرض الأطفال المساكين، لنظام من الحشو المستمر أثناء مرور الموكب. هنا تفتحت عينى لعامل جديد يفسر المظهر الكئيب لأطفال هذا البلد. إن آباءهم يحشرون فى أفواههم أى شيء وكل شيء قابل للأكل، دون أدنى اعتبار لفائدته أو عدمه. كيف إذن يمكنهم أن يكونوا أصحاء، أقوياء ؟



الرسالة

السابعة

شوارع القاهرة ودروبها

نوفمبر
١٨٤٢

صديقتى العزيزة،

سبق أن ذكرت لك انطباعاتى عندما قدمت أول مرة إلى القاهرة. وقد ظلت فكرتى عنها مشوشة جدا لفترة طويلة؛ كانت تبدو لى معظمها كسرداب من المنازل الخربة وشبه الخربة ذات هندسة غاية فى الغرابة؛ المظهر العام عتيق وموغل فى القدم حتى أننى دهشت حينما قيل لى إنها كانت تبدو أقل كآبة منذ بضعة سنوات قليلة فقط.[1]

(١) عن الخرائب وسببها، انظر الجبرتى ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م.



موكب عروس فى شوارع القاهرة

تفخر القاهرة باسم «أم الدنيا» وغيره من الألقاب الطنانة. وفى الواقع وبالرغم من تدهور حالها كثيرا منذ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند، وخصوصا فى السنوات الماضية، إلا أنها لا تزال من أهم مدن الشرق. هى إجمالا مدينة عربية الطابع، توجد داخل أسوارها أجمل النماذج للعمارة العربية. المنازل الخاصة عادة، متوسطة الاتساع، الجزء الأسفل منها من الحجر، يعلوه بناء من الطوب، وبعضها لا تعدو أن تكون أكواخا.

الطرقات غير مرصوفة وضيقة جدا، يبلغ اتساعها غالبا ما بين خمسة و عشرة أقدام وأحيانا يكون عرضها أقل من أربعة أقدام؛ إلا أن هناك بعض الطرقات، عرضها أربعون أو خمسون قدما ولكن لمسافات قصيرة فقط. دعينى أصف لك الآن الطرقات بأسمائها المختلفة. هناك الشارع، أو الطريق العام النافذ، وهو عادة غير محدد، سواء من حيث اتجاهه أو عرضه. فى أغلب أجزائه نجد أن عرضه لا يتسع بما يكفى لمرور جملين محملين جنبا إلى جنب، وهذا يسبب متاعب كثيرة للمارة بالرغم من ندرة مرور العربات. وإذا ثقلت الأحمال على الحمير، توضع فوق ظهور الجمال، وكلاهما يستخدم لإمداد سكان القاهرة بماء النيل الذى ينقل فى قرب، الجمل يحمل قربتين والحمار قربة واحدة من جلد الماعز تربط حول الرقبة. كثيرا ما تعطل هذه الحيوانات الحركة فى الشوارع الرئيسية التى غالبا ما تكتظ بالمارة المترجلين والراكبين، فنجد المنظر العام يتسم بالفوضى وشدة الزحام خصوصا حينما تتقابل مجموعتان من الجمال فى مكان لا يسمح بالكاد إلا بمرور واحدة، وهذه ظاهرة كثيرا ما تتكرر. وغالبا ما تستخدم الحمير فى الانتقال من مكان لآخر، إذ إنها تناسب طرقات القاهرة كما أنه من السهل استئجارها فى أى وقت. حتى الأثرياء من المصريين يفضلونها على الخيل لأن خطوتها أسرع وأسلس والجلوس عليها مريح فوق برذعة عريضة زاهية الألوان؛ ومن المعتاد أن يعدو خادم بجانب الحمار يكدّ نفسه بالصياح المستمر ليفسح الطريق أمام سيده. أما السيد فحركته أبطأ وأقل راحة -فهى قلما تتعدى الخطوة البطيئة وبالرغم من الخادم أو الخادمين اللذين يبذلان أقصى جهدهما لإفساح الطريق أمامه فكثيرا ما يضطر إلى الرجوع من حيث أتى؛ ولهذا من النادر أن يرى موكب من الخيالة فى شوارع القاهرة الرئيسية. كما أن هناك بعض الطرقات الضيقة لا يستطيع شخص يمتطى

حوادا أن يمر فيها إطلاقا. ومن المعتاد أن يتبادل أشخاص من الطبقتين العليا والوسطى التحية فى الطريق دون سابق معرفة و كثيرا ما كان أخي يتلقى التحية الاسلامية. اذكر هذا فقط لأبيّن خطأ الرأى الذى يدّعى أن أبناء الشرق يمكنهم بنظرة واحدة الكشف عن الأوربى المتخفى فى إزار شرقي.

ومما لا شك فيه أن الشخص الأجنبى بأفكاره وتخيلاته عن أبهة الشرق وفخامته، سوف يفاجأ لمنظر كثير من الناس بملابس رثة فى شوارع القاهرة. اللون الأزرق هو الغالب، إذ إن الجلباب الواسع المصنوع من القطن أو التيل الذى يرتديه الرجال والنساء من الطبقة الدنيا يصبغ بالنيلة، وهى من إنتاج البلد. وكثيرا ما يرتدى الرجال وخصوصا الخدم، صدرية من الحرير أو الجوخ تحت الجلباب الأزرق. وقد يبلغ الفقر ببعضهم فلا يمتلكون حتى عمامة مهلهلة، ولباس رأسهم الوحيد، طاقية ضيقة من جوخ أبيض أو بنى أو طربوش[2] عتيق وكثيرون منهم حفاة القدمين. يتميز المسيحيون واليهود بعمامة سوداء اللون أو زرقاء أو سمراء. أما ملابس النساء وخصوصا من الطبقة الراقية فتبدو غريبة جدا بالنسبة للأجانب من الأوربيين. وعند الخروج يختفى الفستان الفاخر الذى يلبس فى البيت تحت خمار فضفاض من الحرير يدعى «الثوب» وغطاء حريرى واسع أسود اللون «الحبرة» يكاد يلتف حول الجسد كله؛ ويستعاض عنه فى حالة غير المتزوجات بغطاء حريرى أبيض. أما البرقع، فمن القماش الرقيق الأبيض وهو ضيق العرض. ويصل من العينين إلى قرب القدمين . ومن الصعب على النساء، وهن مكبلات بهذه الطريقة ان يتحركن بسهولة، ولهذا فقلما نراهن فى الطرقات المزدحمة مترجلات. وتؤجر لاستخدامهن حمير مدربة مزودة ببراذع عالية وعريضة مغطاة بسجاد تجلس فوقها السيدة، ورجلاها تتدليان على الجانبين، ويرعاها خادمان على الناحيتين. وكثيرا ما يرى موكب طويل من الممتطيات من السيدات والجوارى على هذا النحو، أى حريم بأكمله، بالزى نفسه، الواحدة وراء الأخرى، وكافة المارة من كل الطبقات يفسحون لهن الطريق باحترام زائد. وترتدى نساء الطبقة الدنيا إما برقعا أسود

---

(٢) حاشية. عبارة عن طاقية حمراء. تلف العمامة حولها.

اللون – أراه أكثر جمالا من الأبيض – مزينا فى بعض الأحيان بعملات ذهبية وخرز، أو يجذبن طرف خمار الرأس على الوجه بحيث لا تظهر سوى عين واحدة. نرى فى شوارع القاهرة عددا كبيرا من الأشخاص العمى وعددا أكبر ممن يضعون ضمادة فوق عين واحدة، ولكن قلما أرى امرأة بعلّة فى عينيها.

المحال التجارية ، كما ذكرت من قبل، لا تعدو أن تكون حنايا صغيرة تشغل عادة الجزء الأمامى من الطابق الأرضى لكل بيت يقع فى شارع رئيسي، ومخزون البضاعة فى أغلبها ضئيل جدا. والمنازل، باستثناء قليل منها، تتكون من طابقين أو ثلاثة وفى واجهتها، من فوق الطابق الأرضى نتوء عرضه حوالى قدمين، كما أن النوافذ ذات المشربيات الخشبية تمتد أيضا إلى الخارج مما يجعل الطرقات مظلمة ولكنها فى الوقت نفسه ظليلة ورطبة. و على جانبى الشوارع الرئيسية شوارع و أحياء جانبية.

ويختلف الدرب أوالطريق الجانبى عن الشارع فى كونه أضيق وأقصر؛ وغالبا ما يتراوح عرضه ما بين ستة أو ثمانية أقدام، وهو طريق عام له بوابتان عند طرفيه بهما بابان كبيران من الخشب، يغلقان دائما بالليل. وبعض الدروب ليس بها سوى مساكن خاصة، وبعضها بها متاجر. والحارة أو الحى، منطقة محددة تتكون من طريق أو زقاق واحد أو أكثر وفى العادة لا يحتوى الحى الصغير إلا على مساكن خاصة، وله مدخل واحد بباب خشبي، يغلق ليلا مثل باب الدرب.

وتتكون الأسواق من مجموعة من طرقات قصيرة، أو من مناطق صغيرة من شارع على جانبيه دكاكين. فى بعض منها، نجد أن كل أصحاب المحلات من ذوى تجارة واحدة. وكثير من الأسواق مغطاه بحصر ممتدة على دعامات خشبية، تشبه ما رأيته فى الإسكندرية، وبعضها ذات أسقف خشبية. وأغلب الشوارع العامة الرئيسية وكثير من الطرقات الجانبية، تحوى كلها أو جزء كبير منها، سلسلة من الأسواق.

وكثير من خانات القاهرة تشبه الأسواق التى ذكرتها إلا أنها عادة مجموعة من المتاجر والمخازن، تحيط بحوش مربع أو مستطيل. ويجدر بى أن أذكر خان الخليلى لأنه واحد من أهم أسواق القاهرة، ويقع فى وسط المنطقة التى تكوّن المدينة

الأصلية . شرقى الشارع الرئيسى بقليل ؛ وهو يشغل موقع مقابر الفواطم (خلفاء مصر[٣]) . وهو يتكون من مجموعة أزقة قصيرة ذات منعطفات عديدة وله أربعة منافذ من أحياء مختلفة . ويشغل الأتراك معظم دكاكين هذا الحى و يتاجرون فى الملابس الجاهزة و قطع الثياب الأخرى وأيضا فى كافة أنواع الأسلحة وسجاجيد الصلاة الصغيرة التى يستخدمها المسلمون علاوة على المستلزمات الأخرى . ويقام هناك (كما فى أسواق أخرى عديدة بالقاهرة) بيع بالمزاد العلنى مرتين كل أسبوع ، أيام الاثنين والخميس ، وحين يشتد الزحام بالخان يتعذر على المارة أن يشقوا طريقهم فى بعض أجزائه . تبدأ المزايدة فى الصباح الباكر وتبقى حتى صلاة الظهر ، ويجوب السماسرة في السوق ذهابا و إيابا يعرضون للبيع شتى البضائع من ملابس (قديمة وجديدة) وشيلان وأسلحة وتراجيل وغيرها . ويكثر فى هذه المناسبات سقاة الماء يلبون طلبات الظمأى من قرب يحملونها على ظهرهم ويسكبون الماء منها فى أكواب من نحاس ؛ كما يباع العنَاب والخبز المستدير المفلطح ومأكولات أخرى فى كافة أرجاء السوق ، و يؤم الخان أيام المزاد كثير من المعتوهين الحقيقيين أو الذين يتظاهرون بالعته ، و شحاذون بأعداد كبيرة تبعث رؤيتهم على الأسى .

ومن خانات القاهرة الرئيسية الأخرى الحمزاوي ، وهو أهم سوق لتجارة الجوخ والحرير . وعلى العموم لا يوجد بالقاهرة خانات كثيرة أخرى أو ما يسمى بالخان ؛ ولكن هناك أبنية عديدة ، يطلق عليها اسم «الوكالة» ، و هى شديدة الشبه بالخان وتتكون عادة من مجموعة من المحال التجارية تحيط بفناء مربع . أما وكالة الجَلاّبة (أى وكالة النخاسين) التى تقع بالقرب من خان الخليلي ، فقد توقف التعامل فيها مؤخرا لتجارة العبيد السود ، وهي تحيط بساحة واسعة مربعة كانت عادة ترى فيها مجموعات عديدة من العبيد من الذكور والإناث ملطخين بالشحم الذى يغرمون به وهم شبه عراة ، ماعدا فى الشتاء حينما يرتدون بعض الملابس ويُحفظون فى الداخل . وحيث إن طريقا عاما يخترق الوكالة ، فقد كان العبيد معرضين لرؤية

حاشية المؤلفة : كانت تلقى عظام الخلفاء فوق أكوام القمامة خارج المدينة .

الجميع . أما الآن فيقام سوق العبيد السود فى منطقة قايتباى ، وهى مدينة الموتى ولا تحتوى إلا على بعض مساكن عتيقة للأحياء وتقع بين العاصمة والجبل المتاخم لها . وقد اضطر النخاسون أن ينقلوا هؤلاء الأسرى البؤساء إلى المقابر فى الصحراء بسبب الشكاوى التى قدمت للحكومة بأن الأمراض الوبائية مصدرها سوق عبيد القاهرة . لم أزر المكان ، ولا أنوى الذهاب إليه ؛ حقيقة إن الرق فى الشرق يظهر بأحسن مظاهره إلا أننى لا أود أن أرهق مشاعرى فوق طاقتها دون جدوى ، إذ ليس باستطاعتى فعل الخير . وقد قيل لى إنهم يبدون سعداء ، لا همّ لهم بعد أن اجتازوا أصعب متاعبهم ، كما يعلمون أن حياة العبد عند المسلم أفضل من حياة الخادم الحر . أما الإناث ذوات القيمة العالية (مثل البيض اللاتى تخصص لهن وكالة أخرى) فلا يعرضن إلا لمن يبدى رغبة فى الشراء .

بعد هذا الوصف لشوارع وأسواق القاهرة ، يجدر بى أن أتطرق إلى بعض الأحياء الخاصة . فهناك بعض الأماكن يسكن فيها من ينتمي إلى ديانة أو جنسية واحدة فقط ، وكثير من الأحياء لا يقطنها سوى المسلمين.[٤] أما حي اليهود (أو حارة اليهود) ، فيقع في النصف الغربى من الجزء الذى كان يُكوِّن المدينة الأصلية للعاصمة . وهى منطقة واسعة جدا ولكنها مكدسة بالسكان وقذرة . وبعض شوارعها أو بالأحرى أزقتها ضيقة بحيث يمر فيها شخصان بالكاد ؛ كما أنه فى بعض الأماكن ارتفعت التربة بمقدار قدم أو أكثر من عتبات الأبواب ، بسبب تراكم القمامة . ولليونانيين منطقتان وللأقباط عدّة أحياء ، بعضها متسع جدا . أما الفرنجة فلا يسكنون فيما يسمى «بحارة الفرنجة» فقط ، بل ينتشرون فى منطقة واسعة تقع بين القناة (التى تمر من خلال المدينة) والأزبكية التي سوف يجيء وصفها قريبا .

واختلاف الأجناس فى الجزء الخاص من العاصمة حيث يسكن أغلب الفرنجة ، يضفي على المنطقة مظهر حي من أحياء الموانى ، مثل الإسكندرية . وبعض هؤلاء الفرنجة يلتزمون بزيهم القومي وبعضهم الآخر يتبنى جزئيا أو كليا اللباس التركى ؛ وأهم طريق عام فى هذه المنطقة من المدينة هو السوق المسمى بالموسكى

(٤) حاشية المؤلفة : ما يقرب من ثلاثة أرباع سكان القاهرة من المسلمين الأصليين .

حيث توجد بعض المتاجر على النمط الأوربى بواجهات زجاجية يعمل بها فرنجة يتاجرون فى بضائع أوربية . وحارة الفرنجة هذه عبارة عن طريق قصير يؤدى إلى خارج الموسكى من الجهة الجنوبية .

هناك مساحات واسعة من الأرض الفضاء داخل العاصمة ، يتحول بعضها خلال فصل الفيضان (أى الخريف) إلى بحيرات ، ولا بد أن أذكر أهمها فى هذا المجال ألا وهو المكان الفسيح الذى يطلق عليه اسم الازبكية . إنه عبارة عن قطعة غير مستوية من الأرض أطول جزء فيها يصل تقريبا إلى نصف ميل ، كما أن أعرض أجزائها حوالى الثلث من الميل ؛ وهو مكانى المفضل الذى ألجأ إليه مع ولدىّ ليكونا بمأمن من الأخطارالتي قد تحف بهما فى الشوارع المزدحمة .

فى الناحية الجنوبية ، يوجد قصران على الطراز التركى الحديث ، لهما حدائق غناء ؛ وفى الغرب حائط بسيط (وهو جزء من سور العاصمة) وقصر تركى آخر ، احتل موقع دار المملوك الشهير الألفى بك ، وقد اتخذه نابليون فيما بعد مقرا له وكذلك كليبر الذى اغتيل فى الحديقة المجاورة . فى الناحية الشمالية حى النصارى ، و يتكون من صف طويل من المنازل الشامخة المهملة . أثناء موسم الفيضان ، يقتحم ماء النيل هذه الأرض الفسيحة من خلال قناة ويغطى جزءا منها حيث يظل مدة ثلاثة أو أربعة أشهر وبعد ذلك تنثر البذور . كانت المنطقة فى الماضي ، أثناء موسم الفيضان ، بحيرة واسعة ولكنها تحولت الآن إلى ما يشبه الحديقة ، بها مزيج لطيف من الأشجار والمياه . قيل لى إن المكان يبدو أجمل بكثير حينما تغطيه الخضرة منه حينما يكون بحيرة و يمكننى أن أتخيل هذا ، فالماء عكر جدا . وبركة الفيل تتلقى أيضا ماء النيل أثناء موسم الفيضان ، ولا يسمح للجمهور بالدخول سوى فى جزء صغير منها .

هناك بحيرتان صغيرتان فى الجزء الغربى من العاصمة وكذلك بحيرات أخرى كثيرة بالقرب منها . كما أن هناك أيضا جبانات عديد وفى المنطقة الشرقية للمدينة[٥] وعدد كبير من الحدائق الفسيحة . وتزخر هذه الحدائق أساسا بالنخيل

---

(٥) حاشية المؤلفة : الجبانات الرئيسية خارج المدينة .

وشجر السنط والجميز والبرتقال والليمون والرمان... الخ وكلها بشكل غير منسق. كما يوجد في الغالب ساقية أو أكثر لرفع ماء الري من الآبار.

أما القناة أي الخليج[٦]، التي تخترق العاصمة فليست مصدر جمال لها إذ إن خلفيات المنازل تطبق عليها من الجانبين فلا تسمح للمارة في الشوارع أن يتمتعوا بمنظرها أثناء مجراها في المدينة سوى في بعض الأماكن القليلة. هذا بالإضافة إلى أن معظم الكباري التي فوقها، تحفها الدكاكين على الجانبين فلا يدرك الشخص السائر أنه يعبر القناة. يسمح بدخول ماء النيل إلى القناة في شهر أغسطس ثم يقفل المدخل بسد من الطمي بعد بداية هبوط النهربقليل؛ ونتيجة لذلك لا يتبقى في هذا المكان سوى برك من الماء الراكد بعد مضي ثلاثة أو أربعة أشهر. وطيلة فترة فتح الخليج، تدخله الزوارق من النيل وتمر فيه عبر العاصمة بأكملها.

ولا شك في أن أهم مباني القاهرة العامة هي المساجد، ولقد سبق لي أن وصفت لك أروعها. إنها آية في الجمال كما أن الذوق الرفيع يتجلى في أناقة واختلاف أشكال مآذنها، ولكن هذا الجمال في المآذن والأجزاء الأخرى يفسده في نظري، العادة السائدة بدهان الصفوف المتناوبة من الحجارة، مرة بطلاء الكلس ومرة بالأزنكان الأحمر القاني. وعادة ما يكون في وسط أي مسجد كبير فناء مربع محاط بأروقة ذات أعمدة، نادرا ما تكون متجانسة، وذلك يرجع إلى كونها غالبا مسلوبة من معابد قديمة و الشيء نفسه ينطبق على ألواح الرخام الثمينة التي استخدمت لتزيين الأرصفة والأجزاء السفلى من واجهات الجدران الداخلية في كثير من المساجد. القباب جميلة من حيث الشكل وأحيانا في زخرفتها، كما أن المنابر تستحق الذكر لمنظرها الأنيق وطرافة الحفر الخشبي المعقد الذي بها. يقام المنبر وظهره للحائط الذي به المحراب؛ كما تعلوه قبيبة وله درج يؤدي رأسا إلى المنصة الصغيرة التي يقف عليها الخطيب (ولا يكون الدرج أبدا، حلزونيا أو جانبيا). يقف المصلون في صفوف متوازية على أرض تكسوها البسط أو السجاد في مواجهة المحراب. لعل هذه الملاحظات العامة تساعدك على فهم ما أذكره عن

---

(٦) وهي التي كانت فيما مضى Amnis Trajanus.

مساجد معينة وتعوض بعض النقص فى وصفى لها.

لا شك فى أن كثيراً من هذه الأبنية صروح للتقوى الصادقة، ولكن عددا كبيرا منها بناه من لا يوثق فى صدق نواياهم. صادف أن مررت بواحد منها وهو بناء فخم، روى لى عنه القصة التالية. قيل إنه حينما افتتح صاحبه المسجد لأول مرة لإجراء شعائر صلاة الجمعة، دعا لهذه المناسبة كبار العلماء فقام كل واحد منهم بتهنئته أمام المصلين مع ذكر بعض الأقوال المأثورة والاستشهاد بأحاديث الرسول، باستثناء واحد، ظل صامتا. سأله صاحب المسجد عن سبب سكوته قائلا: «أليس لديك ما تقوله فى هذه المناسبة؟» أجاب الرجل دون تردد: «بلى، لو كنت شيدت هذا المسجد بمال حلال ونية سليمة، فاعلم أن الله قد بنى لك قصرا فى الجنة وسعادتك سوف تكون كبيرة، ولكن لو كنت بنيت هذا الصرح بمال حرام اغتصبته من الفقراء جورا وبهتانا، فاعلم أنه أعد لك مكانا فى الجحيم وبئس المصير». ولم تمض بضع ساعات على ما قاله هذا الشيخ الوحيد من بين العلماء، الذى تجرأ وتفوه بالحق فى هذه المناسبة - مما يتطلب شجاعة نادرة - حتى مات فجأة ضحية السم، كما هو معروف للجميع.



مساجد القاهرة

مساجد القاهرة

القاهرة،
نوفمبر ١٨٤٢



صديقتي العزيزة،

كانت لدى رغبة ملحة لرؤية ما بداخل المساجد الرئيسية ولذلك شعرت بالضيق حينما علمت أنه أصبح من الصعب جدا أن يدخلها نصراني. ربما كان من الممكن أن يصطحبنا أخي دون مجازفة كبرى إذ يُظن غالبا إنه تركى؛ ولكنه لو فعل هذا، قد يخاطبنا أحد ونحن فى المسجد باللغة التركية فلا نستطيع الرد؛ ولكن إذا اصطحبنا قاهرى، فمن المستبعد أن تخاطبنا سيدات تركيات، وإذا حدثتنا مصريات فإن لغتنا العربية الركيكة، كفيلة بأن توهمهن أننا تركيات. أخيرا، تطوع أحد أصدقاء أخي القدامي أن يصطحبنى إذا وافقت أن أتبعه بحمارى فى الطرقات، وأمشى وراءه في الجامع وأبدو مؤقتا كأننى السيدة الأولى فى حريمه.

شعرت بأن هذا الترتيب قد يبدو خرقا لقواعد اللياقة أن أتخذ هكذا مكان زوجته (ليس لديه سوى واحدة) ولكنه لم يوافق على مرافقتي إلا بهذه الشروط؛ وحيث إننى كنت متلهفة جدا للذهاب، قبلت أن أعمل بمشورته خاصة أن زوجته أبدت، بمنتهى الرقة، سعادتها للإسهام فى تحقيق أمنيتي. لم يسبق أن رأيت رفيقى الطيب العجوز هذا إلا مرة واحدة من خلال مشربية الحريم، إلى أن جاء صبيحة يوم رحلتنا وامتطينا، أنا وزوج أخى الحمير وسلمنا أمرنا لقيادته. سار هو على رأس الموكب، وتبعته أنا، ثم زوج أخي، وأخيرا زوجته هو. حاولنا عدة مرات أن نقنعها بأن تتخذ مكانا يليق بها ولكن دون جدوى، وحيث إنها تعرف العادات الشرقية أكثر منا بكثير وجدنا أنه من الأسلم أن نرضخ لرغبتها . أقول «أسلم»، لأننى كنت أدرك تماما أنه إذا صادف وحدث شك فى أمرنا أننا لسنا شرقيات أو لم نبدُ كمسلمات، فسوف نتعرض لشر طردة من أى جامع ندخله ويكال لنا اللوم والإهانة.

أعترف أننى أحسست بتوتر شديد حينما توقفنا عند أحد مداخل مسجد الحَسَنين[7] الذى يعتبر أقدس مساجد القاهرة قاطبة، وكان مزدحما بنسوة حضرن

(٧) تحذو المؤلفة حذو أخيها «لين» حينما يسمى هذا المسجد «الحَسَنين» فى كتابه، حيث يذكر: The Mosque of the Hasaneyn & Moolid El-Hasaneyn. أما عدلى نور مترجم «المصريون المحدثون»، فيطلق عليه الاسم الشائع «مسجد الحسين» إلا فى بداية الفصل ٢٥ من الجزء الثانى حينما يقول: «مسجد الحسنين... مولد الحسنين» دون أن يذكر سبباً لهذا الاختلاف.

إلى قبر الحسين فى زيارتهن الأسبوعية . شعرت بأننى تجرأت جدا باقتحامى أقدس مسجد دون أن أعرف شيئا عن الطقوس الواجب اتباعها ، لذلك حاولت أن أبدو كزوجة خاضعة مطيعة تسير بخشوع خلف بعلها وأنا أتبع مولاى المؤقت . ولكننى كنت مطمئنة ، إلى حد ما ، بسبب مظهره الجليل وخطاه الواثقة وهو يجتاز مدخل المسجد ؛ حقيقة ، لقد أتقن دوره بمهارة فذة . يخلع الجميع أحذيتهم أو نعالهم عند المدخل ، والنساء يلبسن فى المسجد جوارب من الجلد المراكشى الناعم ، أصفر اللون وقد سبق أن وصفته لك . وهنا يجب أن أشيد بالعناية الفائقة للحفاظ على النظافة ، فلا يكاد يظهر أى اتساخ على جلد الجوارب التى كنت أرتديها مع أننى قضيت يوما بأسره فى التجوال بين رحاب الأماكن المقدسة الإسلامية . ويحمل الرجال عادة أحذيتهم ، النعل تجاه النعل فى اليد اليسرى أثناء تواجدهم بالمسجد وبعض السيدات يفعلن ذلك أيضا ، ولكننا وكثيرات غيرنا يفضلن تركها مع الخدم حتى لا نشغل يدا نحن فى أمس الحاجة إليها للعناية بملابسنا الفضفاضة التى تعوق سهولة الحركة .

ومسجد الحَسَنين[٨] يقع فى الجهة الشمالية من الأزهر وعلى مقربة منه وقد شيد عام ٥٤٩ من الهجرة (١١٥٤ / ١١٥٥ م) ولكن أعيد بناؤه أكثر من مرة ؛ والبناء الحالى شيد من حوالى سبعين سنة . أما المنطقة الأمامية ، فتتكون من بهو أو رواق أنيق ، ذى أعمدة عديدة من الرخام تحمل السقف ، والأرضية المرصوفة مغطاة بالسجاد . بعد المرور فى هذا البهو ، وجدنا أنفسنا فى المكان المقدس الذى يقال إن رأس الشهيد الحسين مدفونة فى أعماق أرضه و هو عبارة عن قاعة شامخة مربعة ، تعلوها قبة ؛ و فوق البقعة التى دفن تحتها الأثر نصب مستطيل مغطى بقماش من الحرير الأخضر طرزت حول أطرافه بعض الكتابات و يحيط بالضريح سياج مرتفع من البرونز المشغول ، و فى الجزء العلوى منه نماذج مختلفة من الكتابات الأنيقة المنمقة . كان المظهر كله فخما ومهيبا . أما الأرض المرصوفة ، فرائعة فى جمالها ؛ أجزاء منها رصفت برخام نقى صاف ، يتلألأ من شدّة نظافته ، وأجزاء أخرى

---

(٨) حاشية المؤلفة : ويُقصد بالحَسَنين ، الحسن والحسين ، حفيدى النبى .

مطعمة بمهارة وحذق ؛ المنظر العام مبهر للغاية مما يجعلنى أؤكد أنه لو اقتصرت زيارة أجنبى على ضريح الحسين فقط ، لأيقن أن الإسلام خالد .

لاحظت أن جميع الزوار يطوفون حول الضريح من اليسار إلى اليمين ويلمسون كل ركن من السياج باليد اليمنى ثم ينقلونها إلى الشفاه والجبين مع تلاوة الفاتحة بصوت خافت . وتكررت هذه المراسم عند زيارة أضرحة أخرى . كان كثيرون يصلون بتقوى واضحة كما رأيت امرأة تقبل السياج بورع وإيمان صادق شعرت معه بالإعجاب والأسى فى آن واحد . أما فيما يخصنى شخصيا ، فلا يمكننى أن أذكر ضريح الحسين دون أن أشعر بشجن عميق حينما أفكر فى المصير المحزن لهذا الرجل النبيل الذى اجتمعت فيه إلى درجة كبيرة ، كثير من أسمى الفضائل المسيحية .

توجهنا بعد ذلك إلى الجامع الأزهر (أو المسجد البهى الزاهر[٩]) ويقع كما ذكرت ، فى جنوب الحسنين وعلى مقربة منه و هو فى منتصف الطريق بين الشارع الرئيسى للمدينة والبوابة المسماة « باب الغُريِّب » . إنه مسجد القاهرة الرئيسى وجامعة الشرق ، و أول مسجد شيد بالمدينة ؛ إلا أنه كثيرا ما حدث به ترميم وتوسيع يجعل من الصعب أن نؤكد فيما نراه الآن ، ما تبقى بالضبط من البناء الأصلي . شيد هذا المسجد بعد حوالى تسعة أشهر من بناء أول حائط للمدينة فى عام ٣٥٩ من الهجرة (٩٦٩ - ٩٧٠ م) ومع أن الصرح يشغل مساحة تبلغ ثلاثمائة قدم مربع ، إلا أنه لا يبدو بهذا الاتساع من الخارج بسبب كثرة المنازل المحيطة به فلا يظهر منه من الشوارع ، سوى مداخله ومآذنه . وللمسجد بوابتان رئيسيتان وأربعة مداخل صغرى ؛ ولكل بوابة رئيسية ، مدخلان ومن فوقهما حجرة للدرس مفتوحة من الأمام والخلف . ويخلع كل امرء حذاءه قبل أن يخطو عتبة المسجد ، مع أنه إذا دخله من البوابة الرئيسية لا يصل إلى مكان الصلاة إلا بعد أن يسير فى فناء واسع . وتتّبع هذه العادة فى كافة المساجد . تقع البوابة الرئيسية فى وسط واجهة المسجد - وهى أقرب المداخل من شارع المدينة الرئيسى - داخل هذه

(٩) حاشية المؤلفة : وقد أساء بعض الرحالة فهم اسم هذا البناء حين أطلقوا عليه اسم « مسجد الأزهار » .

البوابة مباشرة وعلى جانبيها يوجد مسجدان صغيران نمر بينهما لنجد أنفسنا فى الساحة الكبيرة للأزهر، وهى مرصوفة بالأحجار وتحيط بها أروقة ذات أعمدة. يقع الرواق الرئيسى فى مواجهة المدخل؛ والأروقة التى على الجوانب الثلاثة الأخرى، مقسمة إلى عدد من «الأروقة «أو الحجرات يسكن فيها عديد من الطلبة يؤمون هذه الجامعة الشهيرة من أقصى البلاد فى أفريقيا وآسيا وأوربا وكذلك من أقاليم مصر المختلفة. وبما أن هؤلاء الأشخاص عادة فى حالة من العوز والحاجة، فإن الجامع يخصص مالا لإعالتهم، فيصرف لكل فرد كمية من الخبز والحساء كل ظهر ومساء؛ كما يعول أيضا كثيرا من الفقراء المكفوفين. تأثرنا جدا لرؤية بعض هؤلاء وقد أحنى الزمن ظهورهم يسيرون الهوينى بين الأعمدة، يعرفون بالتعود كل منعطف وكل ممر ويبدون مثل مشايخ القبائل القدامى وسط الجمع الحافل. وتفصل الأروقة عن الساحة وأيضا عن بعضها بحواجز خشبية تقام بين الأعمدة. وهى صغيرة جدا فى الجانب الذى به البوابة الرئيسية إذ لا يوجد هناك سوى صف واحد من الأعمدة، أما التى على الجانبين الأيمن والأيسر، فمساحات فسيحة تحوى عدة صفوف من الأعمدة؛ كما يوجد بعض منها فى الطابق العلوى أيضا. ويخصص كل رواق لأبناء بلد معين أو مقاطعة معينة فى مصر، حيث إن الطلبة المصريين أكثر عددا بطبيعة الحال من أبناء الدول الأخرى.

تجولنا فى هذه الأروقة، وبعد أن مررنا بأبناء مقاطعات مصر المختلفة، وجدنا أنفسنا بين قوم من أهل مكة والمدينة؛ وبعدهم سوريون ثم بعد دقيقة كنا وسط مسلمين من وسط أفريقيا يليهم مغاربة من مواطنى شمال أفريقيا فى غرب مصر؛ ثم أتراك من أهل أوربا وآسيا، تركناهم لنقابل ايرانيين ومسلمين من الهند؛ خيل لنا أننا كنا نتنقل بين البلاد المختلفة لكل منهم. لم يعجبنى فى القاهرة أى شىء أكثر من داخل الأزهر؛ وحينما أفكر فى كثرة الحوائل الجسيمة التى تقابل الشخص المسيحى وبالذات السيدة المسيحية لدخول هذا المسجد الشهير، أشعر بالفخر لأننى تمتعت بميزة التجول المتمهل بين أروقته المديدة وملاحظة طلبته من مختلف الأجناس وهم يتلقون الدرس على أيدى أساتذتهم.

وتوجد على يسار الساحة الكبرى، ساحة أصغر فيها حوض كبير به ماء،

ليتوضأ قبل الصلاة كل من لم يؤد هذه الفريضة قبل دخول المسجد. الرواق الكبير مغلق بحواجز خشبية بين صف الأعمدة المربعة أو بأسوار من خلف الأعمدة الأمامية، وهناك باب واسع فى حاجز العقد الأوسط ، وأبواب أصغر فى بعض حواجز العقود الأخرى . هذا الرواق الكبير، واسع جدا وبه ثمانية صفوف من الأعمدة الرخامية الصغيرة فى موازاة الصف الأول. والمنطقة التى تلى الصف الخامس من الأعمدة هى إضافة من عمل الشخص الذى قام ، منذ سبعين عاما ببناء إحدى البوابتين الكبيرتين . جدران الرواق طليت بالكلس الأبيض والمحراب والمنبر ليس بهما أى مظهر من مظاهر الفخامة، فالبساطة هى الطابع السائد فى كافة أرجاء الرواق الكبير، أما الأرض فمغطاة بالحصر و ليس بها إلا بعض السجاد الصغير هنا وهناك.

ويرافق الأثرياء و علية القوم عادة خادم يحمل سجادة الصلاة لسيده، كما أن عدد من يؤدون صلاة الجمعة كثيرون جدا وهم يصطفون فى صفوف متوازية ويجلسون على الحصر.

ويختلف المنظر فى الرواق الكبير فى غير أوقات الصلاة، فقد رأينا كثيرين من المعلمين وسط حلقات من المستمعين ينصتون بانتباه لما يلقى أو يتلى عليهم من تفسير القرآن وغالبا ما يستند المعلم إلى أحد الأعمدة، وجرت العادة أن لكل منهم، كما علمت، عموده الخاص حيث يؤمه تلاميذه بانتظام يجلسون فى حلقة حوله على الحصير الذى يغطى الأرض. ويتناول بعض الأشخاص جرايتهم من الطعام فى الأزهر وكما أن كثيرا من الفقراء الذين لا مأوى لهم يقضون الليل هناك إذ إن المسجد يظل دائما مفتوحا. قد لا تتفق هذه العادات مع قدسية المكان ولكنها تبين بوضوح البساطة التى تتسم بها العادات الشرقية.

بعد ذلك زرنا مسجد محمد بك الرائع الذى أسس عام ١١٨٧ هـ (١٧٧٣ - ١٧٧٤ م.)، وهو مجاور للأزهر. يتميز هذا المسجد بأنه بناء فخم من الطراز القديم، بنى فى زمن متأخر. أما المسجد الكبير للداعية الكافر الخليفة الحاكم (الذى ادعى النبوّة أولا ثم الألوهية المجسدة) فترجع أهميته إلى اسم صاحبه و قدم البناء. و هو يقع فيما يلى مباشرة ذلك الجزء من السور الشمالى للمدينة الذى

يصل ما بين باب النصر وباب الفتوح وقد أتم الحاكم بناء المسجد عام ٤٠٣ من الهجرة (١٠١٢-١٠١٣ م.)، ولكن أسلافه هم الذين قاموا بتأسيسه. و هو الآن في حالة خربة ولم يعد يستخدم للصلاة؛ و تبلغ مساحته نحوا من ٤٠٠ قدم مربع، ويتكون من أروقة تعلوها عقود، تحيط بصحن مربع .



الرســـالة

التاسعة

المارستان

نوفمبر

١٨٤٢

صديقتى العزيزة،

أكـمـل الموضـوع الذى تركـتـه دون إتمام فى خطابى السابق. إن كثيرا من مساجد القاهرة العظيمة، تواجه شارع المدينة الرئيسى؛ فإذا سرنا فى هذا الشارع من الشمال إلى الجنوب، نجد أن أول مسجد يسترعى انتباهنا هو البرقوقية على الجانب الأيمن منه. وهو.مسجد مدرسة، أسس عام ٧٨٦ من الهجرة (١٣٨٤-١٣٨٥ م.)؛ له قبة جميلة ومئذنة عالية وأنيقة كما أن أرجاءه الداخلية ذات وسامة خاصة مع أنها فى حالة يرثى لها من الخراب.

وبعد مسافة صغيرة، فى الجانب نفسه من

الشارع، يوجد بناء واحد يشتمل على ضريح ومسجد ومستشفى السلطان قلاوون. يكوّن الضريح والمسجد الجزء الأمامي، الضريح إلى يمين المسجد وبينهما ممر، هو المدخل العام ويقود إلى المستشفى أو المارستان (يلفظها العامة «مورستان»). أسس هذا المجمع الثلاثى عام ٦٨٣ من الهجرة (١٢٨٤-١٢٨٥ م.)؛ الضريح صرح عظيم له مئذنة ضخمة، والواجهة ملونة بمربعات من اللونين الأحمر والأبيض كما أنه من الداخل فخم جدا. وليس بالمسجد ما يسترعى الانتباه. ويضم المارستان ساحتين صغيرتين تحيط بهما زنزانات ضيقة يحجز ويقيد فيها المجانين، الرجال فى ساحة والنساء فى الأخرى. ورغم أن المؤسسة لديها ما يكفى من المال لسد حاجة هؤلاء البؤساء إلا أنه جرت العادة أن يمدهم الزوار بالطعام الذى يطلبونه بطريقة مؤثرة جدا. وهنا أبادر بذكر شيء مطمئن وهو أن هؤلاء البؤساء لديهم بكل تأكيد أكثر من حاجتهم إذ إنه لا يبدو عليهم أى أثر للجوع، كما أنى رأيت رجلا يقذف جانبا قطعة من الخبز أعطيت له.

كيف أصف لك حالتهمْ بالدقة التى أريدها ؟ لقد كنت حريصة أن أتأكد من

حقيقة حال هؤلاء المجانين في المارستان. أول ما دخلنا الممر الذى يقود إلى الزنزانات، انهالت على آذاننا أصوات صياح وعويل مفزعة. اقتادنا أحد المشرفين أولا إلى فناء الرجال، يتبعنا أحد خدمنا ومعه المؤن التى أحضرناها معنا. ويحيط بالفناء زنزانات ضيقة فى كل واحدة منها شخص واحد فقط، ولكل زنزانة نافذة بها قضبان مثبت فيها من الخارج سلسلة السجين البائس. هنا بدأ أمامنا عرض لكافة أنواع الهوس؛ فى كثير من الزنزانات أشخاص مصابون بداء الكآبة وفى الواقع لم أر سوى معتوه واحد مرح كانت عباراته الفكهة مبعثا كبيرا لتسلية بعض الزوار. الجميع يمدون أذرعهم قدر المستطاع يتضرعون في طلب الخبز، واسترعى انتباهى أحد هؤلاء البؤساء بسبب نبرة الأسى والحزن الدفين فى استعطافه. إن أذرع المعتوهين الممدودة، تشكل خطرا على المارين بالزنزانات؛ إذ إن هناك سياجا وسط الفناء يحيط بحوض مستطيل ربما كان يحتوى على ماء في وقت ما ولكنه حاليا مليء بأحجار، وهذا السياج يحد من المكان المخصص لمرور الزوار ولقد حذر المشرف إحدى أفراد مجموعتنا ـ التى كانت دون أن تنتبه قد اقتربت من متناول يد أحد المعتوهين ـ من مغبّة ما قد يحدث. لا أظن أن ما لاحظناه من رقة وعطف فى معاملة الحراس لهم، كانت مفتعلة لهذا الحين فقط؛ إذ إن المجاذيب لم يبدوا أى خوف منهم. أما قيود الهائجين منهم، فكانت قوية ولكل فرد طوق حول رقبته وأغلال حول معصميه و كان أحد هؤلاء البؤساء يحاول جذب الانتباه واستدرار الشفقة بأن يهز سلاسله بحركة مستمرة. وهم لا يكادون يشبهون الإنسان فى شيء كما إن طريقة حبسهم فى زنزانات جرداء كئيبة تجعل المنظر أكثر شبها بحظائر الحيوانات. صحيح أن الطقس يقلل من احتياجات الناس عامة على اختلاف طبقاتهم فمن عادة الفقراء مثلا، أن يناموا فوق الأرض الجرداء أو على حصر رفيعة؛ ولكن يبدو لى أنه غاية فى القسوة أن يترك هؤلاء المجاذيب البؤساء دون أى شيء يرقدون عليه سوى الأرض الجرداء وهم دون شك فى حالة قصوى من الإرهاق بسبب هياجهم المستمر.

تحولت عن هذا المكان الكئيب وقلبى يكاد ينفطر من شدّة الحزن والأسى وتبعت المشرف إلى فناء النساء. لم أكن أتوقع أن ما ينتظرنى من مناظر أقسى وأمر بكثير مما رأيت؛ وحيث إنه لا يسمح للرجال بتخطى هذا الجزء من المبنى الخاص

بالنسـاء، فقد أسلم المشرف الذى كـان يرافقنا حتى الآن، ما أحضرناه معنا من مؤن، إلى رئيسة حارسات الحريم . وتجلس المعتوهات فى فتحات أبواب مفتوحة لزنزانات تحيط بالفناء وكأنهن طليقات . انكمشتُ خوفا وأنا أمر بأول اثنتين، متوقعة أن تنطلقا إلى الخارج؛ ولكن حينما طمأنتنى الحارسة أنهن مقيدات بدأتُ أنظر إلى داخل كل زنزانة، الواحدة بعد الأخرى . أول معتوهة استرعت انتباهى الخاص كانت امرأة عجوزاً يبدو أنها ضريرة، تأثرت لها كثيرا بسبب ما بدا على وجهها من تعبير ثابت ينم عن حزن عميق، وكأن شيئا لا يؤثر فيها . فى زنزانة تواجهها تقريبا ، حجزت معتوهة هائجة تصرخ وتولول بصورة متصلة ولكن الضوضاء لم تؤثر إطلاقا فى المرأة العجوز وكأنها لم تسمع شيئا ، ربما تعودت على مثل هذه الأصوات أو أنها غارقة فى هموم حقيقية أو وهمية . فى الزنزانة التالية، رأيت فتاة شابة فى نحو السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها فى حالة من العُرى التام، كانت تجلس قابعة ساكنة كالتمثال لا تتحرك وتبدو فى ظلام سجنها كأنها منحوتة من حجر . أما المخلوقة المسكينة التى تليها، فكانت أيضا شابة ولكن أكبر منها سنا، وقد اكتفت بأن رفعت عينيها الحالكتى السواد وألقت علينا من خلال شعرها الأشعث نظرة هادئة خاوية، وكانت هى أيضا فى حالة من العُرى التام . لم أكن مهيأة لرؤية مثل هذا البؤس وأسرعت الخطى لأترك هؤلاء المعتوهات االهائمات وهن فى حالة من الهزال والإهمال والهذيان المتصل، وجميعهن دون أى غطاء يسترهن. و عندما هممت بمغادرة الفناء، سمعت صوتا حزينا يتضرع ويقول : «توقفي يا سيدتي واعطيني خمس بارات أشترى بها طباقا قبل أن ترحلي" ،استدرت ووجدت أن امرأة عجوزا، حسنة المظهر تكرر هذا الاستعطاف وأبدت امتنانها حينما وعدت بتلبية رغبتها . كانت ترتدى بعض الملابس وتجلس خلف مدخل الزنزانة وكأنها تنتظر العطاء . سلمتها المشرفة نيابة عنى المبلغ الضئيل الذى طلبته وأرجو أن يسمح لها بشراء ما تريد . كانت هذه المرأة والمرأة التى شاهدتها فى البداية، الوحيدتين اللتين لم يظهر عليهما البؤس المدقع . إذا كان الجنون، وهو أقسى أنواع البلاء الذى يصيب الإنسان، يدعو إلى الشفقة، فحالة هؤلاء المجاذيب البؤساء تصيح بأعلى صوتها طالبة المواساة والرحمة . لا أدرى كيف يمكن إصلاح هذه الحالة؛ الدولة فقط هى القادرة على ذلك، وهذه الدولة لا تفعل

شيئا. وقد قيل لنا إن للمؤسسة وقفا سخيا جدا. المكان كان ولا يزال مستشفى للمرضى بالإضافة إلى كونه مكانا لحجز المجانين؛ كانت هناك فى الماضى بصفة دائمة، جوقة موسيقية ومجموعة من رواة القصص للترفيه وتسلية المرضى المصابين بالاكتئاب و القلق.

وروى لنا الصديق الذى كان بصحبتنا بعض نوادر المجذوبين المساكين، استمعت إليها باهتمام. قال إن أولى هذه القصص رواها أحد الرحالة الأوربيين فى كتاب له يصف فيه المصريين. لا أعرف من هو ولا أظن أنك سمعت أو قرأت القصة ولذلك سوف أسردها مع القصص الأخرى.

يُروى أن قصابا حُجز لفترة بالمارستان وأثناء إقامته، انتابه كره شديد تجاه أحد الدلاة[10] كان سجينا مثله. كانت أسرة القصاب تتولى أمر إطعامه فطلب ذات يوم من زوجته التى تأتى له بالغذاء، أن تخفى فى سلة الطعام الأدوات التى يستخدمها فى مهنته أى الساطور والسكين ومخطافين. وهنا يجب أن أذكر أن المجانين الذين لا يبدو أنهم خطرون، يقيدون بسلاسل أخف من سلاسل الآخرين وكانت قيود صاحبنا من هذا النوع. وبعد أن أخذ وجبته، بدأ فى عملية كسر قيوده؛ وحيث إن الزنزانات متصلة بعضها ببعض من الخلف، فقد أمكنه الوصول إلى جاره الذى صاح فرحا حينما رآه حرا طليقا وقال: «كيف هذا ؟ من كسر قيودك ؟» رد الأول «أنا، وها هى أدواتى» أجاب الآخر «هائل، اقطع قيودى أنا أيضا». أضاف صاحبنا القصاب «بكل تأكيد» وبدأ فى إطلاق سراح، ليس واحد فقط بل اثنين وثلاثة وأربعة من رفاق السجن. وهنا يأتى الجزء المأسوى فى القصة، ففى غيبة الحراس، تمكن الرّجل أن يهجم بساطوره على الديلى المسكين وهو مقيد أعزل وذبحه وبعد أن قطع جثته إربا إربا، علقها بالخطافين فى نافذة الزنزانة، و تخيل نفسه جزارا، كما كان.

---

(١٠) ومفردها «ديلى أو دالى» وهى كلمة تركية معناها «المجنون» وتطلق على فرقة من الجند فى الجيش العثمانى، ويقول الجبرتى إن «أكثرهم من نواحى الشام وجبال الدروز والمتأولة». كانوا مكروهين من الشعب المصرى لعنفهم وقسوتهم وظلمهم؛ والزى المميز لهم طرطور أسود طويل من الفراء». الجبرتى: رمضان ١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م.

لم تمض دقائق حتى ساد الهرج والمرج بين المجاذيب الذين أطلق سراحهم، وانتاب الخوف أحدهم فاقتحم الباب الذى يدخل منه الحراس عادة ووجد أحدهم وأخبره بالأمر. جرى الحارس لتوه إلى الزنزانة وحينما رأى جثة الرجل المقتول صاح: «ماذا! أحقا استطعت أن تقتل الديلي؟ لقد كان فعلا ينغص حياتى» أجاب المعتوه، «أجل وها هو ذا معلق للبيع». قال الحارس «ممتاز، ولكن لا تدعه معلقا هكذا، فهذا يجلب لنا العار، يجب أن نقوم بدفنه» سأل المجنون وهو لا يزال يقبض على الساطور فى يده «أين؟» أجاب الحارس، «هنا فى الزنزانة حتى لا يفتضح الأمر». فى التو ألقى المجنون الساطور وبدأ يحفر الأرض بيديه بهمة؛ و فى الوقت نفسه دخل عليه الحارس من الخلف وبسرعة قذف الطوق فوق رأسه وحول رقبته وتمكن من قيده. وعلى هذا النحو انتهت هذه المأساة.

حكى لنا شخص أن أخاه ذهب منذ فترة لزيارة المارستان وأن أحد المجاذيب ناداه باسمه وبعد أن حيّاه التحية التقليدية توسل إليه بأسى أن ينقذه من هذا المكان. أمعن فيه النظر وأدرك أنه أحد أصدقائه القدامى، تأثر لطلبه وأسقط فى يده كيف يحقق له الحرية التى يبتغيها. وظل المعتوه يؤكد له أنه ليس مجنونا وأخيرا بعد طول جدال، قرر الزائر أن يطالب بإطلاق سراحه. وبناء عليه اتجه إلى رئيس الحراس وذكر له الموضوع قائلا إنه أعجب بكلام المريض و لهذا يطلب الإفراج عنه. أنذره الحارس بأن المريض قد يبدو عاقلا لفترة ما ولكنه ما يلبث فى بحر ساعة أن يهذى ويثور، ولكن الزائرلم يقتنع بكلام الحارس لأنه كان متأثرا بنقاش المعتوه المنطقى وأصر على طلبه فلبى الحارس أخيرا طلبه قائلا، «حسنا، يمكنك أن تجربه». وبعد إتمام الإجراءات اللازمة انطلق الصديقان سويا وهما يتجاذبان أطراف الحديث؛ و بينما هما يسيران فى الطريق، إذا بالمعتوه يطبق فجأة على رقبة الآخر ويصيح «النجدة أيها المسلمون! هنا مجنون هارب من المارستان!» كان الرجل عاقلا وسمح لنفسه أن يجر بعنف إلى الزنزانة نفسها التى كان قد حرر منها المعتوه المسكين؛ أما هذا، فحينما دخلا الزنزانة، صاح بأن يأتوا له بطوق وسلسلة ليقيد بهما المجنون الهارب من المارستان والذى وجده فى الطريق. أسرع الحارس بإحضار الطوق والقيود وأظهر أنه يطيع أوامره وفى لحظة ألقى بالطوق فوق رقبة المجنون وقيده فى مكانه السابق، لا داعى أن أذكر أن المنقذ تنفس الصعداء.

حكى رفيقنا أيضا أنه منذ بضع سنوات ، هرب مجنون في الليل من المارستان بعد أن أخلد الحراس إلى النوم، بأن تسلق مئذنة مسجد ضريح السلطان قلاوون المجاور، وهناك في الشرفة وجد المؤذن يردد بعض الابتهالات والتلاوات ويردد بصوت جهوري «يا رب!» فأمسكه من رقبته. انتاب المؤذن الفزع وصاح، «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! الله أكبر!» قال المجذوب، «لست بشيطان تهلكني كلمات - الله أكبر -» (هنا يجدر بي أن أخبرك أنه من المعتقدات السائدة أن هذه الألفاظ لها المفعول المذكور أي القضاء على الشياطين) سأل المؤذن «ومن تكون إذن؟» أجاب الآخر «أنا مجنون هارب من المارستان» قال المؤذن «يا أهلا وسهلا، الحمد لله على سلامتك! تفضل، اجلس ودعنا نتجاذب أطراف الحديث». بدأ المجنون بالسؤال «لم تنادي بأعلى صوتك: يا رب! ألا تعلم أن الله يمكنه أن يسمعك إذا تكلمت بصوت خافت؟» أردف الآخر «هذا صحيح، ولكنى أنادى كي يسمعني الناس أيضا». قال المجنون «غن، فهذا يسرني» واستجابة لطلبه، بدأ المؤذن يردد أغنية ذات طابع هزلي جعلت بعض خدم المارستان الجالسين كعادتهم بالليل، في أحد المقاهي المجاورة، يندهشون و يرتابون في الأمر. طلعوا بسرعة وقبضوا على المجنون.

بعد ما رويته لك عن أحوال المخلوقات التعيسة المحجوزة حاليا في المارستان، يسعدني أن أخبرك أن أحوالهم سوف تتحسن كثيرا كما أظن بعد بضعة أسابيع. لقد سمعت أنهم سوف ينقلون إلى مستشفى يكونون فيها تحت رعاية الجراح الفرنسي المشهور، كلوت بك.

أرجع الآن لموضوع المساجد. استأنفنا السير جنوبا في الشارع الرئيسي ووصلنا إلى مسجد بديع على اليمين يطلق عليه اسم «الأشرفية» نسبة إلى السلطان الأشرف بارسباي الذي بناه مابين سنتي ٨٢٥ - ٨٤١ هـ (١٤٢١ م وما بعدها). وكثيرا ما ينفذ حكم الإعدام شنقا في المجرمين أمام إحدى النوافذ ذات القضبان لهذا المسجد؛ إذ إن الشارع المواجه له يعج دائما بالمارة. واصلنا السير في الشارع الرئيسي من خلال المنطقة المسماة بالغورية (وهي سوق واسعة) حتى وصلنا إلى مسجدي السلطان الغوري الرائعين؛ واحد في مواجهة الآخر وبينهما سقف خشبي

يمتد عبر الطريق. تم بناؤهما عام ٩٠٩ هـ (١٥٠٣ - ١٥٠٤ م) وقد صمم الغورى المسجد الذى على اليسار ليكون ضريحا له، ولكنه لم يدفن به.

عندما نصل إلى أقصى جنوب الشارع الرئيسي، نجد على يميننا مسجد السلطان المؤيد العظيم الذى أسس عام ٨١٩ من الهجرة (١٤١٦ - ١٤١٧ م). فى وسطه صحن مربع الشكل واسع، ويحوى المسجد رفات السلطان وبعض أفراد أسرته. وللمسجد قبة عظيمة ومدخله عال ومهيب ويقع فى الطرف الأيمن من الواجهة؛ كما أن له مئذنتين شامختين ترتفعان من أبراج البوابة المسماة باب زويلة (البوابة الجنوبية لهذه المنطقة من العاصمة التى تكوِّن المدينة القديمة).

ولكن أهم مساجد ضواحى العاصمة، مسجدا السلطان حسن وابن طولون، أو كما يلفظه العامة، «طيلون». مسجد السلطان حسن الكبير، يقع على مقربة من القلعة وهو أعظم أبنية القاهرة، أسس عام ٧٥٧ من الهجرة (١٣٥٦ م) إنه بناء ضخم شامخ ولكن به بعض التناقض مما تتأذى له العين مثل، التفاوت فى ارتفاع المئذنتين، فالمئذنة الكبرى طولها ما يقرب من ثلاثمائة قدم إذا قيست من الأرض. وفى الطرف الأيمن للجانب الشمال شرقى المسجد يوجد مدخل عال شامخ آية فى الجمال ويتفرع منه ممر متعرج يؤدى إلى صحن مربع hypaethral، فى وسطه حوض وبجانبه صهريج له أنابيب ينصب منها الماء للوضوء وفوق.كل منها قبيبة. وفى كل من الجهات الأربع للصحن بهو ذو واجهة مفتوحة وسقف مقوس. أكبر بهو يقع فى مواجهة المدخل و هو المكان الرئيسى الذى تقام فيه الصلاة وله سقف مقوس يبلغ عرضه حوالى سبعين قدما. والبناء من الطوب ومغطى بالجص (مثله مثل الأقواس الثلاثة الأخرى) ويتدلى من السقف عدد كبير من المسارج الزجاجية وقنديلان من البرونز . والمنطقة السفلى من الحائط الخلفى مغطاة بقطع من الرخام الملون. ويوجد فى المؤخرة قاعة مربعة تعلوها القبة الكبيرة كما أن فى وسط القاعة ضريح السلطان المؤسس. ومعظم الزخارف بهذا المسجد أنيقة ومنمقة الصنع ولكن البناء بحاجة إلى الترميم فى معظم أجزائه.

مسجد ابن طولون الكبير (أو كما يسمى عادة جامع طيلون) يقع فى جنوب العاصمة وهو بناء طريف جدا. أسس عام ٢٦٣ من الهجرة (٦ / ٨٧٧ م) وكان

المسجد الرئيسى لمدينة القطائع وهى أقدم من القاهرة بنحو قرن تقريبا . والمكان الذى يشغله تبلغ مساحته حوالى ٤٠٠ قدم مربع، وهو مبنى من الطوب المغطى بالملاط ويتكون من أروقة ذات أسقف مقوسة، تحيط بصحن مربع. فى وسط هذا الصحن، ميضة تحت بناء حجرى مربع فوقه قبة. أقواس هذا المسجد مدببة بعض الشىء وحيث إن المسجد شيد عام ٦ / ٨٧٧ م ولم يُعد بناؤه قط بعد ذلك، فهذه الظاهرة تدل على أن الأقواس المدببة الشرقية، أكثر قدما من القوطية. لقد أخذت هذه المعلومة من مذكرات أخي الخطية. تنتصب فى شمال شرق المسجد، مئذنة عالية لها سلم دائرى من خارجها وليس لها اتصال بالمسجد إلا عن طريق بوابة مقوسة. هذا المسجد العظيم كله، فى حالة محزنة من الدمار وحتى النظافة اللائقة، غير معتنى بها، إلا فى الأماكن المفروشة بالحصر. إنه أقدم المبانى العربية الموجودة الآن فى القاهرة، باستثناء مقياس النيل بالروضة (الذى يسبقه باثنتى عشرة سنة) كما أن مسجد عمرو مع أنه شيد قبله بأكثر من قرنين، إلا أنه أعيد بناؤه عدة مرات. و على مقربة منه أنقاض قصر كبير يسمى قلعة الكبش، تحتل و تحيط جزئيا بمرتفع صخرى واسع، وقد بنى فى منتصف القرن السابع الهجرى (أى الثالث عشر الميلادي). و بداخله الآن أبنية حديثة.

أما المساجد التى لها مكانة روحية خاصة ولكنها ليست ذات بال من الناحية المعمارية فهى مساجد السيدة زينب و السيدة سكينة والسيدة نفيسة (الأول والثانى فى المنطقة الجنوبية من العاصمة والثالث فى ضاحية صغيرة فى الجنوب، خارج الأبواب). وهناك أيضا مساجد عديدة جديرة بالدراسة ولكن التى ذكرتها هي أشهرها وأكثرها تميزا. وقد تعجبت فعلا لأننى تمكنت من زيارة أقدس مساجد القاهرة دون أن أثير أدنى ارتياب فى أنى مسيحية، فقد حدث منذ بضعة أيام أن رفض السماح لمجموعة من الإنجليز بدخول مسجد الحسنين. كان يقودهم أحد انكشارية الباشا الذى استشاط غضبا على موظفى المسجد فانقضوا عليه وجذبوه داخل المسجد وأحكموا غلق الأبواب والنوافذ واحتجزوه هو وتركوا باقى الجماعة فى الخارج؛ ولكن مترجم الإنجليز المسلم، تمكن من الدخول من باب خلفى وإطلاق سراح السجين.

في القاهرة أبنية عامة أخرى كثيرة تسترعي الانتباه، منها تكايا عديدة أى صوامع للدراويش وغيرهم، بنى أغلبها باشاوات أتراك لصالح أبناء جنسهم ومن بينها أبنية رائعة الجمال. كما أن كثيرا من الأسبلة ذات طابع معمارى فريد؛ ويمكن وصف النمط العام لسبيل كبير على النحو التالي : الجزء الأمامي الأساسي على شكل نصف دائرة، له ثلاث نوافذ بقضبان نحاسية، وداخل كل نافذة حوض من الماء، فإذا رغب شخص في أن يرتوي، فما عليه إلا إن يمد يده من خلال احدى الفتحات السفلى من القضبان ويغترف من الماء بقدح نحاسى قيد بسلسلة فى أحد القضبان . وفوق النوافذ سقف عريض مائل من الخشب ، ويشغل الطابق العلوى لهذا الجزء من البناء مدرسة عمومية، واجهتها مفتوحة ومكونة من أعمدة وأقواس وهى أيضا مغطاة بسقف مائل، عريض، خشبي. بعض هذه الأبنية تشكلت أجزاء منها من صفوف متناوبة من الرخام الأبيض والأسود. كذلك تنتشر فى القاهرة بكثرة، الأحواض المخصصة لشرب الدواب، وهى عادة من الحجر بداخل حنية مقوسة و من فوقها مدرسة عمومية. وهناك، كما ذكر أخي ما يقرب من ستين أو سبعين حماما عموميا، بعضها خاص للرجال وبعضها للنساء فقط؛ كما أن منها ما هو للرجال في الصباح وللنساء بعد الظهر، وحينما يكون الحمام معدا للنساء تعلق قطعة من القماش القطنى الأبيض على الباب. والغرف مرصوفة بالرخام وبها نافورات وأحواض تعلوها قبيبات، تخترقها ثقوب صغيرة مستديرة تسمح بدخول الضوء. وأخيرا، لا يفوتنى أن أذكر المقاهى التى تعم القاهرة، وبها أكثر من ألف مقهى، ولا تقدم فيها سوى القهوة، ويحضر الرواد معهم النارجيل والطباق.

الرسالة العاشرة

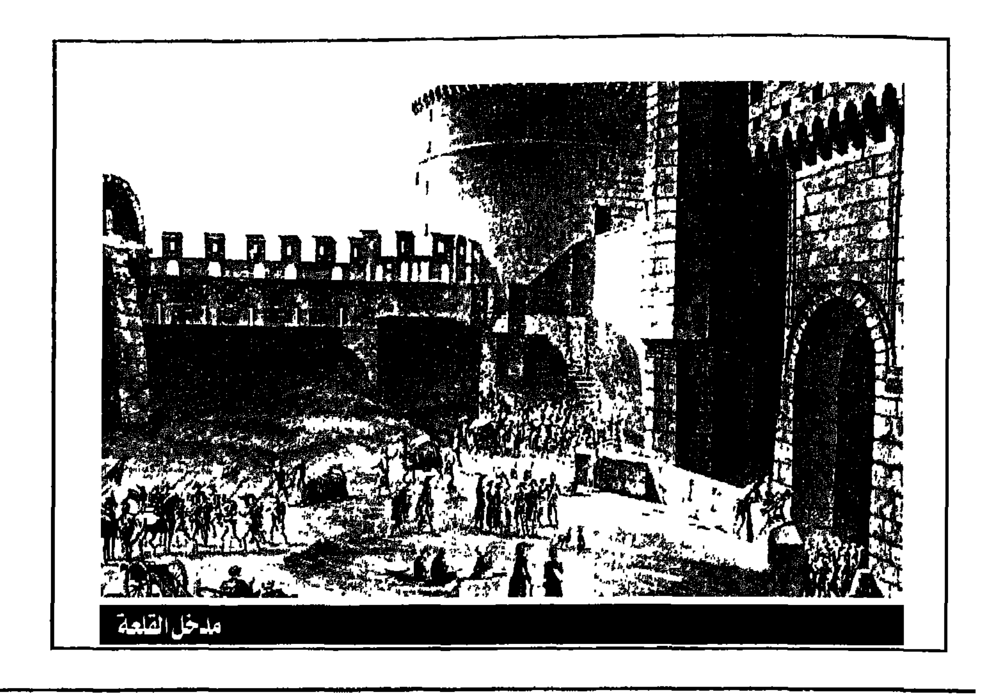


القلعة

ديسمبر
١٨٤٢

صديقتى العزيزة،

أود أن ترافقينى الآن بخيالك من المدينة إلى القلعة؛ ولو كان من الممكن أن تفعلى هذا فى الواقع، لكنت اعتبرت مشقة طلوع سفح جبلها الحاد هينا، ليس لأشياء فذة بداخل أسوارها، ولكن من أجل المنظر المبهر الذى تشرف عليه والذى يمكن اعتباره واحدا من أكثر مناظر العالم الشرقى روعة وجمالا. تقع القلعة فى الطرف الجنوبى الشرقى للعاصمة، فوق مسطح واسع لربوة صخرية ترتفع حوالى ٥٢٠ قدما من مستوى السهل بالقرب من قمة جبل المقطم الذى يشرف عليها بالكامل. وقد أسسها صلاح الدين الشهير، فى عام ٥٧٢ من الهجرة (١٧٧٦ /


مدخل القلعة

١٧٧٧) ولكن البناء لم يتم سوى فى عام ٦٠٤ هـ؛ ومنذ ذلك الحين والقلعة هى المقام الدائم لسلاطين مصر وحكامها . تقع أمامها ساحة فسيحة الأرجاء تسمى «الرميلة» حيث يقام بها سوق، وحيث يمكن مشاهدة الحواة والآلاتية ورواة القصص، يحيط بكل واحد منهم جمع من المتسكعين.

مدخل القلعة الرئيسى من «باب العذاب» الذى يقود إلى ممر ضيق شديد الميل، جزء منه منحوت فى الصخر؛ و لشدة الانحدار، نحتت فى بعض الأماكن منه درجات لتسهيل طلوع ونزول الخيل والجمال وغيرها . وكان هذا الممر الضيق المحصور هو المسرح الرئيسى لمذبحة المماليك فى عام ١٨١١ ؛ وربما أذكر فى مناسبة أخرى بعض تفاصيل هذه المأساة.

ومما يعوق السير فى جزء كبير داخل القلعة، أكوام الأنقاض والقمامة المتراكمة ، كما أن بها مساكن عديدة وأيضا بعض المحال التجارية؛ ولكن أهم أثر تحتويه دون شك ، هو مسجد عظيم بناه السلطان ابن قلاوون فى بداية القرن الثامن للهجرة

(أى الرابع عشر الميلادى) وهو فى حالة خربة ولا يستخدم الآن للعبادة ، و يتكون من أروقة ذات أعمدة تحيط بصحن مربع. ومنذ حوالى اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة سنة تقريبا، كانت توجد في شمال غرب هذا المسجد، أنقاض لقصر قديم عظيم يعرف باسم «قصر يوسف» أو «ديوان يوسف» وهناك اعتقاد خاطئ أنه قصر يوسف صلاح الدين . وقد تبنى الرحالة الأوربيون هذا الرأى وسموه «بهو يوسف» ولكن أخي يؤكد لي، مستندا إلى المقريزي، أن الذى شَيد هذا البناء الفخم ، ليس إلا الأمير السابق ذكره، أى السلطان ابن قلاوون. وقد استخدم فى بنائه أعمدة قديمة ضخمة من الجرانيت، تيجانها ذات أشكال مختلفة، رديئة الصنع ولكن الأعمدة ذاتها جميلة جدا. كان للمسجد قُبَّة كبيرة، هَوَت منذ فترة قبل إزالة البناء المتداعى . ويلاحظ عند الدخول وجود محراب فى وسط الجانب الجنوبى الشرقي، وهذا المحراب - مثل نظيره فى كل مسجد - يتجه نحو مكة ، ولكن البناء عامة لا يوحى بأنه مسجد. ويلاحظ بداخل وخارج البناء، آثار كتابات عربية بأحرف كبيرة من الخشب، ولكن أغلبها كان قد سقط منذ فترة طويلة، قبل عملية التدمير. ويوجد إلى غرب موقع القصر القديم بقليل، أنقاض صرح ضخم يدعى «بيت يوسف صلاح الدين» ويقع بعض منه على قمة التل، وبعضه الآخر على منحدره. وفي هذه البقعة من حافة التل، يمكننا أن نرى منظرا فريدا للعاصمة وضواحيها، بمآذنها وقبابها العديدة ومنازلها المسطحة والمشربيات الخشبية للتهوية و بعض أشجار النخيل وغيرها تتخلل المساكن ، كل هذا يجعل المنظر مختلفا تماما عن أى مدينة أوربية. ومن وراء العاصمة ، نرى النيل يخترق سهلا ناضر الخضرة وضواحي بولاق و مصر العتيقة والجيزة؛ وفي الجنوب جسر الماء وأكوام القمامة التى تغطى موقع الفسطاط، ثم على مسافة، نلمح جميع أهرام منف وخمائل النخيل على موقع هذه المدينة، و فى شمال العاصمة، تقع سهول هليوبوليس وجوشن [11]. ومن المستحيل ألا يتأثر أى فرد له ذرة من الإحساس بهذا المشهد : المنظر الطبيعى فى حد ذاته مبهر ، ولكن، هناك إحساس باهتمام أعمق يشعر به المرء إذا جال بخاطره ـ وهو يتأمل هذا المنظر ـ ما جاء من أحداث

---

(١١) موقع الشرقية حاليا.

تاريخية جسام بين طيات صفحات الكتاب المقدس .ويوجد بجوار قصر يوسف، مسجد ضخم لم يتم بناؤه بعد؛ إنه صرح فاخر، به عدد كبير من الأعمدة المرمرية ولكن هندسة بنائه تشمل أنماطا مختلفة، وهذا لا يروق لى شخصيا ولكن مما لا شك فيه أن مظهر البناء حين يتم، سوف يكون عظيما. لا داعى لأن أذكر أن مؤسس هذا البناء الفخم، هو محمد علي وسوف يطلق عليه اسمه.

أما بالنسبة للبئر المشهورة، فتنسب إلى يوسف صلاح الدين لأنها حفرت فى عهد هذا السلطان ، وهى تقع بجوار الزاوية الجنوبية للمسجد القديم الكبير. وقد حفرت بأكملها فى الصخر الجيرى وهى عبارة عن مهوى يتكون من طابقين مستطيلى المقطع ، أحدهما أسفل الآخر، يلتف حول كل منهما، درج حلزونى يصل إلى القاع. ولقد خارت قواى وارتجف قلبى وأنا أهبط المهوى الأول واكتفيت بأن أرى كل ما أستطيع رؤيته من خلال الفتحات الواسعة بين السلم وجدار البئر. كان مظهر مرشدتنا جذابا جدا فقد كانت فتاة شابة، ذات عينين نجلاوين سوداوين توحى بملاحة الوجه[١٢]. كانت تمسك شعلة مضيئة فى كل يد، وتهبط الدرج أمامنا بظهرها إلى أسفل المنحدر المظلم الذى بدا لى خطيرا جدا. ولكن تعودها الطريق اللولبي، جعلها تستمر بخفة ورشاقة فى الهبوط البطيء فى الظلام الدامس دون تردد وبلا خوف، وكان ضوء مشعليها ينعكس على صخور الجانبين الرطبة فيزيد الظلام ظلاما. ويبلغ عمق الجزء العلوى من المهوى حوالى ١٥٥ قدما، والآخر حوالى ١٢٥ قدما؛ أى إن عمق البئر كلها حوالى ٢٨٠ قدما. ماؤها آجن به ملوحة ، ويرفع بواسطة ساقية فى كل من الطابقين.

هناك أبنية عديدة فخمة على الطراز التركى الحديث تليق بأن تعتبر قصورا فى هذا البلد، وهى تقع فى المنطقة الجنوبية للقلعة وأيضا فى حى الانكشارية الذى ليس جزءا من القلعة القديمة بل يقع فى شرقها. ولقد دمر انفجار مخزن البارود عام ١٨٢٤ بعض الجدران ومنازل كثيرة تقع على منحدر التل الشمالي. أما فى غرب انحدار التل، فتوجد ترسانة حربية ومسبك للمدافع وغيرها.

---

(١٢) من الطريف حقا أن تكون Our Guide فتاة شابة تلبس البرقع ولم يظهر من وجهها سوى عينيها.

ويشرف جبل المقطم على مدينة القاهرة وقلعتها وهو يتكون من صخور جيرية بها اصفرار، تنتشر فيها حفريات من بقايا عضوية متحجرة، ولا يكسو الجبل أى نوع من الخضرة. وقد شُيد فوق قمته المسطحة حصن منيع يؤدى إليه طريق مرصوف شديد الانحدار ، بُنى فوق قناطر ضيقة عالية. وقد قطعت الصخور بكثرة من على جانبى الطريق. أما فى الجانب الغربى من الجبل، فيوجد كثير من الكهوف الجنائزية والوصول إليها عسير ولا أنوى زيارتها خصوصا وأن أخى تفقدها و لم ير بها أثرا لكتابة هيروغليفية أو أى نوع آخر من النحت.

وهناك فى شمال العاصمة، حدائق عديدة وكذلك برك كثيرة فى موسم الفيضان كما تكثر فى إحداها، وهى بركة الرطلي، نباتات اللوتس التى تزهر فى شهر سبتمبر. ويوجد فى المكان نفسه أنقاض مسجد أسسه الظاهر بيبرس عام ٦٦٥ من الهجرة (٦ - ١٢٦٧ م) وقد حوله الفرنسيون إلى حصن. وقبالة باب النصر، توجد جبانة فسيحة تمتد إلى الصحراء، وبها مقبرة المغفور له بورخارت Burckhardt.[١٣] أما الجبانة الشرقية الكبيرة التى تمتد فى الفضاء الرملى الواسع بين العاصمة والجبل، فبها مقابر عديدة لسلاطين المماليك. وبعض هذه الأضرحة (التى أخطأ بعض الرحالة حينما ظنوا أنها مقابر الخلفاء) أبنية فخمة جدا وبالذات الخاصة بالسلطانين برقوق[١٤] وقايتباى[١٥] و لا وجود حاليا لمقابر خلفاء مصر و يشغل مكانها الآن خان الخليلى (كما ذكرت فى خطاب سابق). وفى منتصف هذه الجبانة، تكايا لإيواء الفقراء تعرف باسم قايتباى. هنا ولمسافة باتجاه القلعة تتلاصق الأضرحة بجانب بعضها تفصل مابينها طرقات متقاطعة مثل

---

(١٣) (١٧٨٤ - ١٨١٧) جون لويس بورخارت: رحالة ومستشرق سويسرى الأصل، رحل إلى سوريا حيث انغمس فى الحياة الشرقية وتبحر فى علوم اللغة العربية والفقه وأصبح حجة فى الشريعة الإسلامية. جاء إلى مصر فى ١٨١٢ وعرف باسم الشيخ إبراهيم ويقال إنه أسلم فقد أدى فريضة الحج. له عديد من الكتب يصف فيها رحلاته ومشاهداته. مات ودفن بالقاهرة. يصف الجبرتى أنه ذهب لمشاهدة تماثيل فرعونية أحضرها من الصعيد بعض الإفرنج الإنجليز وكان بصحبته «سيدى إبراهيم المهدى الإنجليزى» وغالبا هو بورخارت. (الجبرتى ١٠ ذى الحجة ١٢٣٢هـ/ ١٨١٧).

(١٤) حاشية المؤلفة: بناه ابنه وخليفته فرج فى بداية القرن التاسع الهجرى أى الخامس عشر الميلادى.

(١٥) حاشية المؤلفة: بنى بعد السابق بحوالى قرن.

الشوارع فى المدينة، لهذا يحق أن تدعى مدينة الموتى. المنطقة كلها صحراوية و قلما يرى فيها انسان باستثناء صباح أيام الجمعة، حينما يزور المسلمون ، جريا على العادة، مقابر أقاربهم وأصدقائهم. ترى حينذاك مجموعات عديدة من النساء يتجهن صوب الجبانة؛ وكل واحدة منهن تحمل زعفا من النخيل تضعه فوق قبر المتوفى الذى تزوره.

وتقع فى جنوب العاصمة، جبانة أخرى كبيرة تدعى «القرافة» وهى أوسع من الأولى ولكنها لا تحتوى على أضرحة فى فخامتها، وهى مثلها تقع فى سهل صحراوي. بها العديد من المقابر الجميلة جدا، خاصة نوع معين غاية فى الأناقة يتكون من صرح مستطيل عادة من الرخام ، تعلوه قبيبة أو سُدة هرمية الشكل محمولة على أعمدة رخامية. و فى الجزء الجنوبى من هذه الجبانة، توجد مقبرة الإمام الشافعى الشهير، صاحب أحد المذاهب السنية الأربعة فى الإسلام وهو المذهب الذى يتبعه معظم أهالى القاهرة. ولقد توفى هذا الإمام فى عام ٢٠٤ من الهجرة (١٩ / ٨٢٠ م) والمسجد الحالى المقام فوق قبره، بناء بسيط مطلى بالجير، له قبة مغلفة بالرصاص؛ وقد أعيد بناء هذا المسجد مرتين والقائم الآن هو البناء الثانى الذى يبلغ من العمر قرابة قرنين ونصف. وعلى مقربة منه من جهة الشمال، بناء منخفض يحوى مقابر أسرة الباشا الحالى . وتوجد فى المنطقة الواقعة بين هذه الجبانة والجبل ، حفر كثيرة لمومياوات قديمة، اكتظت حاليا بالقمامة مما يدل أن هذا المكان كان فيما مضى جبانة بابليون المصرية[١٦].

وهناك بحيرات وحدائق عديدة بمحاذاة الجانب الغربى للعاصمة، أجدرها بالذكر حدائق إبراهيم باشا أو بالأحرى مزارعه التى سبق أن ذكرتها لك . وهى تشغل جزءا كبيرا من المنطقة التى كانت منذ بضع سنوات مغطاة بتلال ممتدة من القمامة، ليست باتساع أو ارتفاع مثيلاتها فى الشرق والجنوب ولكنها كفيلة بأن تحجب رؤية المدينة عن أى قادم إليها من هذه الناحية إذ إن كافة الجمال والحمير وغيرها التى تموت فى العاصمة، تقذف على تلال القمامة هذه ، لتقتات بها

---

(١٦) اسم أطلقه مؤرخو الغرب فى العصور الوسطى على القاهرة.

الكلاب الجائعة والنسور.

وعلى ضفاف النهر بين بولاق ومصر العتيقة، كثير من القصور والمنازل الفخمة، منها قصر إبراهيم باشا، و بناء كبير مربع الشكل يدعى قصر العينى (وهو مؤسسة تعليمية لتأهيل الشباب للوظائف الحكومية) كما أن هناك أيضا تكية للدراويش. و جنوب هذه الأبنية بمسافة ضئيلة، يقع فم الخليج أو قناة القاهرة، وفوقه تماما يبدأ جسر العيون الذى ينقل ماء النيل إلى القلعة؛ أما السواقى التى ترفع الماء إلى قناة جسر العيون فمقامة داخل مبنى كبير مسدس الأضلاع يبلغ ارتفاعه ما يقرب من ستين أو سبعين قدما. كما يبلغ طول الجسر بأكمله حوالى ميلين، وهو مبنى من الحجر ويتكوّن من سلسلة من القناطر الضيقة، يقل ارتفاعها تدريجيا مع صعود تدريجى للأرض لا تكاد تلمحه العين. وعندما يصل الماء إلى نهاية مجراه، يدخل فى قناة تحت الأرض ويرفع من بئر داخل القلعة. وقد بنى هذا الجسر (مكان آخر خشبى) فى أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر ميلادى) وتقع مدينة مصر العتيقة، جنوب هذا الجسر وتطل منازلها الرئيسية على النهر وجزيرة الروضة.

ويبلغ طول هذه الجزيرة (التى يدل اسمها على أنها حديقة) حوالى ميلين إلا ربعا وعرضها ثلث ميل. أما فرع النهر من جهتها الشرقية، فضيق جدا وحينما ينخفض مستوى النيل إلى أدناه، يكاد يجف حوض هذا الفرع الضيق تماما. و بالجزيرة عدة منازل وحدائق للنزهة والراحة وبها أيضا أشجار مختلفة الأنواع مثل النخيل والبرتقال والليمون والأترج والرمان والكروم والجميز (التى تعطى ظلا وارفا واسعا) والموز. و للموز جمال خاص بأوراقه الطويلة المنبسطة التى تتدلى من أعلى الساق، مثل أفرع النخيل. وفى هذه الجزيرة الخضراء أيضا، شجر الحناء المحبب جدا لدى نساء هذا البلد بسبب الصبغة التى تؤخذ من أوراقه كما يقدره بحق أبناء كل البلاد لرائحة أزهاره الزكية. ولكن سحر «الروضة» الأخاذ، يكمن فى حديقة إبراهيم باشا التى صارت بفضل الإشراف الماهر لمستر تريل Traill،

أروع ما يشاهد من هذا القبيل فى ضواحى القاهرة.

وبالرغم من أن امتداد مصر العتيقة يبلغ أكثر من ميل، إلا أنها تبدو وكأنها مدينة صغيرة مبعثرة الأجزاء تقبع على ضفة النيل وتحتل جزءا من موقع مدينة الفسطاط. هنا فى هذا المكان، تفرغ مراكب كثيرة آتية من الصعيد حمولتها، كما أن هناك اتصالا مستمرا بين هذه المدينة والجيزة بواسطة عبَّارات عديدة. أما خلف المدينة فهناك مساحة واسعة من القمامة تكوِّن تلالا منخفضة تغطى الجزء الباقى من موقع الفسطاط. وفى هذا المكان الموحش، يقع مسجد عمرو وقصر الشمع وأديرة مسيحية كثيرة. أما مسجد عمرو، فقد رمم وأعيد بناؤه عدة مرات فلا يكاد يوجد فيه الآن ما هو قديم، ومع هذا، فإن المرء يشعر فيه بإحساس شديد بالرهبة بسبب الذكريات المتمثلة فى هذا البناء حيث صلى عمرو - فاتح مصر - يحيط به صحابة رسول الله. ويشغل البناء حيزا تبلغ مساحته ما يقرب من ٣٥٠ قدما مربعا؛ ويتكون من ساحة مربعة حولها أروقة ذات أعمدة والمظهر العام بسيط جدا وغير منمق، ويحيط بهذا البناء من الخارج حائط بسيط مرتفع من الطوب. أما الرواق الذى فى أقصى الساحة باتجاه مكة، فبه ستة صفوف من الأعمدة، بينما الذى على اليسار، به أربعة فقط والذى على اليمين ثلاثة ومن جهة المدخل، صف واحد فقط. والأعمدة رخام معروق؛ وحيث إن بعضها أقصر من الباقي، فقد أضيفت لها قاعدة فى أسفلها قد تكون أحيانا رأس عمود منكس. ورؤوس الأعمدة من أنماط مختلفة إذ إنها وكذلك الأعمدة، أخذت من أبنية شتى قديمة. أما قصر الشمع، فهوحصن رومانى قديم وكان قلعة بابليون المصرية القديمة ومقر قيادة جيش الروم الذى تصدى له العرب تحت إمرة عمرو واستولوا عليه. ويذكر أن البناء كان يضاء فى الماضى بالشموع فى أول ليلة من كل شهر، ومن هنا اكتسب الاسم الذى يحمله الآن. والحيز الذى يشغله يمتد ما يقرب من ألف قدم من الشمال إلى الجنوب وستمائة أوسبعمائة قدم من الشرق إلى الغرب، وهومحاط بأسوارعالية جدا مبنية من الطوب وطبقات من الحجر ومدعمة بأبراج مستديرة. والمكان مزدحم بمساكن وحوانيت يشغلها مسيحيون، ويحتوى على عديد من الكنائس منها كنيسة القديس سرجيوس التى بداخلها مغارة صغيرة تشبه الفرن إلى حد ما، يقال إنها كانت مأوى العائلة المقدسة. أما بابليون المصرية، فتقع على

مرتفع صخرى في الجنوب الشرقى من قصر الشمع ويؤكد المقريزى وغيره من مؤرخى العرب أنّ هذه هى «مصر» التى حاصرها واستولى عليها عمرو بن العاص. وكان في هذا المكان حصن آخر عدا قصر الشمع يدعى قصر بابليون؛ وهو البناء المربع الفسيح المعروف الآن كما قيل لى باسم «إسطبل عنتر» وقد تحول إلى دير فى الأزمنة المتأخرة والآن يستخدم مخزنا للبارود. وتقع قرية «أثر النبى» الصغيرة بالقرب من النيل، غرب تل بابليون وقد اكتسبت هذا الاسم بسبب حجر به أثر قدم الرسول، محفوظ فى مسجد صغير منظره خلاب، مقام على حافة النهر.

وتقع الجيزة في مواجهة مصر العتيقة وهى مدينة صغيرة حقيرة يحيط بها سوى من الجهة المؤدية للنهر سور وضيع لا ينفع لحمايتها حتى من البدو. كان يظن أنها تشمل جزءا من موقع مدينة منف، ولكن ثبت أن هذا افتراض خاطئ. ويجب أن أذكر أيضا بعض الأماكن التى تقع فى شمال العاصمة حيث يوجد طريق جيد مستقيم تحفّه على الجانبين أشجار التوت والجميز والسنط يؤدى إلى شبرا، المقر الريفى المفضل عند الباشا و يبعد عن القاهرة بمسافة ثلاثة أميال أو أكثر بقليل. ويقع قصر شبرا على النيل، ومظهره الخارجى جميل ملفت للنظر، خصوصا إذا شوهد من جهة النهر، كما أن له حديقة واسعة منسقة بذوق رفيع جدا.

وعلى مسافة ستة أميال من البوابات الشمالية للعاصمة فى اتجاه الشمال، والشمال الشرقى، موقع هليوبوليس، مدينة الشمس التى كان يسميها المصريون القدماء «أون» والعرب «عين شمس» أى «بئر الشمس» ولكن لتحمل هذا المعنى، كان يلزم - كما قيل لى - أن تكتب «عين الشمس» وحينذاك يمكن تفسيرها «أشعة أو ضوء الشمس». ويمتد الطريق من القاهرة إلى موقع هليوبوليس فى الصحراء بجوار حد الأرض الزراعية. وهذه البقعة من الصحراء رملية منبسطة مبعثر بها قطع من الحصى والأخشاب المتحجرة وحجر اللزيز (pudding stone) وحجر رملى أحمر وغيره. وعلى مقربة من جهة اليمين أو الشرق، يوجد جبل صغير من الحجر الرملى الأحمر يدعى «الجبل الأحمر». وعند الاقتراب من موقع هليوبوليس بحوالى ميل، يمر المسافر بقرية «المطرية «حيث يُنبه المرء إلى شجرة

جميز عتيقة يروى أن العائلة المقدسة استظلت بها وشربت من بئر مجاور. كان شجر البلسان ينمو في الماضي في الحقول المجاورة – وهذه الشجرة لا تزدهر في أي مكان آخر بمصر – والسبب في ذلك أنها كانت تروى بماء هذه البئر. ربما كانت هذه البئر هي السبب الذى جعل العرب يطلقون هذا الاسم على هليوبوليس. كانت مبانى هليوبوليس المقدسة تقع في بقعة تزيد قليلا في مساحتها عن نصف ميل مربع، يحدها سور من اللبن يبدو حاليا مثل متون من الطين، والصرح الوحيد الباقى الذى يبرز من الأرض وسط الساحة، مسلة جميلة أطلق العرب عليها اسم «مسلة فرعون»؛ وتتكون من كتلة واحدة من الجرانيت الأحمر ويبلغ ارتفاعها اثنين وستين قدما والجزء الأسفل منها مساحته ستة أقدام مربعة. وقد ارتفع مستوى التربة بمقدار أربعة أو خمسة أقدام عند قاعدة المسلة نظرا لأن ماء النيل وقت الفيضان، يتسرب إلى هذا المكان عن طريق أحد أفرع قناة القاهرة. وعلى جانبى المسلة توجد نقوش هيروغليفية تحمل اسم أوزيرتسن Osirtesen الأول الذى حكم البلاد بعد عصر بناء الأهرام بقليل. وهناك بعض آثار أخرى من هذا العصر مثل مسلة الفيوم. يذكر عبد اللطيف[١٧] في مجال حديثه عن عين شمس، أنه رأى هناك (حوالى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى) بقايا كثيرة لتماثيل ضخمة كما رأى مسلتين عظيمتين، إحداهما ملقاة على الأرض وقد كسرت إلى قسمين. ولعل هذه التماثيل والمسلة المكسورة ترقد الآن تحت التربة المتراكمة.

هذه هى الآثار الضئيلة لهليوبوليس، مركز العلم الشهير، حيث تتلمذ يودوكسوس وأفلاطون لمدة ثلاث عشرة سنة وحيث استقى هيرودوت معظم معلوماته عن مصر. كانت المدينة ذاتها زمن استرابون، خاوية جرداء، ولكن معبد الشمس المشهور كان لا يزال قائما بيد أنه أصيب بضرر بالغ على يدى قمبيز. وكان يعبد في هليوبوليس ثور ميڤيس Mevis مثلما كان يعبد أبيس في منف. ومن الجائز، أن تكون «أرض جوشن» متاخمة تماما لمقاطعة هليوبوليس من جهة الشمال والشمال الشرقى.

---

(١٧) تعنى عبد اللطيف البغدادى المؤرخ.

وتقع على بعد ثلاثة عشر ميلا من القاهرة في اتجاه هليوبوليس، قرية الخانكة التي كانت فيمامضى مدينة كبيرة وظلت لفترة طويلة معسكرا للقوات النظامية. والخانكة على بعد ميلين شمالا من بحيرة الحُجاج التي سميت هكذا، لأنها مكان تجمع الحُجاج وإقامتهم قبل رحيلهم الجماعي إلى مكة. ويزيد طول هذه البحيرة من غربها إلى شرقها عن ميلين وعرضها ميل واحد وتمدها قناة القاهرة بالماء في موسم الفيضان.



الرســـالة

الحادية عشر

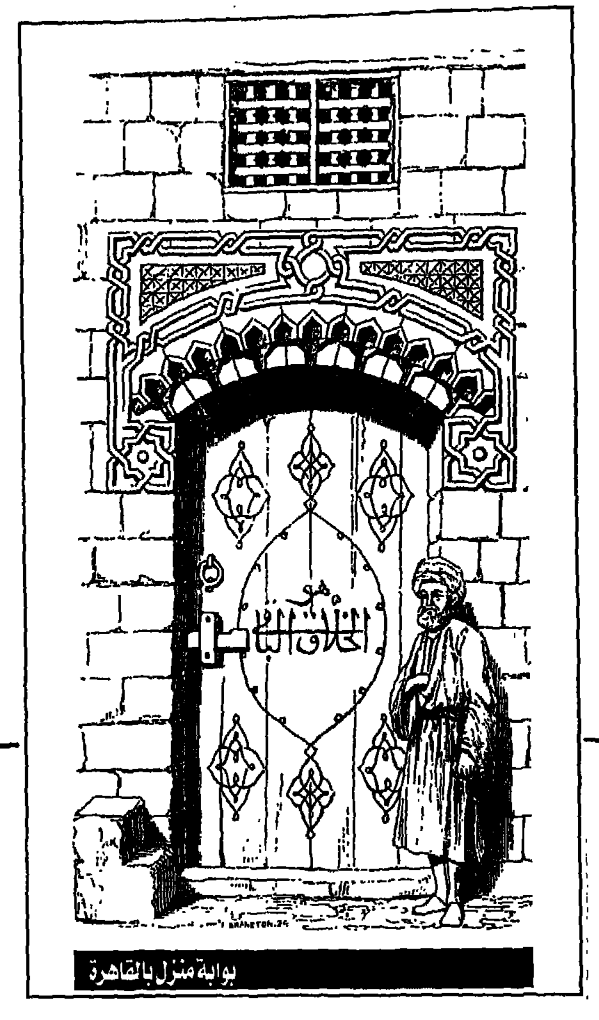
عودة إلى البيت المسكون

ديسمبر
١٨٤٢

صديقتي العزيزة،

أرجو ألا أثقل عليك إن عدت مرة أخرى إلى موضوع البيت المسكون، فقد بلغت مضايقاتنا نوعا من الذروة غريبة ومثيرة وذات خواص معينة تسوقني أن أذكر لك تفاصيل الحادث.

انتهى رمضان منذ شهر تقريبا وانتهى معه الهدوء النسبي لليالينا؛ من المستحيل أن أصف لك الأصوات المختلفة التى كانت تزعجنا، فكثيرا ما كان يُطرق باب الغرفة التى نجلس فيها فى المساء قبل منتصف الليل بساعتين أو ثلاث، طرقا عنيفا على فترات متتالية قصيرة؛ وفى أحيان أخرى كان يبدو كأن شيئا ما ثقيلا جدا يقع على



بوابة منزل بالقاهرة

الأرض خلف إحدى نوافذ الغرفة ذاتها أو التى بجوارها ، وبما أن هذه الحجرات على سطح المنزل ، فقد ظننا أن أحد الجيران يقذفنا بحجارة أو غيرها ولكننا لم نكن نجد أى شيء فى الخارج بعدما تهدأ الضوضاء التى ذكرتها . وتستمر هذه الأصوات خلال معظم الليل وكانت عادة تبدو مثل دبدبة ثقيلة وكأنها تصدر عن شخص يمشي وفى قدميه قبقاب ضخم وتختلف الأصوات لتبدو كنقر على أبواب الحجرات المختلفة وعلى الأزيار الموضوعة فى تجاويف جدران الدهاليز . خادماتنا يرحن ويجئن مثل الأشباح منذ إقامتنا هنا ، ما عدا في شهر رمضان ، ويبدو أن شعارهن هو «لينقذ نفسه من يقدر» إذ يعتقدن أن لمسة واحدة من عفريت تحولهن إلى شياطين.

منذ بضعة أيام ، وجدنا إحدى الخادمات التى لم يمض عليها يومان فى المنزل ،

تعود مندفعة إلى حجرة جلوسنا المعتادة بعد أن أزالت آثار وجبتنا المسائية، تصيح بأن شخصا ما «أبيض في أبيض» اعترضها في مدخل الدهليز، باسطا ذراعيه ليمنعها من المرور؛ ذهبنا لتونا معها ولكن بطبيعة الحال وكما توقعنا، لم نجد شيئا. ويظن الخدم أن هذا الشبح الأبيض وليٌّ من أولياء الله الصالحين ويدّعون أن المنزل يسكنه وليٌّ وعفريت؛ كما يؤكد أحدهم أن هذا الوليَ ذا «البياض المبهر» على حد قوله، استخدم الدلو ليسحب الماء من البئر في الفناء ليتوضأ ثم يصلي. أظن أن هذا التصرف يتنافى مع تخويف الخادمات ! ولكن من الواضح أن الخدم لا يشكون دون سبب، وهذا أمر مقلق جدا إذ أنه لا يوجد منزل مريح خال في كل المنطقة الصحية بالمدينة.

يعتقد المسلمون أن العفاريت تُقيَّد في رمضان وهذا، حسب قول الخدم، هو سبب راحتنا من المضايقات خلال هذا الشهر. أما نحن، فكنا نظن أننا اكتشفنا المكان الذى كان يدخل منه المذنب وبإحكامنا قفله منعناه من الدخول و لكن خاب ظننا حينما اكتشفنا أن احتياطاتنا ذهبت هباء. فمنذ بضعة أيام اشتكى البواب (وهو حديث العهد في خدمتنا) أنه لا يستطيع النوم بل إنه في الواقع لم يذق طعم النوم إلا دقائق معدودات من حين لآخر منذ مجيئه، وأنه لن ينتظم نومه على نحو يتفق وواجبه إلا بعد القضاء على العفريت. وأضاف أنه يصعد كل ليلة إلى الدهليز العلوى الذى يؤدى إلى غرف نومنا ويرى الشخص الذى ذكرته يجوب الممر؛ وأنهى حديثه بأن ألح أن يسمح له أخى أن يطلق النار على الشبح ، قائلا إن الشياطين يُقضى عليها دائما بالأعيرة النارية. ووافق أخى على الاقتراح، شرط ألا يستخدم البواب الرصاص أو الرش. مضى يومان وليلتان وفي اليوم الثالث علمنا من البواب أنه ينتظر كى يتأكد إن كان الشبح وليا أو عفريتا وأنه قرر أن يسأله قبل أن يطلق عليه النار.

وجاء الليل، وكان على غير العادة، حالك الظلمة. في الواقع، غاب عن ذهننا تماما نيَّة صاحبنا رغم أننا كنا نتباحث في أمر المضايقات حتى منتصف الليل تقريبا ونحاول تفسير هذه الظاهرة العجيبة. كنا في الحجرة التى ينام فيها ابناى نوما هنيا، حينما أفزعنا صوت طلقات مدوِّية يتبعها صوت البواب الأجش العميق،

يصيح :«ها هو ذا يرقد، الملعون!» ثم صوت جلبة تبدو مثل صراع مخلوق يلتقط أنفاسه. فى اللحظة التالية، سمعنا البواب ينادى رفاقه من الخدم : «هلموا ! ها هو الملعون صريع أمامى!» تبع ذلك أصوات غامضة جعلتنا نظن أن رجلا ما قد أصيب ويعانى سكرات الموت أو أن البواب قد أصاب نفسه دون قصد.

طاف أخي بالدهليز، فى حين وقفت أنا و زوجته، نرتجف ويدى ممسكة بيدها كالطفل الصغير؛ لحسن الحظ، ظل ولداى نائمين (مثلما ينام الصغار) نوما هادئا عميقا خلال كل هذه الضوضاء والهلع. ويبدو أن البواب لم يكتف باستعمال خرطوشة بها رصاصة واحدة، بل وضع فى بندقيته شحنتين من البارود بالإضافة إلى رصاصتين. على أية حال، سوف أصف الحادث بألفاظه. «مرَّ العفريت من أمامى فى الدهليز مرة، ثم مرة أخرى وحينما سألته :»هل نغادر نحن هذا المنزل، أم تغادره أنت ؟»، أجاب «بل تغادرونه أنتم». وعند مروره من أمامى للمرة الثالثة، قذف حفنة من التراب فى وجهي، أصابت عينى اليمنى؛ أكد لى هذا التصرف أنه شيطان. تابع البواب قصته وقال «لففت عباءتى من حولى وراقبته وهو ينصرف؛ توقف فى هذا الركن ولاحظت بدقة مظهره. كان طويل القامة، ناصع البياض. انحنيت قليلا، وقبل أن يتحرك ثانية، أفرغت فيه بندقيتى التى كنت أخفيها، وقع الملعون أمامى وها هى رفاته». التقط وهو يقول هذا، كتلة صغيرة محترقة وجدناها، عندما عرضها علينا أخى بعد ذلك، تشبه إلى حد ما، نعل حذاء ثقبته النار فى عدة أماكن ولا يتبقى منه سوى كتلة محترقة . أكد الرجل (يدعمه فى زعمه الرأى العام) أن هذا الأثر هو الذى يتبقى دائما حينما يهلك شيطان وقد وجده على الأرض أسفل المكان فى الحائط الذى اخترقه الرصاص.

أما مبعث الضجيج الذئ تبع إطلاق النار والذى ملأنى بالفزع، فسوف يظل إلى الأبد سرا غامضا. فى صباح اليوم التالي، فحصنا المكان بدقة ولكننا لم نجد ما يلقى الضوء على الموضوع، فالبقايا المحترقة لا تفيدنا للوصول إلى حل؛ هناك تفسير واحد يمكننى أن أصدقه وهو أن شخصا ما كان ينتحل شخصية الشيطان، أصابه أذى وساعدته حلكة الظلام على الهروب. من العبث أن يظن هؤلاء القوم أن رفات الشيطان تشبه نعل حذاء قديم. يذكرنى هذا، بالجن الذى نقرأ عنه فى قصص

«ألف ليلة وليلة» الذى حبس (حسب الأسطورة) داخل قنينة محكمة السّد وقذف بها فى البحر بأمر من سليمان بن داود.

وبطبيعة الحال وجه لوم للخادم لأنه خالف الأوامر وعمّر بندقيته، ولكنه كان دائما مطيعا ومهذبا وممتازا من كافة الوجوه، باستثناء هذه المرة الوحيدة. أعتقد أن الرجل كان فى أشد حالات الارهاق بسبب عدم النوم الكافى كما أنه أحس بحنق شديد وهو يرى الشبح ذاته يجول كل ليلة فى الدهاليز و يسبب له الأرق، كل هذا جرّه إلى التهور فى تصرفاته.

لا شك فى أنك تذكرين القصة الواردة فى «ألف ليلة وليلة»التى يهدد فيها عفريت بالانتقام من تاجر قتل ابنه عفوا دون قصد حين قذف نواة بلحة سببت له جرحا مميتا . إن الخوف من الإساءة العفوية لعفريت والابتلاء بغضبه ، شعور لا يزال متأصلا فى عقول هؤلاء القوم؛ إنهم يقولون دائما «دستور !» (أى السماح) حينما يهبطون من مكان مرتفع أو يشاهدون شخصا آخر يفعل هذا. رأيت منذ بضعة أيام ولدا صغيرا يقع على وجهه بجوار منزلنا ولا بد أنه أصيب بجرح، ولكن قبل أن ينخرط فى البكاء صاح «دستور» ظنا منه أنه لو كان وقع دون قصد على عفريت، يكون طلب السماح بعد الحادث، مزيلا للإساءة؛ وبعد أن قال هذا، اطمأن وبكى بكاء مراً.

الرسالة
الثانية عشر



راكبة الحمار العالى

زيارة لحريم عال

القاهرة

فبراير ١٩٤٢

صديقتى العزيزة،

تعلمين مدى تشوقى لدخول حرملك محترم، سواء من الطبقة العليا أو المتوسطة[١٨]، والآن وقد تحقق ما كنت أتمناه، أجد أن تطلعاتى لم تخب .إننى فعلا مهتمة جدا بملاحظة سلوك سيدات هذاالبلد؛ أفاجأ أحيانا بطريقتهن الجذابة فى رفع الكلفة، مثلما يروقنى دائما رقة سلوكهن الفطرى . أدرك تماما أن مجرد الوصف لا يفى بالغرض، ولايعطيهن حقهن و لكنى سوف أنقل لك صورة صادقة لمن قمت بزيارتهن من الحريم.

(١٨) كان هذا هو غرض لين الأساسى الذى جعله يشجع شقيقته على هذه الزيارات وتدوين ما تراه.



أبدأ بأن أعبر عن امتناني الزائد لكرم مسز ليدر Mrs. Lieder زوجة مبشرنا الفاضل المقيم ، التى اكتسبت ثقة أكثر حريم هذا البلد شأنا ، وأتاحت لى دون أى تحفظ وبكل لطف ومودة ، فرصة التعرف على من كنت أريد . من بين السيدات اللاتى قابلتهن ، أسرة حبيب أفندي ، حاكم القاهرة السابق[١٩] ؛ وحين أصف لك تفاصيل أول زيارة لهن ، أكون قد أعطيتك صورة لأول تجربة أخوضها فى خبايا حريم علية القوم .

مضى علىَّ وقت فى القاهرة دون أن أتشجع وأمتطى ظهر «الحمار العالى أى المغطى» إذ إن منظره فعلا يوحى بالرهبة . كنت أتبع طريقة كثير من النساء هنا وهى أن أفرش سجادة صلاة فوق برذعة عادية ، ولكن حينما أزور الحريم «العالى» ،

(١٩) جاء ذكر حبيب أفندى فى كتاب لين «المصريون المحدثون» أنه كان حاكماً للقاهرة (عام ١٨٣٥) فصل ٢٥ ص ٤٥٨ (ترجمة عدلى نور جزء ٢ ص ١٢٦) .

يصبح من الضروري أيضا أن أمتطي الحمار «العالي»[20] الذي اكتشفت أنه أكثر راحة من برذعة الحمار العادية. بالطبع كنت مضطرة أن أطأطئ رأسي عند كل بوابة وأحيانا كدت أصطدم بالنوافذ الناتئة من الطابق الأول لبعض المنازل. كان يتحتم علي أن أكون حذرة ولكن بغض النظر عن هذه الاعتراضات، فلا وجه لمقارنة «الحمار العالي» مع الحمار العادي فهو يفوقه بكل تأكيد.

عندما وصلنا إلى منزل حبيب أفندي وتخطينا المدخل الخارجي، وجدت أن الحرملك، مثل غيره من بيوت عظماء هذا البلد، لا يقتصر على الطابق الأول والذي يليه، ولكنه منزل خاص كامل، منفصل عن منزل الرجال. مررنا ببهو واسع مرصوف بالرخام، وعند باب أول حجرة، قابلتنا ابنة حبيب أفندي الكبرى التي حيتني حسب الطريقة الشرقية التقليدية بأن لمست بيدها اليمنى شفتيها ثم جبينها، كما أصرت أن تخلع عني بنفسها ردائي الخارجي بالرغم من وجود الجواري من حولنا ، وهذه علامة تواضع كبير. من المعتاد في بيوت الطبقة المتوسطة، أن تُشرف السيدات زائراتهن بأن يخلعن عنهن «التزييره» ولكن في حريم الطبقة العليا تقوم الجواري بهذه المهمة، ولا تفعل ذلك إحدى أفراد العائلة إلا إذا كانت الضيفة ذات مكانة خاصة جدا.

وعند زيارتي لمن يعتبرن من نبيلات البلد، أرتدي تحت التزييرة الملابس الإنجليزية فهذا يجنبني ضرورة الامتثال لعادات قد تشعرني بالإذلال؛ إذ لو ارتديت الزي التركي لزم عليّ أن أؤدي التحية التقليدية المتبعة التي تبدي خضوعا لا أكنه ولا أود أن أشعر به؛ في حين أنني كامرأة إنجليزية، تعاملني أرقى السيدات، ليس فقط كمثيلات لهن بل يعتبرنني غالبا أرفع منهن منزلة. لم أقدم أبدا سوى التحية المألوفة إلا في حالة مثولي بين يدي سيدات مسنات أرغب في تمييزهن، فأنحني باحترام، وأخفض يدي اليمنى قبل أن ألمس بها شفتيّ وجبيني، أولا عند تقديمي لهن ثم حينما أنصرف . كذلك حينما أتقبل أي نوع من الحلوى أو القهوة

(٢٠) يصف لين «الحمار العالي» فصل ٦ ص ١٨٩ (ترجمة عدلي نور جزء ١ ص ٢١٧) وفي آخر حاشية لهذا الفصل «الحريم» يشير لين إلى كتاب أخته الذي صدر بعد الطبعة الثالثة لكتابه، وأنه «استقبل استقبالاً حسناً لا يحوجه إلى توصيه منه» ص ١٩١ (ترجمة عدلي نور ص ٢١٧).

و الشراب أو أى مرطبات أخرى، و عند إرجاع الكوب أو الطبق الذى كان يحتوى عليها، أؤدى التحية التقليدية المتبعة لأهم سيدة فى الحريم وهى التى تتميز بمكانها الخاص على الديوان.

وحينما أكون فى بيتى أو فى زيارة لسيدات الطبقة المتوسطة، أرتدى الزى التركى فهو مريح للغاية ويناسب تماما جو هذا البلد؛ ولكنى لا أخرج أبداً سوى بثوب الركوب الشرقى الذى سبق أن وصفته لك.

بعد أن خلعت عنى السيدة التى ذكرتها، ثوبى الخارجي، تقبلته منها جارية فى معيتها وضمته فى منديل كبير من الكشمير الرائع، وردى اللون ومطرز بغزارة بخيوط من ذهب وفى الغالب تكون المناديل من هذا النوع أنيقة جدا فى حريم الأثرياء، ولكن هذا المنديل بالذات كان أجمل ما رأيت قاطبة من حيث دقة التطريز والذوق الرفيع. نقل ثوب الركوب لتوه إلى غرفة أخرى وهذه عادة متبعة، الغرض منها إبطاء فترة توديع الزائرة عندما تهم بالانصراف حتى يقدم لها بعض المرطبات الأخرى. اصطحبتنى صديقتى الجديدة إلى الديوان وأجلستنى إلى جانب مكان الشرف الخاص بوالدتها، ابنة عم المغفور له السلطان محمود، التى ما لبثت أن دخلت الحجرة وحيَّتنى بحرارة و أشارت إلىَّ أن أجلس فى أرفع مكان إلى يمينها وهو المكان نفسه الذى قادتنى إليه ابنتها، فى حين جلست جدَّة عباس باشا على يسارها . بعد قليل، دخلت ابنتها الثانية التى حيَّتنى بكل لطف ورحبت بى بطريقة رقيقة جدا. كانت ملابسها أبهى من ملابس أختها ولهذا سوف أصفها لك.

كان الطربوش فوق رأسها يلتف حوله منديل غامق اللون ثبت فى الجانب الأيمن منه فرع بديع الصنع من الماس يمتد جزء منه فوق جبينها؛ ويتألف الفرع من أحجار كبيرة جدا من ماس البرلنتي، صُفَّت على هيئة ثلاثة مزاهر متجاورة يمتد من وسط كل منها فرع لا يقل طوله عن خمس بوصات ينثنى على شكل بيضاوي. وعلى الجانب الأيسر فى أعلى رأسها مشبك على هيئة عقدة من الماس تضم مجموعة من خصلات الشعر المتموجة، أرجح أنها مستعارة بسبب موضعها فوق الطربوش؛ أما الطربوش نفسه فكانت له «شرابة» من الحرير الأزرق قُسِّمت خيوطها إلى قسمين

يتدلى كل منهما على أحد جانبى رأسها. كما كانت ترتدى صدرية طويلة وسروالا من قماش هندى غامق اللون منقوش بالأزهار؛ وحول وسطها شال عريض كشميرى قيّم؛ و يزين جيدها أفرع كثيرة من اللآلئ الضخمة يضمها على مسافات معينة خرز من الذهب. شيء واحد كان يشوّه منظرها بطريقة غريبة فقد زججت حاجبيها بالكحل، وامتد الطلاء الأسود ليضمهما بخط عريض قبيح للغاية. كثير من النساء من مختلف الطبقات يشوهن وجوههن بهذه الطريقة إلا أن بعضهن يستخدمن الكحل بمهارة ودقة فائقة للحواجب والأعين، ولكن حاجبى السيدة التى أتحدث عنها كانا يبدوان غريبين جدا فأفقدا وجهها كل تعبير ومنظر طبيعى.

وقف عدد من الجوارى البيض أمامنا على شكل نصف دائرة، يتقبلن من أخريات فى حجرة خارجية صينيات من الفضة عليها أطباق زجاجية بها حلوى. كان كل طبق به ثلاث ملاعق وفى كل ملعقة قطعتان من الحلوى. تبع هذا فى الحال تقديم القهوة فوق صوان من الفضة أيضا، كانت كالمعتاد فى أقداح صغيرة من الصينى وضعت فى حوامل على شكل كؤوس البيض ولكن هذه لم تكن كمثيلاتها فى البيوت العادية بسيطة أو مصنوعة من خيوط الفضة المتشابكة، ولكنها كانت مرصعة بالماس. كانت بالطبع أنيقة وقيّمة جدا، أكثر من كونها جميلة. لا تقدم القهوة أبدا من الصينية رأسا، بل تمسك التابعة الحامل بين إبهام وسبابة اليد اليمنى وتقدمها هكذا برقة فائقة. بعد تقديم هذه المرطبات بفترة وجيزة، ظهرت جاريتان تحملان صوانى فضية عليها الشربات فى أكواب غاية فى الأناقة من زجاج الكرستال لها أطباق وأغطية والصينية كلها مغطاة بمفرش وردى اللون غنى فى تطريزه تزيحه الجارية حينما تقترب منا لنتقبل القدح. وجريا على العادة، لا نحتسى إلا ثلثيه، ثم تتقدم جارية أخرى وفى يدها منديل كبير أبيض مطرز لتجفيف الفم والمفروض أن يمس الشفاه فقط ومن تفعل أكثر من ذلك، تعتبر «غشيمة».

أثناء الحديث، أبديت إعجابى باللغة التركية ولشدة دهشتي، قدمت لى كبرى الشابات دعوة للحضور فى أى وقت واقترحت أن تكون معلمتى، قالت، مخاطبة

مسز ليدر بألفة ومودة «يا أختاه، اقنعي صديقتك أن تزورني كثيرا لأعلمها اللغة التركية، وحينما أقوم بهذا، سوف أتعلم أنا لغتها هي ويمكننا حينذاك أن نقرأ ونكتب سويا». شكرتها على عرضها الكريم ولكنى لم أعط وعدا بأن أتتلمذ على يديها إذ إنى تنبأت أن هذا سوف يؤدى إلى مضيعة كثير من وقتي ، فاللغة العربية تفهم وتستخدم فى كل حريم زرته فلا داعي لتعلم التركية، إلا إذا بذلت جهدا كبيرا فى سبيل ذلك.

ويجدر بى أن أذكر ما كان يسود هذا الجو العائلى من روح طيبة ومرح شغل بها فكرى طوال زيارتي الصباحية هذه . إن كل ما لاحظته من عادات المرأة الشرقية سواء فى منزل حبيب أفندى وغيره، يجعلنى أفكر فى التناقض البيِّن الموجود فى عادات وتقاليد الحياة الشرقية مع البناء العام للمجتمع الأوربي. لعلك قرأت كتاب «روح الشرق «الذى كتبه مستر أركهارت Mr. Urquhart(*) وأعجبتك نظرته لحياة الحريم وأن «البيت» الشرقي الذى يعرضه بصورة براقة، له مميزات كثيرة. حقيقة ، هناك الكثير مما يشغل البال حينما نلاحظ خصائص هؤلاء القوم التى لا مثيل لها فى الغرب و فى إمكانى أن أقدم رسالة أذكر فيها غرائب قد تضاهى ما يذكره المستر أركهارت.

من الغريب حقا، أن تظل الفتيات حتى يتزوجن، بمعزل تام عن الجنس الآخر باستثناء أقرب المقربين لهن من الذكور، ثم يتقبلن شخصا غريبا، لم تكن لهن به صلة من قبل كزوج مهيمن على حياتهن! هذا وضع بشع بالنسبة للمرأة الإنجليزية حتى ليبدو مجرد التفكير فى مثل هذا النظام شيئا لا يحتمل (مع أنى سمعت أن القانون لا يفرض مثل هذا التشدد) . لهذا أراه لزاما عليّ أن ألاحظ وأشيد بما هو حسن وأحاول أن أتناسى ما أستنكره بشدّة فى أحوال المجتمع الشرقي.

قبل انصرافنا، عُرض عليّ أن أرى المنزل ؛ وأحاطت الابنة الكبرى رقبتي بذراعها وعلى هذا النحو، قادتنى إلى حجرة بديعة تدور على امتداد جدرانها صُفف، ويغطى المنطقة المرتفعة من أرض الغرفة حُصر هندية أما فى منتصف الجزء

(*) Urquheurt, D. The Spirit of the East, London, 1838.

المنخفض فكانت أجمل نافورة رأيتها فى مصر من حيث الذوق السليم ودقّة الصناعة فى تطعيمها بالمرمر الأسود والأحمر والأبيض. السقف كان نموذجا جميلا لصناعة الأرابيسك الرائعة، والحيطان كانت كالمعتاد مطلية بالجير الأبيض و خالية من أى زخرفة فيما عدا الأجزاء السفلى بارتفاع حوالى ستة أقدام كانت مغطاه بالقرميد الهولندى.

صعدنا بالطريقة نفسها إلى الطابق العلوى وشعرت فى دخيلة نفسى بطرافة هذا الموقف وبالشرف العظيم الذى حظيت به فى صحبة هؤلاء السيدات من البيت المالك التركي. حينما اقتربنا من الحمام، دخلنا أولا حجرة الاسترخاء المفروشة بالصُفف التى بدت مريحة جدا، ولكننا لم نقتحم منطقة الحمام واكتفينا فقط بنظرة سريعة إلى الداخل وذلك لشدة وطأة الحرارة والبخار ورجعنا بسرعة إلى الدهليز لننعم بالجو الرطب. لا تدهشنى رغبتك فى معرفة المزيد عن الحمامات والطريقة الشرقية فى الاستحمام، وأتمنى أن أفرد فى المستقبل خطابا خاصا لوصف هذه العملية (التى تستحق أن نسميها عملية)، وكذلك المكان الذى تُجرى فيه.

عندما وصلنا إلى الدرج، أخذت ابنة حبيب أفندى الثانية مكان أختها ونزلنا السلم وذراعها حول عنقى ودخلنا الحجرة الأولى التى نلت فيها كل الحفاوة عند مقدمى. وعندما تأهبنا للرحيل، أخذت الابنة الكبرى ثوبى من يد جارية وهمت بوضعه على كتفى، ولكن أختها بادرتها بالقول «لقد خلعته عنها من قبل، ويجدر بى الآن أن أساعدها أنا فى ارتدائه». امتثلت الكبرى ولكنها احتفظت بالحبرة، وعلى هذا النحو اشتركت الاثنتان فى تغطيتي. ثم بعد التحية المعتادة، شدّت كل منهما على يدى بحرارة وقبلتنى على خدى وهبطنا إلى الفناء، تحف بنا السيدات وجمهرة من الجوارى البيض. تخطينا الفناء، ووصلنا إلى البوابة الكبيرة التى مررت من خلالها من قبل و لا يغلقها سوى قطعة كبيرة من الحصير معلقة أمام المدخل تكوّن ساتر الحرملك. رفع الساتر عدد من الأغوات السود تدفقوا من ممر خارجي، وفى الحال ودعتنا السيدات، وانسحبن، تتبعهن الجوارى. وارتقى رئيس الأغوات منصة الركوب، وساعدنى على الجلوس فوق الحمار فى حين قام اثنان آخران بإحكام وضع قدميَّ فى الركاب بينما وقف خدمنا فى الخلف.

بعد مرور بضعة أيام على هذه الزيارة، تلقيت دعوة أخرى من الحريم ذاته يؤكدن فيها بكل ذوق ورقة أنهن يُردن إقامة حفلة و«فنتازيا» لتسليتي.



الرســـالة

الثالثة عشرة

آبريل ١٨٤٣



نظام الحياة فى الحريم



صديقتي العزيزة،

سوف تهنئيننا لأننا تركنا «البيت المسكون» وستكون التهنئة أشد حرارة عندما تعلمين أن ست عائلات تتابعت عليه في فترة لا تتجاوز ستة أسابيع منذ أن غادرناه. حينما وصلنا هذا الخبر، كانت الأسرة السادسة على وشك الرحيل؛ وجميعهم اضطروا لذلك بسبب المضايقات المتواصلة التي كانت تستمر ليس بالليل فقط بل أيضا في وضح النهار وبعنف زائد تسبب في كسر كل زجاج الحجرة الكبيرة العليا المفضلة لدينا. ولقد عانت الأسرة السادسة مثل هذه المضايقات وأضافت أن معظم الأواني الخزفية دمرت. مثلنا لم يحظ أحد بالراحة في هذا البيت، بل يمكنني القول بأن الآخرين قاسوا أكثر منا حيث إننا حصلنا على بعض الراحة نتيجة لما أنجزه بوابنا. أرجو أن تكون هذه هي نهاية هذا الموضوع الذي تحدثت عنه بما فيه الكفاية ولكن عذري «إنه لأمر بالغ الغرابة»[٢١].

أما منزلنا الحالي، فمريح جدا وتصميم بنائه يدل على ذوق رفيع وتفكير سوي؛ له شرفة واسعة، حسنة المنظر، والحجرات العليا ترتيبها لائق. ومعظم الحجرات لها نوافذ زجاجية، وحيث إن بناء المنزل جيد جدا، فهو دافئ في الشتاء، ورطب في الصيف.

وبالنسبة لإقامتنا في مصر، فليس من السهل أن أذكر المحاسن والمساوئ؛ ولكنني مقتنعة بشيء واحد وهو أنه لا بد من أن تمر على المرء سنة كاملة بدورة فصولها قبل أن يمكنه إصدار حكم حقيقي بشأن مميزات البلد. أذكر جيدا الضيق الشديد الذي أحسست به لعدة أشهر بعد وصولنا بسبب حرارة الطقس المتواصلة بشكل غير عادي و أيضا من كثرة الذباب والبعوض والعذاب الحقيقي الدائم الذي شعرنا به. كان يصعب عليّ أن أصدق ما يقوله الناس بأنني سوف أسعد جدا بمناخ هذا البلد. بالنسبة للبعوض، فهو يحول دون أي نوع من المتعة حتى إن الزائر لمصر خلال فترة القيظ الشديد يمكنه أن يؤكد بكل صدق أنه لم ينعم بأي راحة بالنهار أو بالليل إلا إذا دخل تحت «الناموسية». أعترف أنني كثيرا ما خشيت ألا نستطيع

---

(٢١) عبارة عطيل المعروفة "twas passing strange" I iii 160.

البقاء هنا للفترة التى كنا نريدها . ولكن ما كاد النيل يهبط ، حتى انتعشت آمالى حين و جدت أن الطقس تحول بعد الحر الشديد إلى أفضل ما يكون ، وفهمت حينذاك ما يقصده الرحالة حينما يقولون إن جو مصر رائع . شهر نوفمبر بديع هنا ، إذ إن ديسمبر ويناير قد يكونان شديدى البرودة خصوصا أن المنازل ليس بها دفايات أو مداخن إلا فى المطابخ . أما شهرا فبراير ومارس فممتعان للغاية إذ إن الطقس فى اعتداله يكاد يشبه الصيف فى إنجلترا ، قد تهب فى إبريل بعض الرياح الساخنة ولكن ماعدا هذا فهو شهر لطيف ، ولكن الرياح الساخنة مزعجة فى مايو ، ويلى هذا الشهر ، أربعة أشهر من القيظ الجائر . تعلمين مدى تعلقي ، عن استحقاق ، بوطنى الغالى وكل ما ينتمى إليه من ذكريات عطرة ، لهذا يمكننى أن أفصح دون تحفظ ، عن مبعث انجذابى لهذه المنطقة ،ودون خشية أن أتهم بالتحيز للإقامة فى الشرق على العيش فى إنجلترا . ولعل مرجع هذا هو الطقس وفى عادات الناس وبساطة تقاليدهم التى تدعو إلى الإعجاب وتخفف من شعورى بالتأثر لحالة الفقر السائدة عما إذا كنت فى وطنى حيث البؤس أقل . من المؤكد أنه لو صدرت فى القاهرة جريدة يومية ، لما رأينا بها فقرات تحت عناوين «الموت بسبب الجوع» ، «حالة بؤس مؤلمة» . . .إلخ مثلما نرى فى الصحف الإنجليزية . ولكن ما السبب فى هذا ؟ مع أنه لا توجد هنا مساكن لإيواء الفقراء مثلما توجد فى إنجلترا . يرجع هذا إلى قناعة ورضا الفقراء هنا بكسرة من الخبز و جرعة من الماء ؛ وفوق كل هذا هناك الرباط الأسرى القوى الذى يسود فى الشرق كله وأن الفقير يتحمل بحق هم أخيه . لاحظت هذا الرباط الأسرى نفسه بين أفراد الطبقتين العليا والوسطى التى زرتها حيث تظل الأم فى العائلة ، هى الرأس ويدوم سلطانها اللين الرقيق طيلة حياتها الغالية ، و كلما تقدم بها السن ، يزيد حب واحترام ذويها لها . يُذكر أن محمدا أجاب بحرارة حينما سُئل عن أحق الأقرباء بالعطف والاحترام ، قال لسائله مؤكدا : «أمك . . ثم أمك . . ثم أمك .»

صلة الرحم فى الشرق لها الأولوية على الزوجة التى تستقبل فى الأسرة كأخت صغرى ، ولا يحدث أبدا هنا أو فى تركيا ، أن يترك الأب والأم المنزل لتحل محلهما زوجة الابن . ولعلك تذكرين أن مستر أوركارت يذكر هذا فى كتابه «روح الشرق» ؛ ودعينى أسألك ، أليس هذا هو المفروض أن يحدث ؟ لا أفهم أبدا كيف

يخول لشخص فى قلبه ذرة من الإنسانية ، أن يسمح لواحد من والديه أن يتخلى عن شيء من المفروض أن يحتفظ به ولو كان على الابن أن يضحى فى سبيل ذلك بآخر قطرة من دمه.

إن لدىَّ ميزات كثيرة تؤهلنى أن أحسن فهم تقاليد وعادات النساء، أولها ألفة أخي بالشرق وأحواله، وثانيها، خطتى أن ألتزم التزاما صارما بالتقاليد التى يحافظ عليها القوم مما يجعلهم يكنون لى الاحترام، وفي الوقت نفسه، أثير اهتمامهم. ولقد بلغ بنا أن تبنينا طريقتهم فى الأكل؛ هنا أتوقف لأطلب منك ألا تقولى «ولكن هذا مقزز للغاية!» بل تابعي القراءة لتدركى كيف يتم هذا، وحينذاك سوف ترين أنها ألطف مما كنت تظنين . الأطعمة مجهزة بطريقة ماهرة جدا؛ فالخيار الصغير مثلا وما شابهه من خضروات أخرى، يجوف ويزال ما بداخله ثم يحشى باللحم المفرى والأرز؛ كما يُلف اللحم المفرى فى ورق العنب ويطهى بمهارة شديدة بحيث تبقى كل ورقة بما تحتويه سالمة يمكن تناولها بالأصابع، وكذلك يسهل الإمساك بأقراص وأصابع الكفته المحمرة. وبجانب هذا مائة من الأصناف الأخرى (هناك تنوع كبير فى طرق الطهى المختلفة) يمكن تناولها برقة بين الأصابع مثل قطعة من الكعك. أما الحساء والأرز المجهز على الطريقة الشرقية واليخنى فتستخدم الملاعق فى تناوله، والأتراك يأكلون بالطريقة نفسها. هناك مشكلة واحدة تصادفنا أحيانا حينما ندعى للأكل خارج المنزل وهى أن ربة البيت، تكريما لضيوفها، تقدم بيدها قطعا من اختيارها، وقد تتكرر هذه المجاملة عدة مرات، ورفضها يعتبر إهانة لا تليق إطلاقا. لا أظن أن أى سيدة إنجليزية باستطاعتها، مهما حاولت أن تبدو حسنة السلوك، أن تأكل كل ما تقدمه لها مضيفتها للحفاوة بها مع أن المضيفة تحاول أن تشجعها بأن تتناول هى أيضا وجبة كبيرة. ولقد رأيت فعلا نساء هذا البُلد يأكلن فى المرة الواحدة، ما يكفى لثلاث أو أربع وجبات عادية . أما بالنسبة لي، فقد وجدت أن أفضل طريقة هى أن أتقبل راضية، لفترة ما، كل الذى يقدم لى وعند الشعور بالشبع، لا بأس من أن أزيد ربما قطعة أخرى وأحيانا اثنتين أو ثلاثا وفى الوقت نفسه أؤكد لمضيفتى أن هذه اللقيمات الأخيرة فى الواقع تفوق طاقتي، ولكن اختيارها كان موفقا للغاية مما يجعلنى أطلب منها أن تجيء لى بعد الغذاء بمن أشرفت على إعداده لأستقى منها بعض المعلومات. بهذه الطريقة،

أزيل أى انطباع بأن الطعام لم يجهز بالطريقة التى تعجبني، وتكون الملاحظة الوحيدة التى تقال لى هى «حقا إن الإنجليز يأكلون أقل بكثير من الشرقيين» مع إبداء الأسف لأني اكتفيت بكمية ضئيلة جدا، ولكن يتبع ذلك إبداء السرور بأننى أعجبت بالطعام.

لم أجد صعوبة فى اعتناق أساليب السلوك الشرقية ويبدو لي، من الاحترام الذى أقابل به والطريقة التى أعامل بها والإصرار أن أكرر الزيارة، أننى نجحت فى فهم الناس وإرضائهم . ولدى اعتقاد راسخ ، نشأتُ عليه، هو أنه يمكن تجنب الاختلافات البسيطة على التوافه التى كثيرا ما تعكر صفو المجتمع، وتفصل بين الأصدقاء، إذا حاول المرء أن يلاحظ ويدرس ويراعى عادات وتقاليد الآخرين. فى هذا المكان، أدركت فائدة هذا السلوك الذى جعلنى دائما محط اهتمام واحترام الجميع.

سوف تضحكين دون ريب إذا شاهدت طريقة تناولنا الطعام فى منزلنا. نبدأ بمدِّ سجادة صغيرة فوق البساط وفوقها توضع منضدة صغيرة مطعمة بالصدف وغيره تستخدم كحامل لصينية مستديرة من النحاس «المُبَيَّض» يرص عليها الطعام، ويخص كل فرد رغيف من الخبز. ثم تأتى خادمة بإبريق وطاسة من النحاس، وتصب الماء على يدى كل فرد منا، ونحن نجلس حول الصينية ونمدّ على الركب فوط مائدة شرقية، وهى أعرض وأطول من المناشف الإنجليزية، وتغطى الركبتين عندما نجلس متربعين على الطريقة التركية. خلال تناولنا الوجبة تقوم الخادمة بسقايتنا من إبريق ماء، أو تطرد عنا الذباب «بمذبَّة». لا نُبدل الأطباق أو الشوك والسكاكين أثناء الأكل ولهذا لا يضيع الوقت ويدوم العشاء عادة عشرين دقيقة؛ على هذا النحو يوفر وقت ثمين يضيع فى أشياء زائدة عن اللزوم وبدون فائدة. يوضع صحن أو صحنان من الحلوى بجانب الأطعمة الأخرى فوق الصينية، ومن الغريب أن نرى سيدات هذا البلد، يتناولن بالتناوب قطعة من الحلوى وقطعة من الطعام الآخر المالح. بعد الانتهاء من الأكل، يمر علينا الإبريق والطاسة وتُزال الصينية مع السجادة وتُنقل المنضدة إلى غرفة أخرى لحين الاحتياج إليها ثانية. إن الجلوس بهذه الطريقة حول المنضدة يساعد كثيرا على الألفة، كما أنه من المدهش

أن عددا كبيرا من الأفراد، يمكنهم الالتفاف براحة تامة حول صينية صغيرة نسبيا. وإنني أنصحك أنت وسائر الأصدقاء في انجلترا أن تعاودوا استخدام المناضد الصغيرة المستديرة فلكم أسفت أنها لم تعد تستعمل حاليا فهي دون شك أفضل بكثير لأسرة صغيرة من الموائد الكبيرة المربعة أو المستطيلة السائدة الآن في إنجلترا.

إن موقفي طريف فعلا، كما يمكنك أن تتصوري، وخصوصا إذا اضطر أحد الرجال أن يدخل الحرملك ليأتي بشيء ثقيل يصعب على النساء حمله، فهو يعلن عن مقدمه وهو في الممر بأن يردد عدة مرات بصوت مسموع «يا ساتر!» و«دستور!». وعدا هذه المناسبات، لا يقترب أي رجل من مكان الحريم باستثناء السقا، حامل الماء. وكثيرا ما يخطر في بالي أن أي شخص يفهم اللغة العربية ولكن ليست له الدراية الكافية بالعادات والتقاليد، قد يظن هؤلاء السقاة من النُساك المتعبدين لكثرة ما يرددونه من تعابير التقوى والورع. الرجال شديدو الحرص على تجنب الحريم، مثلما تحرص النساء على إخفاء وجوههن، بل ربما كانوا أشد حرصا في ذلك. مما يضحكني، الاهتمام الزائد الذي يحيطني به أحد رجالنا الذي عاش لفترة طويلة عند أسرة تركية حتى أصبح بحق خادما تركيا ففي مناسبة معينة حينما رجعت إلى البيت بعد نزهة مع ولديّ، قذفني حماري أرضا عند دخولنا فناء الدار فأسرع الرجل لمساعدتي على النهوض (حيث إن رأسي كانت على الأرض) واتكأت دقيقة على حائط المنزل لأطمئن ولديّ اللذين انتابهما فزع شديد على سلامتي، ولم أدرك أني كشفت عن يديّ، ليس فقط أمام رجالنا، ولكن أمام تابعي الحمير! أسرع الخادم بكل احترام وغطى يديّ بالحبرة التي ضمها بعناية فائقة حولي حتى لا يحظى الرجال برؤية ثانية لإصبع من أصابعي؛ عندئذ أفقت لأدرك أين أنا وأنه لا يليق أن أكون غير محتشمة.

لا يمكن لشخص أن يتخيل الصرامة التي تراعى فيما يخص الحريم إلا إذا ذاق هذه العُزلة، كما لا يستطيع أجنبي أن يحدد بالضبط مقدار الحرية التي تتمتع بها النساء، دون أن يختلط بالمجتمع الشرقي. هناك شيء واحد لا شك فيه وهو أنه إذا كان الرجل طاغية، تصبح زوجته جارية له، ولكن هذه حالات نادرة جدا. لا

أحاول الدفاع عن نظام الزواج المعصوب العينين هذا، كما لا أتوقع تلك الزيجات السعيدة التي نجدها غالبا في إنجلترا ولكني مرتاحة لما أراه من أن السيدات الشرقيات راضيات، و أجدهن بدون استثناء واحد في نطاق معارفي، مرحات، منشرحات الصدر مما يؤكد لي أنهن يعاملن معاملة حسنة. ونساء الطبقة الوسطى لهن مطلق الحرية في تبادل الزيارات وارتياد الحمام، ولكن الآباء والأزواج يعترضون على خروجهن للتسوق ولهذا تتردد الدلالات بكثرة على الحريم. والحصار أشد بالنسبة لسيدات الطبقة العليا ولكن في ذلك نوعا من التمييز، والنساء يتباهين به و كثيرا ما يدلل الرجل زوجته بأن يدعوها «الجوهرة المصونة والدرة المكنونة» تعبيرا عن مفاتنها الخفية.

تسكن في مواجهتنا، امرأة عجوز طيبة لها قدسية معينة يلجأ إليها أبناء الحي لاستشارتها في مختلف الأمور وهي تبدى الرأى من مشربيتها ونحن نسترق السمع ونستفيد[٢٢]. منذ بضعة أيام قُدمت لها حالة تبين لك أن النظام الذى وصفته، لا يقتصر على طبقة معينة في المجتمع فقط. يبدو أن شابا من الجيرة كان قد خطب لنفسه فتاة صغيرة السن بناء على تزكية من رفيق له من الخدم دون أن يبعث قريبة له للتأكد من حسن أو سوء منظرها. ولكن القلق انتابه بعد يومين من الخطبة فأرسل صديقة له، أكدت أن العروس عوراء، ذات منظر كئيب وأنها لا تصلح أن تكون زوجة له. لام العريس الشخص الذى كان قد أوصى بها على إهماله خصوصا أنه متزوج وكان في إمكانه أن يرسل زوجته للتأكد من أن العروس لها عينان مبصرتان؛ في الواقع يقع اللوم كله على العريس وهو صاحب الشأن الأول، لأنه لم يتخذ مثل هذا الاحتياط. قدمت هذه القضية لصاحبتنا لتبت فيها. استمعت إليها بصبر ثم قالت للشاب : «يابني، لماذا رضيت أن تخطب فتاة لا تعرفها والدتك ولا نساء بيتك؟» أجاب بصوت حزين :«لقد ذهبن بعد خطبتي لرؤيتها، ولكنها كانت تجلس في غرفة مظلمة ولم يكن باستطاعتهن أن يعرفن إن كانت تبصر بعين واحدة أو باثنتين؛ في الواقع يا أماه، لقد اشتريت لها قطعا كثيرة

---

(٢٢) تسميها المؤلفة «دبورة الحى» وتشبهها بالنبية دبورة Deborah في العهد القديم (قضاة ٤/٥).

من الشباب كما دفعت لها مهرا قدره أربعمائة قرش وهى مدخرات عدة أشهر».
سألته العجوز: «وهل تعلمت أى حرفة بحيث تطلب مثل هذا المقدار من المهر؟»
أردف العريس: «لا، ولكنها تنتمى إلى أسرة أرفع مرتبة من أسرتى لها منازل وأراض وأملاك». أجابت: «الملك لله وحده» وبهذا القول انسحبت من المداولة.
سمعنا بعد ذلك أنه بالرغم من أن أسرة الفتاة المحترمة جدا، لم تسمح للخطيب أن يرى وجه زوجته التى عقد عليها حتى فى حضرة والدتها، إلا أنه حينما وضع المنازل والأراضي والأملاك فى كفة الميزان، وجد أنها ترجح على العيوب الطفيفة للعروس و لا تستحق الاهتمام.



الرسـالة

الرابعة عشرة

التقاليد المتبعة فى الحريم

أبريل ١٨٤٣

صديقتى العزيزة،

أؤكد لك أن الرق فى الشرق ليس ما تتخيلينه. ربما يكون العبد هنا تحت سيطرة سيده بدرجة أكبر منه فى الغرب، كما أنه يوجد بعض الوحوش، تقشعر الإنسانية لمجرد ذكر أسمائهم، ممن يسيؤون استغلال السلطة التى يخولها لهم القانون بدرجة فظيعة؛ ولكن بصفة عامة، نجد أن العبد الشرقى يعامل بمنتهى الحلم والتسامح، وكثيرون ممن انتزعوا بقسوة من آبائهم فى سن مبكرة، يجدون فى المشترين، آباء وأمهات يعطفون عليهم. ملبسهم وغذاؤهم عادة جيد جدا ويتمتعون بدرجة عالية من الألفة والدلال على الأسرة تبعث على الدهشة. وإذا حسن سلوك



ساتر الحريم

الجارية، فكثيرا ما يزوجها سيدها لشخص محترم، وفى الحريم الراقي، تقام لها حفلة زفاف رائعة. فى كثير من الأحيان يزوج نبيل من الأعيان عددا من جواريه وأحيانا محظياته فى يوم واحد لأزواج من اختياره. وقد يحدث أحيانا أن تتألم جارية من هذا التصرف المتعنت وتفضل البقاء فى المنزل الذى تعودت عليه ولكن عادة ما يكون زواج من هذا القبيل، موضع غبطة وسرور؛ وحيث أن الشرقيات من كافة الطبقات قد تعودن أن يرضخن لآراء الآخرين فيما يخص الزواج، فإن اختيار السيد زوجا لجارية عنده، يكون مدعاة فخر لها وامتنان. وترتدى الجارية يوم زفافها أفخم الثياب وتفرش أرض الحرملك الذى تنتمى إليه بالشيلان الكشميرية والأقمشة المقصبة لتمشى فوقها كما تُستأجر المغنيات والراقصات لهذه المناسبة وتحيط بالعروس فتيات يحملن المباخر وينثرن العطور. لا بد أنك سمعت وقرأت أن الرقص العربى يتنافى مع أصول اللياقة ولكن الرقص فى الحريم التركى ليس عليه جناح مطلقا، صحيح أن الفتيات يقمن بحركات فيها شيء من الإفراط ولكنها غالبا رشيقة كما أنهن يقمن بحركات «شقلباظ» رأسا على عقب بمهارة فائقة. إن العرض لا يروقني، ولكنه غير منفر.

كما أن الغناء لا يطربنى إذ أن نبرات أصوات النساء عالية جدا تشبه العويل أكثر من الغناء ويبدو لى أن الأغانى قد تكون مقبولة إذا صاحبتها موسيقى محتملة ولكن الآلات فى هذا البلد غير موسيقية إطلاقا وتتنافى مع أى نوع من الانسجام. إن أصوات المغنيين فى حد ذاتها ممتازة وقد تبلغ درجة الكمال تحت إشراف أوربى والفنانون لهم حب وحماس شديدين لفنهم ويفوقهم فى ذلك المستمعين. وغالبا ما يكون المغنون محترمين. ويختار النبيل من علية القوم أحد أتباعه ليكون زوجا لجاريته، وعلى هذا، تعامله المرأة كما لو كان أيضا تابعا لها.

من طريف ما قرأت حديثا فى كتاب «صور من فارس Sketches of Persia» ما يرويه بعض أهل هذا البلد (منهم أشخاص من ذوى المناصب العالية فى الحكومة أى من نبلاء القوم) عن الحرية والسلطة اللتين تتمتع بهما نساؤهم وأنا شخصيا أوافقهم الرأى بأن نساء الطبقة الراقية فى الشرق كله، لهن الهيمنة فى مجالات متعددة. ونحن نعتقد فى إنجلترا أن الزوج فى هذه المناطق هو فى الواقع الرب

والسيد وهو فعلا هكذا في بعض الأحيان، ولكنك قد تجدين من الصعب أن تصدقي، أن رب البيت قد يمنع لعدة أيام من الدخول إلى حريمه إذا وضع بأمر من زوجته أو زوجاته، زوج من البابوج على عتبة الباب من الخارج دلالة أن هناك زائرات بالداخل. وقد يضيق الزوج إذا تعددت مرات الإقصاء فيمنع الاستقبال المستمر للزائرات، وله مطلق الحق في ذلك، ولكنه نتيجة لهذا سوف يجلب على نفسه متاعب لا حد لها. لديه طبعا الحل؛ ولكن ما أتعس نظام الطلاق ! من يستطيع الدفاع عنه ؟ قلما يريد الرجل الطلاق إذا أصبحت الزوجة أما ولكن إذا لم يكن هذا هو الحال فما أسهل تدبير الأمر.

نجد في الطبقات الدنيا، أن بعض الأرواج طغاة مستبدون؛ ويرجع هذا إلى أن الرجال بحماقة، يتزوجون مخلوقات صغيرة بلهاء يصلحن أولادا لهم لا كزوجات، ولهذا تثير عدم خبرتهن الأزواج دون وجه حق. بالمناسبة، يخطر لى ذكر جارتنا العجوز التى لها حفيدة صعبة المراس جدا، تنغص حياتها. ومن عادة هذه الطفلة أن تسب خدم الجيران، ومنذ بضعة أيام استخدمت ألفاظا بذيئة وهى تشتم رجلا جالسا أمام باب سيده. استثير الرجل للغاية وقال لها : «حينما يكون عندى مال أكثر، سوف أتزوجك وأعاقبك كل يوم». إن هذا النوع من الأخذ بالثأر لا يمكن أن يخطر على بالنا نحن الأوربيين.

وفى الإسبوع الماضى، سيقت عروس صغيرة لا يكاد يتعدى سنها العشر سنوات فى موكب زفاف عبر دروب حينا. ويبدو أن الموكب بل والمناسبة كلها كانت بالنسبة لها مزحة هزلية إذ سرعان ما ضاقت بالالتزامات المفروضة عليها ولم تشأ أن يفرض عليها السير تحت مظلة بين اثنتين من صديقاتها وبجوارها امرأة تهوى عليها بمروحة، بل أصرت أن تسير متراجعة فى مواجهة الفتاتين لتقوم هى بعملية التهوية. وهذا يعطيك فكرة عن صغر سن الأطفال الذين يتم تزويجهن هنا.

إن أهم ما يشغل الحريم هو التطريز باستخدام إطار مستطيل يرتكز على أربعة قوائم وكذلك الإشراف على المطبخ والجوارى والخدم عامة؛ وكثيرا ما تقوم سيدات رفيعات المكانة بإعداد بعض أنواع المأكولات المفضلة بأنفسهن. وقد جرت العادة

أن تعد السيدات أنواع الشراب المختلفة، وهذا ما حدث في حريم من الطبقة الراقية حين قمت بزيارته، و تعتبر سيداته من أعلى المراتب الشرقية. ويقمن بإعداد شراب البنفسج على النحو التالي :- يؤتى لهن بالزهور على صينيات فضية كبيرة وتبدأ الجوارى بقطف الأوراق الخارجية، تقوم السيدات بعد ذلك بوضع الجزء الداخلي للبنفسج في هاون صغير ويسحق جيدا ليستخلص منه العصير الذي يمزج بسكر ناعم ويشكل على هيئة أقراص مستديرة تشبه حينما تجف، قطعا من السكر الخضراء. وهذه ينتج عنها شراب لونه أخضر زاه، أجمل من الأزرق والأحمر وذو مذاق لطيف جدا. لا أعرف مكونات الشراب الأزرق، قيل لي إنه يصنع من البنفسج ولكن بطريقة خاصة، أما الأحمر فمن الورد والأصفر من البرتقال أو المشمش الخ. لن أثقل عليك بذكر أنواع الشربات المختلفة ويكفي ما ذكرته منها ليكون لديك فكرة عن هذه المشروبات الصيفية المنعشة التي تتكون من أربع ملاعق كبيرة من القطر المسكر تذاب في نصف لتر من الماء تقريبا لتعطي مشروبا لذيذ الطعم جدا[٢٣].

وسوف تدهشين حين أخبرك أن ابنة الباشا التي لا تجرؤ السيدات اللاتي في معيتها أن يرفعن أبصارهن في حضرتها، تشرف بنفسها على غسل وصقل الأرض الرخامية في قصورها؛ فهي تقف في هذه المناسبات حافية القدمين فوق قطعة سجاد صغيرة مربعة وفي يدها عصا من الفضة ويحيط بها ما يقرب من عشرين جارية؛ عشر لصب الماء يتبعهن أخريات يجففن الرخام الذي يصقل أخيرا بأحجار ملساء.

ومن المؤسف حقا أن النساء عامة لا يتعلمن سوى الأشغال اليدوية. ولكن لا يحق لي أن أستهين بتطريزهن فهو آية في الجمال ويفوق مع اختلافه أي تطريز يمارس في انجلترا ويبدو فيه ذوق من نوع خاص يشبه إلى حد كبير الزخارف المنمقة في العمارة العربية، ولكن جمالها الفريد يكمن في الألوان المستخدمة التي كثيرا

---

(٢٣) يصف الجبرتي «أنواع الشربات» المختلفة، و«المربات»، و«أقراص الحلوى الملونة والرشال والملبس..» (١٢٠٣ هـ/ ١٧٨٩م - ١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م).

ما تعتمد على الاختيار العشوائي. والتطريز الذى يصنع فى الحريم يفوق غيره بمراحل، فكثيرا ما تتخلله أحجار كريمة خاصة الماس واللؤلؤ والزمرد والياقوت، فنجد السروال العريض من قماش مقصب ثمين يزين بالجواهر والزخارف المطرزة بوفرة. أما «السلطة» وهى معطف قصير فهى من أكثر قطع الملابس المطرزة التى تحظى لساطتها وأناقتها وتصنع للشتاء من المخمل أو الصوف الناعم المبطن بالحرير، وتلبس المصنوعة من الحرير الثمين فى الخريف والربيع. وفى الصيف يكون استخدام الملابس الأوربية من الموسلين شبه عام إذ أنه النوع الوحيد من الثياب الذى يلائم شدة حرارة الصيف فى مصر.

وقليل من النساء من يقرأن ويكتبن حتى لغتهن[٢٤] ولكنى أعرف بعض الاستثناءات فهناك أسرة حصل بناتها على ثقافة راقية جدا على يدى أخ لهن، أتم تعليمه فى أوربا. ويوجد فى مكتبتهم أعمال أهم شعراء إيطاليا وأفضل الأدب التركى؛ ولقد قرأت الفتيات هذه الكتب وفهمن ما بها.

(٢٤) من طريف ما يذكره الجبرتى عن «الست نفيسة» زوجة مراد بك، أن الوالى خورشيد باشا أرسل فى طلبها ولامها على أمر، أنكرته، «فأخرج من جيبه ورقة وقال لها: «وهذه؟».. فقالت: «وما هذه الورقة؟ أرنيها، فإنى أعرف أن أقرأ، لأنظر ما هي!» فأدخلها ثانيا فى جيبه. (١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م).



الرســـالة
الخامسة عشرة

الطاعون فى مصـر

يونيه ١٨٤٣

صديقتى العزيزة،

القـاهرة تعج بالخوف من وباء الطاعـون[١] والعديد من أجنحة الحريم الكبيرة فى حالة من الحجر الصحي. وسبب هذا التوجس استمرار تسعر الآفة لمدة تسعة أشهر وكان هذا نذيرا فى سنوات ماضية لانتشاره بضراوة.

سبق أن ذكرت لك أن هناك تخوفا من حدوث مثل هذه الفاجعة وهاهى قد ظهرت فى نطاق محدود، ولو أن حالات الإصابة بالطاعون

(١) يتبين من قراءة تاريخ الجبرتى، مدى انتشار الطاعون فى مصر آنذاك.

ليست قليلة في مدينة المنصورة. وبمناسبة هذا الموضوع أذكر لك حادثة غريبة كل الغرابة تبين أنه من الممكن استخلاص بعض الحلو من أمر الجرعات التي تبتلي بها البشرية. ذهب بعض الأطباء الروس إلى المنصورة لدراسة الوباء؛ ولكي يكتشفوا إن كان معديا أو غير معدٍ، طلبوا من بعض الأفراد أن يلبسوا ملابس من أصيبوا وماتوا بالمرض ومقابل ذلك، دفعوا لكل منهم خمسة قروش لليوم الواحد. كان هذا أجرا لا يستهان به؛ إذ إنه يعادل شلنا في اليوم! وحيث أن فقراء هذا البلد يعتبرون أن نصف قرش في اليوم يكفي لسد حاجة الشخص الواحد، وأن هذا المبلغ الزهيد كاف لمعيشة حسنة حسب رأيهم، لهذا يمكنك تصور مقدار انبهارهم بعرض الروس السخي، لولا وجود الخطر الذي قد يتعرضون له. ولكن الخطر لم يخطر ببالهم وتدفق الفقراء من كل أرجاء المدينة إلى الأطباء يتوسلون إليهم أن يسمحوا لهم بلبس جلباب الطاعون. وألح رجل مسن في طلبه قائلا: «أنا رجل عجوز فقير ولي أسرة أعولها؛ وحياتكم لاتردوني، دعوني أرتد الجلباب». تزاحمت النساء حول منزل من اعتبرنهم

أرباب نعمتهن يطلبن من الله البركة لهم إذ إنهم يعولونهن وأزواجهن وأولادهن. وحينما رأى زعيم المغامرين هذا المنظر، خرج إلى النسوة ورفع قبعته وانحنى بوقار أمام زائراته ذوات العيون السود؛ إثر ذلك جلجل الجو بزغاريدهن الثاقبة معبرة عن سعادتهن.

ولم يمت أحد من لابسي جلباب الموت ورغم أن الأطباء لجأوا بعد فترة وهم ينتظرون نتيجة التجربة، إلى تسخين الجلاليب لدرجة ٦٠ روميو[٢]. ومع هذا ظل الفلاحون المساكين أحياء، يأكلون الطعام الجيد ويزدهرون ولم يمت سوى أحد الأطباء ولا يدرى أحد كيف انتقلت إليه العدوى. ولكن عدم وفاة لابسي جلباب الموت، عضد الرأى السائد فى القاهرة أن المرض غير معد وهذا ما يراه، كما يبدو، أكثر الناس تفهما للموضوع[٣].

وقد توفى عبد لأحد تجار القاهرة مؤخرا من الطاعون، وكما جرت العادة، وأمر جندى بالوقوف أمام باب المنزل لمراعاة حجرصحى صارم. واستاء التاجر من هذا الوضع ورغب فى الدخول والخروج حسب هواه، ولينال مراده، لجأ إلى إغراء سجانه المؤقت بالمال وخاطبه بلطف: «تعلم يا أخى أنى تاجر ولدى مصالح فى الأسواق تتطلب وجودى المُلح هناك، أرجوك، دعنى أخرج وسوف أستأجر بديلا يحل محلي. فكر فى الموضوع، الله يكرمك». قال هذا باستعطاف ودس فى يده قطعة نقود من فئة تسعة قروش. تأثر الجندى بهذا الكلام ولم يحتج إلى المزيد من الإقناع، وخرج التاجر ودخل البديل، إنها طريقة جديدة حقا للحفاظ على الحجر الصحى!

أخبرتك من مدة أننى أخشى أن يضطرنا الطاعون هذا العام أن نذهب إلى الصعيد؛ ولكن يبدو أن الضرورة ليست ملحة الآن، فمع أننا كنا نواصل

---

(٢) Reaumur thermometer ترمومتر يشير الصفر فيه إلى نقطة التجمد والدرجة ٨٠ إلى نقطة غليان الماء. قاموس المورد تأليف منير البعلبكى.

(٣) يصف الجبرتى طبقة الأطباء الأفرنج فى العلاج ويعيب على معظمهم شدة الجشع وعدم مراعاة ظروف أهالى المرضى ومشاعرهم. ويذكر قصة فضح فيها أمر بعض هؤلاء فأمر بنفيهم فى الحال، ويعلق الجبرتى بقوله: «ولو فعل هذه الفعلة بعض المسلمين لجوزى بالقتل أو الخازوق». (١٢٣٢هـ/١٨١٧م).

باستمرار الاستفسارات القلقة، لم نسمع عن حالات انتشارالطاعون فى المدينة و واضح أن الخطر هنا، قد زال .

من الغريب والمؤلم أن يصاب هذا البلد، خلال الأشهر القليلة التى قضيناها هنا، بثلاث آفات انفرد بها، وهى : وباء الطاعون، والقرح (نوع من الطاعون)، والجراد. لقد قضت الأولى منها على عدد من الماشية ذات قيمة تكاد لا تعقل؛ ولم تكن الثانية بضراوتها المعتادة؛ أما الجراد فلا يزال يلتهم بشراسة محصول الأرض، ويقوم الفلاحون فى حدائق إبراهيم باشا وغيره بمطاردته بشتى الوسائل مثل قذف الحجارة والصياح ودق الطبول الخ.

إن إصرارى على ذكر ضآلة الأجور اليومية التى يرضى بها هؤلاء القوم المساكين يبين لك كم هو من سهلٌ على متوسطى الدخول أن يساعدوا عددا كبيرا من إخوانهم من فقراء البشر؛ ويكفى أن تشاهدى فى شوارع القاهرة منظر الشحاذين المكفوفين والمكسحين لتشعرى برغبة ملحة فى أن تمدى لهم يد المعونة لاحتياجاتهم البسيطة. وحتى من هم فوق حالة البؤس الشديد، باستثناء نسبة ضئيلة جدا، نعدهم فى انجلترا من الفقراء؛ ومن الملاحظ أنهم غالبا ما يدبرون القليل الذى لديهم بطريقة غريبة جدا؛ صحيح أنهم لا يبددون لقمة من طعام ولكنهم أحيانا مبذرون فى الأشياء البسيطة بسبب عدم حسن التدبير. وعلى سبيل المثال، صادف، منذ فترة قصيرة ، أن تلقينا من إحد المتاجر طردا صغيرا لا يزيد طوله عن شبر واحد، لف حوله خيط طوله سبعة وأربعون قدما بحيث يكاد لا يظهر من الورق شيئا ؛ ولم يكن هذا - كما قد يتراءى لك - بسبب قيمة ما بداخله إذ لم يتعد ثمنه بضع بنسات.

الطقس يسبب درجة عالية من الخمول؛ لذلك نجد الناس يستخدمون أى شىء فى متناول يدهم (إذا كان ملكا لهم) ليتجنبوا أقل مجهود؛ ومع هذا، كما ذكرت من قبل، لا يوجد أقدر منهم على العمل الشاق والاستعداد الطوعى لتلبية كل ما يطلب منهم. إننى فعلا أشعر بحب شديد للعرب(٤) وأجد متعة فى تنقلى على ظهر حمارى أن ألاحظ طريقتهم الجذابة فى التعامل التى تتسم باللطف والأدب. من الطريف حقا، مشاهدة فلاحين يتقابلان، وملاحظة الود

البادى بينهما الذى يتبعه تبادل الأخبار والمزح ثم الدعوات الطيبة عند الافتراق.

وأثناء سيرى فى الطريق منذ بضعة أيام، أدهشنى ما رأيت من مظاهر البذخ المفرط بمناسبة الاحتفال بعرس فلاح بسيط. بعد مسافة من بيت العريس وجدت نفسى أمر تحت أعلام من الحرير الأحمر والأخضر تتدلى من حبل مدَّ عبر الطريق ومن فوقها علقت سبع نجفات ضخمة مكونة من مصابيح ملونة كما مدّت ظلات من قماش الخيام السميك بيضاء اللون وخضراء من أسطح المنازل لتعطى ظلا وارفا. هنا سار موكب العروس المغطاة بشال من الكشمير الأحمر تحت ظلة وردية اللون، يحف بها جمع غفير وتتقدمها من تهوى لها بمروحة .

قد يظن الشخص الغريب أن الوليمة التى تتبع هذا العرض دلالة على كرم زائد، ولكن فى الواقع ليست هذه هى الحال، ولقد دهشت عندما علمت التقليد المتبع. كثيرا مانجد على سبيل المثال، أن فلاحا يشترى خروفين ومائتى مكيال من الدقيق وما تحتاج إليه هذه الكمية من الزبد وهى المتطلبات الأساسية لولائم الطبقات الدنيا فى مصر ، ويضيف إلى إلى ذلك أنواعا مختلفة من فاكهة الموسم وكميات كبيرة من التبغ والقهوة، ولتسلية الضيوف يأتى بالمطربين وأحيانا الراقصات. ولكى يفى بكل هذا، يقترض المال؛ و الخطوة التالية، أن يدعو جميع أقاربه وجميع أصدقائه ومعارفه. ويشعر هؤلاء بضرورة قبول الدعوة؛ وبالطبع لا يأتى أحد إلا وفى يده هدية. وهكذا يكون غالبا العريس هو الرابح من الاحتفال، وعلى أى حال يُمكنه أصدقاؤه من سداد ديونه. فى الواقع، ليس هنا أى مجال لكرم حقيقى وكل ما يبغيه العريس هو التباهى والزهو. فى «صبحية» عرسه، يرافقه أصدقاؤه عادة فى نزهة خلوية إلى الريف أو إحدى الحدائق حيث يأكلون معا ويتمتعون بالطرب والرقص بالطريقة

---

(٤) ورد تعبير «أولاد العرب» فى بعض مواضع تاريخ الجبرتى فنجده مثلاً يصف طوسون باشا فيقول: «له ميل لأولاد العرب».

نفسها ، و قلما تقع أعباء تكاليف هذه النزهة الخلوية على العريس.

وللمصريين ولع خاص بالحدائق والمياه؛ حتى الماء الراكد إذا كان حلوا، يعتبرونه نوعا من الرفاهية، وإذا كان جاريا مهما بلغت قذارته، فهو منتهى الرفاهية؛ وحينما تفيض قناة القاهرة وقت الفيضان يحتل الناس المنازل المشرفة على ضفتيها، يجلسون وقت فراغهم ويدخنون بجوار مياهها العكرة : ولكن سعادتهم تبلغ أقصاها، حينما يجلسون بجوار نافورة فهذا هو الفردوس بعينه.

كم أتمنى لو كنا نتمتع فى مصر بانهمار المطر الغزير أحيانا : ومع ذلك فإن أحد أبنائى يسرى عنى بأن يحقق هذه الأمنية فهو يقوم بسقى حديقتنا من نافذة علوية ناتئة. يستخدم لهذا الغرض إبريقا كبيرا للماء يضع فيه خرطوما طويلا وهكذا تتساقط مياه منعشة أمام النافذة السفلى فتغسل التراب الكثيف من على شجرة التوت وتعطى إحساسا لطيفا بالبرودة.

ولقد كانت شجرة التوت هذه موضع إعجاب الشخص الذى وصف لنا منزلنا الحالى قبل أن نراه. قال، بعد أن أسهب فى وصف مزايا البيت :«وهناك شجرة فى الفناء» ولكنه نسى نوع الشجرة فقال وهو يحاول أن يتذكر : «اللهم صلِّ على النبي.... إنها.. كرمة عنب».

فى مثل هذا اليوم الحار الرطب لا أستطيع الاستمرار فى الكتابة، و إذا استطعت أن أنسى الحر، فإن العصافير الصغيرة المسكينة تذكرنى بأنه فعلا شديد الوطأة، فهى تدخل وتخرج من النافذة فاغرة مناقيرها. لا يبدو أنها مهيأة لتحمل مثل هذه الحرارة الشديدة، إن منظرها البائس وهى تلتف حول الطعام والماء على شرفة البيت يبعث على الشفقة ويجعلنا نود أن ننقلها إلى إنجلترا؛ ولكنها لن تستطيع أن تسكن داخل المنزل كما تفعل فى مصر دون خوف من أن يصيبها أذى. لا نرى هنا قسوة عشوائية : هناك فى طبع الناس كثير من اللا مبالاة بالنسبة لمعاناة الآخرين ، ولكنى لا أعتقد أن العرب عامة تصدر عنهم قسوة متعمدة.

الرسـالة السادسة عشرة



زيارات مختلفة

يوليو ١٨٤٣

صديقتى العزيزة،

منذ أن ذكرت لك إحساسى بالجو المرح الذى يسود عادة فى مختلف أنواع الحريم التى زرتها، قمت قريبا بزيارة حريم أحد الأعيان الأتراك، وهناك وجدت استثناء محزنا لهذه القاعدة ومثلا مؤثرا للحب الأسَرى والسعادة الضائعة. لقد وقع الشيخ المحبوب، رب هذا الحريم، تحت وطأة غضب الباشا وحُجز فى سجن الدولة. قابلتنى سيدات الأسرة بكل كرم وترحاب ولكنى لاحظت بأسى شديد، الوجوم الذى كان يخيم على نفوسهن كما صعقت لما سمعته من السيدة الأولى، إنها هى أيضا سجينة إذ إن لديها أوامر بألا تغادر المنزل.



سيدة بملابس المنزل

كانت ترتدى ما يشبه ثوب الصباح، أبيض اللون مطرزاً بالأسود وفوق رأسها يتلألأ «قرص» بهيج من الذهب المرصع بالماس على هيئة أزهار.. الخ. وهو مستدير، محدب الشكل يبلغ قطره حوالى ست بوصات؛ يوضع أعلى الرأس ويثبت فى طاقية يلتف حولها منديل أى «فرودية». أما «القرص» فملفت للنظر جدا لكثرة ما به من أحجار الماس الملتصقة بعضها ببعض والتى زاد من بريقها الفجوات القليلة بينها والذهب الأحمر الذى ثبتت فيه؛ وكان يبدو على بُعد مثل كومة من الماس.

حينما أفضت لى هذه السيدة بما فى قلبها من حزن، سالت الدموع على خديها، واغرورقت عيون جميع السيدات والجوارى الحاضرات. استرعت انتباهى واحدة منهن لاختلافها عن سائر الشرقيات اللاتى رأيتهن وتذكرنى بالإيرلنديات الحسناوات من حيث البشرة ولون عينيها وشعرها الكستنائي. كانت ملامح وجهها تنم عن حزن أعمق من سائر رفيقاتها، ورجحت أنها إحدى زوجات السيد

إذ إن حاضنة كانت تتبعها وهى تحمل طفلا (يشبه الملاك فى جماله) و أيضا بعض الجواري. ولكنها مع هذا، لم تتخذ مجلسها على الديوان بجوار «الهانم» أى السيدة الأولى .

الأمهات هنا، يخشون العين الشريرة أو الحسود ولهذا من الضرورى حينما يظهر رضيع أو طفل صغير، أن تردد عبارة «ماشاء الله» كما لا يجب أن يمتدح مظهره؛ ومن الضرورى أيضا الدعاء له بأن يحميه الله ويباركه، ويجب تكرار الأدعية المناسبة التى يستخدمها المسيحيون والمسلمون على السواء فى مثل هذه المناسبات فى البلاد الشرقية ؛ هذه العبارات تثلج قلوب الأهل وتملؤها بالسعادة لأن أولادهم حظوا بلقاء أشخاص يؤمنون بالله.

وتقع مبانى هذا الحريم وسط حديقة واسعة وزخارفها الداخلية تشبه معظم القصور التركية فى هذا البلد؛ إذ تقسم الجدران إلى أقسام ويزين كل منها برسوم غير متقنة الصنع، تمثل منازل ريفية ومتنزهات.

وقد سبق أن ذكرت أنى لاحظت فى كل حريم دخلته أن السيدة الأولى هى الزوجة الوحيدة ولكن يبدو أن هذه ليست هى الحال؛ وكسيدة إنجليزية ، أرى وأتعجب كيف يمكن أن يسود الوئام حينما توزع عاطفة الزوج بين .... لا أريد أن أقول بين العديد من الزوجات.

وليست حدائق الحريم من الأماكن التى يستطيع المرء أن ينعم فيها بالمتعة، سواء كانت داخل المدينة أو خارجها إذ إن الأسوار التى تحيط بها تصل إلى علو يتعذر معه حرية سريان الهواء، كما أن تعاريش الكروم الممتدة فوق الممرات تكوّن فى الواقع أسقفا، ضرورية طبعا وقت الظهيرة حينما تكون الشمس شبه عمودية، ولكنها فى الوقت نفسه تحول دون سريان نسيم الصباح والمساء المنعش.

دهشت لدى زيارتى الثانية لحريم حبيب أفندى أن أجد السيدات (اللاتى لم أرهن منذ فترة طويلة بسبب الطاعون الذى كان يسود مؤخرا)، منغمسات فى السياسة وفى قلق شديد بسبب الخلاف بين امبراطور الروسيا وابن عمهن السلطان. سألننى باهتمام إن كانت انجلترا سوف تتبنى قضية تركيا، وشملهن بعض الاطمئنان حينما ذكرت أن إنجلترا أثبتت بحرارة صداقتها للسلطان الشاب

وأن حكومتنا قد اتخذت خطوات فعالة لإرجاع سلطته على سوريا. وأجد في مختلف الحريم شعورا قويا جدا مواليا لانجلترا وأستنتج أن ما أسمعه هو صدى للرأى العام. وحكمى هذا مبنى ليس على العبارات التى أسمعها فقط، بل على الاحترام الشديد الذى أعامل به؛ إن ما ألاقيه من حسن استقبال ولقاء وتوديع ليشرفني وأغتبط به إلى أقصى حد.

ذكرت كيف عوملت بكل احترام عند زيارتي الأولى لسيدات الأسرة المالكة؛ وفي الزيارة الثانية لهن، كاد ينتابني الذهول لما خصص لى من شرف إذ تخلت السيدة الأولى عن مكانها وجلست هي في مكان أدنى مني. واضطررت أن أمتثل لرغبتها ولكن على مضض شديد.

ولم أر في هذه المناسبة ما يستدعي الوصف من حيث الملبس أو الزينة، سوى زنّار الابنة الكبرى. كان عبارة عن شريط عريض من قماش غير براق لونه رمادى فاتح ومطرز بخرزصغير أبيض اللون يكوّن عبارة عربية وله محبس رائع من الماس أعرض من الزنار، على شكل صدفتين. كانت هناك ضيفة أخرى بدت من لقبها ومظهرها أنها تنتمى إلى طبقة عالية جدا؛ وإذا كان الأتراك، كما يدعى بعض الناس، يستملحون البدينات من النساء، فلا شك أنها تعتبر أجمل الجميلات إذ قلما رأيت بل لم أر قط شخصا أكثر منها بدانة.

ومن أجمل النساء اللاتى رأيتهن في مصر، زوجة أحد الشعراء المشهورين[٥]. إننى مغرمة بتأمل الوجوه الحلوة، ووجهها آية في الملاحة كما أن سلوكها جذاب وحفاوتها بى حينما قابلتنى كانت حارة، كذلك اتسم طلبها أن أقضى معها زيارة طويلة، بالصدق والكرم. كانت ملابسها، باستثناء القرص الماسى، بسيطة ومسلكها العام خاليا من التكلف. ويمكننى أن أتصور أن طبعها هذا، مصدر لسعادة وراحة زوجها وأولادها. أرجو ألا تؤاخذى تحيزى لوطنى وافتخارى به عندما أقول إنها تذكرنى بالمرأة الإنجليزية.

إن منزل أسرة هذه السيدة على الطراز العربى القديم، وهو يقع على حافة

(٥) مع الأسف الشديد لم تذكر المؤلفة اسم هذا الشاعر.

بحيرة في ضواحي المدينة و حوله منازل أخرى رائعة، ذات مظهر خلاب ولكل منها بالطابق الأرضي، فناء مغطى بعريشة لها قوائم من الخشب المنمق الصنع وتنمو الكروم فوقها والياسمين . وهنا يمضى رجال البيت أوقات فراغهم يتطلعون إلى الماء. أما الطوابق العليا فلها مشربيات (النوافذ الناتئة التى وصفتها لك) تطل على البحيرة.

وأنتقل من وصف الزيارات إلى وصف الزوار، لأخبرك أنه ظهر عندنا أمس زائر لم نرحب به إطلاقا، إذ اكتشفتُ بين الساتر الخشبى وزجاج نافذة الغرفة التى نجلس فيها عادة ثعبانا كبيرا يبلغ طوله أكثر من ياردة ونصف. كان من وراء النافذة وعندما رآنى من خلال الزجاج، رفع رأسه، وأخرج لسانه الأسود المفلوق؛ كان لونه بنيا فاتحا ولون القشور الممتدة في وسط ظهره أصفر فاقعا . لم يكن وضعه يسمح بالقبض عليه وفى الواقع لم يحاول ذلك أحد من رجال البيت سوى أخى إذ إن الخدم انتابهم ذعر متطيِّر منعهم من الاقتراب من الدخيل بل إن أحدهم لم يجرؤ على مجرد النظر إليه، لذلك لم نشأ أن يلمسه وأقنعناه أن يأتى لنا بحاو يسيطر على الأفاعي.

كان من الصعب جدا العثور فى مثل هذه اللحظة على رجل يحترف هذه المهنة بالرغم أن القاهرة تعج بهم. أخيرا وصل رجل بائس مُسن لا يكاد يبصر إذ ظن أن المنشفة التى حُشرت بين مصراعى الشباك لمنع اقتحام الكائن، هى محطُ فزعي، وخاطبها بكل احترام وإجلال قائلا : « يأيها المبارك!» وكرر هذه العبارة عدة مرات وكأنه يدعوه للمثول بين يديه ولكن الثعبان لم يعره أى اهتمام وبمهارة فائقة تلوى وانساب بين فتحات الشيش الخشبى ودخل إلى نافذة مطلة على الفناء، واختفى تماما. طبعا كنا نفضل أن يُعثر عليه ولكن الجميع أكد لنا، حينما وصفناه، أنه ثعبان منزل لا يؤذي.

ولا ريب أنك سمعت الكثير عن الإنجازات الخارقة لحواة الأفاعى الشرقيين وأدهشتك مهارتهم؛ ومؤخرا، شاهد صديق لنا دليلا لما لأحد هؤلاء الرجال من سحر أخاذ ومن جاذبية. لقد كان حاضرا فى منزل أحد المعارف حينما وصل الحاوى الذى بدأ بأن صفَّر قليلا، وقام ببعض المقدمات السخيفة قبل أن يستحضر

الثعبان بالكلمات التالية : «أستحلفك بسيدنا سليمان (أى سليمان بن داود) الذى حكم الإنس والجن، إن كنتَ مطيعا أن تأتى إليَّ، وإن لم تكن مطيعا، ألا تؤذينى !» وبعد فترة وجيزة، انزلق ثعبان من شق فى حائط الغرفة واقترب من الرجل الذى أمسك به. وحيث إنه لم يظهر ثعبان آخر، تقرر أن المنزل قد خلا منها وحينذاك طلب صديقنا من الحاوى أن يرافقه إلى منزله. ذهب الرجل، وبالكلمات نفسها استدعى الثعابين وكانت النتيجة مماثلة : انزلق ثعبان ومثل سابقه، استسلم لقبضة الحاوي. فيما يخص الثعبان الذى لا يزال فى منزلنا، أقول مثلما يقول المسلمون : الحمد لله أنه ليس عقربا. حقا إن لديهم فلسفة للحياة يمكننا أن نحتذى بها.

وقد حدث مؤخرا أن لدغت بعض العقارب عددا من جيراننا المساكين : أرسلنا لهم قليلا من كربونات النشادر لتوضع على الجروح، وكانت النتيجة مرضية للغاية.

إن القاهرة، بمنازلها الكثيرة الخربة، توفر عددا لا يحصى من الجحور للزواحف المؤذية ؛ كما أن سرعة اطّراد التدهور فى الآونة الأخيرة ألزم الباشا أن يصدر مرسوما للقيام بتغييرات وإصلاحات واسعة النطاق بالمدينة. أمر بأن تطلى جميع المنازل من الداخل ومن الخارج بالجير وأن يقوم قاطنو المساكن الخربة بإصلاحها أو بيعها ؛ أما المنازل التي تخلو تماما من السكان فيجب أن تُهدم ليحل محلها ميادين وحدائق عامة ؛ كما أن المشربيات ممنوعة، والمصاطب يجب أن تزال. بمقتضى هذا سيقضى على القاهرة كمدينة عربية ولن تحتفظ بالخصائص المميزة لها التى تضفى عليها جاذبية وطرافة. لن يكون هناك الظل الوارف فى الحوارى الضيقة الناتج عن النوافذ الناتئة ولن يجلس التاجر أمام محله بمنظره الطريف فوق مصطبته العريضة و بصحبة رفيق أو أكثر، كل هذا سوف يزول. لا يمكننى قطعا أن أنكر الضرورة الملحة لإصلاح المدينة وإزالة الخرائب التى تهدد حياة المارة ولكننى كنت أود الحفاظ على تلك المعالم المميزة التى تساعد على تجمع وتآلف الناس والتى تضفى على منظر المدينة طابعا خاصا.

أضيف إلى هذا الخطاب قبل أن أنهيه قصة احتيال مخجلة وسخيفة، وقعنا

فريسة لها منذ أسبوعين. كان هناك رجل مسن وفقير يعمل حارسا للحى الذى نسكن فيه، وعلمنا أنه يعاني من مرض منذ فترة طويلة وأن بعض الأعيان يقومون برعايته. في ذات يوم تلقى أخي خطابا من شيخ الحارة فحواه أن محمدا ، الحارس المسكين، قد تذكره الله في الساعة السادسة من الليلة السابقة ويرجو أن يتصدق عليهم أخي بثمن الكفن. أرسل أخي أحد الخدم إلى منزل محمد حيث وجد الجثة مسجاة، يقوم بغسلها أحد مغسلي الموتى في حين بدت زوجة المتوفى في حزن شديد بسبب مصابها و عبرت عن امتنانها للمكرمة التى أرسلت لعونها على دفن زوجها المسكين. مضت فترة ونسينا الحادث (خصوصا أننا لم نكن نعرف الرجل شخصيا) ولم نذكره إلا لنسأل عمن سيخلفه.

انتقلت المرأة العجوز زوجة الحارس المتوفى، بعد بضعة أيام إلى سكن آخر وتصادف أن مرت أمامه إحدى خادماتنا وانتابتها دهشة شديدة حينما رأت الحارس المرحوم يجلس على العتبة. صاحت الفتاة : «كيف ! عم محمد حي وبخير !» رد قائلا :«الحمد لله، أنا بخير وأعيش من مكرمة سيدك الأفندى؛ ولكن وحياتك يا بنتي لا تنبئيه أنني حي». فاتني أن أخبرك بأن ليس هناك أية قرابة بين الرجل العجوز والفتاة ولكن هذه هي طريقة التخاطب المألوفة بين عامة الشعب. وعدت الفتاة أن يظل أمر كونه على قيد الحياة، سرا دفينا؛ ولكنها لم تستطع أن تبرَّ بوعدها حينما رجعت إلى البيت، وحينذاك دب شجار عنيف بينها وبين الخادم الذى حمل ثمن الكفن (وكل منهما يؤكد ما رآه بعينيه) تذكرنا حينذاك الشجار بين هارون الرشيد و زوجته زبيدة، أو بالأحرى بين رسوليهما الذى أتى ذكره في قصة أبى الحسن المهرج.



الرسالة السابعة عشرة

وليمة بقصر الدوبارة

سبتمبر ١٨٤٣

صديقتى العزيزة ،

يجب أن أكون حريصة على الدقة المتناهية فى وصفى للاستقبال المشرف والاستضافة الراقية التى تمتعت بهما فى حريم الباشا .

إن قصر الدوبارة هو المقر الرئيسى لنسائه ، وهو بيت فخم يقع فى غرب القاهرة على الشاطئ الشرقى للنيل ويستحق فعلا أن يكون ملاذهن المفضل . بعد الركوب من خلال مزارع إبراهيم باشا التى تكاد تحيط بالبناء ، وصلنا إلى بوابة القصر الضخمة التى اخترقناها ومضينا داخل الأسوار العالية فى طريق طويل مغطى بعريشة يتشابك فيها نبات الكرم . وعندما انتهينا إلى

آخر الطريق، ترجلنا عن مطايانا وسرنا على أرضية مرصوفة برخام بديع على امتداد ممرات عديدة حتى وصلنا إلى ساتر مدخل الحريم. رُفع الساتر، وهناك استقبلتنا زوجة شابة لمحمد على خاطبت صديقتي مسز ليدر بمودة فائقة ورحبت بنا بكل حرارة؛ وفي لحظة التف جمع من السيدات حولنا يتبارين في إبداء اهتمام رقيق بنا؛ وبعد أن خلعن عنا غطاءنا الخارجي، تبعننا في حين تقدمتنا حرم الوالي إلى الصالون الكبير.

كانت الغرفة فخمة جدا، أرضيتها من الرخام مثل جميع الممرات و أرجح أن بقية حجرات الطابق الأسفل مثلها، ولكن لا يمكنني أن أجزم بهذا، إذ إن معظمها مغطى بشكل كامل بالحصر[٦]. أما أرضية الصالون فلا يكسوها سوى رخام أبيض ناصع من أنقى وأرقى ما رأيت في الشرق؛ و سقفه مقسم إلى أربعة أقسام مستطيلة

(٦) لا أجد تفسيرا مقنعا لما تذكره المؤلفة من أن أرض الحجرات الفخمة بالقصور، مغطاة بالحصر matting خاصة وهي تستخدم لفظ carpet بمعنى سجادة في أماكن أخرى.

متساوية، فى كل منها مَركز مُذهب تنبعث منه، مثل الأشعة، خطوط مطلية بمهارة فائقة باللونين الأزرق الفاتح والداكن، و تتدلى من هذه المراكز الأربعة ثريات بها عدد لا يحصى من الشموع، كما أن زخارف غنية تُزين أركان السقف وزيقه. أما الأرضية تحت القسمين المتوسطين للسقف فغير مغطاة ، فى حين أن الجانبين، على يمين ويسار المدخل، تكسوهما حصر أنيقة وفيهما دواوين (أى صفف) قرمزية اللون.

النوافذ مغطاة بستائر من الموصلين الأبيض تحُفها حواشٍ ، بعضها وردى اللون، وبعضها أزرق؛ كما أن كافة المرايا، ولعل هناك ستًا منها فى الصالون، تحيط بها أسماط مهدلة وستائر من نسيج رقيق لونه وردى و أزرق. وهناك منضدة واحدة مغطاة بمفرش من الكريب الوردى مطرز بخيط ذهبى مقصب وفوقها صندوق زجاجى كبير به طيور محنطة[٧].

وعلى جانبى المدخل، قاعدتان أنيقتان، على هيئة عمودين تلتف حولهما زهور صناعية وفوق كل منهما مشكاة كبيرة مربعة من الزجاج . النوافذ، أوربية الطراز، لها ساتر من الحديد المشغول بذوق حسن، ولكنه أكثر سمكا من نمط الفلجرى filigree. والتنسيق الداخلى للصالون عامة، مشرق، وضاح، يوحى بألوان الصيف والجو فيه لطيف ومنعش.

اجتزنا هذا الصالون إلى غرفة مواجهة حيث أجلستنا السيدة ذاتها على ديوان واتخذت مكانها بجوارنا. هذه الغرفة مغطاة بأكملها بالحصير ومفروشة بدواوين غاية فى الفخامة تمتد حول ثلاثة جوانب وهذه الدواوين عبارة عن مراتب كلها من القطن، و يبلغ سمكها قدمين وموضوعة على الأرض مباشرة وليست مثل سائر الدواوين حيث توضع المراتب فوق إطار خشبى يعلو عن الأرض بمقدار قدم أو أكثر قليلا. وقد غُلفت المراتب والمساند التى ترتكز على الحيطان بقماش قطنى مطبوع بألوان زاهية وفى الزاويتين المواجهتين إلى اليمين وإلى اليسار مرتبتان منفصلتان مربعتان مغلفتان بقماش من الموسلين أبيض اللون مطرز بجدائل سوداء، وخلف

(٧) أحضرت من الولايات المتحدة حيث تم إعدادها وتركيبها (ناشر الكتاب).

كل منهما وسادة أخرى تشابهها. بالإضافة إلى ذلك فقد صفت فوق جميع مساند الحيطان مجموعة من الوسائد الصغيرة المغلفة بقماش الموصلين الأبيض المطرز بالأسود على شاكلة مجالس الزاويتين. أما الستائر، فتشبه التى فى الصالون.

تناولنا القهوة فى هذه الحجرة و قدمتها لنا مديرة البيت وأمينة صندوقه وهى سيدة يبدو عليها الرقى والمكانة السامية، تناولتها من صينية فضية تمسكها سيدة أخرى وتتبعها أخريات ، إحداهن تحمل ركوة القهوة الصغيرة الموضوعة فى وعاء فضى به جمرات متقدة من الفحم ويتدلى من سلاسل، وهذا الوعاء يستخدم أيضا كمبخرة. كانت المجموعة كلها تبدو مثل صورة رائعة المنظر حيث إن أغلب السيدات كن صبايا، شقراوات وجميلات.

واقترحت حرم الباشا بعد ذلك أن ننتقل إلى الصالون للمثول بين يدى أرملة طوسون باشا وابنة محمد على باشا، اللتين كانتا تجلسان فى الزاوية المقابلة. وجدت السيدة المذكورة أولا، جالسة فوق وسادة على الأرض بجوار الركن الأيمن، فى حين اتخذت ابنة الوالى مكان الشرف وهو أيضا وسادة على الأرض. وكان فى معيتهما كثير من السيدات والجوارى يقفن مصطفات أمام حافة الحصيرة .

بعد قليل انضمت إلينا زوجة أخرى للباشا وهى والدة محمد على بك (صبى فى حوالى التاسعة من عمره)؛ ولقبها هو «السيدة أم محمد على بك».

و لا شك فى أنه يكون خرقا لقانون اللياقة ومخالفا لما يتبع من عرف فيما يخص الحريم، أن أقوم بوصف تفصيلى لزوجات الباشا أو أى سيدة أذكرها بالاسم أو بصلاتها الأسرية؛ ولكن يمكننى أن أعبر بصفة عامة عن إعجابى الشديد بالسيدتين اللتين قابلتهما وأظن أنهما الزوجتان الوحيدتان للوالي. كلتاهما فى سن الشباب، واحدة وسيمة، مهيبة الطلعة، فى حين أن الأخرى آية فى الجمال وتفيض رقة وعذوبة.

بعد الظهيرة بقليل، أعلن أن وقت الغداء قد حان فتقدمت أرملة طوسون باشا، وقادتنا إلى غرفة مجاورة للصالون حيث أعدت وليمة فاخرة فوق صينية فضية مستديرة، كبيرة جدا ترتكز على حامل صغير وتحيط بها وسائد كثيرة. وفى طريقنا إلى هذه الغرفة، سرنا فى ممرات رأينا بها أعدادا لا تحصى من الجوارى السود

وبعض الطواشية (الخصيان) في شتى أنواع الملابس الشرقية الزاهية ؛ كان مظهرهم يكوّن تناقضا بيّنا وخلفية طريفة للسيدات والجوارى البيض اللاتى كن حولنا وبرفقتنا. وعلى جانبى مدخل غرفة الطعام وقفت عدة سيدات، تحمل كل منهن فوق ذراعها اليمنى، منشفة مطرزة وتمسك إبريقا وطاسة من الفضة،لنغسل أيدينا قبل أن نتقدم إلى الطعام.

اقتصر الجلوس حول المائدة علينا، نحن الاثنتين وعلى أرملة طوسون باشا وابنة محمد على باشا ووالدة محمد على بك وسيدة يعطى لها فى الشرق أهمية كبرى وهى الأم الربوب (فى الرضاعة) لعباس باشا[٨]. وظل مكان الزوجة الصغرى خاويا.

رصت فوق الصينية كثير من الأوانى الفضية الصغيرة التى ملئت بأنواع شتى من المهلبية والبالوظة و غيرها، تزينها وردات بديعة الصنع أما فى وسط المائدة، فوضع ضلع من اللحم الضانى فوق أرز متبل. أسعدنى وبالذات فى هذه المناسبة، أن لى دراية سابقة بالعادات الشرقية التى تعودتها فى منزلنا وإلا كنت ظننته أمرا مهولا أن تؤكل قطعة كبيرة من اللحم دون استخدام الشوكة والسكين. فى الواقع لم أكن أتوقع أبدا أن تخصنى أرملة طوسون باشا بالعناية، وهي والدة عباس باشا و أكبر الحاضرات سنا ولها أرفع مكانة بينهن ، إذ كانت تُشرفنى بأن تقدم لى بيدها كل لقمة تقريبا ذقتها أثناء الوليمة. كما أن والدة محمد على بك قامت بالمهمة ذاتها بالنسبة لمسز ليدر.

وبعد اللحم جاء اليخنى الذى تبعته خضروات، ثم بعد ذلك قشدة لذيذة المذاق وغيرها من أشياء أخرى لا عدد لها مما لذ وطاب ؛ كان الطبق يرفع بعد أن نتذوق ما به، ليحل محله آخر. بعد ذلك صُفت أنواع الحلوى المختلفة واحدة تلو الأخرى وكلها أعدت بمهارة فائقة. كانت الصِّحاف كلها من الفضة باستثناء واحدة. و بالقرب من مجلسنا وقفت سيدات ومعهن مذبات ؛ كما اصطفت وراءهن على هيئة نصف دائرة ما يقرب من ثلاثين من النسوة والفتيات، أغلبهن مليحات، فى

(٨) حاشية المؤلفة: يقال إن عباس باشا هو خليفة الباشليك (لقب يطلق على الوالى).

ملابس مزركشة بهية، واللاتى بجوار الباب يحملن صوانى من الفضة تضع عليها جوارى سود بالخارج، آنية الطعام بحيث لا تظل المائدة خاوية أبدا. ولا يسمح فى منازل العظماء أن تدخل الجوارى السود الغرفة التى بها ضيوف؛ ولكن الطواشية السود، إذا كانوا من المقربين للأسياد، فهم يتجولون بحرية مطلقة فى أرجاء أرقى حريم.

كانت أرملة طوسون باشا، وهى تقدم لى لقمة بعد لقمة، تردد كل مرة عبارة: «باسم الله» وهذا القول يلفظه المسلمون دائما قبل الشروع فى الأكل أو الشرب، كما أن الدعاء بعد الطعام أو الشراب، هو: «الحمد لله». هناك تقليد مريح جدا يُتبع فى الشرق بعد تناول الطعام وهو أن كل فرد له مطلق الحرية أن يغادر المائدة إذا شبع، وهذه العادة تعتبر نجدة حقيقية بالنسبة للأوربيين بسبب كثرة وتعدد ودسامة الأطعمة.

إن الشرقيات يتمتعن بكثير من الرشاقة فى حركاتهن حتى إذا قمن بأبسط الأعمال، ولقد راعتنى الطريقة الأنيقة التى عرضن بها علينا الطاسات والأباريق الفضية بعد أن قمنا من المائدة. تبعتنا حول الصينية أرقى سيدات المنزل ويخيل لى أن أخريات جئن بعدهن حسب مركزهن حتى انتهى الجميع من وجبة الغداء.

رجعنا إلى الصالون، حيث استقبلتنا زوجة الباشا الصغرى التى لم تشاركنا الطعام بسبب توعك. ووجهت لى دعوة عامة لزيارة قصر الدوبارة وأخرى خاصة لحضور احتفال بمناسبة عرس مهم يتم قبل مغادرتى البلاد. وأكدت لى أن «الفنتازية» سوف تكون من أبهى ما يمكن إعداده؛ ولسوف أعرفك يا صديقتى عما قريب باسم العروس الذى أخبرتنى به ولكنه ليس من اللائق أن أبوح به حتى يتم إعلان يوم الزفاف فهو سر من أسرار الدولة المصرية!

فى حريم الباشا، عدد لا يحصى من النساء الجميلات جدا و الفتيات الحسناوات اللاتى لم تتعد بعضهن العاشرة من عمرها. التركيات والشركسيات والجورجيات عادة، لهن بشرة ناصعة البياض؛ أذكر خاصة إحداهن ذات جمال أخاذ وملبس أبهى من قريناتها. لم تدخل الصالون إلا عند إعلان بدء الغداء، وكان مظهرها حقا ملفتا للنظر؛ كانت ترتدى يلكا وشنتيانا (أى قميصا طويلا

وسروالا) من الحرير الثقيل لونهما أرجواني داكن ساعد على إبراز فيض من حلي ماسية ثمينة كانت تزدان بها ؛ أما لباس رأسها فمنسق بذوق رفيع والفرودية الحريرية الداكنة مرصعة بأفرع من الماس الثمين.

أنتهز هذه المناسبة وحريم الباشا لايزال ماثلا أمام مخيلتي، لأصف الملابس الشرقية التى ترتديها السيدات التركيات. الطربوش تزينه شرابة كبيرة وكثيفة من حرير أزرق داكن يفرق ويفرش فوق قمة الرأس والسيدات اللاتى يتزيّنّ بحلى ثمينة، غالبا ما يعرضن أجمل ما لديهن من مجوهرات فى مؤخرة الرأس إما على شكل «القرص» الذى سبق أن وصفته لك أو على هيئة غصن به أزهار تشبه الزنبق fleur de lis ولكنها أعرض وأقصر منها. يشبك هذا الغصن عند ملتقى الشرابة التى تمتد خيوطها أحيانا على جانبى الرأس من الأمام بمقدار بوصة واحدة ؛ ثم تلف الفرودية حول الرأس مع إنزال جزء منها فوق الجبين وتنسق بحيث تتدلى الحافة التى بها شراريب على جانب واحد . كما يقص الشعر الأمامي ويمشط إلى أسفل ليصل إلى الحاجبين وهذه طريقة قبيحة جدا تشوه أجمل وجه إلا فى الحالات التى يلتف فيها الشعر بطريقة طبيعية تجعله يرتفع عن الجبين. الشعر الطويل يصفف فى ضفائر عديدة ترفع على جانبى الرأس وتلوى إلى أعلى فوق الفرودية. وفى حالات عديدة، تترك الشابات من السيدات والجوارى البيض شعورهن مرخية بانطلاق ومشوشة على أكتافهن ولكنى لم ألاحظ هذه الظاهرة، سوى فى الحريم التركى مثل قصر الدوبارة حيث نرى كثيرات منهن يسدلن شعورهن الطويلة على الأكتاف و أحيانا تضفى عليهن هذه البساطة جاذبية أخاذة. ولكن لا يبدو لى أن أى طريقة في تصفيف الشعر، سواء كانت معقدة أم بسيطة، تضاهى فى جمالها الأسلوب الذى تتبعه السيدات المصريات اللاتى يتركن شعورهن الطويلة تتدلى على الظهر فى ضفائر متعددة رفيعة قد تضاف إليها جدائل من الحرير لتبدو أكثر طولا وتزين بمئات من الحلى الصغيرة الذهبية التى تشبه التبريقات (ترتر) البيضاوية الشكل وهذا طراز أكثر انسجاما مع الملابس الشرقية من أى طريقة أخرى.

أعود إلى وصف ملابس السيدات التركيات : اليلك ثوب خارجي أطول بكثير

من طولهن؛ لهذا نجد الجزء الخلفي منه يتدلى على الأرض على شكل ذيل جرار أنيق وعند السير فوق حصيرة أو سجادة[٩] يرفع الذيل من الأمام فوق الذراع؛ والقميص من تحته من حرير رقيق أو موسلين ناعم أو كريب خفيف جميل الشكل، مقلم بخطوط لامعة مصنوع من الحرير الخام، و لونه سُكرى وأكمامه لا تضيق عند المعصم. أما الشنتيان أى السروال، فواسع جدا وعادة يكون من قماش غير قماش اليلك إذ يصنع من البروكار السميك أو الموسلين أو الشيت القطنى المطبوع بنقش واضح كبير، وأحيانا من الأطلس من لون واحد، أما اليلك فعلى النقيض، يصنع من قماش رقيق مثل الستان أو الحرير الهندى أو الموصلين، وبه نقش دقيق فغالبا ما يكون مقلما بخطوط رفيعة .

والسيدة التى لا تقضى وقتها فى كسل تام، وليس لها جوار يحملن ذيل ثوبها الجرار، تضم أطرافه وتزجها فى نطاقها، وأظن أن هذه طريقة أنيقة للملبس. السيدات الراقيات يتمنطقن دائما بشيلان كشميرية حول الوسط غالبا ما يكون لونها أحمر، والتى رأيتها فى قصر الدوبارة، كانت لها حافة رفيعة مذهبة وأيضا شرابات ذهبية عند كل ركن؛ كما أن النُرُز (القميص) كان يختلف عما رأيته من قبل إذ كان من قماش مطرز بعدة ألوان، كانت أكمام ابنة الباشا ورفيقاتها طويلة مزمومة بأزرار عند الرسغ. الأكمام تضم دائما إذا كان طولها مزعجا، ولكن حيث إن سيدات الطبقة الراقية فى البلد لا يشغلن أنفسهن بأى عمل بل يقضين وقتهن فوق الدواوين ، فإنهن لا يجدن حرجا فى الثياب الفضفاضة المتدلية.

ويقودنى وصف الملابس إلى الوراء لذكر السيدة التى استرعى منظرها إعجابى الخاص. عندما طلبتُ أن يؤتى لى بالتزييرة، لاحظت عدة سيدات يعبرن الصالون وكانت تسير بينهن تحملها إلىّ، ومنظرها العام فى شخصها وملبسها يدل حقا أنها ملكة. ألبستنى التزييرة بكل رقة وجلال ثم انضمت إلى رفيقاتها عند المدخل لتتقبل وتؤدى فروض التوديع. فاتنى أن أذكر شيئا وهو أن جميع أبواب القصر تسدل أمامها ستائر قرمزية اللون ومطرزة حيث إن الأبواب تظل دائما مفتوحة ولا يسمح أبدا بغلق باب فى الحريم؛ وهناك ذوق رفيع يتمثل فى تطريز هذه الستائر. فى الواقع يتميز قصر الدوبارة بسلامة الذوق الراقى فى شتى زخارفه.

---

(٩) mat or carpet.



الرســـالة
الثامنة عشرة

نظام الحريم العالى

ديسمبر
١٨٤٣

صديقتى العزيزة،

إن أفـضل وسـيلة لتكوين فكرة عن التـرتـيب والنظام المتبع فى حريم العظماء والأثرياء، أن أشبه كلا منها بدويلة صغيرة لها حكامها وموظفوها، والشــخص الذى يشـغل أعلى منصب بعـد رب البـيت مباشـرة، هو السـيدة الأولى التى يُطلق عليـهـا عـادة «الهـانم» أو بالأصح «الخـانم» وهذا اللقب معناه الحرفى «مولاى» (ولا عجب فى ذلك إذ إن السيدات التركيات اللاتى نظن فى إنجلترا أنهن لا يحظين بأى احـتـرام، يُكرمن بألقـاب الرجال). فى مقدمة من تستحق هذا اللقب من تكون ذات صلة رحم بالحـاكم والتى نسـمـيـهـا نحن، «السلطانة» وكذلك من نسائه اللاتى أنجبن

له ذرية، وتحظى بهذا اللقب أيضا زوجات الوزير الأعظم، كما تُكرم به زوجات عظماء رجالات الدولة وأحيانا أيضا نساء من هم دونهم فى المرتبة. وبالمثل نجد أن لقب «أفندم» الذى يطلق على الرجال، (ومعناه الحرفى «سيدى») يمنح أيضا لهؤلاء السيدات.

تعتبر والدة رب الأسرة، سيدة الحريم الأولى، وإن لم تكن على قيد الحياة، فتتخذ أخته أو أخواته الصدارة، تتبعهن فى المرتبة، زوجته المفضلة. ومسألة الأولوية بين زوجات رجل واحد تنظم بطريقة أبسط بكثير مما يمكنك تخيلها بفكرك الأوربى عن حقوق المرأة؛ وعادة ما تتم على النحو التالى: الزوجة الأولى للرجل إذا أنجبت منه، تحتفظ بمرتبتها العليا على أية زوجة أخرى تليها؛ وإن لم تنجب، تتنحى لأخرى أكثر حظا منها وبالتالى تستحق محبة أكثر وتكريما، وتتدرج مراتب الزوجات التاليات حسب إيثار الزوج لهن.

وكل زوجة فى الطبقات العليا، لها جناحها المنفصل وأتباعها، خاصة أن

مظاهر الغيرة قد تظهر فى ظروف المعاشرة الدائمة حتى بين الزوجات الشرقيات، كما أنه ليس من المستبعد لدى عظماء القوم، أن تنفرد كل زوجة بقصر مستقل ولكن سواء فى منزل واحد كبير، أم فى عدة مساكن أصغر حجما، نجد أن حريم النبيل يشمل البيت كله أو معظمه ويحاط عادة بأسوار شاهقة للحديقة تصل فى ارتفاعها إلى علو المساكن المجاورة. وبهذه الطريقة، يُحصن حريم النبيل التركى لمنع اقتحام أى زائر غير مشروع، اللهم إلا إذا استعان بسلم خاص لتسلق السور العالى أو إذا تسلل إلى الداخل بطريقة أكثر فاعلية ألا وهى الدسيسة. ويحرس المدخل الخارجى بوَّاب ، والداخلى أغوات؛ ويمتد خلف المدخل الثانى ساتر الحريم الذى سبق ذكره. وفى الغرف الأمامية للجناح الداخلي، نجد الجوارى السود اللاتى يقمن بالخدمات الوضيعة في الحريم ، ثم بعد اجتياز الغرف الخارجية، تتقدم الجوارى البيض يحملن قنينات من الفضة بها ماء معطر للرش و مباخر فضية تتدلى من سلاسل وكذلك القهوة والأراجيل والشربات والحلوى؛ وترص كل مجموعة من كؤوس القهوة والشربات فوق صينية صغيرة يغطيها فى الغالب غطاء مستدير من القماش الباهر فى تطريزه تحفه هدابة عريضة من الخيط المذهب. ومن الملاحظ أنه توجد بين الجوارى البيض من هن أرفع مرتبة من الأخريات، يتنقلن بين الأرجاء ويشرفن على الترتيبات ؛ كما رأيت بين السالفات فتيات من أروع ما شاهدت فى أى حريم، وهن يؤكدن فكرتى السابقة عن الجمال الذى تشتهر به الشركسيات ونساء منطقة چورچيا. باستثناء حالتين، ويبدو لى أن المرح يسود بين هؤلاء السجينات الحسناوات مع أنهن يمنعن تماما من أى اختلاط بفرد من الجنس الآخر ماعدا سيدهن وأقرب أقاربه. أما إذا حاول أى رجل غريب اجتياز المدخل الأول ، فإن الموت يكون غالبا جزاء تهوره لحظة اكتشاف أمره.

ولكن منازل العظماء المنفصلة عن حريمهم تكون فى الغالب سهلة الاقتحام، وقد ينتج عن ذلك مفارقات غير مستحبة؛ فقد حدث فى الشهر الماضى حين كان محمد على مقيما فى قصره بشبرا، أن قصد المكان شخصان أوربيان بغرض مشاهدة الحدائق. كانا يرتديان الملابس الإفرنجية بالإضافة إلى الطربوش وشال حول الوسط وأحذية حمراء؛ وبعد أن طافا بالحدائق، دخلا القصر وحيث إن أحدا لم يعترض طريقهما، قاما بتفقد غرفة واحدة بعد أخرى حتى قادهما المطاف أخيرا

إلى غرفة مخدع الباشا حيث كان يجلس جلالته شبه مجرد من الثياب ! ورغم أنه فوجىء، إلا أن رباطة جأشه التركية لم تتخل عنه : نادى على ترجمانه وقال له «إسأل هذين السيدين من أى مكان ابتاعا طربوشيهما ؟» أجاب الأوربيان «من القسطنطينية» ؛ أردف الباشا «و هناك، لا ريب تعلما الأدب، أخبرهما بما أقول» أدرك الفرنجيان من هذا الرد الحاسم أن وجودهما غير مستحب فبادرا بتحية الوالى وانسحبا.

وهذا يذكرنى بحادثة أخرى وقعت مؤخرا تدل فقط على جهل بآداب السلوك التركى وليس على نقص فى آداب اللياقة العامة. فقد حدث أن رجلا أوربيا قدم مؤخرا إلى مصر وزار مع آخرين من المدينة أحد العظماء، وكان يرافقه صديق لأخى و مسيو «ل» وكلاهما عاش فى هذا البلد منذ سنوات عديدة واختلط بأرقى الأوساط الشرقية. بعد أن تناولوا كالمعتاد الأرجيلة والقهوة ، أحضر الشربات وقدم أولا للضيف الغريب، الذى تأمله لحظة ثم لاحظ الفوطة الزاهية المطرزة التى تتدلى من ذراع العبد الذى يقدم له الكأس وبحركة تلقائية بدافع ، حسب اعتقادي، فكرة مسبقة عن أصول النظافة لدى الشرقيين، غمس أصابعه فى المشروب السكرى ثم استخدم الفوطه لمسحها. وحسب أصول الذوق الفرنسى الرفيع فى مراعاة شعور الآخرين ، اتبع مسيو «ل» الطريقة نفسها، فغمس أصابعه هو فى الشربات و مسحها بالفوطة. وأشك فى أن المضيف أدرك الغرض من هذا التصرف الشاذ. أما صديق أخى الذى كان يجلس على بعد من رفيقيه فقد أقر أنه شرب الشربات الذى قدم له .

وأرجع إلى موضوع إدارة الحريم الراقى لأذكر أن الهانم لها عادة أربع تابعات أساسيات، اثنتان منهن متقدمتان فى السن وتعملان فقط كرفيقتين، الثالثة خازنداره والرابعة مساعدة لها ؛ تليهن فى المقام، اللاتى يقدمن الأراجيل والقهوة والشربات والحلوى، ولكل واحدة منهن مجموعة من المساعدات. وتضم أدنى مرتبة الطاهيات وخادمات المنزل وأغلبهن من الجوارى السود. إن الحريم عالم صغير من النساء تقضى فيه الكثيرات حياتهن منذ نعومة أظفارهن ؛ إنه مسرح لأفراحهن وأحزانهن، لسعادتهن وهمومهن، وليست لديهن فكرة عن عالم آخر

أوسع خارجه و لا يتوقعن أى تغيير سوى الانتقال إلى حريم أزواجهن.

إن الأفكار التى تسود لدى الكثيرين فى أوربا عن التسيب الخُلقى فى الحريم، هى فى اعتقادى خاطئة. صحيح أن للسيدة الرئيسية سلطة كبيرة قد تسيء استعمالها، ولكن جواريها يقعن تحت مراقبة صارمة؛ كما أن النظام الذى ترضخ له الفتيات صغيرات السن فى الحريم الشرقي، لا يمكن أن يقارن إلا بما يتبع فى الأديرة، وأى انحراف عن قوانين الحشمة المطلقة، ينتج عنه عقاب فادح كثيرا ما يقود إلى القضاء على المذنبة بالموت. إن إطار كيان المجتمع الشرقى ذاته يعارض بشدة كل فكر أوربى وذلك يجعلنى أتنبأ بأن العقل الشرقى يحتاج إلى عدة أجيال قبل أن يمكنه انتزاع نظرته العدوانية هذه وتقبل أفكارنا الحضارية. لا شك فى أن المسيحية هى الوسيلة الوحيدة التى تجلب السعادة لأى شعب، والشرقيون بعيدون كل البعد عنها إلا فيما يختص ببعض الأسس العقائدية فى دينهم (من حيث اعترافهم بالمسيح مع إنكارهم لطبيعته الإلهية وتكفيره عن ذنوب البشر) ولهذا فهم بعيدون كل البعد عن السعادة الحقيقية.

إن تحامل السيدات التركيات ضد العقيدة المسيحية الطاهرة واضح من بعض الملاحظات، أو بالأحرى عديد منها مما يذكر أمامى وأمام صديقاتي. هناك سيدة دعتنى بحرارة أن أتردد على حريمها فى أى وقت يروق لى و كانت معاملتها لى كلها محبة صادقة ولكنها أفصحت عن مكنون رأيها حينما قالت لى ولصديقتى «يا للخسارة أنكما مسيحيتان!». وا أسفاه! إن هذه المشاعر عامة ولا يجدر بنا أن نتغاضى عن وجودها، وحيث إن الاستشهاد هو مصير كل من يتحول إلى ديننا المبارك، فليس هناك من أمل يرتجى من جهود أولئك الرجال الخيرين[١٠] الذين يضحون بسعادتهم بل وبحياتهم فى سبيل الدعوة للسيد المسيح. إنهم لن ينالوا سوى رضاء ربهم إذ إن مجهوداتهم غالبا ما تؤول إلى الفشل.

لعل قليلا من الجوارى اللاتى جيء بهن بعد سن الطفولة من بلاد كن يتمتعن فيها بحرية مطلقة، استطعن الرضى بالحبس بين جدران الحريم المحدودة الضيقة. إلا

---

(١٠) تقصد المؤلفة، المبشرين.

أن بعضهن ممن لديهن جاذبية شخصية تكسبهن حظوة لدى السيد، يجدن دون ريب متعة فى هذا السجن الفخم؛ كما أن أخريات يجدن رباطا أقوى من عطف ورضاء السيد ومن حنين للوطن الأصلى ألا وهو ارتباطهن بالطفل الذى أنجبنه منه. مثل هؤلاء، يرفضن الحرية ذاتها إذا كانت مصحوبة بالخروج من الحريم والزواج من شخص ما، ويلححن فى طلب إلغاء هذه المنحة. وعادة ما تتربى هؤلاء الفتيات على المشاعر الإسلامية فيصبحن من أحن الأمهات. ويتجلى عطفهن الأموى على أقصاه فى خوفهن من عين الحسود؛ وهذا التطير الجاهل يرغمنى أن ألتزم بالحذر الشديد فى معاملاتى مع الأمهات المسلمات فيما يخص أى ملاحظة عن أولادهن.

حدث مرة أن خاننى الحظ فى ملاحظة أبديتها من هذا القبيل ولكن لحسن الحظ كان أحد ولدىَّ هو موضوع الحديث، فقد سببت إزعاجا شديدا لسيدة مصرية كانت تقضى اليوم معى حين ذكرتُ، فى مجال الحديث عن تأثير الجو فى صحة الصغار، أن ابنى الأكبر لم يصبه ما أصاب باقى أسرتنا من جراء شدة الحرارة وأضفت أنى سعيدة لأن بنيته قوية. صاحت لتوها «صلِّ على النبى ! صلِّ على النبى !»؛ كررت هذه العبارة عدة مرات، وامتقع لونها، وبدا عليها اضطراب شديد. أعترف أنى ذهلت لأول وهلة، ولكننى سرعان ما أدركت أن اهتمامها الزائد، جعلها تخشى أن أكون عرضت صحة ولدى العزيز للخطر لأنى أبديت رأيا عن صحته، وأنها تطلب منى إزاحة هذه المصيبة بأن أردد دعاءها فى الحال. لم أستسغ فكرة «الصلاة على النبى» ولذلك حاولت أن أهدئ من روعها بأن أردد بعض العبارات على الطريقة الشرقية مثل «الحمد لله على صحة أسرتى» و«إن شاء الله تدوم هكذا» وحينما وجدتنى أحاول أن أقنعها بهدوء ورباطة جأش، أن الإنجليز لا يخشون من إبداء سعادتهم لسلامة من يحبون، هدأت بعض الشيء ولكننى لا أظنها اقتنعت واطمأنت لقولى. ومن المعتقدات أن عبارة «اللهم صلِّ على سيدنا محمد» تزيل أثر عين الحسود ؛ أجده من الغريب حقا، أن صديقتى خشيت على ابنى، من أثر نظرة إعجاب بدرت منى.

إنه من الصعب فعلا على أجنبية مثلي، أن تتجنب الوقوع فى أخطاء من شتى الأنواع؛ أذكر على سبيل المثال ما حدث منذ بضعة أيام حينما سمعت وقع أقدام

على السلم الذى يقود إلى سطح منزلنا. أومأت إلى خادمة مارة أن تستفسر عمن طلع السلم ولكن لشدة دهشتي، ابتعدت عنى مهرولة، وحتى حينما ناديتها باسمها واضطرت أن تنظر إلى الوراء ورأتنى أشير إليها بيدي، استمرت فى الهروب. ضايقنى ما بدا لى تصرفا مشاكسا منها وصفقت بيدىَّ فرجعت فى الحال وسألتها «لماذا ابتعدت عنى حينما أومأت إليك؟» قالت «لأنك أشرت إليَّ أن أبتعد عنك». أى إن أشارتى لها كانت بظهر يدى ولو كنتُ قلبت الوضع، أى أشرت وراحة يدى إلى أسفل، لأدركت أنى أطلب مجيئها؛ ولكن الحركة التى صدرت عنى جعلتها تظن أنى أطلب منها الابتعاد عنى بأسرع ما يمكن.

لا أتذكر إن كنت أخبرتك عن الملابس الغريبة التي ترتديها سيدات الطبقة الراقية فى هذا الفصل من السنة. حينما أفاجئهن بزيارة غير متوقعة، أجد معظمهن عادة، يلبسن سترة مبطنة منظرها غير مناسب لهن إطلاقا أو متدثرات بأى غطاء دافئ يقع تحت أيديهن ؛ كما أن فى غرفهن مدفأة تصدر عنها رائحة خانقة يصعب عليَّ تحملها وفى الواقع لا أجد ضرورة لاستخدام النار إلا نادرا. الطقس الآن بديع حقا ولكنه لم يكن هكذا منذ بداية الشتاء. وكما هى الحال مع معظم الرحالة، اتسمت إقامتنا هنا بأحداث غريبة، فهناك فيضان العام الماضى غير العادى ومطر هذا العام شديد الغزارة، ظاهرتان لم يسبق لهما مثيل معروف خلال حياة الجيل الحالي. وبعد أن ظللنا خلال ثمانية أشهر نتمنى أن يهطل المطر أحيانا ولم تستجب السماء بقطرة واحدة، فوجئنا يوم الثلاثين من أكتوبر بعاصفة شديدة يصحبها مطر مدرار وبرق ورعد، وظل قصف الرعد مستمراً ما يقرب من ساعتين متواصلتين، يقرقع ويفرقع بطريقة مخيفة جدا والأمطار تنهمر كالسيول؛ وازداد المطر فى بداية الشهر الماضى وتدفق من خلال الأسقف والأسطح، وظللنا نحن وخدمنا خلال العاصفة نبحث عن أركان جافة نضع فيها الوسائد والمراتب وكافة الأثاث، ونهرول من مكان لآخر ننقلها ثانية إذا ما لحقها الماء. وبالرغم من أن منزلنا بناؤه جيد جدا إذا قورن بسائر بيوت القاهرة، إلا أن فيضا من المطر اخترق أسقف الغرف العليا وظل ينهمر لفترة بعد أن هدأت العاصفة ولم ينج من الطوفان العام سوى غرفة واحدة بالمنزل. لقد أصاب جيراننا التعساء ضرر كبير كما أن الأمراض التى انتشرت كانت مخيفة ، حقيقة أن الأهالى لا يزالون يعانون من جرَّاء

هذه العاصفة المهولة فقد انهارت عدة مساكن كما تصدعت أخري. وحيث إن أسقف المنازل قلما تُلَيَّس بمادة أفضل من الطمي وتتكون من ألواح خشبية وعوارض قوية يفرش عليها حصير خشن وفي أغلب الأحيان لا تغطى إلا بطبقة من القمامة لمنع الهواء من إزاحة الحصر ، لهذا نجد أن المطر الذى يخترق السقف غالبا ما يكون وابلا من الطمي ينتج عنه خراب الأثاث. ولكن المطر قلما يسقط فى هذه البقاع إلا فى الموسم البارد وحينما يهطل أحيانا وابل من المطر، يكون عادة خفيفا.



الرســـالة التاسعة عشرة

نظلة هانم ابنة محمد على

يناير ١٨٤٤

صديقتى العزيزة،

قدمتنى أمس صديقتى مسز ليدر إلى نظلة هانم(١). كانت المقابلة مشرفة لى جدا خصوصا أنها، على غير العادة، تمت فى غرفة نومها. لم أدرك حينما قدمت إلى قصر الدوبارة أنها تشكو من وعكة شديدة، ولم أرد إقحام نفسى عندما سمعت الخبر؛ ولكنها لما علمت بمقدمى، أبدت رغبة لرؤيتى بعد خروج الطبيبين المعالجين لها من

(١) بورد الجبرتى ذكر عقد قران إسماعيل باشا، ابن محمد على وفى الوقت نفسه عفد قران اخته نظلة هانم (٢٧ رمضان ١٢٢٨ / ٢٣ سبتمبر ١٨١٣) كما يدكر بعد دلك الاستعدادات للزفة.

غرفها . وسموها الابنة الكبرى للباشا ولهذا تحتل أرفع مكانة بين سيدات مصر . ولقد ذكرت سالفا أنها أرملة الدفتردار محمد بك .

أثناء انتظارنا في إحدى الغرف التي تفتح على الصالون ، أسدل الستار فجأة على بابنا حتى يمر الطبيبان . بعد بضع دقائق ، أزيح الستار ودخلت إلى حضرة سموها . كانت تتكئ على وسائد ويبدو عليها الإعياء الشديد من وطأة السعال وضيق الصدر ؛ ولكنها استقبلتني بكثير من الترحاب ولتوها طلبت مني الجلوس بجوارها على ديوان مرتفع ، أظن أنه مخدعها . رأيت دواوين منخفضة تحيط بالغرفة كما كسيت الأرض بسجاد تركي ، لم يبد على الحجرة طابع غرفة نوم ، بل كان مظهرها مثل حجرة جلوس شتوية فاخرة على الطراز التركي تنفتح على الصالون الفخم الذي سبق أن وصفته لك . كان أصغر أبناء الباشا ، محمد علي بك ، يجلس فوق وسادة عند قدمي أخته نظلة هانم وحينما وجدني لا أعرف اللغة التركية ، تلطف وتحدث معي بالفرنسية . إنه يبلغ من العمر تسعة أعوام ، و بعد بضعة أشهر ،

سوف بعنبر قد تعدى سن الحريم. كانت والدته وعدة سيدات أخرى يجلسن على يسارى. وهكذا وجدت على جانب منى سيدة فى الخمسين من عمرها وهى ابنة الباشا. وعلى الجانب الآخر شابة رائعة الجمال، زوجة أب لسموها وأم لأخيها الصغير.

هناك شبه كبير بوالدها فى ملامح وجه سموها وخاصة العينان. كما أن طلعتها معروفة بنم عن ذكاء لماح، ونظرتها سريعة، فاحصة وكثيرا ما كانت وهى تنظر الى تنفرج أساريرها عن ابتسامة حلوة من أجمل ما يمكن تصوره. لقد طلبت من احدى محظيات الباشا ووالدة اثنين من أبنائه[٢]، أن تقوم على خدمتى. كانت هذه السيدة تأخذ القهوة من امرأة عند مدخل الغرفة وتقدمها لى فى «ظرف» ذهبى رائع الصنع مرصع بالماس الثمين الكبير والصغير، صف بشكل حلزونى يتخلله شغل بالميناء بديع الصنع. كان أمس رابع أيام العيد الكبير أى عيد الأضحى واليوم الحدد للزيارات الرسمية لسموها من قبل السيدات اللاتى لهن حق المثول بين يديها. اما الأيام الثلاثة السابقة، فتخصص لزيارة مقابر الأقارب والأصدقاء. وأثناء وجودى معها، جاءت جماعة من السيدات يقدمن لها فروض الاحترام ولكن نظرا لمرضها، كن يرتدين ملابس بسيطة، باستثناء واحدة بدت فى أبهى منظر. كانت تضع فى مؤخرة رأسها فيضا من الماس و ترفل فى «جُبّة»[٣] طويلة من الكشمير البرتقالى اللون مطرزة بسخاء وتجر ذيل ردائها فى سيل من التطريز الذهبى البراق. لم تفعل شيئا سوى أن قبلت حافة رداء سموها ثم غادرت الغرفة دون أن تبس ببنت شفة؛ و تبعت الزائرات الأخريات الطريقة نفسها، لم يُقبّلن سوى يدها ولم يلفظن بكلمة واحدة؛ كما أن نظلة هانم لم تُعر تحياتهن أى انتباه سوى ان تسمح لهن بأخذ يدها. ولقد علمت أنها تتبع دائما مثل هذا السلوك بصرف النظر عن مرضها، كما أن الزائرات يغضضن الطرف دائما[٤]. هنا شعرت بالمزية

---

(٢) حاشية المؤلفة: كان الطفلان قد توفيا..

(٣) تستخدم المؤلفة كلمة «جبة» Jubbeh.

(٤) النحبة بتقبيل طرف الثوب هى التى لا يجوز لأدنى الناس أن يزيدوا عليها، أما تقبيل اليد فلمن هم اعلى مقاما (الجبرتى: وفيات ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م) ولاشك أن المؤلفة لم تفطن لهذا الموقف الدقيق السائد وقتئذ بين أفراد أسرة محمد علي وسائر الرعية. ولعل عجرفة نظلة هانم

الخاصة التى حظيت بها لكونى إنجليزية إذ كانت تعاملنى كنظيرة لها وتجاذبنى حديثا مرحا خفيفا طول الوقت؛ وبلطف شرقيٍّ أصيل أكدت لى سموها أن وجودنا معها يجعلها تشعر بتحسن واضح. وكانت ترجونى أن أعتبر بيتها بيتا لي؛ وبشتى الطرق، تحاول أن نُطيل مدة زيارتنا. وقُدِّم لنا شراب من عصير الفاكهة لذيذ المذاق جدا. أما بالنسبة للمفارش التى قُدِّم عليها الشراب والقهوة، وكذا الفوط الصغيرة، فلا يسعنى إلا أن أشيد بما عليها من تطريز دقيق بديع الصنع جعل منها تُحفا رائعة؛ وكذا لا يفوتنى ذكر الغلايين التى كانت سموها تستخدمها والتى كانت مباسمها مرصعة بفصوص من البرلنتي بطريقة جميلة و بذوق رفيع و غطاء كل منها من الحرير المطرز ببذخ ومهارة. كانت سموها تدخن دون انقطاع ولكنها كانت المُدخنة الوحيدة فى الغرفة، وبالمناسبة، لقد تعوّدت الجلوس مع المدخنات إذ إن التبغ الذى تستخدمه السيدات هنا، خفيف ورائحته تختلف تماما عن النوع الذى تأباه بشدة بنات جنسى فى إنجلترا. وحينما هممت بالانصراف، طلبت نظلة هانم منى، ثلاث مرات، أن أظل مدة أطول؛ ولكننى أخيرا أقنعتها بضرورة انسحابى نظرا لأن غروب الشمس قد دنا، فودعتنى بلطف زائد. ولدى مغادرتى غرفتها، وجدت فى انتظارى، السيدة التى تليها فى المقام و كانت قد قدّمت لى القهوة و الشراب آنفا؛ كانت تحمل كوبا من العصير لأرتشفه عند الرحيل. أذكر هذا لأنه يعتبر دلالة احترام خاص. رافقنا عدد من السيدات إلى الباب وقدمت لى إحداهن منديلا مطرزا، هدية من سمو الأميرة.

أرجو ألا تظنى بى الغرور لإفاضتى فى ذكر تفاصيل مقابلتى هذه، ولكننى أعتبرها ذات أهمية قصوى فى وصف للعادات السائدة، خصوصا أن المقابلات والزيارات هى الشغل الشاغل اليومى للمرأة الشرقية؛ كما أرجو أن أبيِّن بوصفى الدقيق هذا، مدى الحفاوة البالغة التى أحظى بها دواما من كل شخص ألقاه.

= الواضحة، تنطوى على إذلال متعمد لبعض الزائرات اللائى ربما كن من بقايا نساء المماليك المعروفات بكبريائهن. وبعد زوال عزهن كن يرغمن على تقديم المجاملات لحريم الباشا فى المناسبات (الجبرتى ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م). جاءت السيدات يرتدين ملابس بسيطة، قد يكون هذا تعبيراً عن احتجاج صامت، باستثناء واحدة ظهرت تتلألأ بكامل زينتها متحدية؛ وكل هذا فى صمت بليغ!

ويمكنني أن أضيف أنه ربما يكون من المتوقع أن يبدى حريم الباشا وغيرهن من علية القوم احتراما تجاه الإنجليز عامة، إذ لو كنتُ من طبقة النبلاء لكان التشريف الزائد الذى ألقاه أمرا طبيعيا، ولكنه يفوق كافة توقعاتى كامرأة عادية. وأثناء مغادرتى للقصر جذبت انتباهي أجمل رؤية كان لى الحظ أن أشاهدها فى شخص جارية بيضاء تبلغ من العمر حوالى سبعة عشر عاما. كانت تقف ورأسها مستند إلى الباب فبدا جسمها الرشيق فى أكمل صورة، جبينها وضاء، وشعرها وعيناها أقرب إلى اللون البنى الصافى منه إلى السواد وهو ما ينسجم تماما مع بشرتها البيضاء. لا أستطيع أن أصف ملامح وجهها بالتفصيل إذ إن هناك نوعا من كمال الجمال يتحدى بروعته كل وصف، وكان جمالها من هذا النوع. وكان يكسو طلعتها البهية مسحة من الكآبة و مظهرها العام به شيء ما يؤثر فى النفس بشجن يستحيل معه أن ينساها من يراها ولو مرة واحدة. أخشى ألا تصلنى عن قريب، الدعوة لحضور حفل الزفاف فى حريم الباشا، إذ يبدو أن هناك سببا للتأخير لا أعرف كنهه. المسألة حساسة و لا يليق أن أستفسر عنها مع من باستطاعتهم الإدلاء بالمعلومات التى أريدها؛ ولكنى علمتُ منذ بضعة أيام من إحدى قريبات السلطان، وهي تشير عرضا وبكل جدّية إلى هذا الموضوع، أن هناك نقطة واحدة فقط لم يتم البتّ فيها بعد، ألا وهى اختيار العريس ! أما ماعدا هذا فكل شيء قد تم ترتيبه. نجد بين علية القوم فى هذا البلد، أن رأى الابنة التى يراد تزويجها لا يؤخذ إلا نادرا جدا؛ فهى تنشأ وتُربى فى انتظار اليوم الذى يسلمها فيه والداها إلى كنف زوج غريب عليها فى شخصه و طريقة تفكيره. وتعجبين دون شك أن مثل هذه العادات لا تزال تمارس، و قد تشعرين بالأسى نحو هؤلاء النساء المغلوبات على أمرهن اللاتى يتقرر مصيرهن بهذه الطريقة؛ ولكن إصلاح هذه السّنة ضرب من المستحيل إذ إني متأكدة أن النساء أنفسهن سوف يجزعن إذا عُرض عليهن أن يتعرفن شخصيا على الزوج قبل الزفاف. وحفلات الزفاف بين الطبقات الوسطى فى هذه المدينة تتميز باستعراضات كثيرة ذات طابع خاص جدا. ومنذ بضعة أيام مرّ موكب عُرس فى الطُرُق الرئيسية المجاورة لنا. تقدم الموكب مهرج يمتطى حصانا ويرتدى ملابس غريبة تدعو إلى السخرية وطرطورا عاليا مدببا ولحية مستعارة، وكان يؤدى حركات بهلوانية مختلفة تثير الضحك؛ ثم جاء

وراءه رجلان فوق جملين، يقرعان طبلتين ضخمتين مختلفتي الحجم على شكل قِدر ومثبتتين إلى السرج ويتبعهم رجل يرفع مشعلا على هيئة عمود طويل مثبت فى أعلاه عدة أوعية لوضع خشب الوقود ولكنه كان حينذاك مغطى بمناديل مطرزة. وهذا المشعل يستخدم عادة للإضاءة ليلا، ولكنه استعمل فى هذه المناسبة للزينة فقط. بعد ذلك جاء رجل يمشى على طوالتين يعلو بهما فوق الجمع، ثم بدا آخران يرتديان ملابس مزركشة من القماش المقصب، يحملان سيفين مستلين يلوحان بهما وأحيانا يلتحمان فى شبه مبارزة هزلية. تبع هؤلاء راقصان ومغنون وعازفو آلات موسيقية يؤدون مهمتهم بحماس شديد. ثم ظهر خمسة صبية تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة و السادسة، يرتدون ملابس نسائية غنية، مقصبة ومزركشة ويتزينون بفيض من الحليّ النسائى من ذهب ومجوهرات تَبهر النظر. كانوا يستعرضون فى الموكب قُبيل ختانهم، وكان يغطى جانبا من وجه كل منهم منديل مطرز ومطوى لحمايتهم من عين الحسود. تبعهم أربع نسوة مهمتهن دعوة الأحباب من صديقات الأسرة إلى الفرح؛ وكنّ مثل باقى من تبعهن مترجلات ويعطى كتفهن الأيسر قطعة ثمينة من القماش المقصب ضُمّت حوافها على الجانب الأيمن وهى عبارة عن هدايا قدمت لهن. ثم جاء ما يقرب من ثلاثين فتاة شابة، كلهن محجبات ويلبسن أفخر الثياب، وجاء بعد ذلك العدد نفسه تقريبا من السيدات المتزوجات (و الحبرة الحريرية السوداء تلتف حول كل منهن فيبدون للعين الأوربية وكأنهن بلباس جنائزى وليس لباس عُرس) . وأخيرا ظهرت العروس ! كان يغطيها كلية، حسب التقاليد، شال كشميرى ثمين زُين ما يكسو منه الرأس وتاج العُرس بمجموعة من الحليّ و المجوهرات قلما تُرى سوى فى حريم العظماء. كانت تسير تحت ظُلة من نسيج رقيق أصفر اللون ترفعه أربع دعامات مثبت فى أعلاها مناديل مطرزة، وتصحبها على الجانبين اثنتان من أقاربها ووراءهن نساء أخريات، وفى مواجهة العروس، فكانت تسير امرأة بخطى إلى الوراء وهى تروح للعروس بمروحة كبيرة من ريش النعام الأسود (بالرغم من برودة الجو) . أما فى المؤخرة، فجاءت جوقة الموسيقيين. فى الواقع كان المنظر كله يشبه ما جاء فى قصص ألف ليلة وليلة فى بهجته وألوانه الزاهية وطابعه الشرقى المميز. وكان الموكب يتقدم ببطء شديد مثل زحف السلحفاة تقريبا.

وحيث إن الحديث يدور حول مواكب الزفاف والعرس، أشير إلى واقعة سخيفة حدثت قريبا نتيجة قضية زواج. لقد صدر حكم فى الأسبوع الماضى على أربعة محامين بالأشغال الشاقة وأن يطاف بهم فى الشوارع وهم يركبون الحمير ووجوههم تجاه الذيل وذلك بسبب تصرف غير قانونى فى قضية تخص زوجة ناشزا. ولتوضيح هذا الجرم، أذكرك بقضية أحيلت إلى جارتنا العجوز «دبورة» لتبت فيها: كانت تخص شابا وافق أن يتزوج من فتاة عُرف عنها أنها عوراء وذلك طمعا فى مالها. تزوجها وأنفق مبالغ طائلة على احتفالات العرس؛ ولكن المسألة لم تنته كما كان يتوقع. لقد اكتشف أن زوجته طفلة صغيرة رقيقة تبلغ من العمر حوالى ثلاثة عشر عاما ولكنها ذات شخصية قوية إذ أنها رفضت بكل إباء وشمم وعناد أن تعترف به زوجا لها. وحيث إنه كان قد عقد عليها شرعيا، لم يكن هناك مفر إلا أن يطلقها أو يعتبرها ناشزا؛ وقد اتبع السبيل الثانى لأنه فى هذه الحالة لا يكون مكلفا بالإنفاق عليها بل يتولى أهلها ذلك حتى ترجع إلى كنفه. والحالات من هذا القبيل عديدة فبالرغم من أن المرأة ذات العشرين عاما ترضخ دون غمغمة للزواج من رجل فى الستين من عمره، نجد أن الفتاة التى لم تتعد بعد سنوات المراهقة الاولى، قلما ترضى بزوج لم تنمُ لحيته بعد.



الرســـالة
العشرون

نماذج من الحياة العائلية

فبراير ١٨٤٤

صديقتى العزيزة،

وجدت أن وصف أخى للحريم وكل ما كتبه فيما يخص عادات وتقاليد نساء هذا البلد، دقيق إلى أقصى حد وذو فائدة عظمى لإعدادى للحياة التى أعيشها حاليا. ولكن نظرا لأن معلوماته فى هذا المجال مستقاة من الرجال فقط، فهى بطبيعة الحال غير كاملة، ولهذا طلب منى أن أعوض هذا النقص بملاحظاتى الذاتية وكل ما يطرق سمعى عن أحوال وأخلاق النساء والطريقة التى يعاملن بها، من أفواههن شخصيا.

فى بادئ الأمر، حينما كنت حديثة العهد بالحريم ومجال تحركى محدوداً أكثر مما هو عليه



الآن، كنت أتحرج من إبداء رأى قاطع انطبع على ذهنى بكل شدَّة فى الأشهر الأولى من وصولى إلى هذا البلد، ألا وهو أن نسبة كبيرة جدا من الرجال و غير قليلة من النساء، يجنحون غالبا أو عادة، للقسوة وارتكاب أبشع أنواع العنف والجبروت. وبالرغم من اللطف الزائد الذى لمسته ممن تعرفت عليهم هنا، إلا أن الرأى الذى ذكرته ثبتت صحته الأكيدة عدة مرات، لا يمكننى إزاء ما رأيته، إنكاره.

إذا جاز لى الحكم مما رأيتُ وسمعت، فإن الزوجات والجوارى فى بيوت الطبقة الراقية، عادة ما يعاملهن الزوج والسيد بعطف ولين؛ كما أنه يبدو من ناحية، أن حال الجوارى أفضل من الزوجات إذ إن أولئك فى خوف دائم من الطلاق، فى حين أن بيع جارية قضت فى الأسرة فترة طويلة، يعتبر مهينا، إلا فى حالة الضائقة المالية؛ أما إذا أنجبت من السيد طفلا اعترف أنه من صلبه، فإن بيعها يكون مُخلا بالقانون. ولكن بالنسبة للطبقتين الوسطى والدنيا، فإن معاملة الزوجات والجوارى، يتسم عادة بالوحشية المتناهية؛ فكثيرا ما تتعرض الزوجات للضرب

المبرح، بينما قد يؤدى الضرب فى حالات ليست بالقليلة، إلى موت الجارية !

حدث منذ بضعة أسابيع، أن انهال أحد جيراننا بالسوط على زوجته بطريقة غاية في الوحشية وطردها من البيت، وسبب ذلك أن عشاءه لم يكن معدا فى التو واللحظة التى حددها؛ ولكنه استردها بعد يومين. ومنذ فترة وجيزة أيضا، قام الرجل نفسه بضرب جارية ضربا مبرحا ظلت تعانى من جرائه حوالى أسبوع ثم ماتت. وهذا الرجل قبطي، يدَّعي أنه مسيحى ! وآخر، انهال بالضرب على جارية له مما جعلها تقذف بنفسها من النافذة فتسقط جثة هامدة. وهذا الرجل أيضا من العقيدة نفسها ! يخطئ من يقول: «لا جدوى للمبشرين هنا لتعليم الأقباط، فهم مسيحيون». وقد أكـَّد لى شخص يعرفهم حق المعرفة، أن أخلاقهم أسوأ بكثير من أخلاق المسلمين بل إن سلوك المسلمين أحيانا ينم عن خصائص مسيحية أكثر من الأقباط. و ملاحظاتى هذه تسرى على المسلمين وعلى المسيحيين بالاسم فقط، بل تنطبق بصفة خاصة، على هؤلاء. يؤلمنى أن واجب الالتزام بالحق يرغمنى أن أبيّن هذا الفارق !

إننى أعتبر المؤسسة الإنجليزية فى هذه المدينة،التى من أهم أهدافها تعريف الأقباط بالأسس الضرورية اللازمة للنهوض بأحوالهم الدينية والأخلاقية، أكثر منشآت الجمعية التبشيرية، نفعا. والبيانات التى صدرت عنها وظهرت فى منشورات الجمعية لا تكاد تعطيها حقها وتظهر مدى أهميتها، إذ لا يمكن أن يُقدِّرها مَن ليست له دراية المُجرِّب بأحوال الأشخاص المقصود إفادتهم، وادراك الهمَّة المتفانية التى لا تكل، ورجاحة الفكر السديد التى تُتبع، لبلوغ الغاية المنشودة. ويرتبط بهذه المؤسسة مُصلى خاص ذو حجم مناسب ومريح جدا، أحمد الله أن باستطاعتى أن أواظب فيه على ممارسة طقوس كنيستنا وأستمع إلى مواعظ ممتازة. يجب أن أعود الآن إلى الموضوع الذى أثار هذا الاستطراد.

قلما تمر بضعة أيام دون أن نسمع صراخ نساء وأطفال يولولون تحت وطأة السوط أو العصا، كما أننا نعانى صعوبات جمة حين نحاول الحيلولة دون البربرية التى تمارس فى محيط جيرتنا إذ إن الردود التى تأتينا عادة، حينما نبعث بمن يعاتبهم على تصرفهم، مهذبة للغاية، تؤكد لنا بعد التحية والسلام، أن المذنب

سوف يعفى عنه، من أجل خاطرنا نحن فقط. وفي اعتقادي أن ظاهرة القسوة هذه، ربما يمكن أن تعزى إلى الظلم الذي يعانيه من يمارسون القسوة أنفسهم؛ وسوف يوافقني كل من قام بدراسة العقل الإنساني بأنه في أغلب الأحيان، يكون المظلوم أشد الناس ظلما.

تبدو النساء عامة عطوفات ذوات مشاعر رقيقة ولو أن هناك (كما ذكرت)، دلائل كثيرة، تدل على العكس من ذلك، فحديثا تألمنا لتصرف اثنتين من جاراتنا. إحداهن، السيدة العجوز التي جاء ذكرها في خطاب سابق، والتي قامت ثلاث أو أربع مرات بضرب فتاة صغيرة تقيم معها ضربا مبرحا اضطررنا إزاءه كل مرة، أن نأخذ الطفلة المسكينة إلى بيتنا، إلى أن ترجع بمحض إرادتها إلى سيدتها القاسية (التي يقال إنها جدّتها) بعدما تعدُ بألا تعود إلى ضربها مرة أخرى.

الحالة الثانية كانت أشد وطأة وألما على النفس. فقد حدث أن افتقدت امرأة تسكن في المنزل المجاور لنا، سبعة قروش واكتشفت أن حفيدها الصغير كان قد سرقها فأرسلت تستدعي رجلا مهمته «الضرب» لتأديبه. سمع أحد أبنائي هذا الخبر واستعان بسُلّم وجده، ليرتفع به إلى نافذة تُطل على فناء منزل السيدة وما لبث أن ناداني على عجل ليُنبئني بصحة الخبر وأن الرجل قد وصل وأنه يقوم بتقييد قدمي الطفل المسكين وذراعيه بينما الجدّة تقف متفرجة. طمأنتُ ولدي وقلت له إنه في هذه الحالة، لا شك أن الجدّة لا تريد إلا أن تُفزع الصبي بربطه على هذا النحو وإنني على يقين أنها لن ترضى أبدا أن يصيبه أي مكروه. اعتقدت هذا بناء على ما كنت أراه في انجلترا من شدّة حب الجدّات لأحفادهن الذين يعتبرونهم تاجا ومفخرة لشيخوختهن. وا أسفاه لسوء تقديري واعتقادي أن تلك المرأة العربية لديها مشاعر غريزية طبيعية! ما كدتُ أبتعد عن السُلم حين استرجعني صراخ ابني العزيز الذي كان يصيح ويستجير بانفعال شديد؛ لقد كان الرجل أسفلنا في الفناء، يضرب أطراف وظهر وصدر الولد الصغير المسكين كيفما تقع الضربات المبرحة من عصاه الضخمة على الجسد الذي يتضوّر ويتلوّى على الأرض، في حين كانت المرأة العجوز تصيح بين كل نازلة وأخرى «أعد!» لم نتحمل هذه القسوة الوحشية وأرسل أخي في الحال أحد الخدم بإنذار شديد وتهديد إن لم

يكفـوا فى التـو واللحظة عن هذا العـمل الشـائن . أطلق فـورا سـراح الطـفل وعـاد الهدوء إلى بيتنا ولكن السكينة لم تعد إلى نفوسنا . إن تلك المرأة اللعينة تنعى فى فتـرات متعاقبـة منتظمـة فقـدان ابنهـا ، والد الصبى ، وتملأ الحى بنواحـهـا وعـويلهـا المدوى الناشـز أيام الاثـنين من كل اسبـوعين على التوالى . كنـا نعتـبرها دائمـا أسوأ جيـراننا والآن بعد أن اتضح لنا نفاقها ، صرنا لا نطيقها .

إن المراسم الإسلامية التى تتعلق بالموتى تتـصف بصفة عامة بكثير من الطرافة ؛ كـما أن للنُواح دائمـا تأثيرا عميـقا إذا كـان صـادقا ولا يردد فقط بطريقة آليـة على فترات معينة ، فهو يبدو كـأنه يُعبر فعلا عن حزن قوى ، يائس ، يفطر القلب ويمزقه إربـا إربا . كـمـا يبـدو أن فن الندابة بالأسلوب الأمـثل المتـفق عليـه ، إنجـاز لا يمكن الوصول إليه إلا بالمران المتواصل الطويل ، و يـستأجر محترفوه عـادة لمآتم الأشخاص من الطبقتين الوسُطى والعليا . ويصـاحب الندب دقات الدف ، كـما تعترض العويل أحيانا أغان حـزينة . إن هذا الأداء و ما تقوم به النادبات عامة ، لكثير الشبه بما كان يمارس فى العصور الموغلة فى القدم التى نراها مصورة فوق جدران مقابر المصريين القدمـاء و بما جاء ذكـره فى فقـرات عديدة من الكتاب المقدس مثل : أخبـار الأيام الثانى ٣٥ ، ٢٥ ؛ أرميا ٩ ، ١٨ ؛ عاموس ٥ ، ١٦ ؛ ومتى ٩ ، ٢٣ ، حيث نرى صورة حيّة لما ورد فى ذكـر وفـاة ابنة يايروس «والمزمرين والجمع يضجـون» . إن مثل هذه العـادات الشـرقـيـة وغيـرهـا تُوضّـح لنـا الكـتـاب المقـدس ولذلك فـهى ذات أهمـيـة خاصـة بالنسبـة لى . حضّ إرميـا قومه أن ينعوا مغبة عصيانهم بقوله :«تأملوا وادعوا النادبات فـيـأتين وارسلوا إلى الحـكيـمـات فـيـقـبلن ويـسـرعن ويـرفـعن علينا مـرثاة فتذرف أعيننا دموعا وتفيض أجفاننا ماء» .[5] والأسرة الشرقية المفجوعة فى وقتنا الحـاضر ، تسـتثـار مـشـاعرها بالطريقـة نفسـهـا ، إذ كثـيرا مـا أجد صراخ أهل المتوفى وعـويلهم أكـثر نفـاذا إلى النفس ، عندمـا يقاطعـون نواح الندابة المأجورة ، «المحنّكة» فى فنهـا . إن المقـابر فى ضـواحى القـاهرة من أكـثـر المناظر المتـعـددة التى تحـيط بنا جاذبيـة ؛ وتوجد بهـا كثيـر من المدافن الخاصـة ، تختص كل منهـا بأسـرة واحدة ، وإذا كانت الأسـرة ميسورة ، يكون لهـا منزل حداد داخل أسـوار المدفن . يؤم نسـاء الأسرة

---

(٥) الكتاب المقدس : إرميا ، ٩ ، ١٨ .

هذا البيت بصفة منتظمة كل عام وقت العيدين وأيضا فى المواسم المختلفة للبكاء على الموتى ؛ وقبل ذهابهن، يرسلن بعض الأثاث الضرورى لراحتهن ؛ يبقين مدة ثلاثة أو أربعة أيام وليالى بمناسبة العيدين كما ذكرت وأيضا مباشرة بعد حدوث وفاة. بعض منازل الحداد هذه منظرها لطيف، بهيج، تحيط بها بعض الأشجار والأزهار وأظن أن النساء كثيرا ما يجدن فى زيارتها سعادة ليست بالقليلة، خصوصا أن حياتهن تسير عامة على وتيرة واحدة. وقد تنصب خيام عند اللزوم لبعض النساء اللاتى ليست لهن منازل فى المدافن لإيوائهن.

قضينا أمس، بعض الساعات فى المقابر الجنوبية،الداخلة فى نطاق الصحراء والمتاخمة للمدينة، و شدت اهتمامنا هناك، مدافن أسرة محمد على. الأضرحة فى المدافن تعرض خلطا غريبا لأبعاد وأذواق مختلفة؛ بعضها فى حالة ممتازة من الترميم ذات بنيان جيد ومتين، فى حين أن بعضها الآخر أكثر هشاشة، كما أن أغلب الأضرحة الصغيرة شيدت بكاملها من المرمر الأبيض. ولكن أروعها دون شك، أقدمها، التى تبدى ذوقا رفيعا فى الشكل العام وخاصة فى قبابها ومنائرها وزخارفها «الأرابيسك»؛ البناء من الحجر الجيرى الأصفر، يخفف من رتابة اللون أعمدة من الرخام الأبيض الناصع فى أماكن متفرقة. والبناء الذى يضم أضرحة أسرة الباشا، يعلوه عدد من القباب ولكنه منخفض ولا يسترعى أى اهتمام خاص. كيف أصف لك بهجة المنظر من الداخل ؟ نرى صالونين غاية فى الأبهة، تملؤهما مقابر على مسافات تكاد تكون متساوية، مُغلَّفة برخام أبيض ومزدانة بنقوش مذهبة و ملونة بإبداع. الأرض مغطاة بسجاد نفيس رائع و المنظر العام يسوده جو من الحبور والراحة وليس به ما يوحي بالتفكير أن هذا مكان رقاد للموتى. وإذا ما اقحمت على المشاعر فكرة أن المكان ما هو إلا مقبرة، نجد أن تعدد الألوان البهيجة واختلاف الأشكال التى تسترعى النظر، سريعا ما تبدد هذه الأفكار ويستبدل بها التأمل فى الأضرحة والنظر فى أيها أكثر فخامة من الباقى. وقد فضلنا بالإجماع ضريحى والدة نظله هانم ومحمد بك الدفتردار[٦]، وأظن أن الأخير يفوز بقصب السبق.

---

(٦) كان محمد بك الدفتردار زوجا لنظلة هانم ويصف الجبرتى موكب زفافهما ويذكر البيت الذى أعده محمد على لابنته وكان قد استولى عليه من أصحابه من أمراء المماليك. (الجبرتى ٢١ من المحرم ١٢٢٩هـ/ ١٣ يناير ١٨١٤).

إن طول المقبرة عادة، حوالى ثمانية أقدام وارتفاعها أربعة؛ وفوقها لوح مستطيل يبلغ سمكه ما يقرب من قدم؛ وكذا لوحان منتصبان طولهما ثمانية أو عشرة أقدام عند الرأس والقدمين. فوق نُصب الرأس، نرى ما يشبه غطاء رأس المتوفى منحوتا من الحجر ومُلوّنا. و هناك في الصالون الرئيسي، أربعة مقابر فارغة، مشيدة لا تنقصها إلا الزركشة. الزخارف بوجه عام، من النوع الذى لا يلائم سوى الردهات الخاصة بالاحتفالات. الذوق التركى عامة، غير مناسب لزخرفة مساكن الأحياء ولا يليق إطلاقا فى مكان يتطلب بالضرورة الهدوء والوقار. والحال على النقيض تماما فيما يخص الذوق العربي: فالتركى يتسم بالتنميق الزائد والبهرجة والألوان الصارخة؛ فى حين أن العربى، أنيق ليس به افراط سواء فيما يخص العمارة السكنية أو فى إنشاء وزخرفة الأضرحة والمساجد. ولقد شعرت أنه من الممكن أن أقضى يوما بأكمله فى تلك الردهات التى جاء ذكرها أعلاه، أتأمل و أمتع ناظرى بجمال المكان فى راحة تامة بدون أن تطرأ عليَّ أية أفكار حزينة.

هناك منزل لطيف متاخم للمقابر، مخصص لحريم الحارس، وقد قمنا بزيارة السيدات وقوبلنا بترحاب وحسن ضيافة شرقية أصيلة. كانت كبيرة السيدات حسنة البزَّة، لباسها من قماش قرمزى اللون مطرز بالقصب وهى لطيفة عطوف ولكنها مخطئة بشكل محزن فى طريقة تربيتها للأطفال وتهذيب أخلاقهم. أدخل طفلان صغيران لكى نراهما، الكبير منهما، صبيٌ بدأ بالكاد يمشى. أول ما ظهر، طلبت السيدة إحضار عصا لتُضرب بها هرة كانت تسير فى أمان فوق السجاد لكى يتمتع الطفل بهذا المنظر. لم أدرك أن الضرب لم يكن جادا وحاولت أن أحول دون ذلك فمالت عليَّ إحدى السيدات وقالت هامسة وكأنه سر دفين «إننى أحبها كثيرا ولن أتسبب فى إيذائها» ورفعت ذراعها ممسكة العصا وكأنها تبذل جهدا عظيما ثم أنزلتها برفق شديد. بعد ذلك طلبت من إحدى الجوارى أن تركع، وبكل رشاقة ركعت الفتاة وأحنت رأسها بإذلال متصنَّع لينهال عليها الكرباج؛ وأعيدت المهزلة نفسها. حقيقة لم تصب الجارية أو الهرة بأى أذى فى تلك المناسبة ولكن لا بد أن أثر الحادث كان سيئا فى عقل الطفل. يا ويلتنا على الجوارى والقطط حينما يكبر ويصبح قادرا بالفعل على إيذائها!



الرســـالة
الحادية والعشرون

الرحلة إلى أهرام الجيزة

صـديقــتى العـــزيـزة،

كــتـب الـكـثـيــرون عـن الأهـرام ولا شـك فـى أن وصفا جديدا لها سوف يبدو مثل قصة أعيد ذكرها مرارا وتكرارا ؛ ولكن لدى الكثير الذى يجب أن أقوله فيما يخص هذه الآثار الهائلة، ربما أعظم عجائب الدنيا، التى كانت حتى فى طفولتنا، موضع استغرابنا وتعجُبنا وتعتبر رؤيتها حدثا فى حياة الإنسان. سوف أحاول، قدر المستطاع، أن أجنبك سماع تكرار ما قرأته أو يمكنك قراءته عن هذا الموضوع فى كُتب الرحَّالة المختلفين.

بعد أن انتهينا من الاستعداد اللازم لهذه الزيارة، لقضاء فترة النهار فى غار معتم ولياليـنا فى خيمة، شرعنا فى هذه الرحلة الممتعة تحدونا أجمل التطلعات. إن الخلط السائد فى الشرق



أبو الهول وهرمى خوفو خفرع بريشة ديفيد روبرتس ١٨٣٠

بالنسبة لتقدير المسافات نتيجة للصفاء الفذ فى الهواء يتمثل بوضوح لدى اقترابنا من الأهرام؛ إذ من العجيب حقا أننا كلما اقتربنا منها، بدت لنا أقل ضخامة وفخامة. و لو أنى أبديت رأيا عن أبعادها من منظرها فقط وأنا أقترب منها بادئ الأمر، لكان حكمى غير صحيح. وحالما عبرنا النهر، ظهرت وكأنها على مسافة ميل منا؛ وبعد أن سرنا أكثر من فرسخ[٧] من الجيزة لم أكد أصدق أننا ما زلنا على بعد فرسخ بأكمله من الأهرام، إذ إن المسافة بينها وبين الجيزة من الطريق الذى سلكناه يزيد عن ستة أميال ولو أنها لا تتعدى خمسة أميال فى خط مستقيم. وحينما صرنا على نحو ميل من الأهرام، بدا الوهم أعظم إذ ظهر نسق الحجارة واضحا مميزا وكان من اليسير احتساب عددها وتقدير أنها لا تزيد عما يلزم من الطوب لبناء منزل ارتفاعه حوالى خمسين أو ستين قدما. كان هذا سببا فى صعوبة تقدير ارتفاع الصرح لأن العين غير معتاد رؤية حجارة بمثل هذه الضخامة تستخدم فى البناء. ولكنه من الممكن أن تبدد كل هذه التخيلات إذا وجد بجوار الأهرام أى شيء آخر يمكن أن تقارن به. لقد تأكدت من هذا لدى وصولى عند قاعدة الهرم الأكبر حيث بدت بعيدة الأماكن التى كنت قد ظننتها قريبة جدا من الهرم، و كان من الجائز أن يخدعنى صفاء الهواء هنا كما حدث من قبل، ولكننى فى هذه المرة، كنت أنظر إلى أشياء مألوفة لدى مثل النخيل، والقُرى وخيام البدو.

لفت نظرى عندما اقتربنا من الأهرام آثار بارزة للعيان لطريق قديم، لا شك أنه جزء من الطريق الذى عبّده قراقوش لييسر نقل أحجار الأهرام إلى القاهرة عندما شيّد القلعة والجدار الثالث للمدينة؛ ولعله أقيم على أنقاض طريق أكثر قدما وصفه هيرودوت بأن الغرض منه كان تسهيل نقل الحجارة من محاجر ضفة النيل الشرقية إلى موقع الهرم الأكبر حيث استخدمت لصفِّ ممرات هذا الصرح، أو ربما لتغليف واجهته.

عندما كنّا على بعد مسافة ميل تقريبا من نهاية رحلتنا، قلت لأخي: «لا تبدو الأهرامات و نحن على وشك الاقتراب منها، بالعظمة التى كنت أتوقعها» أجابنى:

---

(٧) يعادل ثلاثة أميال تقريبا.

«على وشك الاقتراب منها !... تمهلي قليلا، ثم اخبريني برأيك». على هذا، تابعنا السير على مطايانا واستمر هذا الاحساس المثير بشدة القرب من الأهرام يدهشني مع ازدياد اقترابنا منها. المسافة من القاهرة إلى الأهرام تستغرق ثلاث ساعات فى هذا الفصل من السنة؛ وهذا الشهر، بسبب برودة الجو فيه، ملائم جدا لمثل هذه الرحلات. ولقد قام صديق كريم يقيم بالهرم، هو السيد بونومى، المشهور بإقامته الطويلة فى هذا البلد ومعرفته الواسعه بآثاره، باعداد خيمة و مأوى مريح لنا، عبارة عن مقبرة قديمة مثل الكهف داخل صخرة استخدمت لهرم ولكن أغلبها الآن مدمر. وجدنا هذا الغار واسعا متجدد الهواء حيث به ثلاث فتحات مربعة عريضة كانت لنا بمثابة النوافذ، هذا بالإضافة إلى المدخل. نصبت خيمتنا على مقربة وفُرش سجادنا وبدا بيتنا الصحراوى مريحا بشكل لم أكن أنتظره. هناك شيء ما يبعث على الأنس إذا حمل المرء معه سجادته، فحيثما يضعها سواء فى سفينة أو فى الصحراء، حينما تقع عليها عينه وهو غارق فى تفكيره، يجد فى رسومها المألوفة، نوعا من الترحاب. وعادة فإن وضع «السجادة» فوق السرج، يسمح للسيدة الشرقية أن تأخذها معها أينما ذهبت. فحينما تطلب الراحة، يفرشها لها أتباعها؛ وحقيقة، لا يوجد ما هو أكثر إنعاشا للنفس أثناء رحلة صحراوية، من الاستلقاء عليها وتناول وجبة بسيطة من الخبز والفاكهة تصاحبها جرعة من ماء النيل اللذيذ.

وبعد وصولنا مباشرة، صعدنا فوق الربوة التى شُيِّدَتَ عليها الأهرام وجُلنا بأنظارنا على الأشياء التى وصفتُها آنفا ونحن فى طريقنا. لا تبدو الأهرام وقورة عتيقة، إذ بها نضارة وجدَّة أدهشتني؛ لعل سبب ذلك وضاءة لونها،الذى لم يكد يطرأ عليه تغير منذ إقامتها من آلاف السنين. أما من حيث حجمها المذهل، فلم يخب أملي بعد أن صعدت الهضبة الصخرية التى تقع عليها: فعندما كنت على مقربة بضع ياردات من قاعدة الهرم الأكبر، أمكننى فعلا أن أدرك ضخامته. و لبثنا حتى ساعة متأخرة بين معالم الغاية من زيارتنا، و شغفنا بملاحظة ظلال الهرمين الكبيرين وقت غروب الشمس وهى تمتد عبر السهل الخصب إلى النهر. إن المنظر الشامل من علياء هضبة الأهرام الصخرية، لمن أروع ما يمكن تصوره.

ولدى عودتنا إلى مغارتنا ، تمتعنا بوجبتنا المسائية بشهية الرحّالة في البادية ، ثم خلدنا إلى الراحة وأفكارنا متأثرة بالانطباعات المختلفة التي رأيناها وأيضا بطرافة مأوانا .

لم نكن وحدنا الذين سكنوا القبور أثناء اقامتنا في جيرة الأهرام ، إذ إن هناك صفا من المقابر المحفورة ، استخدمها الكولونيل ڤايس Vyse[8] وجماعته عام ١٨٣٧ وهي الآن في حوزة رجل نوبيّ استولى عليها ليتيح سكنا للرحالة (مقابل أجر زهيد) . أيضا على مسافة قصيرة من مغارتنا ، يقطن أعرابي في مقبرة مشابهة ولكنها أفضل بعض الشيء . وحيث إنه يعيش عيشة ناسك ، اعتبره أهالي القرى المجاورة وليا من أولياء الله و يتكفلون بإعانته بما يجود به المحسنون . من الجائز جدا أنه تبنى حياة الرهبنة لأنه كسول ويجد أنه أسهل عليه أن يعتمد على غيره من أن يشقى في سبيل لقمة العيش فمن المألوف رؤية الأعراب وهم في طريقهم ، يتركون له الخبز والطعام وأحيانا النقود ، وخصوصا في أيام الجمعة حينما يتلقى زيارات عديدة .

كان أخي ، أثناء زيارة طويلة له للأهرام عام ١٨٢٥ ، يقطن في إحدى المقابر التي استولى عليها النوبيّ و هي محفورة في الواجهة الشرقية لهضبة الهرم الأكبر الصخرية . وقتئذ ، كانت تحتل مغارة مجاورة له ، أسرة تتكوّن من كهل ضئيل الحجم (يدعى عليّا) وزوجته (التي لم تكد تبلغ نصف عمره) وابنتهما الصغيرة ؛ كانوا حراسا لبعض الآثار التي أودعها هناك « كاڤيليا Caviglia »[9] . بخلاف هؤلاء ، لم يكن لدى أخي جيران سوى أهالي قرية تبعد عنه بما يقرب من ميل . كان الشيخ عليّ نافعا إذ إنه كان يجلب الماء من البئر التي كان قد حفرها كاڤيليا في الوادي الرملي أسفل المنحدر أمام الكهوف . ولكن المسكين كان شبه أبله ، ذا انفعالات عنيفة ، تمثلت في حادثة وقعت خلال إقامة أخي في منطقة الأهرام . ففي

(٨) الكولونيل وليام هوارد ڤايس : اكتشف المدخل السري لهرم منقرع باستخدام البارود ، انظر "Operatios carried on at the Pyramids of Gizah in 1937. ete London 1840.

(٩) چيوڤاني باتيستا كاڤيليا : بحار من جنوا قام بالحفر داخل هرم خوفو وفي المقابر بجوار أبو الهول .

بعض التبغ. ولما لم ترجع الطفلة عند المغرب، قلق أخي عليها وبعث خادما يبحث عنها ويأتي بها. وكان عليّ أيضا قد شعر بالقلق وأرسل زوجته للغرض نفسه. وحين أطبق الليل ولم تصله أية أنباء عن الفتاة الصغيرة كاد يفقد عقله تماما؛ أخذ يضرب صدره ويخبط الأرض بقدميه ويصيح دون انقطاع، «يا مبروكه! يا مبروكه!» (اسم الطفلة). بعد أن حاول أخي تهدئته بعض الشيء، انطلق في اتجاه القرية. مضت حوالي خمس دقائق وأخي يجلس أمام المغارة في حيرة لعدم ظهور أحد، ولم يأت أيضا حارساه البدويان كالعادة؛ فجأة سمع صراخا مدويا مزعجا ينبعث من السهل الصحراوي أمامه. ترك أخي خادما في الكهف - لوجود شاب غريب في الناحية - وهرول في اتجاه المكان الذي انبعث منه الصوت. كان الظلام مخيما، فلم ير شيئا؛ ولكن بعد أن قطع مسافة، سمع العبارة التالية يعاد تكرارها عدة مرات بسرعة فائقة: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله» وما لبث أن وجد عليًا راقدا على الأرض و أخبر أخي أن عفريتا أمسكه من رقبته وقذف رملا في فمه وأنه يكاد يختنق. (يبدو أن الأعراب معرضون لتشنج في الحلق يعزونه للسبب المذكور). في هذه الأثناء كان البدويان، اللذان طلب منهما الخادم وزوج عليّ العون في البحث، قد وجدا الطفلة، ومثل أخي، جلبهم صراخ العجوز إلى هذا المكان. عاونوه على الرجوع، ولكن الفزع والألم ظل تأثيرهما يطغى على المسكين لعدة أيام كان خلالها شبه معتوه.

وحدث في اليوم الثاني لإقامة أخي في منطقة الأهرام أن جاءه بدوي يطلب حق الضيافة - الشاب الغريب نفسه الذي جاء ذكره سابقا - و ظل مع أخي طوال فترة إقامته في المقبرة. كان الشاب ذكيا فطنا، سعد به أخي كثيرا إذ كان كل مساء وهو يدخن غليونه، يستمع إلى إنشاده لقصص وأشعار من سيرة أبي زيد الهلالي الشعبية. ولكنه في الوقت نفسه سبب استياء شديدا لخدم أخي المصريين وذلك بسبب احتقاره للفلاحين. لقد فرَّ من جيش جنود الباشا النظاميين كما اعترف بكل صراحة، ولهذا خشي دخول القرى حتى لا يُتعرف عليه ويُرد إلى المعسكر. عند رحيل أخي من الأهرام سأل الشاب عما ينوي عمله فيما يخص زاده وهو لا يجرؤ أن يدخل القرى. أجابه ببساطة، «ومن أتى بك أنت إلى هنا؟ الله كريم».

لدى زيارتنا نحن للأهرام، سأل أخي الحراس إن كانوا يعرفون أو يتذكرون عليًا المسكين، أجابه واحد منهم بأنه والده وقد توفي منذ عدة سنوات. ثم استفسر عما إذا كانت مبروكة حيَّة - أجاب الرجل «نعم، إنها بخير ومتزوجة وأم لطفلين». أردف مؤكدا لأخي أنه يذكر جيدا زياراته السابقة، طمأننا أن يكون أحد الحراس على الأقل يقظا بسبب المعرفة القديمة. هذا الرجل مميز بأمانته ولكن أخلاقه الخاصة لا تشرفه - لقد تزوج من عشر نساء ويقول إنه يود أن يتزوج عشرين إذا تسنى له ذلك ويؤكد أنه طلق كثيرات وكان هذا فقط لأنهن فشلن في واجبهن نحوه بالرغم من حسن معاملته لهن. حسب قوله هو، إنه كان دائما طيبا معهن؛ لم يؤنبهن أبدا، كان فقط يضربهن ! إن سهولة الطلاق مضرة للغاية؛ وعادة ما ينتج عنه بؤس وفاقة. من الشائع، مع الأسف أن تُنبذ الزوجات لأتفه الهفوات في حين أن نصحا لطيفا يمكن أن يبيِّن لهن الخطأ في تصرفهن ويجعل منهن رفيقات نافعات. يؤلمني أن أقول إن الزوجات هنا يُطلقن عادة لمجرد نزوة.

كان مظهر حراسنا، وعددهم ثلاثة، فعلا رائعا، إذ إنهم كانوا أكثر شبها للبدو منهم إلى الفلاحين؛ وينتمون إلى قبيلة فضَّلت منذ بضع سنوات مضت، حياة البدو الرُحل على الفلاحة؛ كانوا يلبسون زيَّ آبائهم الذي يتكون أساسا من جلباب فضفاض وعباءة تضم الجسم وتضفي على لابسه مظهرا بدائيا. كنا نتفكَّه في البداية من طريقة ندائهم لبعض طوال الليل، وكأنهم يخشون أن يغفل أحدهم، «فتح عينيك ! فتح عينيك كويس !» ولكننا ضقنا بعد ذلك من هذا التكرار المستمر الذي تسبب في يقظتنا نحن أيضا. كان أحد الحراس يرقد وراء الخيمة على مقربة من رأسي وكان يُسرِّي عن نفسه بالغناء المستمر. كنت أود لو أن فاصلا حقيقيا غير قماش الخيمة كان يحول بيني وبين جاري المرح. كنا نقوم في الصباح متعبين، ولكن هواء الصحراء المنعش كان لتوه ينشطنا فنقدم على مغامراتنا بطاقة مناسبة.

إن الهضبة الصخرية التي يقع عليها الهرم الأكبر، ترتفع حوالي مائة وخمسين قدما فوق السهل الرملي الذي يفصل بينها وبين الأرض المزروعة. وهي تتكون من حجر جيري ليِّن وتوجد فيها بكثرة تلك المتحجرات الصغيرة التي ذكر سترابون

أنها توجد بكميات كبيرة حول الأهرام، ويُعتقد أنها حبوب من العدس المتحجر من مخلفات العمال الذين بنوا الأهرام ! وهى تتواجد بكثرة فى أماكن عديدة من سلسلة الجبال التى تحد وادى النيل من هذا الجانب. والحجر لونه أبيض حينما يكون حديث القطع ولكن تعرضه للهواء يجعله داكنا ويكسبه صبغة صفراء. والأجزاء المنبسطة وكذلك منحدرات الصخر، تغطيها الرمال والحصى وكسر الأحجار التى وجد منها قطع من الجرانيت الصلد، والبلور الصخرى والعقيق وكميات هائلة من الأصداف المتحجرة، الخ.

والهرم الأكبر هو الذى قال عنه هيرودوت إنه من إنجاز فرعون يسمى خيوبس ويسميه ديودور الصقلى خيميس ويضيف أن هناك من ينسبه إلى ملك يدعى أرمايوس. أما مانيتون (وهو مصدر أفضل فى هذه الحالة) فيذكر أن الذى شيَّده هو سوفس، ثانى ملوك الأسرة الرابعة و هى ثانى أسرة لملوك منف.

إن اكتشاف الكولونيل ڤايس للأسماء الهيروغليفية لملكى بناة الهرمين الأول والثالث ذو أهمية قصوى لما تؤكده بوضوح، عن صحة ما ذكره مانيتون وغيره بخصوص هذه الآثار الخالدة. فاسم مشيِّد الهرم الأكبر بالهيروغليفية حسب اللهجات المختلفة التى يُلفظ بها، هو شوفو أو خوفو؛ والأول قريب الشبه من سوفس عند مانيثون والثانى من خيوبس لدى هيرودوت.

لايرتفع الهرم الأكبر كثيرا عن الثانى، إذ إنه فقد عدة طبقات من قمَّته فى حين أن الثانى يكاد يكون كاملا. أما قاعدة الأول فأوسع بكثير مع أن الاختلاف لا يبدو واضحا للعين، كما أنه يفوقه جداً من حيث متانة واتسَّاق البناء.

ومما يزيد من مُتعة الرحَّالة الحديث وهويتأمل الأهرام، فكرة توغلها فى القدم، وأن فلاسفة وأبطال الأزمان الماضية وقفوا ذات الوقفة أمامها، مذهولين دهشة واعجابا. إن عظمة الهرم الأكبر الهائلة تبدو واضحة بأجلى مظاهرها عندما يقف المشاهد بجوار إحدى زواياه. ومع أنه أفضل موضع لرؤية الهرم، إلا أنه لا يمكن أن ينقل فكرة وافية عن حجمه إذ تبدو ثغرة معينة فى الزاوية، وكأنها قرب القمة، مع أنها فى الواقع لا تعلو كثيرا عن المنتصف. على هذا النحو يكون انخداع البصر شديدا أمام هذا الشىء العجيب.

..... [١٠] يصف أخي المنظر من أعلى الهرم الأكبر بأنه فريد من نوعه. يمتد النظر من الجانب الشرقي فوق سهل واسع أخضر، تُزوِّده قنوات عديدة بالماء وتتخلله قرى شُيِّدت فوق أكوام من القمامة، تحيط بها أشجار النخيل، و على بعد، يظهر النيل و من خلفه مآذن القاهرة الشامخة وقلعتها التى تحفها من الجانبين سلسلة جبل المقطم المنخفضة، صفراء اللون. إذا التفت الرحَّالة إلى الجهة المقابلة، يختلف المنظر تماما؛ بدلا من خمائل النخيل وحقول القمح، لا يرى سوى التلال الرملية المتموِّجة لبادية الشام الكبرى. ويبدو منظر الهرم الثانى رائعا إلى أقصى حدّ، من هذا المكان المُهيمن؛ كما يمكن رؤية جزء ضئيل من ثالث الأهرامات وبجانبه الجنوبى، أحد الأهرامات الصغيرة. تغطى المتسع الواقع غرب الهرم الأكبر وشمال الثانى، مقابر مستطيلة شكلها مثل الأهرام المبتورة، تبدو من هذا الارتفاع، مثل مواقع من الحصى. كما يُرى فى الاتجاه الجنوب -جنوب شرقى، رأس أبى الهول العظيم وعلى بُعد، أهرام أبى صير و سقارة ودهشور.

أضفى الظلام الذى ملأ الكون بعد غروب الشمس بحوالى نصف ساعة أو أكثر، عظمة ووقارا على المنظر. فى إحدى المناسبات، قبل الفجر بساعتين تقريبا، صعد أخى الهرم الأكبر وظل فوق القمة حتى شروق الشمس؛ كان الجو باردا للغاية، وصوت الهواء وهو يلفح الجانب الشمالى للهرم مثل شلال بعيد يزمجر. الهرم الثانى الذى كان بالكاد يتبينه ظهر له أكبر بكثير من حجمه الطبيعى. وما لبث بعد ذلك أن أضيء جانبه الشرقى ببزوغ القمر وكان المنظر فى منتهى الجلال.

فى اليوم الثانى لإقامة أخى عند الأهرام أثناء الزيارة التى ذكرتها، خرج دون أن يصطحب معه مسدسه؛ وفى المساء أنّبه على ذلك أحد حراسه قائلا، «من اليسير جدا على واحد من قومنا (أى البدو) أن يقوم بسرقتك، وإذا قاومته، يقتلك ويقذف بك فى جُبّ للمومياوات ومن ذا الذى يعرف بعد ذلك ما حدث لك؟» وعلى أثر هذا، حينما صعد أخى الهرم بمفرده فى اليوم التالى، كان مسلحا. وبينما هو على القمة، إذ ا به يلمح أعرابيا يتجه نحو الهرم من الغرب؛ بدأ يرتقى

---

(١٠) حذفت المترجمة هنا جزءاً مما تضمنته الرسالة الأصلية من قياسات تفصيلية تتعلق بالهرم الأكبر وداخله، وهى مقتبسة من مذكرات لين،نظراً لأنها لم تعد ذات قيمة عملية الآن، لتوفر قياسات علمية حديثة أكثر دقة.

من الزاوية الجنوبية الغربية وعندما وصل تقريبا إلى المنتصف، توقف وأخرج مسدسا من جراب معلق فى وسطه، تأمله ثم تابع صعوده؛ كل هذا وهو يجهل بالطبع أن منظار أخى المُكبِّر مُسلط عليه. كان من الواضح أن نوايا الرجل لم تكن سليمة، نادى عليه أخى وطلب منه أن يهبط؛ ولكنه إما لم يسمع أو لم يرغب أن يستجيب. فأطلق أخى عيارا ناريا ليُعرِّفه أن لديه ما يدافع به عن نفسه، بعد هذا، بدأ لتوه يعود أدراجه وعندما وصل إلى القاعدة، ابتعد ببطء داخل الصحراء.

قلما يتعرض الرحَّالة فى ظل الحكومة الحاضرة[11]، لأى خطر من الأهالى سواء هنا أو فى مناطق مصر الأخرى؛ ولكنهم يتعرضون عادة لمضايقات جمة من تجمهر وإلحاح المرشدين العرب عند الأهرام. إذ يتبعهم دائما لمسافة طويلة، قد تكون أحيانا من الجيزة، مجموعة من العرب يبتزون المال من السائح وهم فوق قمة الهرم قبل أن يسمحوا له بالنزول. ومنذ بضعة أيام اتفق سيد محترم مع بعض من هؤلاء الرجال ليرافقوه إلى أعلى الهرم؛ وبعد أن قاموا بهذا، طلبوا منه المبلغ المتفق عليه، قائلين أنهم أدوا مهمتهم. اضطر أن يذعن لأمرهم ويدفع لهم خمسة دولارات، خوفا من الاضطرار للنزول بمفرده دون عونهم.

ومن دواعى الأسى أن نرى السرعة التى يضطر لها المسافرون من الهند وإليها إذا رغبوا فى أن يزوروا الأهرام، فقد حضر بعض منهم أثناء إقامتنا، صعدوا الهرم الأكبر مهرولين ونزلوه بالسرعة نفسها، ثم قضوا خمس دقائق بداخله واختفوا فى غضون ساعة أو أكثر قليلا[12].

---

(١١) يشير الجبرتى مرارا إلى غطرسة «الأغراب وخصوصاً المخالفين للملة» (ذى الحجة ١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠) وأن الحكام «يراعون جانب الإفرنج إلى الغاية». (ربيع الآخر ١٢٣٥).

(١٢) حذفت المترجمة الرسالة التالية بأكملها، لأنها لا يتضمن سوى وصف تفصيلى لداخل الهرم الأكبر وهى أيضا من مذكرات لين.



الرســـالة

الثانية والعشرون

تكملة رحلة الأهرامات وأبو الهول

فبراير ١٨٤٤

صديقتى العزيزة،

أخشى أن أضايقك إذا قدمت لك وصفا مفصلا دقيقا للأهرامات الأخرى مثلما فعلت مع الأول؛ ولربما كنت تجاوزت عنها كلية حيث أنها أقل أهمية بكثير، ولكنى بالرغم من ذلك سوف أذكر عددا من الملاحظات عنها، أدين ببعض منها لأخى، إذ أنى أظن أنها قد تهمك. أؤكد لك أنه ليس بالشيء الهين أن تستكشف امرأة الهرم الأكبر ولا يزال عقلى مأخوذا بصعاب هذه المغامرة لدرجة أننى لم أستطع أن أنساها لفترة من الزمن حتى فى أحلامى. وبالنسبة للأهرام الأخرى فاستكشافها أقل صعوبة إلى حد ما.

لا يزال بعض الشك يحيط باسم مؤسس الهرم الثانى المعروف بهرم خفرع Cephrenes ولكن حيث إن بعض المقابر المجاورة له مدوّن عليها بالهيروغليفية اسم ملك يقرأ حسب لهجات مختلفة خفرع أو شفرع Khephré or Shefré فمن المرجح أن يكون هذا الملك هو الذى شيَّد هذا الهرم المذكور.

ولا يقل هذا الهرم كثيرا فى عظمته عن الأول بل إنه قد يبدو أكثر شموخا من بعض وجهات النظر إذ إنه يقع فوق أرض تعلو ثلاثين قدما عن تلك التى يرقد عليها الأول، كما أن قمّته تكاد تكون كاملة. ونجد أن جزءا كبيرا من الغلاف الأملس، لا يزال باقيا فى الجزء العلوى منه مكونا غطاءً يمتد إلى ما يقرب من ربع المسافة من أعلاه إلى القاعدة. ورغم هذا يتسلقه بعض المصريين إلى قمته؛ ولقد فعل هذا أيضا بعض الرحّالة الأوربيين. وهذا الهرم دون الأول فى بنائه العام كما أن داخله أقل أهمية. ويمكننا الوصول إلى الغرفة الكبرى عن طريق ممر مائل يشبه الممر الأول فى الهرم الأكبر ولكنه مغلف بالجرانيت، يتبعه ممر طويل أفقى نحت فى الصخر، يقطعه مهبطان عموديان وارتقاءان مائلان. وهذه الغرفة تشبه فى

الشكل «غرفة الملكة » فى الهرم الأكبر وتحتوى على تابوت بسيط من الجرانيت وسط كتل من المادة نفسها انتزعت من الأرض حيث كان التابوت مثبتا . هناك عديد من النقوش العربية لا تكاد تقرأ ، مكتوبة بإهمال بأحرف عربية حديثة بالفحم على أجزاء متفرقة من الغرفة ؛ أغلبها كتبت قبل أن يقتحم بلزونى Belzoni[١٣] الهرم وتسجل زيارة مصريين للمكان ولكن أخى لم يعثر فيها على أى تاريخ . أنقل من مخطوطة مذكرات أخى الملاحظات التالية عن واحد من تلك النقوش الذى أثار اهتماما خاصا : يقع فى سطرين ، كتبا بالحروف ذاتها مثل الباقى و بالمادة نفسها ولكن يمكن فك رموزهما إلى حد ما . « لاحظ بلزونى هذين السطرين بالذات واستعان بكاتب قبطى لينقلهما ، ولكن الرجل لم يؤد مهمته بدقة إذ افترض أن السطر الثانى مكمل للأول ، وهذا غير مؤكد بالمرة ، جاء بنسخة ظن أنه يُصلح فيها النص ويرده إلى أصله ؛ ترجم السيد سلامه هذه النسخة إلى الإنجليزبة على النحو التالي : «المعلم البناء محمد أحمد فتحه ؛ وكان المعلم عثمان حاضرا هذا (الفتح) ؛ وكذا الملك محمد عليج فى الأول (من البداية) إلى إقفاله » . لقد سبب هذا النقش حيّرة كبيرة لعلماء المستشرقين فى أوربا ، وبذلوا جهدا كبيرا للتعرف على الملك المذكور ومتى كان حكمه . ومع الأسف فإن السطر الأول يكاد يكون مطموسا كلية إذ إن سائحا خرفش اسمه عليه ، ولكن الكلمتين الأوليين لم يُكتب عليهما ومن الضرورى أن أعلن أن هناك شكا كبيرا فى صحة ما جاء بالنسخة المنقولة أعلاه وبالتالى فإن النقش ليس به ذكر «لفتح» الهرم . أما السطر الثانى ، وهو الأهم ، فلم يطمس مثل الأول والجزء الأكبر منه واضح جلي بحيث لا يمكن قراءته سوى كالآتي : «الخليل على بن محمد . . . . . ، كان هنا» أو حسب الترتيب العربى للكلمات ، «كان الخليل على بن محمد هنا . . .»واضح جدا أن الكلمة التى ذكرها ناسخ بلزونى أنها «الملك» ما هى إلا اسم علم . هناك غلطة أخرى فى النسخة التى نشرها بلزونى وهى عدم ذكره لكلمة «ابن» بعد «على» . وهكذا نرى أن النقش لا يسجل زيارة ملك أو حتى يشير إلى فتح الهرم ولكنه فى

(١٣) جيوڤانى باتيستا بلزونى : (١٧٧٨ - ١٨٢٢) جاء إلى مصر ١٨١٥ فى أوج الاهتمام الأوربى بالآثار المصرية . حفر فى أماكن كثيرة جدا وتمكن من اقتناء عدد مهول من الآثار الفرعونية التى باعها للمتحف البريطانى .

الأرجح ليس إلا من الخراطيش التى كتبت بالعربية ونراها بكميات كبيرة على كثير من الآثار فى مصر. ولكنها، كمثيلاتها، لها بعض الأهمية، إذ أنها تفيد أن الهرم كان مفتوحا فى فترة متأخرة نسبيا.»

فتح الكولونيل ڤايس الهرم الذى ينسب عادة إلى ميكرينيوس Mycerindus أو منكريس Mencheres ووجد به صندوق مومياء صاحبه، يحمل بالهيروغليفية اسم منقرع Menkaré. وهذا الهرم مع كونه أصغر بالمقارنه مع الأول والثانى، حيث إن قاعدته حوالى ثلاثمائة وثلاثين قدما وارتفاعه العمودى حوالى مائتين، إلا أنه صرح مهيب. لقد شيِّد بطريقة رائعة ويمتاز بأنه غُلف جزئيا أو كليا بالجرانيت ولا تزال بعض طبقات أحجار الغلاف الجرانيتية باقية فى الجزء الأسفل منه. كذلك الغرفة التى وُجد بها التابوت وممر المدخل من الجرانيت أيضا؛ أما سقف الغرفة فيتكون من كتل ترتكز على بعضها وقُطعت بحيث يتخذ السقف شكل قوس. لقد ضاع التابوت فى البحر وهو فى طريقه إلى إنجلترا. وهذا الهرم الثالث هو أول هرم أدخله ولقد أعجبت أشد الاعجاب بمظهره الداخلى بعد أن استجمعت الشجاعة اللازمة للزحف من خلال مدخله الذى كاد أن يكون مسدودا بكتل من الحجارة الضخمة.

وتوجد بجوار الأهرام التى ذكرتها عدة أهرامات أخرى تقل عنها أهمية ولذلك لن أتعرض لها بالوصف وكذلك لن أقدم لك سردا مفصلا عن المقابر الكثيرة التى سبق لى أن ذكرتها. تقع أغلبها فى فسحة من الأرض إلى غرب الهرم الأكبر، و شمالى الثانى؛ وقد صُفّت، سوى بعض الشواذ، بطريقة منتظمة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب وجدرانها تواجه، مثل جوانب الأهرام، الجهات الأربع الأصليه. لقد تسببت الرمال المنجرفه فى دفن بعض منها كلية تقريبا، كما أن عديدا منها تكاد تكون هدمت تماماً. ونجد أن بعضها لا تحتوى على غرف فوق سطح الأرض، بل لها حفرة، يمكن الدخول إليها من السطح ثم النزول إلى غرفة الدفن. فى حين أن بعضها الآخر يحتوى داخل جدرانه على حجرات ضيقة مزدانة بنقوش ملونة من الحفر الغائر تمثل مناظر ريفية و سواها و أغلبها معاصرة للهرم الأكبر. والنقوش من هذا العصر فى إحدى هذه المقابر، تمثل أشخاصا يقومون

بكافة الأعمال المختلفة، مثل النجارة وصناعة قوارب من البردى (مثل الذى وُضع فيه موسى) و فلاحة الأرض وعصر النبيذ و تناول الغذاء والرقص، الخ. ومن بين نقوش هذه المقبرة، نقش يمثل رجلين يجلسان إلى صينية وضعت على قاعدة منخفضة ومحملة بالطعام؛ أحد الرجلين يمسك دجاجة في يده اليسرى بينما ينتزع منها جناحا بيده اليمنى، والآخر يقبض قطعة من اللحم ويهم بقضم جزء منها. كلا الشخصين شبه عاريين، ولو كانا يرتديان بعض الملابس لاعتقدنا أنهما مصريان من وقتنا الحالى يتناولان طعام الغداء أو العشاء. هناك أيضا عدة كهوف جنائزية نُحتت فى الصخور المجاورة للأهرامات؛ نجد فى أحدها صور قطعان ومواشى صاحب المقبرة الرئيسى، مع ذكر عدد كل نوع: لقد كان لديه ٨٣٥ ثورا و ٢٢٠ بقرة مع صغارها، و٢٢٣٤ جديا و ٧٦٠ حمارا و ٩٧٤ كبشا. هذه المقبرة الطريفة قديمة جدا من عصر خفرع المذكور آنفا و توجد فى الجزء الأمامى من الهضبة الصخرية التى يقع عليها الهرم الأكبر فى مواجهة وادى النيل، إلى اليمين قليلا من مسكن الكولونيل ڤايس.

لو كنت قدمت وصفا تقليديا للأهرام والآثار المحيطة بها، لكنت بدأت بأبى الهول العظيم الذى يواجه الرحّالة المتجه إلى الهرم الأكبر، إنه يقع على مسافة بسيطة من الطريق الجنوبى الشرقى الذى هو أسهل الطرق. يكاد يكون جسده الضخم الرابض برجليه الأماميتين الهائلتين الممتدتين، مغمورا تماما فى الرمل و القمامة؛ ويبلغ ارتفاع الرأس منفردا، عشرين قدما. يُعتقد أن ملامح الوجه قد تكون تصويرا لتحتمس الرابع الذى يظن الكثيرون أن حكمه صادف وقت عبودية بنى إسرائيل فى مصر إما إبانه أو بعده بقليل وأنه قد يكون الفرعون ذاته الذى تم «الخروج» فى عصره. الوجه مشوه إذ إن الأنف مجدوع وهذا يضفى عليه مسحة زنجية ولو أن ملامح المصرى القديم وكذلك اللون الفاتح نسبيا للبشرة يفرقه إلى حدّ كبير عن الزنجى مع اختلاف شاسع فى شكل الأنف بين الاثنين. وقد بدا لى وجه أبى الهول لأول وهلة، قبيحا للغاية مع التشويه الذى به؛ ولكن لدى اقترابى منه، لاحظت عذوبة خاصة فى تعبير الوجه مما جعلنى أدرك سبب الإعجاب الذى أثاره فى كثير من الرحالة. ولا شك فى أن هذا التمثال الضخم كان ملونا بأكمله، والوجه لا يزال محتفظا ببعض اللون الأحمر الداكن وهو اللون الذى كان

يستخدمه قدماء المصريين فى تلوين بشرة أبناء جنسهم ؛ أما اللون الأصفر أو الوردى فكان يستخدم لبشرة النساء المصريات. كل ما هو ظاهر من أبى الهول، محفور من كتلة من صخر الحجر الجيرى التى كانت ربما، فى شكلها الطبيعى، تبدو إلى حد ما مثل الهيئة التى أضفاها عليه فن النحات.

لم أكن أظن أنى سوف أكتب لك مثل هذا القدر عن الأهرام والآثار المحيطة بها ؛ ولكن حينما طرقت الموضوع، وجدت نفسى منساقة ولم أستطع التوقف. يا لروعة الأهرام الرئيسية فى حد ذاتها ويا لوقعها البالغ فى النفس بسبب عمرها الموغل فى القدم ! يخيل لى أن كل أعمال الإنسان الأخرى الباقية، لا بد أن تنزلق إلى النسيان إذا قورنت بها. كان من الصعب علىَّ أن أصدق أن نصبا بمثل هذه العظمة المذهلة ومثل هذا البناء الرائع، شُيِّد منذ عدة قرون قبل زمن «الخروج» لولا معرفتى أن برج بابل الذى كان أيضا دون شك صرحا عظيما، شُيِّد فى عصر أكثر قدما.

مما سرنى خلال هذه الرحلة ما لاحظته من عدم وجود حالة عمىً واحده بين جموع العربان الكثيرة من ساكنى القرى، فى حين تنتشر هذه الفاجعة فى القاهرة. هؤلاء الفلاحون ينعمون كما يبدو بنصيب ضئيل جدا من حسنات الدنيا، ولكن يبدو أن للهواء المنعش الذى يهب عادة من الصحراء المتاخمة، تأثير مدهش فى صحتهم ونفسيتهم.

فى صباح يوم رحيلنا ؛ أقبل عدد من شباب البدو، حسنو الملبس إلى قرب خيمتنا وكانوا أبناء شيخ القرية النائية. ترجلوا عن ظهور مطاياهم وظلوا يحومون حولنا ما يقرب من ساعة زمن، ثم أخيرا اعترفوا لواحد من جماعتنا أنهم قطعوا عدة أميال على أمل أن يحظوا برؤية وجوه بعض النساء الأوربيات اللاتى، كما سمعوا، يقضين بعض الأيام عند الأهرام، ولقد أصيبوا بخيبة أمل حينما لم يجدوا سوى نساء محجبات. ويبدو أنه منذ بضعة أسابيع مضت، حظى هؤلاء الشباب ذاتهم بمتعة مشاهدة سيدة أمريكيه آية فى الجمال وهى تجوب أرجاء مصر. سأل صديق لنا عن رأيهم فى هذه المرأة فقالوا إن منظرها كان «ممتازا» وصاح أحد الشباب :«السيف ! السيف ! لو جرؤنا على استخدامه، لكنّا قتلنا الرجل»

مشيرين إلى رفيق السيدة، «سواء أكان زوجها أم أخاها، ولكنا استولينا عليها لأنفسنا». مما يُؤمن ترحال الجميلات من النساء في الشرق، أن الحكومة الحالية تُخضع وتُسيطر على هؤلاء الأعراب الذين لا قانون لهم.



الرســـالة

الثالثة والعشرون

الحمام العمومي

آبريل ١٨٤٤

صديقتى العزيزة،

لم أكن أتوقع حينما وعدتك بوصف الحمّام أننى سوف أجد متعة فى هذا الموضوع. وحسبما يظن الآخرون، أعترف بأننى أجد سعادة كبيرة جدا فى عملية الاستحمام ذاتها على الطريقة الشرقية، كما أجدها مفيدة للغاية لإزالة الشعور بالكسل الذى يسببه الطقس. ويتبع الاستحمام أولا إحساس بالإرهاق لا يلبث أن يزول فيشعر المرء براحة وسكينة تامة قد تماثل عملية الاستحمام ذاتها.

بالنسبة للأبنية التى تحوى الحمامات، فطرازها واحد تقريبا ومتشابهة فى مظهرها؛ الواجهة



حمام تركى للحريم بريشة كاميل روجيه ١٨٤٠

مزركشة بالأحمر والأبيض والداخل يتكون من عدة غرف أرضها مرصوفة بالرخام. وسوف أصف لك بطريقة مقتضبة واحدة من أفضل هذه الحمامات فى القاهرة، قمت بزيارتها مع ثلاث سيدات من معارفى، إنجليزية وحبشية وسورية.

بعد أن سرنا فى ممرين، وجدنا أنفسنا فى أول بهو فسيح، أو غرفة للاستراحة حيث تخلع المستحمات أرديتهن قبل الدخول إلى الغرف الساخنة، و هو المكان ذاته الذى يرتدين فيه ملابسهن بعد الاستحمام ويسترخين على مصطبة أو مقعد طويل عريض مرتفع من الرخام غطي بالحصر والسجاد؛ توجد فى وسط البهو نافورة من الماء البارد، تعلوها قبة. أحيلك هنا إلى وصف أخى المفصل عن الحمامات العامة فى القاهرة وأقتصر على سرد المناظر التى صادفتنى فى المناسبة التى ذكرتها.

فى البهو الأول اشتملت كل منا بقطعة واسعة وطويلة جدا من القماش، ثم مررنا بغرفة معتدلة التدفئة إلى البهو الرئيسى الداخلى حيث كانت الحرارة شديدة جدا. وهذا البهو على شكل صليب ذى أربع حنايا تعلو كل منها و كذا المنطقة الوسطى قبة، والأرض مرصوفة برخام أبيض وأسود يتخلله، بطريقة فنية بديعة الصنع، قطع صغيرة من الآجر الأحمر الجميل. فى الوسط، نافورة من الماء الساخن تنبعث من وسط مصطبة عالية من الرخام تسمح بجلوس عديد من الناس. وترتفع أرض كل حنية بضع بوصات عن الجزء الأوسط من البهو؛ كما يوجد فى إحداها مغطس يصب فيه بطريقة مستمرة، ماء ساخن من أنبوبة فى سقف القبة التى تعلوها، والبهو كله معبأ بالبخار.

يواجهنا عند دخول هذا البهو، منظر يعجز عنه كل وصف. كانت رفيقاتى قد هيأننى أن أتوقع رؤية أشخاص كثيرين مجردين من الثياب؛ ولكن تخيلى دهشتى حينما وجدت ثلاثين امرأة على أقل، من كافة الأعمار وكثيرا من الفتيات والأطفال، عاريات تماما. سوف يصعب عليك أن تتخيلى أنه لم يكن هناك أحد سوانا يرتدى أى قطعة من الملابس. نساء من كل لون، زنجيات ببشرتهن السوداء اللامعة وذوات البشرة ناصعة البياض، خليط عجيب، اجتمعن فى حلقات يتجاذبن أطراف الحديث بكل بساطة وعدم اكتراث وكأنهن بكامل بزتهن، بينما

أخريات يتجولن أو يجلسن حول النافورة. لا يمكننى أن أصف الحمام بأنه منظر جميل؛ فى الواقع أجده إلى حد ما مقززا وإنى أتحسر أنه يتعذر الوصول إلى الغرف الخاصة فى أى من الحمامات، إلا عن طريق البهو العام الكبير.

أتحول الآن إلى موضوع أكثر طرافة، ألا وهو عملية الاستحمام ذاتها وهى متعة حقيقية. صحيح أن الشعور الذى ينتاب المرء لحظة دخول الغرفة الحارة، يكاد يكون طاغيا - فالسخونة شديدة الوطأة، وقد ظننت أولا أننى لن أستطيع تحملها طويلا؛ ولكن بعد الدقيقة الأولى، أراحنى عرق طفيف، تبعه عرق غزير فلم أشعر بعد ذلك بأى ضيق. من الضرورى أن ترسل كل سيدة إلى الحمام ما تحتاجه من أردية وقباقيب وإناء نحاسى كبير للماء الساخن وطاستين من النحاس وبعض المناشف.

إن أول عملية، هى عبارة عن تكبيس رقيق للجسد، يتبعها طقطقة مفاصل من ترغب فى ذلك؛ وأعترف أننى رفضت الامتثال لمثل هذا العذاب. تمتثل بعد ذلك بعض بنات البلد للحك بمسحل و تستخدم التابعات لهذا مسحلان من نوعين مختلفين أحدهما خشن للأقدام وآخر ناعم للجسد؛ ولكننى لا أستحسن النوعين بل أفضل كيسا صغيرا من الصوف الخشن توضع فيه اليد. بعد هذا يغطى الوجه والرأس برغوة سميكة تنتج من فرك قطعة من الصابون فى حفنة من ليف شجر النخيل وتسمى «ليفة» وهى تبدو مثل المطاط الناعم وملمسها مريح جدا. يبدو مضحكا جدا رؤية شخص يمتثل لمثل هذه العملية. بعد أن يرغى الوجه والرأس جيدا وبعد أن يزال الصابون تماما بكمية غزيرة من الماء الساخن، يظن غير المجرب أنهما قد نظفا بما فيه الكفاية، ولكن ليست هذه هى الحال، إذ يقتضى الأمر الترغية بالصابون والشطف بالماء مرتين أو ثلاثا قبل أن تقتنع التابعة بأنها قد أنجزت مهمتها فيما يخص الوجه والرأس. يتبع ذلك أمتع جزء فى العملية كلها وهو التصبين والفرك وتقوم بهما إحدى التابعات برقة متناهية وبطريقة غاية فى اللطف تجعلهما متعة حقا؛ وأعتقد أن الطريقة الشرقية فى الاستحمام صحية جدا بدليل تأثيرها الجيد الفعّال فى الجلد.

بعد أن تمت العملية، لُفت حولى قطعة من القماش الجاف تشبه إزار الحمام،

وأخذت إلى حجرة الاستراحة حيث تم تجفيفى ومساعدتى على ارتداء ملابسى ثم تركتُ لأستريح وأتناول بعض المرطبات ولأفكر فى المناظر الغريبة التى شاهدتها. كنت أتمنى أن أستطيع القول إن التمتع بلذة الرفاهية التى قمت بوصفها تخلو من المنغصات؛ ولكن كى تستطيع امرأة انجليزية أن تشعر بسعادة فى حمام عمومى بمصر، عليها أن تغلق عينيها وتصم أذنيها؛ فبجانب المناظر الغريبة التى لا بد أن تخدش إحساسها باللياقة والحشمة، هناك صراخ الأطفال المستمر الذى يصم الآذان. ولهذا فإن متعة الحمام الشرقى لا تتم إلا فى حمام خاص وبمساعدة «بلانة» متمرنة.



الرســـالة الرابعة والعشرون

حريم الباشا بالقلعة

إبريل ١٨٤٤

صديقتى العزيزة،

أذكر أنى كتبت لك بسذاجة أنى ظننت أن لمحمد على باشا زوجتين فقط ؛ كان هذا قبل مقابلتى بالقلعة لإحدى زوجاته الأخريات، والدة حليم بك ؛ وأعتقد أنه لا تزال هناك أخرى ليكتمل العدد أربع زوجات كما هو مُصرح به فى الإسلام.

الذهاب إلى القلعة ليس مريحا، وفى هذا الوقت بالذات يحف الصعود بعض الخطر نظرا لأن الباشا قد أوصى بإصلاح الشارع الآتى من باب الوزير، و نتيجة لذلك تعترض الطريق أكوام من الحجارة و الأنقاض. لقد فضلت هذا الطريق لأنه

غير مرصوف والتجربة علمتني أن أخشى مدخل البوابة الكبيرة المرصوف الزلق، خصوصا وأنا ممتطية ظهر «الحمار العالي». ومع إني كنت أخشى أن أتعثر في ركوبي على الأنقاض إلا أنه لم يفتني أن ألاحظ ضخامة حجم بعض الأحجار التي وقعت من حائط قديم و تشبه إلى حد كبير الحجارة المبعثرة حول الأهرامات وذلك يجعلني لا أشك في أنها من بعض ما نقله قراقوش عند بنائه للقلعة.

القصر المخصص في القلعة لحريم الباشا منيف وفخم، وهو أجمل بناء سكني خاص رأيته في مصر؛ نظامه الداخلي على النمط التركي المعتاد، بالطابق الأرضي قاعة استقبال واسعة مرصوفة بالرخام الأبيض المائل إلى الزرقة، كما يحيط بها أجنحة من غرف تنفتح فيها؛ وحجرات الطابق الأول على النمط نفسه. مررت بمصاحبة صديقتي مسز ليدر من المدخل الرئيسي إلى فناء مربع واسع، اجتزناه ووجدنا نفسينا في قاعة الاستقبال السفلي؛ صعدنا درجات سلم رخامي ضخم إلى قاعة الاستقبال العليا بالطابق الأول. وهنا تفجر أمام ناظرينا مشهد غاية في الروعة: هناك ثلاث نوافذ مواجهة لرأس السلم تشرف على القاهرة و على السهل

من ورائها ؛ كان فى متناول بصرنا وتحت نظرنا المبهور، كافة المناطق الهامة فى شمال وغرب القاهرة باختلافاتها الطريفة، منتهية من جهة الشمال ببساط الدلتا الأخضر وسهل الجيزة. كنت أتمنى أن أتلكأ بعض الوقت، ولكن الوصيفات المرافقات لنا، كن على عجل لاصطحابنا إلى حضرة السيدة الأولى.

وجدناها جالسة فى غرفة يكسوها السجاد ومحاطة بديوان، و فى معيتها ثلاث سيدات. قابلتنا بكل احترام و ترحاب كما أدهشنى تلطفها الشديد معنا فى الحديث والمعاملة، خصوصا وأنى أعلم ما لها من سمعة فى الكبر الزائد والغطرسة. حدثتنى بكل بساطة عن أولادى، وأخبرتنى أن ابنها دون العشرين من عمره، ثم لفتت نظرى إلى فتاتين صغيرتين لطيفتين من أولاد الحريم، وقدمت لى إحداهن باقة من الأزهار. إن من أحب موضوعات الحديث فى أى حريم ما يتعلق بعدد أبناء كل سيدة وصحتهم وعمرهم، وهوحديث يعجب كل أم. ولقد سألتنى سيدة بكل جدّية إن كان أحد أبنائى، البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما، متزوجا! استنتجت أنها تعنى «خاطبا»، حيث إن الكلمة نفسها تستخدم بمعنى الزواج والخطوبة. شرحت لها أن الصبى فى إنجلترا لا بد أن يصبح رجلا قبل التفكير فى الزواج أو فى الخطبة؛ وأن زواج الفتى فى سن العشرين والفتاة فى الخامسة عشرة يعتبر مبكرا جدا. كانت السيدة التى أخاطبها وزميلتها، ينصتان إلىَّ بكل اهتمام، وعلقت إحداهما بجد أن الإنجليز محقون فى اعتراضهم على الزواج المبكر مثلما يحدث باستمرار فى الشرق.

فيما يخص درجة الجمال فى هذا الحريم، لا يمكننى أن أقول سوى أن واحدة كانت ملفتة جدا؛ وكذلك المصاغ الذى رأيته هناك لم يكن مما يستحق الذكر الخاص باستثناء عقود اللؤلؤ التى كانت ترتديها السيدة الأولى وسيدتان أخريان إذ كانت تتكون من أكبر اللآلئ التى رأيتها فى حياتى وتحيط بالعنق بإحكام. عند مغادرة هذا الحريم، اقتادتنى الوصيفات بنوع من المراسم التى لم يسبق أن وصفتها وهى أن يمسكن بالحبرة من طرفيها من خلفى وأنا أعبر قاعتى الاستقبال، إلى أن وصلتُ إلى ساتر الحريم. كانت هؤلاء الوصيفات يقلدن سيداتهن ويتبارين فى إظهار الاهتمام اللائق بنا؛ كما أن جميع من فى حريم القلعة كانت تبدو على

وجوههن السعادة التامة.

قيل لى إنه لم تطأ قدم أى من الفرنجة هذا الحريم من قبل، وأظن أن هذه هى الحال بالفعل؛ ولكن هناك جزءا من البناء ذاته له مدخل من الجانب الآخر، أعد خصيصا للباشا على النمط الأوربى و هذا الجزء كثيرا ما دخله الرحّالة. منذ فترة وجيزة عرضت بعض السيدات الأوربيات مبلغ عشرين دولارا للسماح لهن بالدخول ولكن رفض طلبهن. لم أقدم أنا أى رشوة، فأنا لا أتنازل للخدم لأدخل أى حريم و زياراتى كلها، إما عن طريق صديقتى العزيزة مسز ليدر أو بدون أى لجوء إلى الجوارى، ولم يصادفنى أبدا أى اعتراض. ولكن عند الخروج، يقتضى الأمر إعطاء منحة لرئيس الأغوات أو حارس الباب.

بعد القيام بهذه الزيارة، مررت بصديقاتى القدامى، حريم حبيب أفندي؛ أعترف بأنى شعرت ببعض التوجس وخشيت أن ألاقى بدلا من الترحيب الحار الذى اعتدت عليه، مقابلة فاترة نظرا للظروف الحالية. فلقد طلبت إنجلترا وفرنسا من السلطان مؤخرا امتيازا يتمناه بشدّة كل مسيحى، ولا يمكنه كحاكم مسلم، منحه بأى حال من الأحوال؛ وحيث أن نتيجة المفاوضات لم تُعرف بعد، كان من المريح جدا لمشاعرنا ونحن نقوم بزيارة أقاربه أن نجد الأسرة بأكملها ترحب بنا بأكثر من حفاوتها المعتادة. و نظرا لأن سيدات هذا الحريم لهن دراية خاصة بالأحداث الجارية، فإن الحديث أثناء الزيارة يكون دائما جزلا طليا، وغالبا ما يدور حول الأمور السياسية؛ لهذا بمجرد أن اتخذنا مجلسنا أمس، نوقشت الأحداث الجارية وما لبثنا أن طرقنا موضوع الحرية فى المسائل الدينية. وهنا أجد نفسى مضطرة أن أستطرد فى الكلام لأذكر لك شيئا أعجبت به جدا. فبينما كنت أحدث السيدة الجالسة بجوارى، أدركنا أن الجمع كله، الذى ضم بنات الأسرة وعديدا من الضيوف، يقمن فجأة، ولتونا فعلنا مثلهن، حينئذ لاحظت أن السيدة الأولى قد دخلت الغرفة. سعدت جدا لظاهرة الاحترام هذه تجاه الوالدين التى لا تقتصر، كما فى انجلترا، على بعض أسر العظماء فقط خاصة حينما تكون مصحوبة بتعلق شديد نابع من القلب كما كان واضحا من سلوك بنات حبيب أفندى. إن احترامهن تام لوالدتهن الفاضلة كما أنها تسمح لهن، فى حديثهن

وتصرفاتهن، بالدلال والألفة دون أى تكلف.

حيّتنا هذه السيدة بطريقتها المعتادة الساحرة واتخذت مجلسها، وأقعدتنى. كما تفعل دائما، على يمينها؛ ثم عادت كل واحدة إلى مكانها واستؤنف الحديث وهى تنصت إليه بكل اهتمام، وكانت بناتها يقمن بترجمة ما نقول إلى التركية. ومحصول زوجة حبيب أفندى من اللغة العربية كمثيلاتها من السيدات التركيات اللاتى قابلتهن فى هذا البلد، يكفى للأحاديث العادية، ولكن حينما يدور نقاش حول موضوع ذى طرافة خاصة، فإنهن يفضلن أن يكون الشرح بلغتهن.

طلبت الابنة الكبرى أن نوضح لها طبيعة ما طلبته انجلترا وفرنسا من السلطان؛ وحين شرحنا لها أن المسألة تخص حماية المسيحيين، الذين أسلموا ثم ارتدوا عن الإسلام إلى دينهم الأصلى، من الحدِّ، قالت بجدية أعجبتنا جدا «إن هذا تحقيق لنبوءة سمعتها حينما كنت طفلة صغيرة، قيل لى إنه فى هذه السنة بالذات سوف تبدأ أحداث جسام تدوم لمدة ثلاثة أعوام».

حقا لقد قدمت تفسيرا جميلا لظروف مفعمة بمشاعر مؤلمة، خاصة بالنسبة لشخص مرتبط مثلها أشد الارتباط بدينه. وهنا أذكر بكل صدق أننى لم أقابل مثل تلك السيدة من حيث الرقة واللطف و الحصافة بالاضافة إلى العقل الراجح المثقف، فى أى مجتمع شرقى آخر. ولقد جاء ذكرها بكل إجلال فى كتاب مسز ديمر «يوميات» حيث أثنت بصفة خاصة على عطفها وحبها لأمها. ولا يفوتنى أن أذكر اهتمام الحريم كله بكتاب مسز ديمر(*). كنَّ يعلمن أنها وصفتهن وطلبن منا مزيدا من المعلومات بهذا الصدد. أكدنا لهن بكل سرور أن السيدة تصف فى كتابها سلوكهن الرفيع وأدبهن الجم و ما لقيته عندهن من ترحاب فياض. أردن أن يعرفن بالضبط زمن زيارتها لهن ليتذكرن شكلها. هؤلاء السيدات فى عزلتهن، يذكرن زيارات الأوربيات لهن كأحقاب يؤرخ بها فى حياتهن؛ وأنا متأكدة أنهن فعلا يشعرن بالسعادة التى يفصحن عنها بلطف شديد حينما نكون فى زيارتهن.

(*) Damer, G.L. (Mrs.) Diary of a Tour in Greece, Turkey and Egpyt. London 1841.

عرضت عليهن مسز ليدر صورة للسلطان الحالى فى كتاب مسز ديمر ؛ وقامت الابنة الكبرى بعمل نسخة منها بالألوان ، وهذا عمل مُشرِّف بالنسبة لسيدة تركية . لا شك فى أنها سوف تكون محط اهتمام كبير لدى كافة زوار الأسرة و إن لم تحفظ بالزجاج ، فإن القُبل سوف تقضى عليها تماما فى بحربضعة أسابيع مثلما حدث ، كما سمعت قريبا ، لمنمنمة لأحد عظماء الأتراك .



الرســـالة
الخامسة والعشرون

الحجاب والزواج

يناير ١٨٤٥

بعد إقامة ما يقرب من ثلاث سنوات فى بلد شرقى مع الاختلاط الدائم الودى بسيدات الطبقتين الوسطى والعليا من الأهالى، أشعر بأنى قادرة على إبداء بعض الأفكارالعامة عن أحوالهن الاجتماعية والأخلاقية، وهذه مهمة صعبة جدا مع أننى أتمتع بفرص للملاحظة قلما تسنح إلا لقلة من الإنجليزيات. لقد حاولت أن أتجنب أى نوع من التحامل فى الحكم على آثار الوضع الشاذ الذى تتحمله المرأة هنا، ولكنه من المستحيل أن أتناسى قيم اللياقة الإنجليزية التى لدينا؛ لذلك أجد نفسى لا أستطيع أن أتفادى المقارنة، مع إدراكى التام أن لكل مجتمع فى العالم عيوبه.

من الأشياء الكثيرة المحيِّرة التى تسود العالم

الإسلامى هو ، عادة التمسك بالحجاب ليس بالنسبة للمسلمات فقط ، بل أيضا بين المسيحيات الشرقيات ، و إن هذا التقليد كان متبعا ومقبولا لدى أجيال السابقين الذين نشأنا منذ نعومة أظافرنا على أن نكن لهم كل احترام وتبجيل . فنظام الحريم يمكن تتبعه إلى زمن إبراهيم (عليه السلام) ، ولكن لا يمكننا ، على ما أظن أن نحدد فى أى وقت بدأ ، كما يبدو أن النظام المتّبع أيام إبراهيم كان أقرب للنظام السائد الآن بين أعراب البادية و أقل صرامة من الممارس بين العرب وغيرهم من المسلمين المقيمين فى مساكن مستديمة فى المدن والقرى . نجد رِفْقَة مثلا ، لم تغط وجهها ، وهى تخاطب مولى إبراهيم « كبير بيته »[1] ؛ ولكن حينما ظهرت أمام الرجل الذى اختير لها بعلا ، «أخذت البرقع وتغطت[2]» . وبالطريقة نفسها ، نجد نساء البدو

(١) سفر التكوين ٢٤ - ٢ .

(٢) سفر التكوين ٢٤ - ٦٥ .

يهملن عادة تغطية وجوههن أمام الخدم ومن تربطهن بهم أواصر الألفة، بل قد نجد الكثيرات منهن لا يتحرجن من مقابلة الغرباء دون حجاب. كذلك حينما قدم أبرام (إبراهيم) قبل الحادثة المذكورة أعلاه، إلى مصر مع زوجته «أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون. فأخذت المرأة إلى بيت فرعون»(٣). بعد ذلك رآها أيضا أبيمالك، وأخذها(٤).

من المرجح أن نظام الحريم لم يسد في هذا الوقت إلا بين الشعوب السامية، وبطريقة غير صارمة، إذ لا نجد ما يدل على وجوده في التماثيل و الرسومات التي تصور مناظر الحياة الأسرية على الآثار المصرية القديمة التي سبق بعضها في القدم عصر إبراهيم؛ بل على النقيض، نجد هناك الدليل على مجتمع تسود فيه حرية تامة بالنسبة للاختلاط بين الجنسين مثل التي تسود حاليا في أوربا. هل يعني هذا أن أخلاق قدماء المصريين كانت أسمى وأرقى مع الحرية التي تمتعت بها المرأة، من أخلاق الشعوب الأخرى المعاصرة حيث ساد الحجاب بين نسائها ؟ إن معلوماتي تشير إلى عكس ذلك، وإن هناك مناظر بيِّنة واضحة للعيان على جدران معابد ومقابر وادي النيل، تدل على انحلال مزر، أو على الأقل تظهر عدم مراعاة كلا الجنسين لمشاعر الآخر. ولكني واثقة من أن هذا الخروج أو النقص في مراعاة آداب السلوك لدى قدماء المصريين ليس بسبب ما أعطي للمرأة من حرية؛ كما أؤكد أن النساء العفيفات أعم بكثير في أوربا المسيحية منهن في الحريم الشرقي. ومن الواضح أنه إذا كان لدى امرأة ميل إلى الإباحية في الملفظ أو المسلك فإن الاختلاط بالرجال في المجتمع قد يوقفها عند حدِّها، في حين أنها دون شك سوف تتمادى إذا حجبت عنهم. والنساء الشرقيات فضليات بطبيعتهن، ولكنهن تعودن فيما بينهن استخدام أسلوب في الحديث يبدو لنا غاية في الابتذال يستعملنه بكل بساطة حتى في حضرة الرجال، وهذا في اعتقادي هو من أسوأ آثار نظام الحريم.

لا تظني أن كلامي هذا محاولة للتعميم وحل الصعوبات المحيِّرة الذي يشكلها هذا النظام العجيب. في الواقع لقد انتابتني الرغبة أحيانا في أن أقدم صورة عامة

---

(٣) سفر التكوين ١٢-١٥.

(٤) سفر التكوين ٢٠-٢.

لحياة الأسر الشرقية وبالطبع ستكون أغلب الشخصيات التى تبدو فيها نسائية، ولكن يجب أن أقاوم مثل هذه الرغبة لثقتى فى أنها ستكون محاولة فاشلة؛ قد يبدو هذا تواضعا منى، ولكنه ليس كذلك إطلاقا لأنى أعتقد أنه من المستحيل أن يقوم أحد بمثل هذا العمل، ويُرضى به نفسه أو غيره. ولهذا سوف أقنع بعرض بعض النماذج الصغيرة المفرقة، وأتركك تتسلين بجمعها ومحاولة إبراز صورة كبيرة متكاملة. سوف تجدينها مثل خريطة مجزأة، لعب بها طفل شقى بطريقة عشوائية وفقد العديد من أجزائها، فبعضها يمكن ضمها إلى بعض بسهولة، وبعضها من جهة واحدة فقط فى حين لا يمكن ضم بعضها الآخر إلا بطريقة غير صحيحة بوضعها مقلوبة رأسا على عقب؛ وزيادة فى التسلية، سوف أبعثر القطع بدون أى نوع من النظام.

هناك عامل هام يجب وضعه نصب العينين عند النظر إلى حالة المجتمع الشرقى فيما يخص الزواج وهو التشابه الشديد فى طرق تفكير الناس، الرجال منهم والنساء. إن الاختيار فى أوربا يعتمد على عدة أسباب – فالمرأة تفضل رجلا على آخر، لطريقة معينة فى تفكيره أو لآرائه الدينية أو لأخلاقه، وكثيرا ما تكون آراؤه السياسية مدعاة للوفاق أو الخلاف؛ وقد يجذبه إليها، أو ينفرها منه، حبه للمعرفة و متابعة الأبحاث العلمية، أو موهبة خاصة لديه فى مجال الفن، أو ملكة معينة يتابعها. كل هذه، أسباب للقبول أو الرفض فى أوربا، ولكن لا مجال لها فى الشرق. هناك فى الواقع بعض الرجال الشرقيين المثقفين ممن تعلم فى أوربا، ولكنهم لا يحاولون أبدا تثقيف أسرهم بل إن معظمهم باستثناء قلة قليلة، لا يرغبون فى أن تتعلم نساؤهم، و على هذا، لا يوجد مجال لمناقشة أفكار اكتسبوها فى الخارج. و يبدو لى أن العروس تكون راضية إذا وجدت أن زوجها الشرقى شاب، حسن المظهر، دمث الأخلاق إذ إنها تثق تماما فى حسن اختيار والديها أو المسؤولين عنها وأنهم لن يرضوا برفيق لا يوافقها فى آرائه الدينية ونظرته العامة للحياة. ومن المطمئن أن هناك حالات ليست بالقليلة نرى فيها الزوجة الشرقية من اللاتى وفقن فى زواجهن، يغدقن حبهن على أزواجهن بإخلاص لا يضاهى كما ينلن منهم كل دلائل الحب الصادق العطوف. باستطاعتى أن أقدم عدة أمثلة لمثل هذه الأسر السعيدة من بين معارفى ولكنها كلها متشابهة فى أحوالها.

هناك من بين معارفي، إحدى نساء هذه المدينة، ظلت لأكثر من ثلاثين عاما زوجة لرجل واحد، وهو زوجها الأول والوحيد، وأجد في بيتهم الكثير مما يروقني وأعجب به. يبدو أن زوجها شخص يتميز بكرم شديد وبصفات أخرى حميدة فبالرغم من أن دخله ضئيل،إلا أن بيته ملاذ لكل محتاج، ليس لجمهرة من الأقارب الفقراء فقط، لكن أيضا للكلاب والقطط الضالة التي يطعمها ليس من فضلات مائدته فقط، بل يشترى لها خصيصا أكواما من الخبز. كما أن من أفضل خصال زوجته إخلاصها وحبها لأهله فحينما كانت والدته على قيد الحياة كانت تعتبرها والدة لها، وتعاملها على هذا الأساس وكما هى العادة في الشرق (عادة أكن لها أعظم تقدير وتجعلني أغض الطرف عن عيوب كثيرة لدى النساء الشرقيات)، كانت الزوجة تعتبر الأم دائما ربة للبيت.

مثل آخر أذكره عن سيدة تركية من علية القوم تزوجت منذ عدة سنوات أحد أبناء جنسها يشغل منصبا مرموقا. كان يمتلك ما يقرب من عشر جوار بيض، أصبحن وصيفات لزوجته وعديد من الجوارى السود للخدمات الوضيعة. ظلت هذه السيدة زوجة وحيدة وأما لعدة أبناء، و احتفظت بمكانتها الرئيسية فى الحريم وفى قلب زوجها. ومع أن عديدا من الجوارى البيض أصبحن محظيات لسيدهن، إلا أنه لم يتخذ زوجة ثانية، ولا أظن أن السيدة خالجها فى يوم ما أى شعور بالغيرة، وفى الواقع لا يصح لزوجة شرقية أن تفصح عن مثل هذه الهواجس طالما لديها الحظوة الكبرى. فى مثل هذه الحالات حينما تتجاوب امرأة ودودة مع عواطف زوج فاضل، يصبح حريمهما بالنسبة لها جنة، إذ لا حاجة لها سوى صحبة أهلها وزوجها وأبنائها ولا رغبة لها فى أى تسلية سوى بعض الحفلات الجميلة الساحرة التى تقام في منزلها. لا تتعجبى حينما أصف رجلا له محظيات بأنه زوج فاضل، إنما أقصد بذلك أنه فاضل بالمقارنة بغيره. فحينما أجد من يفوق فى سلوكه وأسلوبه العام وأخلاقه باقى أقرانه، أشعر بالأسى لما يحدث من رذائل نتيجة لتربية خاطئة، و أتحسر للخطايا التى ليس لها قانون يمنعها. من المؤكد أنه لا يمكن أن يحدث أى إصلاح جذرى فى نظام الحريم أو فى أخلاقيات الشرق عامة إلا إذا جاءت الاستنارة بنور الحق من الإنجيل؛ ويخيل لى أنه لن يحدث أى تغيير فعّال إلا بعد مئات السنين، إذ إن معتقدات القوم راسخة بشدة، وعادات الحجاب لها جذور

عميقة جدا.

قد تتساءلين كيف يمكننى أن أجزم بأن هذه الأسر وغيرها سعيدة. وردى هو أن أهل هذا البلد لا يخفون تعاستهم الأسرية، بل يرهقون أصدقاءهم ومعارفهم بشكواهم إذا كان هناك مدعاة للشكوى. وهذا يقودنى لذكر ما هو فعلا غريب جدا، وهو أن الزوج الشرقى الذى يظن أن امرأته تخونه، يندب فضيحته وتعاسة حظه بين الملأ من جيرانه بل و بين الغرباء أيضا، كما يفعل أقارب الطرفين الشئ نفسه، حتى إن كان هذا السلوك قد يؤدى إلى الطلاق أو إلى القضاء على حياة المتهمة. كما يبدو أن الزوجة أيضا، تحرص على إعلان الشبهة أو الاتهام البذيء الذى يوجه إليها بين الملأ. ومنذ بضعة أيام سمعنا صراخ امرأة من نافذة بيت مجاور لنا، «يا ناس ! يا مسلمين ! اسمعوا ما يقوله هذا الرجل الناقص زوجي الذى عاشرته سنين طوال وأنجبت له الأبناء، اسمعوا ما يقوله عني!» تلا ذلك بأسلوب غير رقيق وصف للتهمة التى وجهها إليها، فى حين اكتفى هو بأن يقاطعها بقوله إن القاضى سوف يمنحها حريتها عن قريب.

ليس من المستبعد فى الطبقات الوسطى والسفلى أن يخطب الرجل لنفسه طفلة صغيرة؛ وكثيرا ما يحدث أن ترفض الطفلة قبوله زوجا لها حينما تراه. فى مثل هذه الحالة، يرغم الرجل، بحكم القانون إما أن يطلق الفتاة أو يقوم بالإنفاق عليها لفترة محدودة قد تقصر أو تطول حسب الظروف؛ فى بعض الأحيان يستمر هذا الوضع لعدة سنوات حسب رغبة الخاطب و مزاج الفتاة. وتعتبر هذه فترة تجربة يسمح فيها للزوج المرتقب بزيارتها فى حضرة والديها أوالوصى عليها. ولها مطلق الحرية فى إبداء رغبتها، وأحيانا تفصح عن ميل نحو مريدها، يزداد مع مرور الوقت، خصوصا إذا تمكن أن يكسب ودها بهدايا من المجوهرات أو الحلوى حسب إمكانياته.

إن حياة المرأة المصرية عجيبة حقا، خصوصا فى الطبقات الدنيا ! وهناك تشابه كبير فى الحياة الأولى لجميع الفتيات فى هذا المحيط، ويكفى أن أسرد قصة إحداهن كمثل عام. لقد فقدت والديها فى سن مبكرة من طفولتها، وانتقلت لرعاية أخت غير شقيقة والشرق مفعم بمثل هذا النوع من القرابات. وحينما بلغت الثالثة

عشرة من عمرها، زُوجت لرجل يكبرها بكثير، وعاشت معه مدة سنتين في تعاسة مستمرة جعلت الرجل، في نهاية هذه المدة، يطلقها حسب رغبتها. وهكذا، نجدها في سن الخامسة عشرة تبحث عن زوج آخر؛ وبما أنها كانت مليحة وذات قوام رشيق فسرعان ما جذبت أنظار عديد من الرجال، ولكنها أبدت ميلا نحو شاب تقدم لخطبتها وكان قد تربى عند الأخت غير الشقيقة التي سبق أن ذكرتها. كان قبيح المظهر، متعجرفا، ذا مزاج حاد لا سيطرة له عليه، ونظرا لهذه الظروف غير الملائمة رفضت الأخت الكبرى بطبيعة الحال خطبته. ولكن بعد انتهاء فترة عدة المطلقة حسب الشريعة الإسلامية، انتهز العاشقان فرصة غياب الأخت الكبرى عن المنزل لعدة أيام وعند رجوعها وجدتهما زوجين. وبالرغم من أن الزواج هنا ليس رباطا دائما لا يحل، كما هو واضح، إلا أنه خطوة جادة وحاسمة، وسرعان ما وجدت الطفلة البائسة نفسها في تعاسة قلما نفهمها في انجلترا. كانت الحال لا بأس بها لفترة قصيرة، فقد استأجر الزوج مقهى وكان حينما يرجع إلى البيت يعطيها قرشين كل يوم، ولكنه بدأ يهملها تدريجيا ولا يعطيها شيئا للمعيشة؛ وبعد نهاية عامين و عقب وفاة طفلهما الوحيد مباشرة، هجرها. كان هذا منذ سنة، وعمر الفتاة سبعة عشر عاما.

وكان هناك شاب آخر، أولع بالفتاة منذ بضعة أشهر حينما منحته عدة فرص لرؤيتها سافرة دون حجاب. تقدم لها بجرأة، وعرض عليها الزواج مؤكدا أن باستطاعته إقناع زوجها (إن استطاع أن يجده) أن يطلقها مقابل مقدار من المال. قبلت عرضه ببعض الاهتمام، ولكنها لم توافقه على رشوة زوجها. حاول العاشق أن يكتسب ودها بأن يقدم لها الهدايا من آن لآخر، وكانت هي تتنازل وتقبلها، و ظلت الحال على هذا النحو لمدة شهر حينما ظهر الزوج فجأة وبدون سابق إنذار. لم يكد يمضي ليلة في منزله حتى أبلغه صديق كريم بأنه رجل مخدوع، ودله على غريمه المعجب بزوجته. لا جدال أن تصرفها كان مستهترا و غير لائق، ولكن يبدو أن قلبها كان لا يزال ينبض بالإخلاص لزوجها وأنها خضعت فقط للمنافس الوسيم بسبب الهجر القاسي الذي تعرضت له. ولكن بعد رجوعه، و رغم أنني لم أسمع أنه أبدى أي سبب لتصرفه، إلا أن وجوده معها كان كافيا فحبها له كان يفوق كل شيء في العالم بأسره. ظل لعدة أسابيع يسيء معاملتها ويقسو عليها

بلا رحمة، وهى تؤكد له دون جدوى أنها تفضله هو دون غيره؛ لم يكف هو وأسرته عن سبها حتى طفح بها الكيل ذات يوم وأجابت بحدة على لعناته، كان جزاؤها الضرب المبرح الذى جعلها تهرع من منزلها وتطلب النجدة عندنا.

ظننت آن اللعين قد تجاوز حد المغفرة، ولكن ظنى خاب: فى اليوم التالى رجعت إليه، ولم تطلب منه سوى أن يعد بأن يكف عن العنف ثانية. ولكن هذا الإخلاص من جانبها لم يلق استجابة من ناحيته، بل ظل يتابع قسوته والإساءة إليها وأخيرا فى عنفوان هياجه صاح «أنت طالق». كانت هذه هى المرة الثالثة التى لفظ فيها بهذه الكلمة والطلاق بالثلاث من أكثر القوانين صرامة؛ فحسب الشريعة الإسلامية تكون الفتاة حرة. فى المرة الأولى أو الثانية يمكنه أن يراجعها، ولكن إذا عادت زوجة له بعد المرة الثالثة، تكون قد خالفت دينها وسببت لنفسها العار والفضيحة(*). كانت هذه فترة عذاب للمضطهد القاسى وندم أنه بفعله قد مهد لزوجته الشابة فرصة الزواج من غريمه البغيض. وبالطبع تقدم هذا، معتقدا أن الظروف مهدت له السبيل لتحقيق آماله؛ ولكن إخلاصها تغلب حينما رأت ما ألم بزوجها ولمست حزنه، فتخلت عن كل اعتبار سوى سعادته وتصدت لوابل السخط الذى انصب عليها من كل جانب، لعنة أختها ولوم معارفها وكما فعلت يوم زفافها، قدمت لزوجها كل قلبها. أخيرا أدرك أن لا غريم له فى حبها فقد أثبتت له ذلك بتضحيات لم يتمكن حتى هو من تجاهلها، ومنذ ذلك الوقت أصبح زوجا أفضل وربما أيضا إنسانا أفضل. صار يعطى لها قرشين كل يوم كما كان يفعل فى الماضى، وصار يحافظ على عمله ويبدى لزوجته نوعا من العطف والمراعاة.

لا شك فى أن موقف الفتاة كان سيبدو غريبا إن هى تزوجت الشاب المعجب بها (من وجهة نظرنا الإنجليزية) فإن معذبها الغيور كان سيقتفى أثرها وربما يهدد حياتها إذ أنه كان يحب الفتاة المسكينة حبا أنانيا، وكان هذا فى حد ذاته يزيد من ارتباطها به. ولكن ما هو أغرب بكثير أن بإمكان أى امرأة أن تتزوج لثالث أو رابع

(*) واضح أن المؤلفة لا تعرف التفصيلات الشرعية فى حالة رد المطلقة للمرة الثالثة.

مرة وربما أكثر من ذلك وقد تقابل كل يوم رجالا كانت تربطها بهم العلاقة نفسها. هناك عامل واحد فقط يمكنه تغيير هذا الوضع وهو، بل يجب أن يكون، إنتشار المسيحية(*).

(*) راجع ما ورد فى مقدمة المترجمة (صوفيا وبيئتها) عن الجو الدينى بإنجلترا فى ذلك الوقت.



الرســـالة السادسة والعشرون

بعض مشاكل الحريم العالي

مارس ١٨٤٥

هناك من أبناء بلدى من ينظر باستحسان إلى تعاليم الشريعة و العادات الخاصة بالزواج والفصل بين الجنسين السائدة هنا و فى البلاد الإسلامية الأخرى. أظن أن أخى (الذى لا ينتمى إلى الفريق المشار إليه أعلاه) قد ذكر أهم مزايا هذا النظام حيث يقول إن «المسلم يهتم بالتجارة، وهذا يؤدى إلى اتساع محيط معارفه من فئات مختلفة» ويضيف «إن العرف السائد بالنسبة للفصل بين الجنسين يساعده على حرية التعامل مع غيره دون اعتبار للتفاوت فى الثراء أو المركز، وبدون خوف من حدوث زيجات غير متكافئة. كما أن النساء مثل الرجال، يتمتعن بكامل حرية

التعامل مع بنات جنسهن»[٥] ولهذا ينعم القوم براحة بال منزلية، قلما نعرفها في الغرب؛ لا شك أنه من الممكن أن يقال الكثير دفاعا عن الشريعة الإسلامية والعادات. ولكن يبدو لي أن أي نفع قد ينجم عنها، لا يقارن بالضرر الفادح الناتج. فبالإضافة إلى أقبح الرذائل التي تجيزها الشريعة والعرف الإسلامي، وهو تعدد الزوجات بما يترتب عليه حتميا من سهولة الطلاق، هناك عدد لا يحصى من الأضرار المشابهة المؤسفة من أفظعها في نظري، الزواج المبكر للصبيان.

من المألوف أن نرى شابا لطيفا ذكيا، يبشر سلوكه وحديثه بمستقبل باهر، لا يكاد يصل إلى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره و عقله لا يزال نقيا لا تشوبه شائبة، وإذا بحريم والده ينهال عليه بالحديث عن الزواج، ونجد والدته بالذات تلح عليه بضرورة المبادرة بعقد قرانه. وبطبيعة الحال، يوافق الصبي،

(٥) انظر «المصريون المحدثون» تأليف إدوارد لين، ترجمة عدلي نور جـ١ ص ٢٢٥.

وتبهره فكرة الرجولة التى تسمح له باقتناء حريم خاص به، كيف لا يرضى ! يتم زواجه، وفى الحال ينحط، ويتغير طبعه، فيصبح أنانيا وشهوانيا. تُبذل كل المحاولات من وسائل الترف والرفاهية والمغريات لضمان اهتمامه الكلى بحريمه، وفى بعض الحالات وبعد انقضاء عدة سنوات، قد يفيق الضحية ليصبح زوجا صالحا، ولكن عادة ما يظل طول حياته عبدا للشهوات الجامحة. ولا يمكن تصور التغير فى القدرات الذهنية التى تتبع هذا، إذ سرعان ما نجد الصبى المتقد العقل، اللماح، يتحول إلى شخص غبى أبله، ولا يتحقق الأمل فى الرجل الذى كان يرجى من الصبى. من الغريب حقا أنه فى حين أن العرب سريعو التعلم بدرجة مذهلة إلا أن معظم أدبهم لا يقوم على الإبتكار ولكن يتكون من مختارات مجمعة. الموهبة قد تدوم ولكن قلما نجد العبقرية.

وعلى العموم فالصبية لا يرتبطون أبدا بمن هن أكبر منهم سنا (لا أعرف سوى حالة واحدة ارتبط فيها شاب بامرأة عجوز)؛ فى حين تعطى فتيات صغيرات كزوجات لشيوخ فى سن جدودهن، وتقبل هؤلاء الصغيرات الأزواج إرضاء لأهلهن الذين تم الاختيار على أيديهم. ولا داعى أن أذكر مدى البؤس والشقاء الذى ينتج عادة من هذه الزيجات. والمثل الذى ذكرته أعلاه (عن المرأة العجوز التى اقترنت بشاب يافع)، كانت شقيقة أحد النبلاء، وقد طلبت من أخيها أن يختار لها زوجا. وأظهر امتعاضا لهذا الطلب، ولكنها ألحت عليه حتى وافق، ثم أخبرها أنها لو كانت مُصرّة على الزواج، فيجب أن توافق على شخص معين ذكر لها اسمه. واعترضت على اختياره ربما لأن الرجل المذكور كان يصغرها كثيرا فى السن، ولكن الأخ أجاب بأنه يصر على هذا الرجل بالذات وإلا فلا زواج من شخص آخر. حينما أبلغ الزوج المقترح بالخبر لم يسعه إلا أن يبدى امتنانه للشرف الذى حظى به، ولكننى واثقة أنه فى الواقع لم يشعر هكذا. وبعد قليل تم الزواج، وحينما قُدم البك الشاب إلى زوجته، وجدها سيدة عجوزا؛ قابلته بلطف وأكدت له أنها لم تتزوجه إلا مرغمة وللمظاهر فقط. ومراعاة لفارق السن بينهما، فقد خصصت له جارية حبشية جميلة، يمكنه أن يعتبرها زوجة له. ظن أنها جادة وصادقة فيما تقول ولا غرو فى ذلك، فبالرغم من أن مثل هذا التصرف شاذ بالنسبة لأى زوجة، إلا أنها بدت وكأنها تعتذر بسبب الفارق الشاسع فى السن

بينهما . تقبل الزوجه الحبشية ، ولكنه علم بعد ذلك وبعد فوات الأوان ، أنها كانت خطة مدبرة للكشف عن نواياه ومعرفة صدق إخلاصه . ومنذ ذلك الحين والزوجة تكيل له اللعنات والتوبيخ ، وظل حريم (فلان) بك طوال حياة معذبته ، جحيما لا يطاق .

ومن دواعي الشقاء الدائم في الحريم ، عادة شائعة بين العظماء وهي تزويج أقربائهم من النساء و جواريهم المعتقات لأشخاص أقل منهن بكثير في المرتبة ليصبح هؤلاء الرجال المكرمين على هذا النحو ، تحت السيطرة الكاملة للنبيل ؛ وقد بين السير جون مالكولم في كتابه الطريف «صور من فارس» أن مثل هذا الوضع قائم أيضا في هذا البلد .

وهناك سبب آخر للتعاسة هو عدم الوفاق والترابط بين الأطفال في الحريم الذي يضم العديد من الأمهات ؛ فبالرغم من انفراد كل زوجة بجناح خاص إلا أن أبناء الأمهات المختلفات لا يكونون منفصلين إذ يتقابلون في الصالونات العامة وفي الحدائق والأفنية والساحات ومع الزمن ينمو معهم شجار الأطفال ، ويتحول إلى منازعات جدية بين الشباب كما يزداد الحقد والغيرة إذا حدث تفضيل بينهم أو بين أمهاتهم فينقلب إلى كراهية مميتة . وحيث إنهم إخوة غير أشقاء ، فليس لديهم نفس الوالدين يذهبون إليهما بخلافاتهم التي تظل مكتومة في صدورهم حتى تسنح الفرصة للانتقام ، وقد يكون السبب حقيقيا أو مجرد ظن . أعرف حريما لأحد العظماء حيث أبناء الزوجات والمحظيات من مختلف الأعمار ، فبعضهم يناهز الأربعين ، وبعضهم الآخر بلغ مرتبة الرجال في حين لا يزال بعضهم أطفالا صغارا . وللصغار فقط مطلق الحرية في حريم والدهم ؛ إذ إن للكبار مساكنهم الخاصة وقلما يتقابلون وإذا صادف أن جمعتهم الأقدار فهم يمثلون الحقد المجسم وعدم الوفاق ، ولا شك في أن هذه الخصومات لا بد أن تكون لها آثار وخيمة .

ولم أذكر حتى الآن نقطة هامة جدا ، و أهم اعتراض على نظام الحريم ، إذ لا يمكن الحفاظ على وقار حريم كبير ، بل لا يمكن أن يظل قائما ، دون استخدام العبيد . فمثل هذا الحريم يتطلب وجود حراس من الذكور ، والقانون يحتم أن يكون هؤلاء من الخصيان ؛ كما يلزم أيضا وجود تابعات من النساء وقد أثبتت التجارب أنهن إذا

كن خادمات من الأحرار، فكثيرا ما يحدث انشقاق فى الأسرة كلها، بل وقد يفقد بعضهم حياتهم بسبب مكايد أولئك الخادمات. لهذا أصبح من الضرورى اقتناء العبيد من الجنسين، ولكن من وجهة نظر أخرى، فلا ريب أن عديدا من آلاف الأطفال من كل لون ممن يجلبون إلى مصر سنويا، ينسون والديهم وأجدادهم ويشعرون تجاه من يمتلكونهم بأحاسيس تشبه إلى حد ما العواطف التى تخص أهلهم الحقيقيين وذلك للمعاملة الطيبة والعطف الذى يلقونه. وتأكيدا لما أقوله، أروى حادثا غريبا سمعت به مؤخرا.

هناك سيدة تركية تعيش حاليا فى القاهرة وقد ترملت منذ بضع سنوات ولها ابن وحيد. ويضم بيتها عددا من العبيد والخدم، منهم صبى ربته سيدته منذ نعومة أظافره ثم أعتقته. لقي تعليمه بكل عناية مع ابنها -الذى يشغل منصبا فى الحكومة الحالية - و يجيد التحدث والكتابة بعدة لغات. وقد علم أن سيدته صارت فى أزمة مالية شديدة بعد وفاة زوجها، وأن ابنها قد أهمل واجبه نحوها مثلما أهمل إنجاز الواجبات المطلوبة منه فى الحكومة، وكانت النتيجة أنّ دخلها نقص وانهارت نفسيتها، حينئذ فكر أن يحاول هو أن يخفف عنها متاعبها. وهكذا تقدم كمترجم لدى رجل ذى شأن، وخدمه بإخلاص مدة سنتين، وبعدها حظى بمساعدة هذا الرجل، بالحصول على وظيفة حكومية ذات راتب محترم. فى هذه الأثناء، ساءت أحوال سيدته وهجرها ابنها وكاد قلبها ينفطر؛ وإذا بيوم ميمون يدخل عليها فيه عبدها السابق و يلقى بنفسه عند قدميها ويتوسل إليها أن تشرفه بأن تقبل مشاركته حظه السعيد؛ وافقت بكل سرور وغبطة. غمر العبد سرور كبير وأسرع بشراء منزل فخم نقل إليه سيدته فى الحال، ولم يكن لديه سوى شرط واحد، وهو أن يبدل اسم «سيدة» باسم «أم». لقد تزوج منذ ذلك الحين، ولكن أمه المتبناة، لم تفقد شيئا بتغير حاله، فهى كما كانت وكما ستظل طيلة حياتها، السيدة الأولى فى بيته.

ليست هذه حالة فريدة من نوعها، ولكن رغم ذلك فلن تقلل من بشاعة تجارة تفصل بين الأحبة وتقطع صلة الرحم وتعطى سلطة على بشر مثلنا كثيرا ما يساء استعمالها، إساءة قد تؤدى إلى الموت. ومن المفاسد الكثيرة السائدة فى أيامنا

هذه، قلما نجد ما هو أبشع من الاتجار بالبشر. حقيقة إن إنجلترا رفعت صوتها الجهورى، كما مدَت ذراعها القوية للحفاظ على كيان سكان غرب أفريقيا، ولكن لا يزال عليها أن تفعل الكثير، أجل، الكثير جدا حتى تصبح الحرية مقدسة، وحتى تتمكن الأم الشرقية من أن تضم طفلها إلى صدرها باطمئنان لأن جبروت الإنسان لن يحرمها من هذه الهبة الغالية من الله عز وجل.

كثيرا ما يجول بخاطرى أننا لا نُقدِّر النعم التى نتمتع بها فى إنجلترا، حتى نرحل عنها إلى بلاد أخرى، نائية. إن ما أعتبره أساسا من نعم إنجلترا، لا يخص البلد مثلما يخص البشر. بالنسبة للطبيعة، فلا يحق لى أن أشتكى من مصر فباستثناء الحر الشديد فى الصيف والرياح الحارة فى الربيع وانتشار وباء الطاعون فى هذا الفصل من السنة، فإن مناخ هذا البلد كما يعتبره تقريبا كل من عرفه، من أفضل وأصح الأجواء فى العالم. فصول السنة منتظمة بشكل واضح وقلما تحدث كوارث طبيعية مثل الأعاصير وما شابهها ولو أننا فزعنا جدا فى الصباح الباكر من يوم ٢١ من الشهر الماضى بسبب زلزال عنيف. كان الظلام الدامس يخيم حينما أيقظتنا هزة قوية، يصاحبها صوت قرقرة عالية. تصدع منزلنا بشكل مخيف وبدا كأنه فوق عجلات تسوقه فى كل اتجاه. ويعتقد بعض الناس أن الهزة دامت ثلاث دقائق، ولكننا نظن أنها لم تدم سوى أقل من دقيقة واحدة، أعنى بالطبع منذ اللحظة التى استيقظنا فيها؛ ولكنى لن أنسى أبدا شعور الرهبة الذى انتابنى أثناءها وبعدها. لم تدع لنا الهزّة مجالا للتكهنات، وظللنا متيقظين ننتظر بلهفة حلول الصباح وفى ذات الوقت خشينا ما قد نسمعه عن آثار وخيمة للزلزال بسبب رداءة حالة منازل القاهرة عامة. وجاء الصباح ولم يأت معه أى خبر مزعج، فلحسن الحظ لم يصب أحد سوى بالفزع. فى شارع مجاور لنا، قفز رجل وامرأته من نافذة بالطابق الأول إلى الطريق، ظنا منهما أن البيت سوف ينهار وسيدفنان تحت أنقاضه، وبقيا ملتفين فى حرام حتى بزغ نور النهار. تجمعت أسر بأكملها فى أفنية منازلها كما أن صديقا لنا إنجليزياً، انتابه هلع أفقده صوابه لفترة طويلة، جعلته يشك فى أنه فى مصر أو فى مكان آخر؛ ولا غرو إذ لم يكن معه فى البيت سوى بعض الخدم، وربما لو كنتُ مكانه، لشعرت بالحيرة نفسها؛ إذ يحتاج المرء فى مثل هذه الحالات، إلى رفقة ذويه مثلما فعلت أنا وولداى، فقد شعرنا براحة

نفسية كبرى ونحن متلاصقون ببعض تحت الناموسية. ليس هناك ما يدل على وقوع أى كوارث جسيمة بمصر من آثار هذا الزلزال وهو ما يطمئننا إلى حد ما، ولكنه لا يزيل الخوف من إمكان حدوث شيء فى المستقبل. خطر ببالى حينما أيقظتنى الصدمة المروعة، نبوءة السيد المسيح حين قال «سوف تكون هناك زلازل فى كافة أنحاء االمعمورة»، و فى الواقع، لم أتوقع أن يهمد الزلزال بهذه السرعة وبدون ضرر أفدح.

لا يمكنك أن تتخيلى المناظر المتعددة التى تمر أمام نافذة منزل يقع على طريق عمومى مثل المنزل الذى نعيش فيه الآن فى هذه المدينة العجيبة حقا التى هى القاهرة، وبالمناسبة لا يجوز فى وقتنا هذا أن ندعوها «القاهرة الكبرى» فهى حاليا مدينة الخرائب الكئيبة التى تتخللها مساجد كانت فى يوم ما عظيمة، ولكن معظمها دمر الآن أو فى حالة انهيار، أما بالنسبة للمساكن الحديثة، فهى قليلة وتتنافى كلية فى هندسة بنائها الرديء مع الأبنية القديمة الجميلة المتداعية التى تجاورها. وكثيرا ما تقلق راحتنا مواكب العرس والجنائز، الأولى فى أيام الاثنين والخميس وهما اليومان المباركان لمثل هذه المناسبات، أما الثانية، فتقريبا كل يوم.

لقد سبق أن قرأت عن أخبار عناد بعض مشايخ المسلمين الذين يقاومون أن يدفنوا بعد موتهم فى أى مكان سوى الذى يختارونه بأنفسهم. ومنذ بضعة أيام رأيت موكبا يتبع نعش أحد أفراد هذه الطائفة العجيبة، و بدلا من العويل والنواح المعتاد، كان الرجال يهللون والنساء يزغردن ويصحن فرحا ودقات الطبول تزيد من فوضى الأصوات المزعجة. ما كاد المئات الذين يتبعون النعش يمرون من أمام منزلنا حتى توقف طوفان البشر فجأة وفى لمح البصر غير مسيرته ورجع من حيث أتى؛ قيل إن الولى رفع يديه ومنع حاملى النعش بقوة خارقة، من الاستمرار فى السير. كان مسير الموكب فى البداية نحو الشرق والآن اتخذ طريقه نحو الغرب وظننا أن الولى قد ارتاح لهذا التغير فى الاتجاه؛ ولكن بعد مرور بضع ساعات، مرت المسيرة مرة أخرى من أمام منزلنا والناس يهرولون بالنعش، و عدد الرجال والنساء والأطفال يزداد كل دقيقة. أظن حقا أن تسعة أعشار الجمهور كان يعتقد أن عائقا خارقا كان بالفعل يمنع حاملى النعش من الاستمرار فى طريقهم كلما

غيروا اتجاه سيرهم. ومثلما حدث في الصباح، حدث بعد الظهر، إذ فشل مرة أخرى السير بالنعش نحو الشرق، وسرعان ما رجعوا أدراجهم ثانية وتوقفوا قبالة منزلنا، كانت هذه لحظة قلق شديدة إذ من الممكن أن يصروا على إقامة ضريح فى وسط الطريق العام بل وربما فى منزلنا ذاته ! سبق أن حدث مثل هذا، فهناك بعض الشوارع الرئيسية فى القاهرة يستحيل مرور أشياء كبيرة فيها بسبب ضريح ولى فى وسطها. ويقال إنه حينما أمر الباشا بمد طريق جديد إلى القلعة، أزيل ضريح لأحد الأولياء، ولكن الآن يعاد بناؤه بالقرب من منتصف الطريق تقريبا، وذلك لأن الشيخ كان يؤرق نوم الباشا كل ليلة مطالبا برد حقوقه. ولكن مخاوفنا من أن يصبح الولى الحائر جارا لنا، هدأت حينما شاهدنا حاملى النعش يندفعون إلى الأمام وكأن قوة ما تدفعهم إلى التقدم. لم نسمع شيئا عن الولى طوال الليل ولكن فى اليوم التالى علمنا أن حاملى النعش لم ينعموا براحة سوى لمدة ربع ساعة فقط، رضى الشيخ خلالها أن يظل ساكنا بجوار مقبرة والديه. وتكررت اللعبة نفسها فى اليوم التالى إلى أن جاء المساء وبدأ الأشخاص المكلفون بإعداد مهام الدفن بإقامة ضريح زعموا أن الشيخ رضى به.

وأصف لك الآن مسيرة جنائزية أخرى من نوع غريب لم أشاهد أعجب منها منذ حلولى بالقاهرة، وهى جنازة خورشيد باشا، حاكم سنار السابق التى مرت بمنزلنا منذ بضعة أيام بعد جنازة الشيخ. تصدر الموكب تسعة جمال، يحمل كل منها صندوقين بهما قمح وتمر وفوق كل جمل جلس رجل بين الصندوقين، ينثر الخيرات بيد، وبالأخرى يمسك عصا يزيح بها جموع البشر التى تتزاحم حوله، يصيحون وكأنهم يموتون جوعا، ومن الغريب حقا أن أكثر الناس إلحاحا كانوا الذين يبدو من ملابسهم أنهم ليسوا من ذوى الحاجة. ثم جاءت ثلاثة جمال تحمل الماء وتبعتها جاموستان ليضحى بهما فوق القبر ويوزع لحمهما على الفقراء؛ تُتَّبع مثل هذه الطقوس دائما فى جنائز أثرياء مصر وكما أظن فى الشرق كله. مضى فى المسيرة بعد ذلك، ثلاثون من قارئى القرآن يليهم العدد نفسه تقريبا من المشايخ على رأس جمع غفير من الأتراك من الطبقة الوسطى، أكثرهم بالزى العسكرى. بعد ذلك جاءت فصيلة من الشاويشية يسيرون اثنين اثنين بكامل بزتهم العسكرية؛ ثم ما يقرب من خمسين نبيلا من كافة الأعمار. كانت ملابسهم

بهيجة ، متعددة الألوان فكانوا أكثر مجموعة تلفت النظر فى المسيرة كلها ؛ ظهر بينهم بعض الرجال المسنين الذين لم يتعودوا دون شك السير على أقدامهم فى شوارع القاهرة . كان أحدهم وقد أحنت السنون ظهره وكان أيضا كما يبدو أعمى ، يسير متكئا على شاب لعله ابنه . كما بدا كثير منهم مرهقى القوى بعد مسيرة ما يقرب من ميل ، و مازال أمامهم ما يقرب من ميل ونصف ، آخر نصف ميل منها تحت وطأة شمس محرقة . أعود لوصف نظام المسيرة ، تبع موكب النبلاء ، فتيان في يد كل منهم مصحف ؛ وجاء بعدهم مجموعة من الرجال يحملون البخور في مباخر فضية يملئون الشوارع والبيوت بسُحب من اللبان والروائح العطرة فى حين مضى آخرون ومعهم زجاجات عطر من الفضة ينثرون محتوياتها العطرة على الجمهور من علية القوم . بعد ذلك مرَّ النعش بمنظره العادى ، مغطى بشال مزركش من الكشمير الأحمر ويحمله أربعة من الرجال . تبع النعش السيدات والجوارى وصديقات وتابعات الحريم وكن ما يقرب من خمس وعشرين أو ثلاثين سيدة تمتطى كل منهن حمارا عاليا وحوالى عشرين جارية فوق حمير عادية ومجموعة كبيرة من النسوة يسرن على الأقدام يندبن ويولولن بأصوات عالية . لا يمكن أن ينمحى الضجيج من ذاكرة كل من سمع وشاهد جنازة كبرى ، إذ لا يمكن تصور الضوضاء التى تصم الآذان من أثر اختلاط أصوات قارئى القرآن مع تراتيل الصبية وعويل النساء . فى المؤخرة جاء خدم يقودون خيل النبلاء ، و على هذا النحو انتهى مشهد من أغرب ما يمكن رؤيته فى شوارع القاهرة .



الرســالة السابعة والعشرون

مراسم الحداد بين الأقباط

مارس ١٨٤٥

من أغـرب عـادات حـريم هذا البلد تلك التى تتبع الوفاة. وأعتقد أنك ستهتمين لسماع ما يمارس من عادات فى حريم مسيحى ثرى فى إحدى تلك المناسبات. سوف أصف لك ما شاهدته صديقتى العزيزة مسز ليدر وأذكر التفاصيل كما جاءت على لسانها.

منذ بضعة أيام، طلب واحد من أغنى أقباط هذه المدينة من المستر ليدر أن يرسل له طبيبا إنجليزيا لأن زوجته تعانى من مرض عضال. لم يتأخر صديقنا فى تلبية الطلب وسارع بإرسال من يستدعى الطبيب ولكن ما كاد الرسول يرجع، حتى جاء خادم من القبط يحمل خبر وفاة سيدته. هذا هو الحال دائما مع الأقباط، ينتظرون حتى

يكون المريض على وشك الموت قبل أن يرسلوا فى طلب المعونة الطبية.

وفى الحال ذهبت مسز ليدر إلى مكان الحداد وبعد رجوعها بقليل، جاءت لى بمذكراتها عن العادات العجيبة التى شاهدتها هناك. قالت: حينما وصلتُ إلى المنزل، وجدت المدخل يعج بأصدقاء رب الدار من الرجال. صعدت إلى جناح الحريم ومررت بالغرفة التي توفيت فيها السيدة؛ وهنا وجدت حالة من الفوضى التامة، ملاءات وأغطية السرير تركت، كما يبدو عن قصد، مبعثرة، كما ترك كل شيء في مكانه بعد غسل الجثمان وتكفينه. دخلت غرفة كبيرة كان ينبعث منها صراخ مفزع وعويل، وهنا وجدت الجثة مسجاة على الأرض فوق سرير منخفض أو لعلها مرتبة، ومغطاه بشيلان من الكشمير وعدد من الأخمرة من الكريب المطرزة بغزارة. جلستُ على ديوان بالقرب من رأس المتوفاة و كان المنظر مخيفا والجلبة والضوضاء مزعجة للغاية. كانت امرأتان تدقان الدف وتنشدان ترانيم جنائزية وفى الوقت نفسه كان ما يقرب من عشرين سيدة وندّابات مأجورات (مثل اللاتى نقرأ عنهن فى الكتاب المقدس) ينتحبن ويلطمن على دقات الدفوف بينما نساء

أخريات ومعهن الجوارى يقفزن ويصفقن بأيديهن و أجسامهن تنحنى لتلمس رؤوسهن الأرض. ذكرتنى هذه الحركات برقصات الهنود الأمريكيين التى تنم عن اهتياج شديد وخبل شبيه بنوع من السُعر، مثلما وصفها مستر كاتلن. ظلت النساء يقمن بهذه الحركات المخبولة حتى أرهقن تماما، حينذاك طُلب منهن أن يجلسن ليسترحن.

تبع هذا، منظر غريب ومؤثر للمأساة؛ إذ جلست النساء من الأقارب بجوار الجثة وبدأت كل واحدة منهن بالتناوب تخاطب المتوفاة وتعبر عما تكنه لها من حب ومعزة، وفي يد كل منهن منديل ملفوف يلوحنه بحركة دائرية بعد نهاية كل خطاب. الجميع يناجين المتوفاة، أهلها وذوو القربى وأيضا الجوارى؛ صاحت واحدة، «يا حبيبتى، يا نور عينى» وأخرى «يا خسارة شبابك، يا روح قلبى ! آه يا شابة يا صغيرة، فارقت جوزك وأمك يا ضنايا !» وناجتها جارية «تسيبى جاريتك اللى بتخبزلك العيش بإيديها ؟ آه يا ستى، مش حتاكلى من عمايل إيدىَ تانى؟» وصاحت جارية عجوز، بدينة وسوداء «إرجعى لنا يا حبيبتى، ماتحرميناش منك، وأنا اعمل لك الحلوى بالعسل والسكر والعطارة». كما أغمى على إحدى الجوارى عدة مرات من التأثر الشديد ومن التعب. من العجيب فعلا أنهن استطعن تحمل كل هذا الاضطراب والمجهود العقلى والجسمانى.

كانت الأم بطبيعة الحال، هى أهم شخصية فى العزاء، وكانت تغطى رأسها بخمار أزرق داكن وترتدى ثوبا(٦) وسروالا قديمين، وحول رأسها من فوق الخمار عصبة ضيقة زرقاء اللون أيضا، وهذه علامة الحداد مثل الشريط الأسود حول القبعة فى إنجلترا، كما لطخت يديها وقدميها بالنِّيلة؛ وقد بدت أخوات المتوفاة وحماتها بالمنظر المشوَّه نفسه. لن أنسى أبدا الخبل والتصرف المضطرب الذى كان يصدر عن نساء الأسرة وضيوفهن وهن يكررن من آن لآخر هذا النوع الغريب من القفز أو الرقص والعويل حول الجثمان ويقمن بشق ملابسهن ثم يقبلن الجثمان ويزداد صراخهن وأخيرا ينبطحن أرضا من الإعياء. كان من بين من حضر العزاء، زوجات

(٦) حاشية المؤلفة: رداء من الحرير واسع فضفاض يلبس فوق الملابس المنزلية وتحت الحبرة عند الخروج.

أهم الكتبة شأنا وكن جميعهن يرتدين الملابس الداكنة وبالذات الأثواب إذ إن الأحمر والألوان الزاهية عامة باستثناء الأزرق ، تعتبر غير لائقة فى منزل الحداد .

طوال ساعة من الزمن أمضيتها فى هذا المكان ، لم أكد أحظ بفترة راحة وجيزة أحول فيها عينىّ عن منظر النائحات لأجول بهما فى أرجاء الغرفة التى اعترتها عن قصد الفوضى المتناهية . رأيت كافة أنواع الزجاج والأوانى الصينية والفخارية مهشمة و مبعثرة على الأرض ؛ والسجاد التركى الثمين وأغطية الأرائك و المساند مقلوبة وممزقة ؛ كذلك لطخت الأغطية بالنيلة وغطيت بالنخالة والخرق البالية ، وفى كل مكان تحف ولعب مهشمة وكتب قديمة[٧] . الشيء الوحيد الذى ظل كما هو فى حالته المعتادة ، كرسى عتيق من الخشب الداكن المطعم بالصدف ، يعلوه ظلة مغطاه بقماش حريرى أحمر اللون ؛ ويوجد كرسى من هذا القبيل عادة فى كل منزل قبطى حيث توضع فوقه العمامة كل ليلة عند النوم. الحيطان أيضا لطخت بالنيلة[٨] ؛ كما لاحظت أن الصليب القبطى رسم فى عدة أماكن خصيصا لهذه المناسبة . ولكنه رسم ، كما بدا لى ، بإهمال وعدم اكتراث كما لو أن أصحاب البيت ثائرون على القدر ذاته . حان وقت إحضار ملابس عرس الفقيدة ؛ وبدأت بعض النائحات اللاتى كلفن بذلك فى تعرية الجثمان ، ووجدت كما كنت أتوقع أنه كان قد غُسل ولُف بقماش من القطن الأبيض ولم يفعل شيء آخر غير هذا . وهنا غادرت ذوات القربى الغرفة ولم يبق مع الجثمان سوى الصديقات والنساء المأجورات . وكان أول ما ألبسنه الفقيدة ، سروالا من الستان القيم لونه أحمر وردى ؛ تبع ذلك «مَز» (جورب من الجلد الناعم) جديد من الجلد المغربى الأصفر ، ثم قميص من قماش رقيق مخرم وفوقه «يلك»(صدرية) من قماش مقصب ذهبى وحول وسطها ربط شال كشميرى قيم وأخيرا «سَلْطة» (معطف قصير) من

---

(٧) يذكر الجبرتى عادة الأقباط فى تكسير الأدوات التى كان يستخدمها الميت تعبيراً عن الحزن عليه ويقول : «ببيت المعلم إبراهيم الجوهرى (وكان زعيم الأقباط) مكان مرتفع مهدم الدرج . وكان ذلك المكان لولده ، وقد مات من نحو سنتين فلما مات هدم الدرج الذى يتوصل منها إليه حزنا عليه ، وتركه بما فيه» (ذى القعدة ١٢٠٠ هـ) .

(٨) حاشية المؤلفة : إن هذا الوصف يذكرنى بقصة العبد كافور فى كتاب «ألف ليلة وليلة» .

الستان السماوى اللون وافرة التطريز بخيوط الذهب، وعصبت الرأس «بفرودية» (منديل) جديدةُ وخمار من تلك التى كنت رأيتها ترتديها من قبل. كان الوجه وضاحا، فاتنا؛ ذا جمال كلف الزوج، كما قيل، مهرا كبيرا. لم تكد المتوفاة تبلغ السابعة عشرة من عمرها وكان سبب الوفاة عسرا فى الولادة، وكان هذا هو اليوم الثانى عشر منذ بداية مرضها. أثناء عملية إعداد الجثمان، كان الصراخ والعويل يصم الآذان، فى حين كانت اللاتى يجهزنه يذكرن غلو قيمة كل قطعة من قطع الملابس ويُشرن إلى جمالها وهن يمسكن بها واحدة واحدة. وأخيرا جيء بالكفن وهو قطعة من قماش الساتان تتخلله خيوط من الذهب، ولف فيه الجثمان بملابسه القيمة الفاخرة، وخيطت استعدادا للدفن.

وهنا غادرتُ الحريم مع سائر الزائرات، و نزلنا إلى الطابق الأسفل، فوجدنا فى انتظارنا عددا كبيرا من الحمير العالية معدة لصديقات وقريبات الفقيدة؛ وبعد أن امتطيناها، أحضر النعش الخشبى البسيط ووضع أمام مدخل الحريم، ومُدَّ داخله بساط كانت تضعه المتوفاة على الحمار عند الركوب وكذلك وسادة صغيرة لإسناد الرأس. تقدم الزوج إلى النعش، ولم يكن هو ولا سائر الأقرباء من الذكور قد شاهدوا الجثمان منذ وقت الوفاة؛ بدا المسكين كالمذهول، يقذف بنفسه فوق النعش ويتوسل أن يسمح له بأن يدفن مع زوجته. وكان بعض نسوة الأسرة قد ذهبن، أثناء مرض زوجته، حيث توجد أيقونة مشهورة للعذراء، يتوجهن لها بشكواهن ويتوسلن إليها بالدعاء. وتحفظ هذه الأيقونة فى منزل خاص، وكان الاعتقاد السائد أنه لا يجوز نقلها إلى مكان آخر بصفة دائمة، وأمامها وضعت منضدة صغيرة عليها شموع تظل دائما متقدة؛ ولهذه الأيقونة منزلة خاصة فريدة و الجميع يبجلها. وقد روى أن معجزاتها المزعومة اكتشفت حينما نُقلت ذات مرة إلى كنيسة وأثناء الليل رجعت، دون أن تمسسها يد، إلى مكانها الأصلى ! وظنت النسوة أن هذه الأيقونة المقدسة أقدر على إنقاذ قريبتهن من الموت من الطبيب. وحينما أيقنّ أن الصلوات الموجهة إليها، لا جدوى منها، بدأن يلمنها ويصحن «ألا ترين الحالة التى آلت إليها قريبتنا العزيزة ؟ هل أصابك العمى ؟ هل أصابك الصمم ؟ هل فقدت معجزة الشفاء ؟ هل زالت عنك هذه المقدرة ؟ فى مقدورك شفاؤها إذا رغبت ! هلمى، أفيقى !» بهذه الكلمات ومثلها، خاطبن الأيقونة

وحينما لم تستجب، غضبن و قمن بضربها !

لم أتوقع أن أناسا من الطبقة العليا من أعضاء الكنيسة القبطية، التى كانت مشهورة فيما مضى ولا تزال تحترم لقدمها ولصمودها أمام أبشع أنواع الإضطهاد التى يعجز اللسان عن ذكرها، قد انحدروا إلى مثل هذا الجهل المطبق الذى يجعلهم يتصرفون بهذه الطريقة السخيفة، المفزعة. ينتابنى الحزن وأنا أسرد هذا، ولكنى أذكره لكى تغتبطى معى للمحاولات العاقلة الفعَّالة التى تُبذل الآن لتبديدها[٩].

إن أبناء الأقباط يكوِّنون جزءا كبيرا من التلاميذ العديدين التى تجذبهم المعاهد التبشيرية والمدارس الملحقة بها فى هذه المدينة؛ وهنا ينعمون، هم وغيرهم، بتربية مسيحية عقلانية. يقوم صديقنا الجليل، المستر ليدر الموقر، بالإشراف الدائم، بدون ملل أو كلل وبحكمة بالغة وإخلاص لا مثيل له، على المدرسين المحليين لقسم الأولاد؛ فى حين تقوم صديقتنا العزيزة المسز ليدر، بإشراف ممتاز على قسم البنات، مع أن حياتها مليئة بنشاطات لا حصر لها وأعمال خيرية واسعة، وهذا الإشراف، يتطلب دراية ولباقة فذة.

الاهتمام الأساسى لمسز ليدر، ينحصر فى المعهد القبطى الذى يؤهل شبابا متعلما تعليما قويما ليصبحوا قساوسة فى كنيستهم الوطنية، وقد حظى المعهد، بشرف تصديق البطرق عليه واستحسانه له. و من المتوقع أن خيرا كثيرا سوف ينتج؛ إذ إن الكهنوت القبطى بوجه عام فى حالة محزنة من الانحطاط بسبب الجهل والإيمان بالخزعبلات. ويضم حاليا المعهد الذى ذكرته، خمسة وعشرين تلميذا، سبعة عشر منهم بالقسم الداخلى ويرتدون ملابس محترمة، ويتمتعون بالسكن والمأكل المريحين؛ ويبلغ متوسط عدد التلاميذ فى مدرسة البنين الخارجية المرفقة بالمعهد، مائة وعشرين وهم مسيحيون ويهود ومسلمون. أما مدرسة البنات، فتضم مائة وخمسا وعشرين تلميذة، وقد تم تخرج ثلاثمائة فتاة منذ

---

(٩) إن نظرة صوفيا المتعالية تجاه المسيحيين الشرقيين، تشبه الموقف العام الشائع بين الإنجليز فى ذلك الوقت، وهو ما تستنكره امرأة مستنيرة مثل لوسى داف جوردون فى رسائلها (انظ الرسالة بتاريخ ١٠ مارس ١٨٦٣) ص ٤٩.

افتتاح المدرسة عام ١٨٣٥ وكلهن يُجدن القرآءة والكتابة، ويمكنهن عند الضرورة كسب قوتهن بالتطريز وسائر أشغال الإبرة، وأهم من كل هذا أنهن سمعن وتعلمن عن ظهر قلب الحقائق الهامة في الدين المسيحي. وهؤلاء الفتيات، مثل البنين، من ديانات مختلفة.

من الطريف في هذا الفصل المدرسي المكتظ، التعرف على الملامح المختلفة للشرقيين من بلاد مختلفة فبجانب الملامح المميزة لليهوديات، نجد أن للسوريات أيضا ملامح وجه خاصة بهن وكان من السهل أن أتعرف عليهن من بين أقرانهن، بعد لفت نظري إلى شكل اثنتين. إن للفتاة السورية، بشكل عام، جبهة عالية تنم عن الذكاء، و لها حاجبان مقوسان وعينان طويلتان سوداوان، ناعمتان؛ ولون بشرتها يميل إلى البياض، كما أن أنفها دقيق و أعقف وفمها صغير و جذاب. أما الوجه فطويل وعليه مسحة من الجدّية والرزانة والتفكير العميق، وكأن الفتاة الصغيرة تحمل رأسا عجوزا فوق كتفيها الصغيرتين. لا نرى الملاحة الطفولية لدى السوريات الصغيرات فجمالهن من النوع الوقور الذي يبهر مع النضوج عند حوالي السادسة عشرة من العمر؛ كما أن المرأة السورية تحتفظ بنضارة الشباب فترة أطول من أي شرقية أعرفها. والفرق بيّن بينهن برقتهن المميزة وبين بنات العرب، داكنات البشرة اللاتي لا يتميزن بأي جاذبية في المظهر سوى في الفم المعبر الذي يدل على دماثة في الخلق وأيضا في الأسنان المنتظمة، الناصعة البياض. إن ما يشوه منظر أولاد المسلمين، ضعف نظرهم من أثر حالة مرضية، لا تسببها، ولكن تزيد في انتشارها أنواع شتى من الخزعبلات. يبدو لي أن الغالبية من آلاف الأطفال الذين يفقدون بصرهم والذين يلقون حتفهم وهم لا يزالون على عتبة الحياة، ليسوا ضحايا الطقس، ولكن ضحايا الخرافات. و على سبيل المثال، أذكر ما حدث لطفل فتاة عربية نعرفها ونعطف عليها، لقد أصيب الطفل بالرمد من جراء البرد، ولكنه فقد بصره حينما وضعت أمه عصابة على عينيه عند بداية المرض وتركته هكذا دون أن تغسلهما، حتى تقلصتا وذبلتا في مآقيهما. لم يصلني خبر المرض الذي أصاب الطفل الصغير إلا بعد أن أظلمت عيناه و جاءوا به كي أراه؛ شعرت بأسى عميق وأنا أرى أن هذا الطفل العزيز قد فقد تماما ودون أمل أعز هدية وهبها رب السموات لهذا الكائن الصغير، الهبة التي تعطي الإنسان

أكبر متعة فى الحياة. بعد أسبوع وصلنى خبر وفاة الطفل المسكين، فحمدت الله على رحمته. عندما أسمع بخبر وفاة أطفال فى مثل هذه الظروف، لا يسعنى إلا أن أبتهج. «لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله».

الرســـالة
الثامنة والعشرون



تسلية سيدات الحريم

أبريل ١٨٤٥

صديقتى العزيزة:

من الطبيعى أن ينتابك فضول لمعرفة كيف تتسلى سيدات القاهرة وصديقاتهن، أثناء تلك الزيارات الطويلة التى قد تشغل يوما بأكمله. حينما لا ينشغلن بالطعام والشراب، تقضى الكثيرات منهن وقتهن مع النارجيلة و تبادل النوادر التافهة، وإليك بعض الأمثلة منها.

من عادة التجار أن يلتقوا فى المقاهى للتحدث عن أخبار يومهم وما صادفهم من متاعب وأحيانا من نجاح. وتكون رغبة التفاخر والظهور بمظهر أفضل من الواقع واضحة إذا تأكدوا أنهم وسط أبناء «كار» واحد. وفى ذات ليلة، كان أحد هؤلاء



«الفشارين» يتحدث عن بيته وعبيده ومتاعه و كل شيء لديه، ما عدا بالطبع زوجاته إذ لا يليق ذكرهن فى حضرة رجال غرباء. وصادف أن سمعته شحاذة تأتى كل ليلة إلى هذا المقهى للتسول وكانت تقف مستترة عن أعين الحاضرين، وعندما تغير مجرى الحديث، تقدمت تطلب الإحسان، وكالمعتاد أعطاها كل فرد بضع بارات، ثم رجعت إلى مخبئها حتى انتهت السهرة، وحينئذ، تبعت التاجر المذكور إلى مسكنه الذى يقع فى زقاق كئيب و مظهره متداع وحقير مثل جيرانه. وبعد أن رأت ذلك، بدلت بسرعة طريقة لف ملاءتها (الغطاء الخارجى الذى تلتف به نساء الطبقة السفلى وهو من قماش له مربعات زرقاء وبيضاء و يحل محل الحبرة من الحرير الأسود الذى ترتديه الطبقات الميسورة) ثم غيرت طريقة مشيتها واقتربت من باب منزل التاجر وطلبت السماح بالدخول. فتحت زوجته الباب وبصوت منهدج طلبت الشحاذة أن تجد عندهم مأوى لقضاء الليل. استأذنت الزوجة من زوجها الذى سمح بذلك ودخلت الشحاذة الدار ووجدت نفسها فى غرفة واحدة مع من تتجسس عليه. رأت أن كل شيء من حولها على نقيض تام مما ذكره الرجل

وهو يتفاخر أمام أصدقائه؛ الأثاث القليل رث وقذر ولا ينم إطلاقا عن عز و رفاهية. أما العشاء، فقد أعدته الزوجة بمفردها إذ لم يكن بالبيت سواهما، وكانت كمية الطعام لا تكفى إلا لاثنين فقط فطلب التاجر من زوجته أن تذهب إلى السوق وأعطاها عشر بارات (وقيمتها تزيد قليلا عن نصف «پنى» من نقودنا)، تنفقها لسد الحاجة. أكلت الشحاذة ونامت فى المنزل وفى الصباح التالى، طلبت الإفطار قبل أن ترحل، ومثلما فعل فى الليلة السابقة، أرسل التاجر زوجته المطيعة للسوق ومعها كمية النقود ذاتها. أكلت الشحاذة وتوكلت على الله وفى المساء ظهرت كعادتها فى المقهى. عندما اتخذ التاجر مجلسه وهو خالى الذهن، لا يشك فى شيء، وبدأ بكل عظمة يملأ غليونه من حافظة الطباق المطرزة بالذهب، ويعدل من ملابسه لتبدو على أحسن وجه، وينادى أن يؤتى له بالقهوة، بادرته بالحديث قائلة: «ما قولك فى تاجر يتفاخر فى المقهى بثروته وكثرة عدد عبيده وغلو ثمن بضاعته وفى الواقع منزله مثل بيت كنّاس ولا يمتلك سوى الهواء؟» وأردفت: «أعرفك أنه فى الليلة الماضية استضاف شحاذة وأعطى امرأته عشر بارات لتأتى بالعشاء وعشر بارات أخرى لإفطار هذا الصباح». سألها التاجر وهو بادى الاضطراب: «هل أنت تلك المرأة؟» أجابت: «نعم، وأنت ذلك التاجر.» وكان فى هذا ما يكفى؛ ولا أظن أن المتباهى المسكين اقتحم بعد ذلك مجلس الذين كانوا يحسدونه على ثرائه المزعوم ويغبطونه بعد أن كشف أمره. وأغلب الظن، أن المرأة كانت تخطط لسرقته وحينما خاب ظنها، اتخذت هذه الوسيلة للانتقام. لقد رُويت لى هذه القصة على أنها حدثت بالفعل وهناك شهود عيان على ذلك. يكفى أن أسرد قصة واحدة أخرى من هذا القبيل.

ذهب رجل إلى السوق ليبيع عجلا واتفق عليه أربعون لصا و شيخهم أن يشتروه على أنه جديٌ. جاء الشيخ لصاحب العجل وسأله: «أتريد بيع هذا الجديُ بخمسة عشر قرشا» أجاب الرجل: «إنه عجل وليس جديا» فصاح عشرة من اللصوص: «يا شيخ، هل أصابك العمى؟ إنه جديٌ وليس عجلا» ومضوا إلى حال سبيلهم. ثم جاء عشرة آخرون منهم وعرضوا عليه أربعة عشر قرشا وكل منهم يردد: «إنه جدى وليس عجلا» وهو يجيب: «هل أصبتم بالعمى؟ إنه عجل وليس جديا». احتار الرجل وأمعن النظر فى العجل وتحسس رأسه وظهره وذنبه. وتوالت

جماعة اللصوص عليه، واحدة تلو الأخرى وكل منها تخفض السعر ولكن الرجل رفض أن يبيع. وأخيرا جاءه شيخهم وقال «هل تبيع هذا الجدى بسبعة عشر قرشا؟» رفض الرجل، فقال الشيخ «لقد عرضت عليك أكثر من قيمة الجدى لأن عندى ضيوفا و أنوى ذبحه «ولكن الرجل تمسك بالرفض، حينذاك قال الشيخ: «هل تبيعه بعشرين؟» أجاب الرجل: «فليكن، بشرط أن تعطينى الذيل». جاء الرد: «اتفقنا». ذهب الرجل معهم وأخذ الذيل بعد أن تم ذبح الحيوان، ثم طلب من نجار أن يدق فى الذيل مائة مسمار. بعد ذلك، تنكر فى زى امرأة وذهب بعد الغروب إلى وكر اللصوص ومعه الذيل؛ همس فى أذن شيخ اللصوص بما يلي: «إن زوجى يريد أن يأتى لى بضُرَّة ولديه جرَّة مليئة بقطع من الذهب أود أن تسرقها منه حتى يعدل عن فكرة الزواج هذه؛ لذلك أقترح أن تبعث رجالك للاستيلاء عليها وابق أنت معى لكيلا يُكتشف أمرهم» فعل الشيخ ما طلبته. كان فى الوكر بَكرة كبيرة معلقة، يتدلى منها حبل؛ سأل صاحب العجل الشيخ عنها، فأجابه بقوله: «إنها أرجوحة نتسلى بها»: أردف صاحب العجل: «وحياتك، أرنى كيف تستخدمها». لفها الشيخ حول نفسه و رفعه الآخر؛ ثم أخرج ذيل العجل وأخذ يضربه به ضربا مبرحا وهو يصيح: «أهذا ذيل عجل أم جدى؟» وبعد أن أوسعه ضربا، تركه. وحينما رجع رفاقه اللصوص، وجدوه ثملا دون خمر؛ تركوه حتى أفاق ثم سألوه عما حدث فأجاب وهو يئن: «إن تلك المرأة، ليست إلا صاحب العجل» وحكى لهم قصته معه، فقالوا «سوف نقتله إذا رأيناه مرَّة أخرى». ولكنه طلب منهم أن يأتوا له بطبيب. وجاءوا بطبيب قال حينما رآه: «لقد ضُربت وأنا كفيل بمعالجتك ولكن لن يتم شفاؤك إلا إذا جئت بأربعين صنفا من أربعين متجرا مختلفا»؛ وكتب أربعين رقعة، واحدة لكل حرامى ودوَّن فى كل منها ما يلي: «ملعون ابن ملعون من تقع فى يده هذه الورقة ولا يضرب حاملها ويبصق فى وجهه...» ثم أعطى الرُقع للصوص وطلب منهم إحضار الدواء؛ وبعد أن خرجوا، أتى بذيل العجل وسأل المريض: «أهذا ذيل عجل أم ذيل جدى؟» وأخذ يضربه ثانية حتى كاد يموت ثم تركه ومضى. رجع رفاقه بعد أن ذاقوا من الضرب والبصق فى وجوههم ما ذاقوا و وجدوه شبه ميت؛ وحينما رجع لوعيه، سرد عليهم ما جرى وأخبرهم أن الطبيب لم يكن إلا صاحب العجل. وقصوا عليه أيضا ما اعتراهم،

فقال لهم: «انقلوني إلى الصحراء، وضعوني في خيمة وامكثوا حولها؛ وإذا شاهدتم مخلوقا قادما، امرأة كانت أو طبيبا أو كلبا أو هرّة أو حدأة، تأكدوا أنه ليس صاحب العجل». نقلوه كما طلب ووضعوه في خيمة وجلسوا حولها. أما صاحب العجل، فقد كان يراقب تحركاتهم من بعد وتعرف عليهم وهم يحيطون بالخيمة؛ ومر عليه رجل فقال له: «خذ قطعة الذهب هذه، فداء لدمك واذهب هناك إلى الجماعة الجالسة حول الخيمة وقل لهم إنك صاحب العجل، ثم اجر بأقصى سرعة حتى لا يلحقوا بك لأنهم إن فعلوا، سوف يقتلونك وتكون قطعة الذهب هذه بحق، فدية لدمك». فعل الرجل ما طلب منه وجرى واللصوص يجرون وراءه؛ وفي هذه الأثناء، دخل صاحب العجل الخيمة وأبرز الذيل أمام الرجل المريض وسأله : «هل هذا ذيل عجل أم ذيل جدي؟» وبدأ يضربه حتى كادت تزهق روحه، ثم تركه ومضى. رجع اللصوص ووجدوا شيخهم في حالة يرثى لها، يكاد يكون على شفا الموت. أخبرهم بما حدث وقال لهم: «جهزوا قبرا وضعوني فيه حيا وأذيعوا الخبر أنني متُ وأنكم قمتم بدفني حتى يتركني صاحب العجل لحالي». وضعوه في قبر وجلسوا من حوله يتسامرون حتى الساعة السادسة من الليل حين تركوه وذهبوا لحال سبيلهم. جاءه صاحب العجل وردد قوله السابق: «أهذا ذيل عجل أم ذيل جدي؟» تنهد المريض وقال: «تأتيني حتى في القبر؟» أجابه الآخر مستشهدا بالآية من الذكر الحكيم : «و لعذاب الآخرة أشد وأبقى»[11]، وتأهب ليضربه من جديد ولكن المريض توسل إليه وقال: «أعدك بأن أكفر عن ذنبي». تقبل الآخر الوعد، وكفّر الشيخ عن ذنبه بأن دفع له عشرة أمثال قيمة العجل.

أجد بي رغبة لرواية القصص، لذلك أضيف واحدة سمعتها وشدّت انتباهي حينما كنا في زيارة لبعض الأصدقاء منذ بضعة أيام، و ربما تجدينها ألطف من قصص معارفي من الشرقيين.

ليس من الغريب أن يُعطى أوربيٌّ هدية؛ ولكن تَقبل الشرقي للهدية يكون في غالب الأحوال غريبا جدا. طلب سيد محترم من الرحالة وهو على أهبة الرجوع

(١١) سورة طه ١٢٧.

إلى أوربا بعد أن قضى بضع سنوات فى مصر، مشورة صديق لنا حكيم، بشأن هدايا مناسبة يقدمها لأتباعه بالإضافة إلى المكافآت المالية المجزية. بعد المداولة، وبعد الاتفاق على كل شيء حسب رأى الصديق، اقترح السيد أن يضيف إلى هديته لصاحب الجمال، التى تتكون من بندقية وكيس من الدولارات، بعض الرصاصات تصب من الفضة كإضافة لطيفة للهدية. أكد له الصديق أن مثل هذه اللفتة الرقيقة، لن يفهمها ولن يقدرها «شيخ الجمال» ولكن إن أراد أن يضيف ثمن الرصاصات، فالأفضل أن يجعلها نقدا ولكن السيد أعجبته الفكرة ولم يرغب فى التخلى عنها. وصُبت الرصاصات وانتظر الرحّالة فى بيت صديقه قدوم الأتباع الذين سيقدم لهم الهدايا. كان «شيخ الجمال» أول من حضر وبعد الانتهاء من السلامات والتحيات المألوفة، قدمت له البندقية. تقبلها دون كلمة شكر وقلبها فى يديه وتفحصها كمن ينوى شراء سلعة، وأخيرا قال: «عندى بندقية، وخادمى يحملها دائما معه، وهى أفضل من هذه، هل تريد أن يحضرها لتراها ؟» بالطبع رفض صديقنا هذا. ثم أعطيت له الرصاصات، فصاح: «رصاصات فضية ! إن محمد على باشا يستخدم المصنوعة من الرصاص. ما فائدة رصاصات فضية؟» كان الرد: «إنها ليست للاستخدام، إنها لفتة رقيقة كإضافة فقط، للبندقية، ولكن إن لم ترق لك، فيمكنك أن تحولها إلى نقود فى أى وقت». فهم الشيخ هذا الاقتراح ووزن الرصاصات فى يده ولكنه لم ينبس بكلمة شكر. بعد ذلك قدمت له الدولارات، أخرجها واحداً واحداً وتمعن فى كل عملة ثم قام بعدّها أمام المحسن بها. وهنا ضاق صدر صديقنا فقد كان ينتظر على الأقل أن ينطق الشيخ بكلمة شكر حينما تقدم له الدولارات، وأحس بما يشعر به السيد الكريم من إحباط فقال لشيخ الجمال: «والآن لك حساب معى أنا. خبرنى، كم طلبت من هذا السيد حينما استأجر منك الجمال للرحلة الفلانية ؟ وكم كان مكسبك من الرحلات الفلانية والفلانية؟» أدرك الشيخ أنه يتعامل مع شخص مجرب وعادل واضطر أن تكون إجابته صادقة. وبعد أن أتما الحساب، تبين أن الشيخ كسب ربحا كبيرا من مخدومه، فأصر صديقنا أن يقوم بواجب الشكر اللازم ثم يغادر المنزل. فى مثل هذه الظروف وحيث أن الشيخ يعلم أن محدثه، ذو مكانة مرموقة وله نفوذ واسع، رضخ للأمر الواقع وقدم شكره المتأخر.

إنه لشيء غريب لا جدال فيه، أن الرجل سر سرورا بالغا بالهدية ولكن همه كان أن ينال كل قرش يستطيع من شخص رضخ مدة طويلة و بصبر لكل ابتزازاته، فتصرف مثلما يتصرف كل عربى فى مثل هذه الظروف. كما أن العرف السائد من إعطاء هدية بعد أى معاملة مع عربى له ميزة إذ أن الأمل فى نيل «بقشيش» يحافظ على استمرار المعاملة الطيبة السويَة، و لا داعى أن يخيب مثل هذا الأمل.



الرســـالة
التاسعة والعشرون

تسامح محمد على الديني

مـايو ١٨٤٥

كثيرا ما تضطرني إقامتي هنا، إلى أن أتعامل بطريقة ودية مع نساء يتحتم علىّ حسب أصول اللياقة الشرقية، أن أدعوهن «سيدات»؛ ولدن من أبوين مسيحيين ونشأن منذ نعومة أظفارهن في العقيدة المسيحية، ولكنهن الآن يتبعن دين الإسلام. أشير إلى تلك الكائنات التعيسات اللاتي انتُزعن من موطنهن وأتى بهن إلى هنا ليصبحن جوارى. هناك ما بـ دهشتي الشديدة بالنسبة لهن وللمماليك أى العبيد البيض من الذكور، وهو أنهم عادة أكثر تعصبا لدينهم من باقي المسلمين. ولكن من نواحي أخرى أجد أن الكثيرات من هؤلاء الجوارى لا يزلن يحتفظن بطباعهن السمحة مما يجعلني أرثي لتعاسة

مصيرهن. الحال يختلف بالنسبة للمماليك، فمن بينهم، كما سمعت مرارا، من هم أكثر شبها بالشياطين منهم بالرجال؛ فهم مثل الوحوش في قسوتهم وفي كل ما يمكن تصوره من شر[11]. هناك نوع آخر في هذا البلد أحواله مشابهة وعدده كبير، بعضهم يستحق الشفقة وبعضهم الآخر يستحق اللوم الشديد. أقصد بالنوع الأول أبناء المسيحيين الذين فقدوا أبويهم هنا بسبب الموت أو الهجر فسهل إغراؤهم بالعدول عن دينهم واعتناق الإسلام الذي يبدو أن بعضهم يؤمنون به عن صدق. ولكننا نجد من بين الذين ارتدوا بعد بلوغ سن الرشد، أن أخلاق كثير منهم سيئة للغاية ويفوقون المسلمين بالمولد في تظاهرهم بالتعصب الأعمى فيعاملون أقرباءهم من المسيحيين المحترمين بغطرسة بغيضة وكبرياء ممض. وسوف أروي لك مثالا على ذلك.

---

(11) من الواضح أن المؤلفة تتبع هنا رأى الحكام الأتراك في المماليك، وهذا يناقض رأى الجبرتي الذي يسميهم «المصرالية» أي الأمراء المصريون ويعطف عليهم وخصوصا على نسائهم.

كان أحد المرتدين عن الكنيسة الشرقية من الذين لهم حظوة كبيرة لدى الحكومة، يتوقع منذ فترة، وصول ابن أخيه من سوريا و كان قد فارقه منذ عدة سنوات فلم يسمع بخبر ارتداده عن دينه. ولدى وصوله، قابله العم وتظاهر بالترحيب البالغ به وأثناء الحديث اعترف له بأنه قد أسلم وأنه اكتسب منافع كثيرة من جراء ذلك و أنهى حديثه بأن حثه على أن يحذو حذوه ولكن دون جدوى، إذ لم تؤثر شتى المغريات في الشاب الذى رفض أن يتبرأ من دينه وقال إنه، بمشيئة الله، يرحب بالفقر مادام لديه سلوى المسيحية. وأمام عناده، ازدادت رغبة العم في السيطرة عليه إن أمكن وكبح جماح ما أسماه بتصلب الرأى، وللوصول إلى هدفه، لجأ إلى الحيلة. طلب من ابن أخيه أن يتناول المرطبات ويستريح من عناء السفر فى حين ذهب هو للقاء عديد من أصدقائه من المسلمين وجمعهم فى مسجد مجاور ودعاهم أن يظلوا بداخله حتى يرسل لهم ابن أخيه يطلب واحدا منهم باسمه، وحينذاك ينقض عليه الجميع و يقبضون عليه بتهمة اقتحام مسجد مع كونه مسيحيا، و يهددونه بالقتل إن لم يتخل عن دين آبائه. قال لهم: «استخدموا أى وسيلة مهما بلغ بها العنف، وإن لزم الأمر أوقظوا فتنة شعبية ولكن لا تتركوه قبل أن يشهر إسلامه.» وبعد أن أعطى هذه التعليمات، رجع إلى منزله وطلب من ابن أخيه الذهاب إلى المسجد الذى دله عليه وأن يدخله ويطلب شخصا معينا، ذكر له اسمه ويخبره أن عمه يريده فى أمر. ذهب الشاب إلى المسجد ولكنه ارتاب حينما وصل إلى مدخله ورأى أناسا عديدين ملتفين هناك يلوحون له أن يدخل؛ لقد كانوا أصدقاء العم الذين حرصوا على تلبية رغبته فتجاوزوا الحد فى لهفتهم. لم يكن لديه سوى دقيقة واحدة للتفكير، وكانت كافية إذ أدرك أن حياته فى خطر وفى الحال فر هاربا. سلك طريقا وسط دروب وطرقات ملتوية حتى وصل أخيرا إلى دير وهناك رمى نفسه عند قدمي أول شخص رآه ينتمى إلى المكان وحكى له باختصار قصته. اقتاده هذا الشخص إلى حضرة رئيس الدير وآخرين وروى لهم كل ما حدث مؤكدا لهم أن حياته فى خطر إذا رجع إلى عمه خصوصا وأنه مصمم على التمسك - فى شتى الأحوال - بدينه المسيحى. ثم طلب منهم أن يعطوه عملا بالدير؛ ولكنهم أجابوا بأن لا عمل عندهم إلا إذا قبل أن يقوم بغسل الأطباق فى المطبخ. قال الشاب المسيحى، «على رأسى» دلالة على تحمسه وولائه، وتوجه لتوه

إلى المطبخ حيث انكب على أعباء عمله الجديدة وقلبه مفعم بالشكر. بعد أن قضى الشاب اسبوعين فى أعمال لا تتناسب ومقامه وتطلعاته استرعى انتباه واهتمام رجل تقى ذى نفوذ يعيش فى الدير، ما لبث أن وجد له عملا مربحا فى مكان آمن ونقله إليه. لقد روى هذه القصة شخص له صلة وثيقة بالشاب ويعرف أحواله. حدثت تلك الأحداث منذ فترة قبل أن يرضخ السلطان الحالى لرغبات السلطات الأوربيةالمسيحية التى طالبت بأن يستثنى من جزاء الحد، كل من كان أصله مسيحيا أو يهوديا و دخل الإسلام ثم ارتد عنه إلى دينه الأصلى. وعلى هذا، فلو كان الشاب الذى ورد ذكره، استسلم لرغبة عمه، ما كان بإمكانه أن يرجع إلى النصرانية ثانيا، وإلا نفذ فيه الحد، إلا بالطبع إذا حصل على عفو من الباشا.

من أفضل سمات محمد على فى نظرى، تسامحه الدينى فى الحالات التى يكون فيها الشرع متعسفا وقاسيا إلى أبعد حد، وباستطاعتى ذكر أكثر من حالة حدثت منذ فترة طويلة، حال فيها دون تنفيذ حكم الشرع فى أشخاص كانوا مسلمين منذ مولدهم ثم اعتنقوا المسيحية. وفى حالات أخرى تخص المسائل الدينية، تميز فيها باعتداله أو إذا أردت أن تسميها، سياسته المستنيرة العاقلة المتسامحة. وفى حين كانت حكومة السلطان تضع كافة العراقيل الوقحة لمنع إقامة كنيسة لنا فى القدس، وضعت أساسات كنيسة إنجليزية عظيمة فى الإسكندرية بإذن فورى من محمد على بالرغم من الاعتراض الصارم على ذلك من قبل القانون التركى. ويقال إن هذه الكنيسة سوف تكون صرحا مميزا جدا ذا نمط يغلب عليه الطراز البيزنطى مع تشابه الشكل العام بالأبنية اليونانية والإيطالية القديمة. أما المهندس المعمارى فهو المستر وايلد وهو فنان معروف فى إنجلترا وقضى ما يقرب من ثلاث سنوات يدرس العمارة العربية فى هذا البلد لتحسين أسلوبه وفنه؛ ويتوقع ذوو الدراية هنا، نتائج فذة لأبحاثه الأخيرة.

أما فيما يخص تسامح محمد على الدينى، فلا يمكنك تصور مدى الكراهية التى تنصب عليه بسبب هذا من المسلمين عامة. ولقد ازداد عداؤهم فى الآونة الأخيرة ضد المسيحيين واليهود ولعل هذا نتيجة غضبهم لرؤية اعتناق الأتراك والمماليك العاملين فى الدولة للتقاليد الأوربية الحديثة الكثيرة.

الرســـالة

الثلاثون

حفل عرس فى حديقة الأزبكية

مـايو ١٨٤٥

ذكـرت لك من قـبل أن حـفل الزفـاف الذى دعـيت له قـد تأجل مـوعـده، ولقـد بدأت الآن الاستعدادات له كما تجددت دعوتى مرة أخرى. وحـيث إن بعض المراسم التى تُتبع فى مـثل هذه المناسـبات تتم داخل الحـريم، فـهى قـاصـرة على النسـاء فقط، بينما تقام احتـفالات أخرى خاصـة للرجـال. و أنا بالـضـرورة مضطرة أن أؤجل وصـف النوع الأول لفترة قصيرة، ولكن باستطاعتى أن أصف حـفل الرجـال من مـذكـرات أخى الوفـيـرة بمناسبة زفاف من أعظم ما تم فى هذه المدينة خلال سنوات عـديدة، وسـوف أقـتطف منهـا مـا أظنه يروق لك. كانت الاحتفالات التى سوف أصفها، هى الفترة التى سبقت زفاف شقيقة أحمد باشا،



راقصات بريشة بريس دافين ١٨٤٨

ابن عم الوالى، وكانت مدتها تسعة أيام. ولقد قدّم محمد على لهذه المناسبة ثلاثة آلاف كيس من المال مما يعادل خمسة عشر ألفا من الجنيهات لأحمد باشا، كما قدم ألف كيس، أى خمسة آلاف جنيه للعريس، مختار بك الذى أتم تعليمه فى باريس وعين مؤخرا رئيسا لمجلس الدولة.

أقيم الحفل فى حديقة الأزبكية، وحيث إن الوقت كان فى موسم الفيضان، فقد امتلأ الفضاء الواسع الذى يعرف ببركة الأزبكية بالماء، وشكل البركة غير منتظم إذ يبلغ طولها ما يقرب من نصف ميل و عرضها ثلث ميل،، وعلى غير العادة كان مستوى الماء عاليا جدا. وتطل خلفية قصر أحمد باشا على البركة التى لم تعد الآن بحيرة، فقد ردمت وامتدت فيها طرقات تحفها أشجار. وقد أقيمت وقت العرس أنذاك، فى وسط البحيرة تقريبا، منصة من الخشب على قوارب، رُصت حولها أعلام صغيرة مثبتة فى قضبان يصل بينها حبال تتدلى منها مصابيح عديدة. وخصصت المنصة للألعاب النارية من صواريخ ومفرقعات فوضع فوقها خمسة مدافع لهذا الغرض ومدفعان على الشاطىء كانت تنطلق تباعا طوال النهار وأكثر تكرارا فى الليل أثناء انطلاق الصواريخ؛ كما كان هناك على البركة عدد من القوارب للإيجار، ونصبت خيام كثيرة فى الشريط الضيق بين حافة الماء والمنازل المحيطة، لبيع القهوة والحلوى وغيرها، كما أقيمت أراجيح ودُواميات للأطفال. وازدحمت بالناس شواطىء البحيرة والطرقات المؤدية منها إلى مدخل قصر أحمد باشا طوال النهار، كما ازدحم القصر ذاته الذى فتح للجمهور باستثناء بعض الغرف. وعلقت اثنتا عشرة «نجفة» فى ساحة القصر (اثنتان ضخمتان جدا، منظرهما قبيح) وأقيمت ظلة فوق الساحة من قماش الخيام الأحمر وخلافه لتحمى المغنين والرجال من راقصين وحملة سيوف وغيرهم من وهج الشمس أثناء النهار وهم يقومون بتسلية الجماهير؛ وكانت المرطبات من حلوى وقهوة وشراب ونحو ذلك، تقدم من آن لآخر لكافة أفراد الشعب من جميع الطبقات الموجودين فى القاعات العامة إذ إن أحقر الناس كان لهم مطلق الحرية فى الدخول ولم يفرد الباشا سوى بعض الغرف لاستعماله الخاص ولأصدقائه. وكان الاحتفال الرئيسى فى المساء.

يقول أخي «قضيت ساعة على شاطيء البحيرة في مساء أول يوم لمشاهدة الألعاب النارية، وكان المكان مزدحما للغاية و«القهوجية» من أصحاب المقاهي يرصون دككا و مقاعد مصنوعة من جريد النخل وقطع الحصر، على حافة الماء، وإذا جلس شخص على أحدها، قدم له في الحال فنجان من القهوة، وإذا رفض تناوله، لا يسمح له بالجلوس، اللهم إلا إذا كان من علية القوم؛ كما غرست مشاعل عديدة في الأرض للإضاءة، في حين كان عدد من خدم القصر يمرون على الحاضرين بالفطائر وأنواع النُقل المختلفة و سائر المأكولات وأيضا بمشروبات سكرية وبالماء.

«كان المنظر مدهشا للغاية، ينبض بالحيوية و كانت الألعاب النارية وأغلبها من نوع الصواريخ، تنطلق واحدة بعد الأخرى في فترات متقاربة من قلب البحيرة بشكل جميل كما كانت المدافع السبعة تنطلق من آن لآخر بالتناوب.

«اتجهت من البحيرة إلى القصر، أشق طريقي وسط الجماهير المكدسة، وكانت مصابيح عديدة بالإضافة إلى ثريتين كبيرتين معلقة في الطريق المؤدى للقصر كما أقيمت ظلَّة فوق الطريق أيضا مثل التي فوق ساحة القصر. وجدت الساحة مكتظة بالناس، معظمهم من الطبقات الدنيا. حاولت دون جدوى الاقتراب من حلقة حول مجموعة من الراقصين فلم أتمكن من مشاهدتهم. وكانت قاعات الاستقبال بالقصر مليئة بأشخاص من كافة الطبقات بملابسهم المختلفة اللافتة للنظر، الغنية منها والفقيرة. أوقفني حارس عند مدخل إحدى الغرف قائلا إنه لا يوجد بداخلها سوى أوربيين، وجدتها فرصة مناسبة أن أؤكد حقي في الدخول، فأفسح لي الطريق. وهنا وجدت قلة من الناس، أغلبهم يونانيون ومن بينهم عدد من النساء، بعضهن يرتدين الزى الأوربي العادي في حين ارتدت أخريات ملابس الرجال الأتراك ليُظن أنهن غلمان إذ ليس من المعتاد أن تظهر النساء في الشرق في صحبة الرجال أو حتى أن يخرجن بالليل؛ ولكن جنسهن كان واضحا جليا.

«من نافذة هذه الحجرة، أمكنني أن أرى بوضوح ما يحدث في الساحة؛ رأيت فرقة موسيقية عسكرية تعزف العديد من الألحان الأوربية بمهارة فائقة، تلتها جوقة من «الآلاتية» المحليين، يؤدون بعض ألحانهم بمصاحبة الغناء أحيانا؛ ولكن لغط

الأصوات في الساحة، حال دون وضوح الاستماع إليهم. بعد ذلك جاء راقصون كبدائل غير موفقة للراقصات اللاتى صدر حظر مشدد ضد ممارستهن لمهنتهن، منذ حوالي ثلاثة أو أربعة أشهر، وكثيرات منهن رفضن التوبة عن حياتهن المتبرجة، فنفين إلى إسنا في مصر العليا. لم يكن الراقصون في هذه المناسبة من «الخولات»- أى الراقصين المعروفين في القاهرة - ولكنهم يشبهونهم في الزى والمظهر، بل لا يختلفون عنهم كثيرا إلا في الاسم وهو «الجنك»[١٢]. وبحكم مهنتهم التى تجعلهم مخنثين في الملبس والمظهر والأداء، فإنى أشعر بالاشمئزاز تجاههم، وأرجو أن يكون هذا أيضا إحساس الكثيرين من المشاهدين. والجنك عادة من اليونانيين والأتراك والأرمن أو اليهود، وفي الموقف الذى أصفه، كان أغلبهم من الأرمن و يرقص حوالى ستة منهم في المرة الواحدة. كانوا يرتدون صدرية ضيقة وقميصا واسعا، أى مزيجا من لبس الرجل والمرأة، وشعرهم طويل، يتدلى في أغلب الأحيان على الظهر على هيئة ضفائر تزينها قطع صغيرة براقة من الذهب تستخدمها عادة النساء المصريات من الطبقتين الوسطى والعليا وتسمى «صفا». كانوا يستعملون صاجات من النحاس، و رقصهم عامة يشبه من كافة النواحى، رقص الغوازى أو العوالم؛ ولكنهم كانوا أحيانا يقومون ببعض الحركات البهلوانية.

«وفى تلك الأثناء كان أحد المهرجين من خدم الباشا يسلى الحاضرين بحركات هزلية وهو يرتدى ملابس مبهرجة، غريبة الشكل وفوق رأسه طاقية حمراء مدببة تزينها خيوط براقة وأجراس. وكان هذا البهلوان وعدد من الأشخاص، من بينهم أحقر وأقذر البشر، يحملون المشاعل. طلع المهرج إلى غرفة الإفرنج، حيث كانت كافة أنواع المرطبات من مشروبات روحية وشراب عصير الفاكهة وقهوة وخلافه تقدم للحاضرين، كما جاء أيضا «الآلاتية» الذين كانوا يعزفون في الساحة وقدموا مقطوعات موسيقية بعضها على الآلات وأخرى غنائية ولكن المهرج كان يسبب نشازا في الموسيقى حينما كان يحاول مرافقتهم بصاجاته كما قام بحركات يحاول

(١٢) يصف الجبرتى احتفالات أقيمت ويقول «به جنك رقاصات» (١٢٣٤هـ/١٨١٨م).

بهـا استـدرار الضـحك فجلس فى حجـر أحـد العازفين المتقـدمين فى السن و رقص بطريقة مبتذلة، وظهره للسيدات الحاضرات كما أدى حركات أخرى بذيئة.

«فى الوقت نفسه كانت هناك عروض من نوع آخر فى الساحة، إذ قام جماعة من «المحبظين» -وهم ممثلون هزليون - بتقديم فصل هزلى عن المتاعب التى يتعرض لهـا رجل تسيطر عليه زوجته المشاكسة. ظهر هذا الشخص البائس أول الأمر بكامل بزته، شاهرا سيفه، يرقص فى الحلبة ثم قدم رجل بملابس نسائية يمثل زوجته (وسوف أطلق عليه ضمير المؤنث) تتمخطر فى مشيتها وطلبت منه إعطاءها سيفه، وحين رفض، قذفته بالشتائم والصراخ ولطمت وجهها ثم انهالت على وجهه هو بالضرب حتى نالت مأربها. وبالطريقة نفسها أرغمته على أن يتجرد من ملابسه قطعة بعد الأخرى، وأخيرا نفد صبره فقام بضربها حتى قضى عليها وماتت. خطر ببالى أن هذه الهزلية السخيفة قد تكون لها دلالة واضحة إلى حد كبير فى مناسبة الاحتفال بزفاف رجل رُفع مؤخرا إلى مركز مرموق، بامرأة من طبقة أرفع منه بكثير؛ ومن المعروف بين الأتراك، أنه عادة فى مثل هذه الحالات، يصبح الرجل عبدا خاضعا لزوجته. تبع ذلك، عرض لرجل يركض عدة مرات حول الحلبة بيديه وركبتيه وهو يمسك مشعلا متقدا عند مؤخرته يمثل ذنبا. كانت هذه من أهم العروض السخيفة التى قدمت من وقت غروب الشمس إلى منتصف الليل فى حين استمر عرض الراقصين وسواهم طوال الليل وأيضا طوال النهار. وكان الباشا يقيم مأدبة خاصة لأصدقائه كل ليلة طيلة فترة الاحتفالات ولكنه لم يكن يتناول معهم الطعام.

«وكانت عروض الليلة الثانية والألعاب النارية تشبه كثيرا الليلة الأولى فلا داعى لأن أصفها. أدخلت بعض نراجيل الباشا إلى الغرفة المخصصة للأوربيين كما قدمت أيضا المرطبات؛ و فى هذه الليلة ظهر المهرج بلباس الفرنجة وكان يبدو خجلا من مظهره فجاء أداؤه مملا تنقصه الحيوية.

«وفى الليلة الثالثة، بعد عروض الجنك المعتادة، قدم أحد الحواة حيلا تنم عن خفة يد أثارت إعجاب الحاضرين؛ كانت أهمها إلقاء قصاصات من الورق الأبيض فى إناء وضع فوق رأس صبى، ثم إخراجها وقد اصطبغت بألوان مختلفة. لم يؤت

بالنراجيل إلى غرفة الأوربيين فى هذه الليلة لأن أحد المباسم القيمة سرق فى الليلة السابقة، واضح أن السارق لم يكن أحد الضيوف إذ أنه وجد بعد ذلك فى غرفة أخرى لم يدخلها الأوربيون. ولكن قدمت المرطبات مثل الليالى السالفة وبذل اهتمام أكبر للترفيه عن الزوار فى هذه الغرفة فصعدت فرقة عسكرية ومعها الآلات المصرية المعتادة وقامت بعزف وغناء بعض المقطوعات الشعبية، كما صاحبهم المهرج بصاجاته وحركاته الهزلية. تبع ذلك فرقة تركية بموسيقى حزينة لها طرافتها ولكنها بدت هزيلة تنقصها حيوية الفرقة المصرية. ثم عزفت فرقة شعبية مستأجرة بمهارة فائقة بعض المقطوعات لمدة ساعة من الزمن تقريبا.

«فى هذه الأثناء كانت فرقة عسكرية كاملة تعزف مقطوعات إفرنجية فى الساحة وبعد انتهائها، قُدمت مسرحية هزلية يدور موضوعها عن المتاعب التى يلقاها رجل متزوج من امرأتين، ولم يكن فى مجملها ما يستحق الذكر، وفى أسوأ أجزائها مشهد أثار فى نفسى إحساسا بالاشمئزاز، دفعنى إلى مغادرة القصر.

« خلال الليلة الثالثة، أصاب صاروخ جزءا من قصر أحمد باشا وأشعل فيه النار ولكنه لم يحدث ضررا ذا بال؛ و لكن نتيجة لذلك أزيلت فى صباح اليوم الرابع القوارب والمنصة القريبة من القصر، التى كانت تُطلق من فوقها الألعاب النارية، و لم يبق منها سوى التى فى منتصف البحيرة. فى الليلة التالية، عرضت فى القصر مسرحية هزلية سخيفة تلتها الفرقة العسكرية التى عزفت مقطوعات أوربية، وتلا ذلك نزال صورى بالسيوف بين رجل وصبى كان واضحا فيه أن الضربات موجهة نحو الترس الذى يمسك به كل منهما، ثم آخر بين رجلين؛ تبع ذلك فاصل من الموسيقى المصرية أدتها فرقة مستأجرة.

«اقتصرت العروض فى ساحة القصر فى الليلة الخامسة، على مسرحية مملة ورقصات الجنك؛ ولكن المقطوعات الموسيقية والغناء الذى قدمه «الآلاتية» فى غرفة الزوار الأوربيين كان ممتعا للغاية. وحدث خلال هذه الليلة، أن دخل ساحة القصر، ولد صغير بدت عليه الدهشة والانبهار لكثرة عدد الثريات التى لم ير مثلها من قبل، فبدرت منه صيحة عالية تعبر عن هذا الشعور، تضايق ضابط تركى من هذا التعبير التلقائى البريء وقام بجلد الصبى بعنف كما ضربه جندى بعقب

بندقيته ؛ صادف فى هذه الأثناء أن نزل أحمد باشا إلى الساحة وشاهد ما يحدث فسأل عنه وحينما علم السبب ، أصدر أمرا فوريا بجلد التركى بشدة مضاعفة وصاح فى الجنود أن يتخذوا موعظة من ذلك ، ثم أنعم على الطفل المسكين بعدد من السعديات (وهى عملات صغيرة تبلغ فئة الواحدة منها ما يقرب من عشر بنسات من نقودنا) ولا شك أن الصبى فرح بالمكافأة وتمنى أن يجلد كل يوم لينال مثل هذا التعويض .

«فى اليوم السادس ، ثُبت حبل للراقصين فى مكان فسيح بالطريق المؤدى من البحيرة إلى قصر أحمد باشا ؛ وقام بالرقص فى هذا اليوم امرأة وصبى يقرب عمره من الرابعة عشرة ، وكلاهما من فئة الغجر ، قاما بعرضين فى هذا اليوم أمام جمع غفير جاء لمشاهدتهما . كان ارتفاع الحبل عن الأرض حوالى ثمانية عشر قدما والجزء الأفقى منه قصير جدا لم يتعد اثنى عشر قدما ؛ كانت المرأة ترتدى ملابس كثيرة رثة ولكنها زاهية الألوان وكانت غير محجبة على عادة نساء الغجر فى مصر وبدأت العرض بأن مشت على الحبل على مهل وبحذر شديد ، ممسكة بعمود خشبى لحفظ التوازن ولكى تتكئ بأحد أطرافه على الأرض . ثم جاء دور الصبى على التو بعدها فمشى هو أيضا على الحبل ولكنه لم يفعل شيئا يستحق الذكر .

«انشغل العاطلون فى حى الأزبكية فى هذا اليوم عن الاحتفالات ، بحادث القبض على رجل قبطى (كان يدعى دائما أنه مسيحي) لأنه استأجر عددا من الفقهاء لقرآءة القرآن فى منزله ؛ ولكنه برأ نفسه بالتأكيد أنه كان مسلما فى قلبه منذ أربعة عشر عاما ولكنه خشى عداء أهله إذا جاهر بذلك ، حينذاك بُدِّلت عمامته السوداء التى اعتاد أن يرتديها بأخرى بيضاء ، وأرسل إلى القلعة لتقبل كسوة جديدة . من المعتاد فى مثل هذه المناسبات أن يتقدم المرتد بعض الآلاتية من قارعى الطبول ونافخى المزمار وعدد من تلاميذ المدارس يصيحون وهم يسيرون «اللهم انصر دين الإسلام ! اللهم اسحق دين الكفار !» من حوادث هذا الصباح أيضا أن انهار حائط قديم على شاطئ بحيرة الأزبكية بسبب الارتجاج الناتج عن إطلاق المدافع فوقع على أربعة رجال ، قتل أحدهم تحت الأنقاض .

«وفى مساء هذا اليوم بالقصر ، قام أحد «الخولات» (أى راقص مصرى)

بالرقص، وكان الجنك الذين كانوا يرقصون في الوقت نفسه في مكان آخر بالساحة. كانت عروض هذا الرجل، يغلب عليها طابع الرياضة الجسمانية مثل القفز من خلال حلقة ونحو ذلك؛ ثم وقف على كتفي رجل آخر، سار به لبضع دقائق ثم وهو في الوضع نفسه، حمل صبيا على ذراعيه، بعد ذلك جعل من نفسه دعامة لمجموعة من خمسة رجال وصبيان لمدة دقيقتين أو ثلاث ثم أطاح بهم على الأرض. ولكن ما أثاردهشة الجمهور حقا، أنه حمل بأسنانه فقط كما كان يبدو، ثقلا يزن حوالى ستين أو سبعين رطلا، يتكون من اسطوانة خشبية مثبت فيها أربع حلقات مستديرة من الحديد و هي جزء من آلة تسمى النورج وتستخدم في مصر لدرس القمح وفصل القمح عن التبن؛ وبينما إحدى هذه الحلقات بين أسنانه، ترقد التالية لها فوق رأسه. كانت الفرقة الموسيقية الكاملة للجيش تعزف انغاما أوربية، في حين عزفت فرقة أخرى للجيش أصغر منها، ألحانا.وطنية مستخدمة الآلات الشعبية.

«في الليلة السابعة، قُدِّمت مسرحية هزلية مملة، لا تتعدى مشاهدها منظر عقد قران يتلوه موكب عرس عادى على طريقة أهل البلد. ولسدٍّ النقص في روح الفكاهة بالعرض كان الممثلون يقذفون المفرقعات النارية كل حين وآخر، و أنهوا مسرحيتهم برقصة سخيفة. بعد ذلك أظهر أحد الفلاحين مهارته برفع مشاعل طويلة فوق جبهته مع الحفاظ على توازنها؛ بدأ بمشعل من الارتفاع المعتاد، به حامل واحد لاحتواء النار؛ ثم تبعه بآخر به خمسة حوامل ثم بثالث بحامل واحد ولكن طوله ضعف الطول العادى.

«في الليلة الثامنة وهي آخر ليالي احتفالات القصر، كانت العروض أتفه بكثير من سابقاتها ولا تستحق الذكر ولذا سوف أكتفي بالصمت؛ ولكن يبقى أن أصف زفة العروس إلى بيت العريس و كان موعدها في اليوم التاسع، أى يوم الخميس وهو اليوم التقليدى لمثل هذه المناسبات.

«من المعتاد في مثل هذه الظروف، أن يتخذ الموكب طريقا ملتويا من خلال عديد من الشوارع المتسعة بالعاصمة و المضى بالذات في شارع المدينة الرئيسى. في هذه المناسبة اتجه الموكب عند خروجه من القصر إلى اليمين إذ إن الميل إلى اليسار

يعتبر فألا سيئا ؛ وبعد اختراق عدة شوارع، طاف بالبحيرة وضواحيها ثم اخترق الحى الذى يسكنه معظم الفرنجة وبعد مروره به وصل إلى ما بعد الحدود الأصلية الغربية والجنوبية للمدينة، و دخل الشارع الرئيسى من البوابة الكبيرة التى تدعى باب زويلة. وكان لزاما على الموكب أن يمر بأغلب أجزاء المدينة كى يصل إلى منزل العريس، و أخبرت أنه سوف يمر فى الشارع الرئيسى حوالى ساعة قبل الظهر ؛ فذهبت هناك ساعة قبل الميعاد المنتظر ؛ ولكنى اضطررت أن أنتظر ست ساعات قبل أن يصل إلى المكان الذى كنت أجلس فيه.

« تقدم الموكب رئيس المهرجين فوق صهوة جواد، وعلى رأسه طرطور مدبب من الفضة من ممتلكات الخزانة. وكان يُحيى الجماهير بكل وقار عن اليمين وعن اليسار وهو يمر بهم، كما يفعل القاضى وغيره من عظماء القوم ؛ وأحيانا كان يقوم بالحركات السخيفة نفسها التى يقوم بها المهرج ذو اللحية المستعارة فى مواكب الكسوة والمحمل، مثل التظاهر بكتابة قرارات قضائية ونحو ذلك. تبعه أربعة رجال، يرتدون ملابس فضفاضة قرمزية اللون من النوع الذى يسمى البنش، يركب كل واحد منهم جملا وينقر على طبلتين كبيرتين، مما يدعى «النقاقير» ؛ وتبع آخرهم سقاء يطلق عليه اسم القائم، وكان مثلهم، يرتدى بنشا قرمزيا. وقائم السقائين هذا، يُختار من بين أقرانه لأن باستطاعته أن يحمل قربة مملوءة بالرمل والماء أثقل وزنا ولمدة أطول من أى شخص آخر وعليه أن يقوم بهذا العمل البطولى دون أن يجلس ليستريح إلا فى وضع رابض وتكون مكافأته منحة مالية، وهذا اللقب الأجوف. ولقدْ بدأ قائم هذا الموكب بحمل عبئه، أى قربة من الرمل والماء تزن ما يقرب من مائتى رطل، من مغرب اليوم السابق، وحملها فى الموكب وظل يحملها حتى مغرب هذا اليوم. وهذه عادة متبعة فى زفات علية القوم.

« تبع هذا، اثنا عشر جملا على كل منها إما سرج أو هودج مغطى بقماش قرمزى أو أخضر محلى بأصداف وودع، وبه مجموعة من الأعلام الصغيرة، تميل إلى الأمام من مقدمة السرج كما فى مواكب الكسوة والمحمل : فى الواقع كانت الأسراج والهوادج هى ذاتها التى استخدمت فى هذه المواكب فى المناسبات السابقة.

«بعد مرورها بقليل ، جاءت سفينة محمولة فوق عربة مدفع وبها »باش ريس « أحمد باشا وكان يجرها عدد من الرجال . ثم مر مدفع ميدان صغير ، أُطلق منه طلقة فى الطريق أمام غرفة بمدرسة خاصة ، كان أحمد باشا يجلس فيها لمشاهدة زفته . ثم جاءت جماعة من الجنك الذين سبق أن قاموا بعروضهم فى القصر ، وكانوا يقرعون بالصنج ومن آن لآخر يؤدون بعض الرقصات ، تبعهم فارسان يحمل كل منهما ساريا طويلا مربوطا فى أعلاه منديل مطرز ، ورجل آخر يحمل مشعلا ، قضيبه طويل مثبت فيه مناديل عديدة ؛ كما كان هناك عدد من السقائين ليزودوا الجمهور بالماء . ثم ظهرت عربة سقفها مغطى ومكشوفة الجوانب تجرها أربعة جياد وفوقها الفرقة الموسيقية الرئيسية التى قامت بالعزف فى القصر ، وقد قاموا أيضا بالعزف أثناء الموكب ، ولكن موسيقاهم كانت لا تكاد تسمع . مرت عربة مماثلة ، تحمل العوالم اللاتى قمن بالغناء فى الحريم أثناء الاحتفالات وكن محجبات مثل السيدات المحترمات ، وهن ينشدن أثناء سير الموكب . «ولكننا افتقدنا ما يُشاهد عادة فى حفلات الزفاف من هذا النوع ، ألا وهى العربات التى تقل كل منها أفرادا من مختلف الحرف والتجارة ، كل منهمك فى أداء مهنته ، حتى البناؤون والنقاشون وأمثالهم أى من كل الفنون والحرف الممارسة فى العاصمة تقريبا . «تبع عربة العوالم مجموعة من المهرجين من صبيان ورجال يقلدون الفرسان بجياد وهمية مصنوعة من جريد النخل والورق ، ثم جاء رجلان يمشى كل منهما بطوالتين ، يبلغ ارتفاع كل منهما ثمانية أقدام ؛ بعد ذلك جاء الممثلون الذين قدموا الفصل الهزلى السخيف فى القصر و الذى سبق أن وصفته ، ومعظم الجنك ومعهم فرقتهم الموسيقية التركية ؛ ثم فصيلة من حاملى الرماح ووحدة من الرواد العسكريين وفرقة كاملة من موسيقى الجيش وكتيبة من المشاة ؛ ثم مجموعة من الخصيان ممتطين الجياد يتقدمون قافلة من ثمانى مركبات أوربية رثه ، تحمل السيدات . وكان يجر كل مركبة أربعة جياد ، ويقودها سائق عربى ، ويصاحبها من الخلف اثنان أو أكثر من الخصيان ؛ كان الجزء العلوى من المركبة مغطى بشيلان تتدلى من الأمام والخلف والجانبين ومسدلة على النوافذ لتحجب السيدات اللاتى بداخلها ، وكانت العروس فى المركبة الأمامية الأفضل شكلا . وعند مرور المركبات ، كانت النساء من الجمهور يطلقن الزغاريد العالية ليعبرن عن سعادتهن ،

كما تبع قافلة المركبات عدد من الطبالين ونافخي المزامير من الذين يصاحبون عادة مواكب الزفاف، وكل على صهوة فرس يرتدى بنشا قرمزى اللون. جاء فى مؤخرة الموكب رئيس بساتين أحمد باشا فى عربة مغطاة، مليئة بشتى أنواع الفاكهة التى علقت أيضا حولها. ولقد دامت فترة مرور الموكب من المكان الذى كنت أجلس فيه، نصف ساعة.»

إن ملاحظة أخى عن الحالة الرثة التى ظهرت بها مركبات علية القوم منذ عشرة سنوات، تدفعنى أن أذكر التغيّر البيّن فى المركبات بالقاهرة فى يومنا الحاضر إذ تكاد بعض منها تضاهى ما نراه فى هايد بارك؛ ولقد شاهدت فى الأسبوع الماضى محمد على فى مركبة ذات أربعة خيول رمادية جميلة، يصعب أن تفوقها - فى رأيى - أخرى من حيث الذوق العالى، الرفيع.



الرســـالة

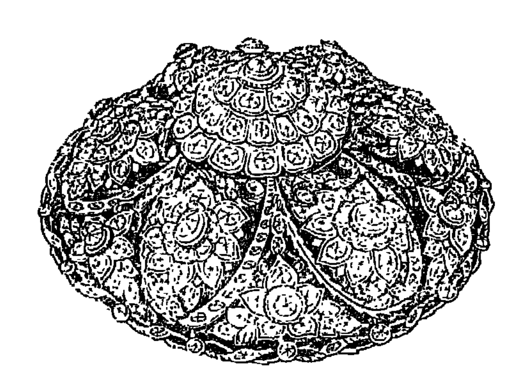
الحادية والثلاثون

الإحتفال بعرس زينب هانم صغرى بنات محمد على

الثلاثاء ١٦ ديسمبر ١٨٤٥

وصلتنى هذا المساء الدعوة الثالثة لحضور الاحتفالات بمناسبة زفاف زينب هانم، وحيث إنها تبدأ يوم الخميس القادم، أرى ضرورة تكريس كل اهتمامى لمهمة وصف المشاهد غير المألوفة التى سوف أراها. وزينب هانم هى صغرى بنات الباشا وخطيبها هو كامل باشا، أو بالأحرى، كامل بك سابقا، ياور وسكرتير محمد على الخاص، ولقد أنعم عليه السلطان برتبة الباشاوية حينما علم أنه رُشح ليكون زوجا لابنة والى مصر.

خطر ببالى أنه من الأفضل أن أكتب ما يشبه المذكرات لوصف الحوادث خلال الأيام الثمانية المقبلة للاحتفال: إذ إنه من المستحيل، بدون هذه الطريقة، أن تكتمل صورة احتفال يختلف تماما



قرص من الماس
يوضع فوق الرأس

عما تعودناه بالنسبة لحفلة العرس.

١٨ ديسمبر ـ حوالى الساعة الحادية عشرة صباحا، توجهت بصحبة صديقتى الحسيمة المسز ليدر إلى قصر القلعة حيث تقام الاحتفالات. صادفتنا عوائق كثيرة فى الطريق إذ إن عددا من الفصائل العسكرية كانت تسير فى مواكب نحو الازبكية حيث قصر العروس الذى سوف تتجه إليه فى ثامن يوم للاحتفال. كانت تتقدم هذه الفصائل وتتبعها فرق متميزة من موسيقى الجيش. وكان يلازم إحدى هذه الفصائل هيكل ضخم لفيل يمتطيه ويقوده هياكل لأشخاص تمثل هنودا، ومن المفروض أن ينسف الجميع (الفيل والهنود) مساء اليوم الثامن ليكون خاتمة للألعاب النارية التى سوف تعرض كل مساء فى الأزبكية[1]. وتبع الفيل، سفينة كبيرة على عجل، يرافقها آلاتية وطبّالون، يحدثون ضجة تصم الآذان؛ ويعلم

(١) يتسف الخرتى «التصاوير والتماثيل» المجسمة فى الاحتفالات (محرم ١٢٣٤/١٨١٨).

الغيب إن كانت السفينة سيلحقها مصير الفيل .

والطريق إلى القلعة مُعلم بعدد لا حصر له من الثريات الزجاجية الجديدة المعلقة بحبال عبر الشارع، وكل ثريا بها عشرة مصابيح . وحينما قمنا بصعود التل الذى تقع القلعة فوقه، وجدنا أن أعمدة مؤقتة ذات أشكال هندسية مختلفة قد شيدت على جانبى الشارع الجديد وكانت مدهونة بألوان زاهية وتتدلى منها مصابيح بشكل بهيج ؛ وكذلك علقت مصابيح فى الأماكن البارزة من جدران بوابة القصر ومداخله الأخرى، و بدت الساحة باهرة المظهر بما حوته من «فسطونات» من المصابيح، تتدلى من الأشجار وكأنها فاكهة يانعة . وكانت ظُلة ذات لونين أبيض وأحمر، تغطى الساحة كلها لتضفى ضوءا مريحا تحت وهج سماء مشمسة . كما كانت الحديقة آية فى الجمال بما أضيف لها من «فسطونات «المصابيح المعلقة حيثما أمكن ترتيبها .

بعد أن وصلنا إلى آخر مدخل، ولجنا ساتر الحريم، ذلك الحاجز الذى لا يتخطاه أى رجل سوى سيد القلعة أو من يحتاج إليهم من عاملين، و وجدنا الجيش المألوف من الأغوات والجوارى السود فى انتظار وصول المدعوات من السيدات الأوربيات . وحين مررنا من خلال الصالون السفلى، رأينا جوارى بيضا من مختلف الحريم فى أبهى ثياب و رافقتنا معية منهن ونحن نصعد السلم، وحينما وصلنا إلى الصالون الكبير العلوى أرشدننا إلى الطريق الذى نسلكه فاخترقنا جمهورا كثيفا حتى وصلنا إلى مكان الشرف .

هنا وجدنا العروس جالسة فوق مجموعة مرتفعة من الوسائد من الساتان الوردى الفاتح المطرزة بفخامة بالذهب . وبجوارها، جلس أخوها الصغير، محمد على بك؛ وعن يسارها وقفت سمو الأميرة نظله هانم، أكبر بنات الباشا، تنثر وابلا من العملات الذهبية والفضية بين الجموع . و كان هذا هو سبب وجود ما يقرب من ثلاثمائة امرأة، معظمهن يحاولن الحصول على هذه الهبة . والعملات التى نثرت فى الحريم كانت من فئة خمسة وثلاثة قروش و كذلك بارات فضية مخلوط معها شعير وملح . لا أعرف سبب نثر الشعير ولكن الغرض من الملح هو درء عين الحسود .

جلست عن يمين العروس، والدة سعيد باشا التى أقعدتنى نظلة هانم بجوارها، وبجانبى من الجهة الأخرى، مسز ليدر. و حينما توقف وابل الذهب والفضة، غادرت العروس الصالون مثقلة بما ترتديه من ذهب ومجوهوات، تساندها أربع جوار. ولحظة نهوضها، كدنا نصاب بالصمم من جراء أصوات الدفوف الكثيرة وصيحات الزغاريد المدوية. كان يبدو على محياها مسحة من الحزن العميق مما أثار إشاعة تزعم أنها لا تميل إلي خطيبها. وبخروجها قل الزحام بعض الشيء وجلست نظلة هانم وتسلمت غليونها، وأمرت بأن تقدم لنا أيضا غلايين مثلها، ولكننا اعتذرنا. ولقد أدهشتنى فخامة المباسم، فالذى قدم لى، كان مطعما بالماس وآية فى الصناعة وكان قضيبه محاطا بخيوط من الذهب. أما غليون سمو الأميرة فكان أثمن ما رأيت فى حياتى، كان يشبه ما قدم لنا، ولكن مبسمه من الكهرمان، يتلألأ بالماس الذى زين به بطريقة فنية ماهرة، والجزء الأسفل للغليون كان يضوى أيضا بوفرة الماس الذى زخرف به؛ أما الإناء الصغير الذى كان الجزء الأجوف للغليون يرتكز عليه، فكان مطليا بالمينا بطريقة غاية فى الدقة.

قدمت لنا القهوة على طريقة الحريم العالى الأنيقة، وهى أن تمسك جارية ترتدى أفخم الثياب، سلاسل يتدلى منها طبق إحماء فضى، به فحم متوهج، تغلى القهوة فوقه فى إناء صغير من الفضة، فى حين تحمل جارية أخرى صينية فضية صغيرة مستديرة، رصت عليها فناجين القهوة الصغيرة فى أظرفها الرائعة المطعمة بالجواهر. كانت كلها نفيسة ولكن التى قدمت لسمو الأميرة كانت تفوقها إبداعا إذ إن الماس كان مرصوصا بطريقة حلزونية ماهرة على طبقة دقيقة الصنع من المينا.

كانت الصالونات مبنية على شكل صليب مستطيل، والأرض مغطاة بالبسط، وفى الطرفين دواوين مغطاة بقماش من الساتان،لونه رمادى فاتح مائل إلى الحمرة و مطرز بغزارة بخيوط من ذهب، وينتهى بهداب مجدول مذهب عرضه حوالى قدم. كما كانت كافة الحيطان والأسقف مطلية بذوق رفيع و الأرابسك وزخارف السقف المذهبة، جميلة وغير مبالغ فيها، وبالرغم من أن اللوحات المرسومة التى تمثل فى الغالب مناظر قصور صيفية تركية، تدل على جهل الفنانين بقواعد الرسم

المنظور وفقا لبعدها النسبى، إلا أنها منسقة بلباقة لتبدو مثل كسوة للحائط، وجاءت الحواف المذهبة من فوق وعلى جانبى اللوحات رقيقة وحسنة الذوق. ونظرا لقدم الزخارف، أصبح اللون السائد هو الرمادى الفاتح الذى يميل إلى الزرقة أى إن هناك تجانسا وتناسقا تاما من الناحية الفنية.

هناك صالون سفلى بالشكل نفسه، ويمكن اعتبارهما صالونى استقبال، أما الغرف الخاصة فمدخلها من أركان وسط الصليب وعلى هذا النحو، تُكوِّن شكلا مستطيلا. ويشغل أحد الأطراف المستعرضة للشكل الصليبى السلم الكبير، وأفضل مكان للحصول على رؤية كاملة لكل ما يحدث، هو المنطقة المواجهة للسلم فى كلا الصالونين.

والمنظر من نوافذ هذا القصر جميل للغاية؛ وكنت أثناء الفوضى التى سادت وقت نثر وابل الذهب، أتطلع من خلال نافذة وأتأثر للتناقض بين المنظر الذى أراه أمامى فى الخارج والذى بالداخل. كنت أرى مدافن قايتباى التى بدت فى الأسفل على بعد قريب جدا فى الصحراء و أحسست بروعة وعظمة جمال زمرة المساجد والمقابر مثلما لم أشعر بها من قبل و بعمق وجلال السكون الأبدى المخيم عليها. رأيت المدينة تمتد إلى اليسار وبعدها بساط أخضر فرشته مياه الفيضان، يصل إلى حافة أرض جاسان (Goshen)[٢] ـ منظر مهيب حقا.

لم أخبرك بعد عن روعة ثياب العروس. كانت ترتدى يلكا وشنتيانا من الكشمير الأحمر المطرز بخيوط الذهب بأسلوب زخرفى رائع تتخلله فصوص من اللؤلؤ، و فوقها سلطة من القطيفة الحمراء مبطنة بفرو القاقم (الإرمين)، وتكاد تكون مغطاة تماما بتطريز من خيوط الذهب والجواهر الثمينة. أما غطاء رأسها فكان يبدو بشعا للغاية وعريضا جدا: فقد ربط منديل من الكريب الأصفر حول جبهتها بطريقة تجعله يبدو من جانبى الرأس مثل الأجنحة؛ وفى مقدمة هذه العصبة و أيضا على الزر الأزرق المنفرج للطربوش رصت مجموعة من المجوهرات الماسية ذات أشكال مختلفة، فمنها على هيئة غصن شجرة و هلال ونجم وتاج و يعلو كل

(٢) جزء من الشرقية.

هذا عصفور صغير أصفر اللون تتدلى منه ريشتان طويلتان مقوستان تمثلان الذيل، واحدة تنحنى إلى يمين الوجه، والأخرى إلى اليسار. وحول رقبة العروس قلادة رائعة من الماس سوف أحدثك عنها فيما بعد. وكان جزء من شعرها مضفرا وجزء مشعثا وممزوجا بزر الطربوش الأزرق دون أى مراعاة للشكل أو المظهر. و حول وسطها، تمنطقت بشال من الكشمير المطرز، له أهداب من خيوط الذهب. أما نظلة هانم، فكانت ترتدي «يلكا «و "شنتيانا «من الساتان الأبيض المطرز بدقة فائقة على شكل أزهار من خيوط من ذهب ومن مختلف الألوان ؛ وبدا محمد على بك فى بزة عسكرية ضيقة مطرزة ببذخ بالذهب واللؤلؤ وسروال واسع، و قد غادرنا بعد انسحاب العروس إلى جناحها الخاص، لكى يرأس مأدبة عشاء لطلبة كليات الباشا. إنه أصغر أبناء محمد على وبلغ لتوه الثانية عشرة من عمره، ونحن فى أوربا نتعجب لرؤية فتى فى مثل سنه المبكر، يجلس على رأس مائدة تضم مئات من المدعويين، ولكننى لا أشك فى أنه أبلى بلاء حسنا، إذ إن التركى من أى عمر كان، لديه شعور حاد باللياقة واعتزاز قوى بالنفس.

أتى بعد ذلك بدكك، وتقدمت ست جوار، كل تحمل آلة موسيقية مختلفة، وبرفقتهن فرقة صغيرة من ضاربات الدفوف؛ جلست كل ثلاث جوار على دكة ومن ورائهن وقفت ضاربات الدفوف على الجانبين. دام العزف والغناء نصف ساعة تقريبا، وكان أداء الألحان التركية ممتازا للغاية، وفى هذه الأثناء بدأ الجمهور يتكاثر وتقدمت عروس ثانية نحو مجلس الشرف، تتقدمها وتتبعها فتيات يضربن دفوفهن. كان لباس رأسها مماثلا فى بشاعته للذى كانت ترتديه ابنة الباشا؛ إذ كان مرصعا بوفرة من الماس ويعلوه ريش أسود وأصفر. كما كانت «السلطة» التى ترتديها تشبه «سلطة» زينب هانم وكذلك الشال الذى تمنطقت به، ولكن «اليلك» و«الشنتيان» فكانا من الكشمير المخطط المطرز بالذهب. ألقت بنفسها أولا عند قدمى نظلة هانم ثم والدة سعيد باشا وبعد ذلك اتخذت مجلسها فى ركن الشرف. تدفقت الجماهير ومرة أخرى نثرت نظلة هانم عملات ذهبية وفضية بغزارة بين الحشد. وظلت العروس جالسة ما يقرب من عشر دقائق والتعاسة واضحة جلية على وجهها، ثم انسحبت مثل سابقتها برفقة صويحباتها وما كادت بصعوبة بالغة تتخطى الصالون وهى ترزح تحت عبء ملابسها المطرزة ومجوهراتها، حتى أغمى

عليها. وا حسرتاه لمثل هذه العروس البائسة ! إن المستقبل غامض بالنسبة لكل فتاة قبل زفافها، ولكن مبعث القلق يكون مضاعفا عشر مرات للتى لا تعرف شيئا عن خطيبها سوى ما يقال لها عنه.

بعد اختفاء العروس الثانية، وانحسار الجماهير تاركين وراءهم حشدا لا بأس به من بضع مئات، استأنفت الجوقة الموسيقية عزفها وغناءها إلى أن قامت نظلة هانم وهمت بمغادرة الصالون، فسبقتها وتبعتها ضاربات الدفوف مثلما صاحبن قبل ذلك العروسين. شعرنا وقتئذ بالرغبة فى التجول وما لبثت أن انضمت إلينا والدة محمد على بك التى أتحفتنا كعادتها بالترحاب الرقيق وقادتنا إلى غرفة خصصت لاستراحة الضيوف من الأوربيات. إنها حقا إنسانة رقيقة جدا وضاءة الجبين ذات مزاج لطيف، دمثة الطباع وكما يبدو دائما مرحة. دعتنا لمشاهدة هدايا العروس التى كانت قد وصلت فى صبيحة ذلك اليوم من عند العريس، فصحبناها إلى غرفة مجاورة حيث عرضت أشياء كثيرة نفيسة وجميلة من مجوهرات وملابس وأطقم فضية الخ... وكانت لا تزال أشياء أخرى تُفض عنها الأغلفة. أما صندوق المجوهرات فكان مغطى بقطيفة حمراء ومحلى بأفرع من الماس. كما شاهدنا اثنى عشر ثوبا من القطيفة والصوف والساتان، كلها مطرزة بفخامة بخيوط الذهب على شكل أزهار مثلما وصفت من قبل، ولها حواف من الأشرطة الذهبية عرضها حوالى ثلاث بوصات على هيئة أزهار وأوراق شجر. وقد رأيت فى هذا اليوم، بعض الجوارى يرتدين مثل هذه الأثواب. وبداخل كل رداء، طُوى شال رائع من الكشمير؛ أما مختلف أنواع «الشباشب» و«المزوز»، فكانت مرصعة بالماس بأشكال جميلة وكذلك زُين شريطا قبقاب الحمَّام بالأحجار الكريمة وطُعما بالصدف، وتدلى من الشريطين «شُرَّابات» ذهبية. وأعجبتنى جدا قنينتان للعطر، غَطيتا بأكملهما بفصوص الماس. وكان هناك أربعة أطقم للعشاء من الفضة وأيضا طاقم غريب الشكل للشاى، يتكون مما يشبه المزهرية أو الجرَّة الصغيرة و فناجين وأطباق من الفضة من الحجم المألوف؛ كما لاحظت وجود عدد من الصوانى، عليها آنية من الصينى الفرنسى، وأيضا أطباق أنيقة جدا من الصينى تبدو مجدولة مثل السلال للفاكهة. كما رأيت أيضا عدداً كبيراً من الهدايا الصغيرة رصت على صينيات من الفضة. وبعد أن أبديت إعجابى بهذه الهدايا النفيسة، قيل لى إن

نظلة هانم قد أمرت بأن يكون لى شرف رؤية مقتنيات العروس الشخصية المحفوظة فى غرفة أخرى حيث أمكننى أن أمسك فى يدى وأمعن النظر فى الحزام الماسى الرائع الذى ربما سمعت عنه؛ ولقد تأكدت منذ ذلك الحين من مصدر موثوق، أن الماس الذى أعطاه الباشا لابنته لهذه المناسبة تبلغ قيمته ٢٠٠,٠٠٠ جنيه وأن الحزام والعقد أثمن وأجمل ما يتضمن إذ إن الحزام قيمته ٤٠,٠٠٠ والعقد ٣٧,٠٠٠ والقرط ١٢,٠٠٠ والأساور ١٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى !

والعقد مكون من فصوص البرلانتى الكبيرة، و تركيبته من الفضة ويقال إنه لا مثيل له في أوربا سوى ما تمتلكه الليدى لوندنديرى، ومما زاد فى سعره صعوبة العثور على الماسة الرئيسية. كما شاهدت أيضا عديدا من الخواتم الماسية الرائعة وكان واحد منها يحتوى على حجر من البرلانتى ذى حجم مهول. من الغريب أنه، باستثناء مسبحة جميلة من اللؤلؤ كانت جميع المجوهرات من الماس. و حلى الرأس التى تبدو على شكل أغصان، كلها من الماس المركب فى الفضة، وكلها غاية فى الفخامة، فمنها على شكل وردة ذات براعم وأوراق و منها مثل فرع الياسمين وأخرى تشبه الهلال والنجم، وقد أثار إعجابى الشديد تاج رائع الجمال، كما رأيت ضمن الأشياء المبهرة المعروضة، ساعتين فى إطارين مرصعين بفصوص غزيرة من الماس ومرآتين رائعتين مزخرفتين بوفرة بفصوص الماس، ثمن كل منهما ألف جنيه؛ كان الغلاف الخلفى لإحداهن مغطى بالمينا دقيق الصنع وفصوص الماس تكاد تغمره بالكامل ؛ أما الآخر فصنع بمادة نسقت فيها فصوص الماس ببذخ و ذوقه رفيع جدا.

كانت الجوارى يتبارين فى تقديم كافة الأشياء لأتطلع إليها وكان السؤال دائما: «هل رأيت هذا؟» و «هل تفحصت هذا؟» وكان كل شيء فى الواقع رائعا بدرجة تفوق أكثر تطلعاتي. بعد قليل حضرت جارية تخبرنى أن سمو الأميرة تريدنى أن أرى أشياء أخرى وطلبت منى أن أتبعها إلى الطابق السفلي: وبطبيعة الحال وافقت وتبعتها من خلال ممرات ودهاليز ونزلنا عددا لا حصر له من الدرجات ثم ممرات ودهاليز أخرى حتى وصل بنا المطاف فى آخر الأمر إلى ممر أمام باب مغلق ونادت الجارية لمن بداخل الحجرة لتعلن وصولى. جاء الرد من الداخل «فلتدخل السيدة بمفردها، وعودى أنت أدراجك». لم يعجبنى أن أفقد مرشدتى ولكن لم يكن هناك

سبيلٌ للتراجع، وكان أملى الوحيد ألا تنتهى رحلتى هذه من خلال أرجاء هذا القصر المترامى الأطراف، بمغامرة غير متوقعة. فتح الباب ببطء شديد وحذر بالغ، وبالداخل وجدت ثلاثة أشخاص، اثنتين منهما أعرفهما جيدا، واحدة، أمينة الصندوق، والأخرى رفيقة حميمة لها. وأمينة الصندوق تنتمى إلى فصيلة من البشر يتميزون بجاذبية أخاذة ساحرة، دون أى نوع خاص من جمال الوجه؛ مسكنها فى قصر الدوبارة الذى يعرف الآن عادة بقصر النيل وجاءت إلى القلعة بمناسبة الاحتفالات مع مئات من أقرانها فى معية نظلة هانم. وسمو الأميرة لا تتواجد أبدا بالقلعة إلا لمثل هذه المناسبات حينما يفوضها والدها الباشا للإشراف على مراسم الاحتفالات.

أستأنف قصتى لأروى نتيجة مغامرتى. لقد طلبت سمو الأميرة من أمينة الصندوق أن تكشف عن باقى الكنوز، وأن أرى كل ما تم فض الأغلفة عنه. كانت الحجرة واسعة، والأرض مغطاة إلى منتصفها تقريبا بأغلفة الملابس المنزلية وملابس الركوب. كانت هذه الأغلفة فى حد ذاتها رائعة، إذ إنها من القطيفة الحمراء أو الكشمير وكلها مطرزة وذات حواف من خيوط الذهب، و كانت إحداها مطرزة بوفرة باللؤلؤ. رأيت تقريبا عشرين منها منشورة للعرض فوق سلات مستديرة وعليها أغطية للقهوة والشربات وكلها بالطريقة نفسها، ثمينة ونفيسة. كان هناك أيضا سجادة للصلاة مطرزة، ومعها إزاران من الكشمير الأحمر المبطن بالحرير الأبيض، أحدهما فى حجم سجادة صغيرة، والآخر أصغر للرأس، خصصا لاستخدام محمد على باشا بعد الحمام حينما يزور العروس. و شاهدت غطاء سرير من الساتان مطرزا بدقة بخيوط الذهب غاية فى الجمال، وأيضا ملابس مختلفة فخمة، تختلف بعضها عن بعض من حيث اللون ونوع القماش فقط ولكن كلها مطرزة بأسلوب واحد، تمثل أشكال أزهار. وكان يتخلل التطريز فى واحدة منها فصوص من الماس بسخاء و البطانة والحواف من فراء السّمور. ومما رأيت أيضا قطعا عديدة من الشاش الرقيق ألوانها فاتحة وبها خطوط ذهبية، كلها ذات طراز واحد، تستخدم خمارا للرأس. وقد أرسلت والدة العروس هدية الزفاف وهى عبارة عن صندوق صغير يكاد يكون كله مرصعا بفصوص الماس ولكننى لا أعلم كيف يستخدم. ولقد أعجبت كثيرا بطبق إحماء من الفضة، من فوق غطائه حلية

زخرفية بارزة من الفضة تمثل أسلحة مختلفة وأبواق حرب و يتوجها الهلال والنجمة ؛ ومع طبق الإحماء، صينية كبيرة من الفضة يوضع عليها غطاء الطبق إذا رفع عنه. ولقد رصت القطع الصغيرة فوق صينيات مزدانة بالكريب متعدد الألوان فكانت أرض الغرف تبدو وكأنها حديقة مزدهرة غناء.

وبينما كنت مشغولة بفحص هذه الأشياء المبهرة الغريبة، دخلت جارية ودعتني للانضمام إلى باقي السيدات الأوربيات اللاتي كن قد حضرن لتوهن فتأهبت لطريق الرجعة الطويل وقادتني مرشدتي إلى المكان نفسه في الصالون العلوي الذي شاهدنا فيه العروس عند وصولنا ؛ وجدت نفسي وسط مجموعة لطيفة من الأوربيات، يحطن بنظلة هانم التي جلست في منتصف الديوان العلوي، تهيمن على المراسم. بعد قليل قامت سموها،وتبعتها جاريتان تحملان ذيل ردائها، وقادتنا إلى صالون آخر، قُدم فيه العشاء لمائتي شخص بطريقة أوربية كاملة. لم يكن هناك شيء على المائدة يوحي لنا بالشرق سوى بعض ثمار الموز: فالأطباق والشوك والسكاكين و فوط المائدة منسقة على الطريقة الأوربية بداخل كل منها الخبز كما نفعل في بلادنا، كل شيء ساعد على خلق جو غربي. كان العشاء يتكون من وجبات باردة ؛ و كان هذا ضروريا إذ إن المطابخ كانت دون مبالغة على بعد مسافات شاسعة من غرفة الطعام. لم تجلس نظلة هانم على رأس المائدة ذات الطول الشاسع، بل رأستها من وسط أحد الجانبين، و كانت تستخدم الشوكة والسكين للأكل، وتلقي ببعض النظرات من طرفي عينيها على ضيوفها، و تمزح أحيانا مع الواقفات خلف مقعدها. كان مجلسي قريبا منها، وعلى يساري زوجة سعيد باشا. إن هذه الفتاة الجذابة جديرة بألا نمر عليها مر الكرام في صمت، فوجهها آية في الإبداع و قوامها الفاره الأهيف غاية في الرشاقة و في سلوكها أناقة أخاذة، ولكن من أميز صفاتها، طبيعة سمحة، تُشع فتضيء محياها المعبر الساحر. لقد تم زواجها في العام الماضي من سعيد باشا، أحد أبناء محمد علي، وما أتمناه أن يصون مثل هذه الجوهرة. قليلات من الشرقيات من جلسن معنا إذ إن زوجات الباشوات وغيرهن من ذوات المناصب العالية كن يطفن بالمائدة أثناء الطعام ليشرفن على حسن الخدمة، وكانت العروس بينهن في ملابس البيت دون أن تلاحظها أو تعرفها الضيفات الأوربيات اللاتي لم يحظين برؤيتها بعد. لم أرها

أنا شخصيا مع أننى كنت أجول بناظرى بحثا عن صديقتى الغالية مسز ليدر التى شغلت بالسهر على راحة الضيوف تلبية لرغبة نظلة هانم، فتهاونت فى حق نفسها(٣).

لم يمض وقت طويل بعد أن اتخذت الزائرات مجلسهن، حتى دخلت فرقة الحريم الموسيقية وأخذت تعزف مقطوعات مرحة طوال فترة العشاء. بدت السيدات الشرقيات عامة على سجيتهن بدون تكلف، ولو أن بعض الصعوبات ظهرت أحيانا لدى استخدامهن للشوكة والسكين، فقد رأيت سيدة بجوارى تطلب من جارتها، أو ربما تطوعت الجارة، أن تبيِّن لها كيف تستخدم الشوكة لتصل بها إلى فمها؛ وعلى هذا أمسكت كلتاهما بالشوكة، ونتج عن ذلك بالطبع أن وقعت قطعة الطعام. تمت هذه المناورة دون اى ابتسامة، وفى الواقع كانت المهمة خطيرة، إذ كان من الجائز، مثلما حدث للسفير الفارسى فى رواية حاجى بابا، أن تفقأ السيدة أحدى عينيها؛ على أية حال، انتهى العشاء دون حدوث شيء ذى بال و كانت سمو الأميرة تكرر الدعوة للضيوف بالأكل وأن يعتبرن أنفسهن فى بيوتهن، فتردد عبارات مثل: «باسم الله، باسم الله، يا ستات، بيتى بيتكم.» الخ.

قادتنا نظلة هانم بعد العشاء إلى حجرة مجاورة للصالون الذى تناولنا فيه الطعام؛ وبعد أن اتخذت مجلسها فى وسط الطرف العلوى، طلبت من كل السيدات أن يجلسن. كان الديوان رديئا جدا لارتفاعه الزائد ولانحداره إلى أسفل من الأمام؛ نتيجة لذلك كانت الأوربيات إما، يجلسن بصعوبة على الجزء الأمامى المنحدر، أو يرفعن أقدامهن على الديوان. يبدو أن كلا الطريقتين لم ترق للأميرة إذ جاءتنا سيدة زعمت أنها موفدة من سموها تسأل إن كانت هؤلاء السيدات يجلسن بهذا الشكل فى حضرة ملوكهن ! أجابت سيدة إنجليزية بحدة، «لا؛ ولكن لديهن مقاعد يجلسن عليها وليس ديوانا غير لائق وغير مريح». حينذاك أكدت سيدة كانت تجلس بجوار سمو الأميرة طوال الأمسية الأولى، أن السؤال الذى طرح على الأوربيات لم يصدر عن الأميرة، ولا شك أن لبسا قد حدث إذ لم

(٣) من المستبعد جدا أن تطوف العروس «بملابس البيت» حول المائدة لتشرف على حسن الخدمة، ويبدو أن هذا كان مجرد تخمين من بعض السيدات الأجنبيات؛ فضلا عن أن المؤلفة لم ترها بنفسها كما تذكر.

يكن غرض نظله هانم إلا أن تُزال كل كلفة وأن يعتبر الجميع أنفسهن في بيوتهن حيث إنها تعتبر الصبايا من السيدات بناتها والأكبر سنا أخوات لها ؛ وقد طلبت أن تترجم لهن هذه المشاعر والرغبات، ولكن أقوالها لم تترجم، فساد بين الأوربيات انطباع خاطئ.

من المشاهد المسلية التي أسعدتنا، فرقة من ست فتيات تركيات يرقصن، أو بالأحرى «يتشقلبن» بطريقة طريفة وكأنهن بهلوانات محترفات، إلا أن وجوههن كانت صارمة لا تعلوها ابتسامة أو ضحكة مما لا يتفق مع حركاتهن. كانت ثلاث فتيات يلبسن ثيابا من الكشمير الأحمر وثلاث أخريات يرتدين الأزرق والأحزمة من القطيفة السوداء، تحفها من أسفل أهداب عريضة ذهبية. و كانت الملابس تتكون من صدرية ضيقة، لها أكمام واسعة من الموسلين الأبيض و من سروال واسع. كانت الراقصات يكثرن من الدوران حول أنفسهن ويقذفن برؤوسهن إلى الخلف مع لف مستمر بحركة دائرية ؛ ثم يركعن مع الاستمرار في لف الرأس ثم يقفزن وكأنهن يهرولن في الهواء وانتهى العرض بأن أمسكت كل منهن بطرف منديل أبيض ملفوف، تحركه تارة فوق رأسها وتارة أخرى من تحت ذراعها. وكانت فرقة موسيقية تعزف وتغني أثناء الرقص بالطريقة التركية. تبع ما وصفت، رقص قامت بأدائه ست فتيات صغيرات شركسيات (من جورجيا) منظرهن لطيف جدا، فشعرهن أشعث و مسدل على الظهر وملابسهن من الكشمير الوردي، الصديرية ضيقة، و التنورة واسعة فضفاضة لها ثلاثة صفوف من الأهداب المذهبة. أعجبني رقصهن أكثر من السابقات فقد كن يبذلن مجهودا كبيرا حتى أنه في كثير من الأحيان كدن يسقطن على الأرض من الإعياء ؛ وكان شعرهن الداكن الجميل في بعض الأحيان يغطي وجوههن كما كانت أحذيتهن تنخلع من أقدامهن ؛ ولقد تمتعت، إلى حد ما، بعرضهن. ثم جاءت مجموعة من الراقصات تتراوح أعمارهن ما بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة، يرتدين ملابس متشابهة أوربية الشكل من حرير مربع النقش أتحفن الجمهور بطريقة مماثلة إلا أن حركة أقدامهن ـ وتعتبر آخر صيحة في الرقص التركي ـ كانت عبارة عن ثلاث خطوات تتبعها قفزة. تبع هؤلاء البنات، اثنتان من «العالمات» وتعتبران أحسن مغنيتين في مصر ؛ وعزفت الجوقة بعض الألحان العربية الجميلة، ولكن «العالمتين» لم تصاحباها بالغناء بل قامتا فقط

بالرقص علي الطريقة العربية وهما مشهورتان أيضا كأفضل اثنتين فى هذا المجال فى عصرهما . ولقد قام عديد من الرحّالة بوصف الرقص العربى لهذا يكفينى أن أذكر بأنه مثير للاشمئزاز إلى أقصى حد .

بعد الانتهاء من رقص العالمتين، تناولت معظم الأوربيات القهوة والشراب وتأهبن للرحيل أما أنا، فكنت من اللاتى دعين لقضاء اليوم التالى والليلة التالية على الأقل، وكذلك بقيت ثمانى سيدات أخريات.لم تأت عرباتهن لقضاء الليل معنا .



الرســـالة

الثانية والثلاثون

تابع
احتفالات العرس

ديسمبر
١٨٤٥

لدى خروج المدعوات الأوربيات ، غادرنا الحجرة التى كنا نجلس فيها لنودع صديقاتنا ومعارفنا ؛ وعند عودتنا ، شاهدنا منظرا غاية فى الغرابة . كانت هناك ست من أضخم نساء الحريم المتقدمات فى السن متنكرات فى سترات من قماش الشيت المطبوع ملتصقة بأجسامهن البدينة ، وفوق رأس كل منهن طرطور مهرج عال ؛ كانت لعبتهن الجرى وراء بعضهن فى دائرة بوسط الغرفة ، تحاول كل واحدة أن تخطف طرطور الأخرى وتلقيه أرضا وأن تسترجع الذى يخصها مع الاستمرار فى الجرى والقفز والتعثر . كان منظرا سخيفا للغاية وحركاتهن غليظة ليس فيها أدنى مرونة .



تبع ذلك مسرحية هزلية بدت فيها فتاة مليحة فى هيئة زوجة سليطة اللسان تجرى حديثا باللغة التركية التى لا أفهمها، مع ست فتيات أخريات، فى لباس الرجال. ولكننى أدركت مغزى الهزلية وهى أن واحدة منهن كانت تُمثلُ دور زوج الفتاة الحسناء والخمس الأخريات، عشاقها؛ وبالتناوب يحاول كل واحد منهم التقرب منها ومغازلتها وهى تبدو وكأنها تشجعهم، ثم يأتى الزوج ويطاردهم الواحد بعد الآخر حول المكان المخصص للمسرحية فى الصالون، ويمسك به ويطرحه أرضا أو بالأحرى يتصارع معه قليلا فيتدحرج طوعا على الأرض ثم يقوم ويبتعد. بعد الانتهاء من هذا العرض، قامت سمو الأميرة تتقدمها وتتبعها ضاربات الدفوف كما حدث من قبل؛ وانسحبنا جميعا لنأوى إلى فراشنا.

أرشدنا إلى حجرة محاطة بالدواوين وفى وسطها أعدت، جريا على عادة البلد، فوق الحصيرة التى تكسو رخام الأرض، ثلاث حشايا كبيرة ووسائد وملاءات وألحفة، وأسدل من فوقها ناموسية طويلة وعريضة جدا من الحرير الأزرق. أذكر هذه التفاصيل، لأبيّن لك العناية الفائقة التى أحطنا بها، إذ إن الشرقيين عادة

ينامون فوق الدواوين. كنا خمس سيدات نتقاسم هذا المضجع وكنا في غاية التعب ولكن الجوع منعنا من النوم. في مثل هذه الظروف، تجرأتُ وطلبتُ بعض الطعام لي ولرفيقاتي وسرعان وبكل لطف، لبين طلبي. فرشت قطعة من القماش المذهب فوق الحصيرة ووضع فوقها منضدة صغيرة عليها صينية فضية رُصَّ عليها عدد من الأطباق الصغيرة. تناولنا وجبتنا ونحن في مرح وسرور، وسرعان ما انتشر خبر وليمتنا وإذا بسيدتين (أم وابنتها) من الضيوف من غرفة مجاورة ينضمان إلينا. وكانتا خلال النهار قد أثارتا إعجابي بفتنتهما؛ كانتا شرقيتين ترتديان أبهى الثياب ومجوهراتهما من الماس المبهر وكان منظرهما العام يدل على ذوق رفيع راق. وحينما انضمتا إلى مجموعتنا، كانتا قد خلعتا ملابس النهار، ولكن هذا لم يقلل من جمالهما الذي بدا واضحا في رداء النوم البسيط المكون من صديرية قطنية غير مزخرفة وسروال واسع ومنديل أبيض حول جبهتيهما الوضاءة.

سعدنا عندما افترشنا السرير ولكننا لم ننعم بنوم هادئ وذلك لأن حجرتنا كانت مثل الممر لها بابان أحدهما مواجه للآخر وظل أشخاص يمرون جيئة وإيابا طوال الليل تقريبا، مما أقلق نومنا. لم ندرك إلا في الصباح أن أحد الألحفة - على الأقل الذي تغطينا به - (وكان خفيفا و يشبه في دفئه الألحفة المحشوة بزغب البط الصغير) كان من الستان البنفسجي ومزخرف بتطريز بارز بخيوط الذهب بديعة الصنع.

استيقظنا مع طلوع الشمس وتمنينا لو أن تابعة من الكثيرات اللاتي دخلن حجرتنا ليُصبحن علينا، فكرت في إحضار طعام الإفطار ! ولكن سرعان ما وصلت معدات القهوة الأنيقة، وكان من نصيب كل واحدة منا فنجان صغير جدا من القهوة. وحينما طلبت إحدى زميلاتنا بعض الخبز، جيء لنا برغيفين مفلطحين، اقتسمناهما بيننا، وحينما أدركت التابعات أن الإنجليز يحبون تناول وجبة الإفطار مبكرا، وعدن بروح طيبة أن كل شيء سوف يكون على أحسن حال وبوفرة في اليوم التالي إذ إنهن لم يدركن أن أحدا يأكل في الصباح ! ذهبنا إلى غرفة مجاورة أُعدَّت خصيصا لنا و كانت كغيرها لها بابان يمكن المرور من

خلالهما عبر ها، وكان ترتيبها ينم عن ذوق رفيع جدا وهى الغرفة المفضلة لدى الباشا حينما يكون في الحريم. تمتد الدواوين حول ثلاثة جوانب منها ما عدا الجانب الذى به البابان المتقابلان ؛ وهى مغطاة بالحرير الطوبى اللون المطرز بالذهب بشغل بارز على شكل فواكه وأزهار. والدواوين فى مؤخرة كل فاصل فى الصالون الكبير الذى يتاخم هذه الحجرة، من الشكل نفسه.

ما كادت مجموعتنا الصغيرة تتخذ مجلسها فى هذه الحجرة الجميلة، حتى دخلت الزوجة الكبرى للباشا، وهى سيدة وقور متقدمة فى السن، رقيقة للغاية وجذابة. حينما رأتنا نقف لها كما تقتضى الأصول، طلبت منا أن نجلس، ثم خاطبتنا بكل لطف و رحبت بنا وأضافت أنها صاحبة القصر وأبدت أملها أن نبقى فيه على راحتنا. ما كدنا نشكرها على كرمها، حتى انضمت لمجموعتنا زوجة إبراهيم باشا المفضلة، وتحدثت معنا بطريقة لطيفة جدا. ويتميز حريم الباشا عادة بالرقة والعذوبة المتناهية، وكان هذا واضحا جدا فى هذه المناسبة بالذات حينما بدت جميع من حضر منهن من أفراد الأسرة، فى أجمل صورة. فى الواقع، كان الاهتمام الذى لقيناه نحن الأوربيات من أهم أعضاء الحريم بالغا، وكذلك من ضيوفهن وغيرهن، ولوكان أكثر، لزاد عن حدّه. وكانت فى مقدمة من قامت بواجبات الضيافة، حرم هككيان بك التى كانت تكرس كل اهتمامها للضيوف، ولديها المقدرة الفذة أن تشعرنا بأننا فى بيتنا حتى فى قصر القلعة العظيم. كان صوتها الحنون يسألنا كلما تقابلنا إن كان لدينا كل ما نحتاجه لراحتنا وإن كان باستطاعتها أن تلبى لنا أىَّ طلبات. كما كانت مساعدتها مدام رائعة، تعاونها بكل همة و نشاط فى الاهتمام بالضيوف بلباقة تدعو إلى الإعجاب، و كانت تجيد التكلم بالفرنسية والإيطالية والعربية ولديها بعض المعرفة بالتركية مما يؤهلها بجدارة أن تقوم بمهمتها والتحدث بطلاقة مع الأوربيات والشرقيات على السواء.

بعد حديث قصير مع السيدات السابق ذكرهن فى الغرفة المخصصة لنا، قررنا أن ننزل إلى الصالون الكبير بالطابق السفلى لمشاهدة وسماع ما يجرى هناك. عندما وصلنا إلى السلم الرخامى، سمعنا صوت جوقة النساء العربيات تعزف بهمة، وحينما وصلنا إلى المنبسط الأول للدرج، وتحولنا للهبوط، رأينا معظم امتداد

الصالون أسفلنا، وحينذاك تمنينا بكل جوارحنا لو كان بإمكاننا رسم هذ المنظر الساحر لننقله إلى أصدقائنا في إنجلترا لتكون لديهم فكرة عن فخامة الشرق. قد تبدو ملاحظتي تافهة، ولكن لا يسعني إلا أن أذكر أن المنظر الذي وقعت عليه عيني، ذكرني بشدة بمشاهد «ألف ليلة وليلة». كانت الجواري بملابسهن الرائعة يقفن هنا وهناك على درج السلم، وفي أسفله تجمعت بعض السيدات والجواري كأنهن يستعرضن لإحداث انطباع فني بديع بثيابهن ذات الألوان المتعددة، المطرزة بأشكال مختلفة رائعة الجمال، في حين تألقت على رأس كل منهن وحول خصرها، جواهر لا حصر لها تخطف الأبصار، وبدون أي تكلف ودون أي قصد، قدمن مشهدا يعجز عنه أي وصف. في وسط الصالون الكبير، جلست جوقة العازفات العربيات على شكل دائري فوق وسائد وضعت على أبسطة الأرض، و معهن جميع أنواع الآلات المستخدمة في هذا البلد، وكلها متناسقة في الشكل، ومطعمة بذوق سليم بالصدف وأخشاب داكنة اللون. كانت هؤلاء النسوة يضعن فوق رؤوسهن خمارا من القماش الأبيض يربط حول الجبهة وتحت الذقن مثل غطاء رأس أبي الهول، ويتدلى بأكمله على الظهر، كعادة نساء العرب. كن في بساطتهن الجذابة يمثلن تناقضا ملفتا ومريحا في الوقت نفسه، بالنسبة لأبهة وفخامة نساء الحريم. ومن وراء دائرة الجوقة كانت منطقة الصالون المقابلة التي تمتد إلى الخلف حيث يوجد صف النوافذ والديوان الممتد في المؤخرة المغطى بقماش الساتان القرمزي المطرز بالذهب؛ وقد جلست جميع سيدات أسرة الباشا المسنات على هذا الديوان، ونظلة هانم في الركن الأيمن منه. كما اصطفت على الجانبين زوجات الأفندية من أتباع بيت الباشا ؛ كانت المسنات منهن في ملابس بسيطة في حين بدت زوجات الأفندية في أبهى زينتهن وكذلك الجواري التابعات لهن.

كان من المنتظر أن ننضم إلى المجموعة الجالسه في هذا الجزء من الصالون فتوجهنا إليه، وجالت أبصارنا بإعجاب حول المنظر الذي مررنا به. كانت ملابس اليوم السابق قد استبدلت بها أخرى، تفوقها بكثير من حيث الجمال والأبهة، في الواقع إن الفخامة التي بدت في هذا اليوم الثاني بالنسبة لمئات الثياب والجوهرات النفيسة لا يمكن، في اعتقادي، أن تضاهي. ومن المدهش حقا، أن كل جزئية من هذه الملابس كانت تختلف تماما عن اليوم السابق؛ حتى الجوهرات الماسية

استبدلت بها في حالات كثيرة أخرى أبهى وأغلى. ولم تحتفظ سوى فرقة الراقصات المكونة من الفتيات الست، بثيابهن من الكشمير الوردى المزركش بأهداب ذهبية، طوال فترة الاحتفالات، وكان زيهن الموحد الذى يميزهن عن سائر الأشخاص، مريحا للعين وسط كثرة التنوع. قامت اثنتان من أعضاء الفرقة العربية من جلستهما فوق الوسائد، وتقدمتا وهما سافرتان بدون طرحة واندهشت حينما أدركت أنهما العالمتان اللتان كانتا ترقصان في الليلة الماضية؛ كانت ثيابهما رفيعة الذوق و الهلال والنجمة الماسية تضيء فوق الحاجب الأيمن لكل منهما. كانت إحداهما تحمل «حجابا» داخل علبة صغيرة مرصعة بدقة بفصوص من الماس، علقتها في حبل رقيق من الحرير، يمر من فوق كتفها الأيسر وتحت إبطها الأيمن. كان رقصهما قبيحا جدا، ولكن في هذه المناسبة، كان يرافقه غناء تقوم به واحدة بعد الأخرى : كانت الألحان ساحرة، بها نوع من العذوبة المنطلقة، كما كان طابع صوتهما يتميز بقوة فريدة، فجاء الأداء مذهلا، ولو اقتصر على السمع دون البصر لاكتملت المتعة. وعلى أية حال، كنت أستمع دون أن أنظر إليهما، وبهذه الطريقة أمكننى أن أستمتع بعمق بشدو هذا الغناء الفذ. ومما يدعو للدهشة حقا، التشابه الكبير بين أسلوب غنائهما وما نسمعه في شوارع القاهرة مع الفارق بأن وقع أدائهما كان يخلب اللب. تبعتهما الفتيات في الثياب الوردية المذهبة ؛ وكان رقصهن المرح الخالى من الخلاعة ممتعا كالعادة ؛ ولكن سرعان ما حلت محلهن العالمتين وانضمت إليهما ثلاث أخريات، واستمر الرقص لفترة.

ضقنا أنا ومسز ليدر من صوت الصنوج مثلما كان الرقص يزعجنا، فتنفسنا الصعداء حينما سمعنا دقات الدفوف المرحة التى تصاحب باستمرار تحركات نظلة هانم. وفعلا رأيناها تقوم من مجلسها وتنسحب إلى جناحها الخاص؛ كنت أتمتع دائما بمنظر أولئك الفتيات وهن يقمن بالدق على الدفوف كلما بدلت الهانم مكانها، فيسرن أمامها وخلفها والدق المنتظم يضفى على حركاتها أسلوبا عسكريا. وشعرنا نحن أيضا بالحاجة إلى التغيير، فقمنا و انتقلنا إلى الصالون العلوى، مارين من خلال الغرف المختلفة، ومشينا ذهابا وإيابا في الصالون ونحن نتساءل متى نُدعى لتناول وجبة الإفطار أو الغداء. وفى الساعة الثانية عشرة والنصف شعرنا بجوع لاذع زاد من حدّته هواء المقطم النقى الذى يتمتع به سكان

القلعة، واشتقنا لتناول بعض المرطبات. في الساعة الواحدة وجدنا أن وجبة خفيفة déjeuné a la fourchette قد أعدّت للأوربيات وأعلن أن وجبة العشاء سوف تكون في السادسة مساء؛ بهذه الطريقة اتُبع النظام الفرنسي لأوقات الطعام وقدمت كميات كبيرة من المأكولات المختلفة ؛ إن مضيفاتنا الشرقيات لا يعرفن الطريقة البسيطة الإنجليزية من تناول وجبات متعددة خفيفة.

رجعنا إلى الصالون السفلى بعد العشاء، ووجدنا العوالم يرقصن، وكانت إحدى الفتيات في ملابس حاجب من الرجال، تشرف على الحفل الترفيهي ممسكة بيدها عصا سوداء اللون مثبتا في الطرف العلوى منها عدد من الأجراس الفضية الصغيرة. كانت هي التي تدخل وتخرج الراقصات والمغنيات وتقود وترشد الزائرات إلى حضرة سمو الأميرة، وبالرغم من عمرها الذى يناهز الثانية عشرة عاما، كانت تمارس السلطة التي فوضت لها بثقة ورباطة جأش مدهشة. كان من المضحك حقا أن نسمعها تصيح وتأمر بتغيير المشاهد الترفيهية وكنت أعجب حينما أراها تقرر إعادة أو إيقاف أى عرض. أما دائرة الموسيقى العربية فظلت طوال اليوم في وسط الصالون، تعزف وتغنى أحيانا مع إبدال اللحن ليلائم الغناء أو الرقص سواء أكان عربيا أم تركيا. وبعد أداء العوالم، جاء دور الراقصات التركيات وكانت كل واحدة منهن تحمل سيفا ومِجنا من الخشب، وكن يدرن حول بعضهن، تارة تضرب كل واحدة مجنها، وتارة تبارز الأخريات بمهارة فائقة على إيقاع الألحان التركية التي تعزفها الجوقة. وفي هذا اليوم جاءت تقريبا كافة المسنات من سيدات كل حريم عال في البلد.

أثناء تجوالنا في القصر، وجدنا نفسينا في حجرة واسعة جميلة في وسطها نافورة ماء. من المؤسف أن النافورة الفضية الفخمة التي قدمتها مؤخرا شركة الهند الشرقية للباشا، ليست هنا، إذ إن موقعها الحالي في قصر النيل لا يليق بها فالقصر أقل شأنا بكثير من قصر القلعة. الحجرة المذكورة آنفا في القلعة مستطيلة الشكل مرصوفة بالرخام يبلغ حجم كل لوح منها ستة عشر قدما مربعا، في المنتصف حوض من الرخام بيضاوى الشكل يبلغ طوله ثمانية عشر قدما، وعرضه عشرة أقدام، وفي وسطه ثلاثة أوعية مفلطحة واسعة الواحدة فوق الأخرى تكوّن

شكلا هرميا مسحوبا، وحول حافة كل وعاء ثقوب تجرى منها المياه إلى أحواض بيضاوية أخرى تحتها. هناك أيضا آنية رخامية لحفظ الماء، جميلة التكوين تشبه النافورة في منظرها. وبالحجرة تجويف واسع تحيطه نوافذ، وهو مفروش بحصر وديوان.

ولكن حدث ما جعلنى أندم على جولتى فى هذا اليوم بسبب مشهد حزين بعث فى نفسى إحساسا بالألم لم يكن باستطاعتى التخلص منه. كان الجو باردا جدا، فطلبت من مدام أن ترافقنى فى جولة بخطى سريعة فى الممرات الطويلة من أجل الدفء؛ كنا نتجاذب أطراف حديث مرح عندما جذب انتباهنا منظر مؤلم إذ رأينا فتاة صغيرة تجلس على الأرض ورأسها بين يديها والدموع تنهمر بغزارة من بين أصابعها. طلبنا معرفة سبب حزنها، وحاولنا برفق أن نبعد يديها، ولكن دون جدوى، كانت تزيد من ضغطهما على وجهها ولا تعطينا جوابا. وبالسؤال عنها، اكتشفنا أنها جارية جديدة وأن سبب انهيارها، إما حزنها على فقدان ذويها أو خوفها من المستقبل. كان ألمها أعمق من أى مواساة؛ أما بالنسبة لى، فقد أفسد المنظر متعة التمشية بل وأيضا متعة اليوم بأسره، و إلى يومنا هذا، أشعر بالأسى كلما تذكرت تلك الفتاة الصغيرة.

مرت فترة بعد الظهيرة مثل سابقتها. انضمت عالمة سادسة إلى الأخريات الخمس اللاتى ظهرن فى الصباح، وكانت متنكرة فى زى مهرج تقلد حركاته وتسخر منها. وكانت من بين رفيقات الأميرة، سيدة غاية فى الرقة حازت إعجابنا الشديد، وقد أخبرتنى أنها زوجة محمد على، ووالدة سليم بك. وقد قُدِّر أن عدد النساء اللائى جئن إلى القصر خلال أسبوع الاحتفالات كان فى المتوسط سبعة آلاف فى اليوم الواحد وكانت تُسمع غمغمة متواصلة بين تلك الآلاف مثل صوت موج البحر عندما يكون على مسافة قريبة. فى الساعة السادسة، دُعينا للعشاء الذى قدم بالطريقة نفسها فى اليوم الأول؛ وبعد العشاء استأنفت العوالم والراقصات التركيات أدوارهن حتى حوالى الساعة الحادية عشرة حينما قدمت للعوالم ستة شيلان نفيسة من الكشمير، وربطت التى كانت تمثل دور المهرج شالها حول قلنسوة البهلوان التى كانت ترتديها. واختتمت السهرة بعرض

مسرحى. كانت الهزلية الأولى تشبه التى وصفتها من قبل مع بعض الاختلاف ؛ فقد أدخل إطار مطوى أخضر اللون، شُكِّل ليبدو مثل سياج جعلت منه المرأة السليطة بيتا لها ورحبت فيه بزائريها من الرجال (أى نساء متنكرات) ، وكان زوجها الغيور المهان، يطردهم الواحد بعد الآخر. الهزلية الثانية كنت تمثل حمَّاما عموميا يرغب كثيرون فى دخوله وهو لا يتسع إلا لنصف العدد. كان من بينهم أحد الدراويش (امرأة متنكرة بالطبع) ولكنه لم يُبد سببا مقنعا لرغبته فى الاستحمام ؛ كان الحوار فى هذه الأمسية مزيجا من العربية والتركية، لذلك لم أتمكن من فهم الغرض من المسرحية. وحيث إن بقاء القوم فى الحمام طالت مدته، تركناهم، أنا ومسز ليدر يحلون مشاكلهم الوهمية، وآوينا إلى فراشنا.

وجدنا الناموسية الحريرية الزرقاء معدة مثل الليلة السابقة، ومن تحتها ثلاث مراتب وحيث إن مجموعتنا لا تحتاج إلا لمرتبتين، توقعنا مجيء زائرات أخريات لقضاء الليل، ولم يخب ظننا. ظللت يقظة لعدة ساعات ولم أستطع النوم لضيق فى نفسى لم يكن سببه فقط مأساة الجارية المسكينة إذ فاقتها كارثة أخرى أمر بكثير، وهى أن أحد الأغوات التابعين لحريم عال كان قد خطف من فوق رأس سيدته حلية من الماس، افتقدتها فى الحال واتهمته بالسرقة. أنكر ذلك ولكن امرأة فلاحة كانت بالمصادفة حاضرة، أكدت أنها رأته يأخذها. جُرِّد من ملابسه واكتشف الماس فى حوزته. كانت هذه ثالث جريمة يقترفها ولا يمكنه اللجوء لأى قضاء بما أنه ملك لسيده وحياته بين يديه. حكم عليه بالجلد وأن يوضع فى جوال ويرمى فى النيل ونفذ فيه الحكم. سمعت القصة فى المساء، وفى الصباح كان المسكين قد غرق. لو كنا علمنا بالأمر قبل فوات الأوان، لكنا شفعنا له وأظن أن شفاعتنا كانت ستستجاب لأن الرغبة فى إرضاء الزوار الأوربيين واضحة جلية فى كل شيء. يا إلهى، ليتنا استطعنا إنقاذه !

فى كل ليلة من الليالى التى قضيناها فى القصر، لم ننعم إلا بساعتين من الهدوء من حوالى الثانية إلى الرابعة وهذا يرجع إلى عدم إلتزام الشرقيين بأوقات مخصصة للراحة فقد حدث مثلا أن رفعت سيدة ستارتنا بعد ساعتين من منتصف الليل، لتسأل إن كان هناك مكان شاغر لها. أجبنا بأن هناك سريرا واحدا خاليا

وفي الحال خلعت خفها وانسلت داخل السرير بكامل ثيابها ؛ كان التطريز النفيس من الذهب يتألق بريقه في ضوء الشموع الخافت الذى يتسلل من خلال الستارة. وبعد نوم ضئيل جدا، شعرنا بغبطة عندما رأينا وميض النهار؛ واستيقظت معنا رفيقتنا الدخيلة التى أزالت عنها اليلك والسلطة وأعادت ترتيب قميصها المزركش، ثم ارتدتهما من جديد. كان هذا كل ما احتاجت له من إنعاش في الصباح، و جاءت لتناول الإفطار حتى دون أن تغسل يديها.

كانت وجبة الإفطار تتكون من شرائح «التوست» والزبد وبعض الفطائر وكالعادة فناجين صغيرة من القهوة؛ ولكن حاملة القهوة طمأنتنا بقولها، إن عددا من هذه الفناجين بمثابة واحد كبير، وسوف تصب كلما أردنا المزيد. ولكننا لم نثقل عليها. عندما تناولت رفيقتنا الشرقية شريحة من «التوست"، نبهتها إحدى الحاضرات بأن «التوست» فقط للسيدات الإنجليزيات فأرجعته لتوها، ولكننا أكدنا لها بأنها سوف تسعدنا إذا شاركتنا الطعام، ولبت دعوتنا بسرور إذ أن «التوست» شيء جديد بالنسبة لها.

بعد الإفطار سمعنا هرجا ومرجا عاما إذ كان الباشا قد حضر إلى حجرة النافورة التي ذكرتها آنفا و العروس على أهبة النزول إليه لتقبل يده. اصطفت كل المدعوات في الصالون العلوى لتشاهدها وهي تمر وتهبط السلالم. جاء موقفنا في مكان جيد سمح لنا برؤيتها بوضوح. وقبل ظهورها، دوت أصوات الزغاريد الحادة ودقات الدفوف العالية معلنة مقدمها. ظهرت أولا الراقصات بلباسهن الوردى المذهب، وكل واحدة ممسكة بدف وهي ترقص وتدور بحيوية واضحة ؛ ثم جاءت فرقة موسيقية، تبعتها راقصات أخريات صغيرات. ثم أقبلت نظلة هانم ووراءها تابعاتها وحاملات ذيل ردائها، وكلهن في ثياب جديدة. وظهرت العروس، وعلى يمينها والدتها، وعلى يسارها زوجة سعيد باشا. كان وجه العروس شاحبا، عديم اللون تماما، وكانت تبدو وكأنها تحمل بصعوبة جمة، متاعب خاصة بالإضافة إلى عبء زينتها، وكذلك بدا وجه زوجة سعيد باشا الجميل، مثل تمثال من المرمر، ولكنه ظل محتفظا بحيوية مفعمة بنبيل العواطف؛ قلما رأيت مثل هذا التحول، إذ كانت في الصباح تبدو وكأنها هي العروس في ذروة رونقها الشرقي. أثناء نزول

العروس من الدرج، أوقفتها والدتها لتضيف حلية أخرى إلى زينة رأسها الذى كاد يكون كله مغطى بالماس فقد كانت ترتدى، في آن واحد، كل زينة الرأس التى سبق أن وصفتها لك كما كانت تتمنطق بالحزام الرائع ؛ وبخلاف هذا، كانت ثيابها هى الثياب نفسها التى كانت ترتديها من قبل فى أول مرة رأيتها. كان يتبعها ما يقرب من ثلاثين جارية فى أبهى وأروع الثياب ؛ ثم حضرت العروس الثانية ترتدى الملابس نفسها التى كانت ترتديها في المرة الأولى التى ظهرت فيها ومحاطة مثل العروس الأولى بالجوارى. ونزل الحشد معهن فى السلم وعبر الصالون السفلى ولكن لم يدخل الحجرة التى ينتظر فيها الباشا سوى نظلة هانم والعروسين والتابعات المقربات. دامت المقابلة حوالى عشر دقائق، غادر الوالى بعدها القصر، وعاد الموكب أدراجه بالطريقة نفسها، إلا أن مظهر صاحبات الشأن كان يوحى بأنهن اجتزن محنة مؤلمة.

كنت أنوى الرجوع فى هذا اليوم (السبت) لقضاء الأحد فى منزلى مع أحبائى وكانت هذه أيضا رغبة صديقتى العزيزة، لذلك تأهبنا للخروج بعد رجوع موكب العروسين ؛ والآن وأنا في بيتى، أروى لك احتفال الباشا بزائريه من الرجال و"الفنتازية"الخارجية. وبالمناسبة، إن كلمة «فنتازية» إحدى الكلمات المفيدة جدا هنا، إذ تطلق على كافة الأشياء؛ كافة أنواع الزينة كيفما كان استخدامها، وكل أنواع الترفيه سواء موسيقى أو غيرها، يطلق عليها «فنتازية».

كان محمد على باشا يستضيف للعشاء فى كل يوم من أيام الاحتفالات فئات مختارة، وكان من بين المدعوين، القناصل و كثير من الأوربيين من رحّالة و مقيمين في مصر. وفى أحد الأيام دعا أئمة العلماء للعشاء معه؛ وفى المساء بعد تناول الطعام، قاد هذه الشخصيات الوقورة الجليلة إلى بهو أعد ليكون مسرحا، ليشاهدوا عرضا لفرقة من الممثلين الأوربيين ! كانت هذه أول مرة، كما يقال، حضر فيها أحدهم مثل هذا المشهد، ولعلها كانت أكبر مغامرة ضمن العديد من البدع الأوربية التى استحدثت فى هذه المناسبة. في صبيحة أول يوم للاحتفالات، بينما كنت أنا أستعد، للذهاب إلى القلعة، كانت هدايا العريس التى سبق أن وصفتها لك، تُنقل فى موكب بهيج من مقر زينب هانم بالقلعة إلى المنزل الذى

سوف تسكن فيه بالأزبكية. و إليك وصّف صديق لما شاهده، يقول: كانت فرقة الباشا العسكرية على رأس الموكب، و تبعها فوج من حاملى الرماح. ثم جاء عدد من ضباط المشاة يحمل كل منهم صينية بها مختلف أنواع الحلوى؛ تبعتهم، عربات محملة بالمجوهرات والفضيات والملابس وأشياء أخرى وكلها مغطاة بقماش من القطيفة أخضر ذى أهداب ذهبية، و يجر كل عربة أربعة جياد ويسير على جانبيها ثلاثة ضباط بملابس حمراء مزدانة بالذهب. وجاء خلف العربات ضباط آخرون يحملون صوانى الحلوى ثم فوج حاملى الرماح وفى المؤخرة فرقة من الموسيقى العسكرية.

وكان يقام بالقلعة فى كل ليلة عرض مسرحي، وترسل بطاقات الدخول للأوربيين و لمن يتسع له المكان من الشرقيين. كما كُلف يوميا فى قصر الأزبكية ثلاثمائة من الطهاة بإعداد أجود أصناف الطعام للفقراء. والطريق الطويل من الأزبكية إلى القلعة الذى يمتد حوالى ميلين، معلق به ثريات كبيرة كل منها يحتوى على عشر مصابيح حسنة الإضاءة كما أن الأزبكية والقلعة وعديد من المنازل الرئيسية مضاءة أيضا. و المكان الشاسع غير المتناسق المسمى بالأزبكية حيث يقع قصر العروس استخدم بسبب اتساعه (تقريبا نصف ميل فى أكثر طول له، وثلث ميل فى أكبر عرض) مكانا أساسيا للترفيه الخارجي. ولقد أوشكت أن تتم عملية تحويل البحيرة الواسعة إلى حديقة فيحاء، تحيطها قناة، وتخترقها عدة طرق. هنا بالقرب من طرفى الطريق الرئيسى الذى يخترقها من الغرب إلى الشرق (من جانب قصر العروس وخارج المدينة، إلى قلب العاصمة) أقيم قوسا نصر ضخمان وعاليان يضيئهما عدد كبير من المصابيح الصغيرة؛ وعلى جانبى الطريق بينهما أعمدة مضاءة وأيضا مصابيح كروية الشكل مصنوعة من الورق الأحمر والأبيض. وهناك مئات من هذا النوع من المصابيح تتدلى من حبال بين الأشجار التى تحف المنطقة كلها من حديقة وطرقات: كما أن ساترا كبيرا يخفى واجهة الجزء الرئيسى من قصر العروس وقد علق فيه أيضا عدد لا حصر له من هذه المصابيح. والمنظر العام للقصر ليلا، غاية فى الجمال والروعة. وأثناء النهار من كل يوم، يتسلى الناس بمشاهدة مباريات المصارعة والرقص على الحبل وحفلات الموسيقى فى أماكن متعددة ؛ ولكن الأزبكية هى أهم مركز للتسلية حيث تعرض كل ليلة الألعاب

النارية المختلفة الجميلة وتطلق الصواريخ ؛ ولهذا فإني أشعر بارتياح و أنا فى الحريم، إن إبنىَ العزيزين يتمتعان أيضا بترفيه يعجبهما. كما نصب فى الأزبكية عمود طويل جدا مُلس بالصابون وثبت فى أعلاه شال و عشرة جنيهات تكون جائزة من يتسلقه. كانت محاولات الفقراء كثيرة ومضنية للحصول على هذه الغنيمة ولكنها باءت كلها بالفشل إذ كانوا ينزلقون ويقعون مثل الحجارة عند الوصول إلى علو معين. وخلال النهار كانت مدفعية القلعة وأماكن أخرى تنطلق، وتدوى المدافع كالرعد فوق المدينة أربع مرات على الأقل فى اليوم الواحد.

وفى يوم الخميس سار موكب غريب، لافت للنظر من القلعة إلى الأزبكية ينقل مجوهرات وجميع مقتنيات العروس، و كانت الحُلى والمجوهرات والأشياء الثمينة مكشوفة للعيان، غير مغطاة. والرواية التى أسردها عن بعض الأصدقاء إذ إننى لم أشاهد الموكب بنفسى. اكتظ الطريق من الأزبكية إلى القلعة منذ الصباح الباكر بالجماهير كما اصطفت الآلاف المؤلفة فى النوافذ وأسطح المنازل. كانت على رأس الموكب فرقة ممتازة من موسيقى الجيش، تعزف ألحانا أوربية، وتبعها فوج من حاملى الرماح. أما العريس فقد تبوأ مكانا فى شرفة إسطبل الباشا بالقرب من الأزبكية؛ ولعله من المظاهر الطريفة التى تتعلق بالموكب أن نرى أحد الأشخاص الذين لهم مثل هذه الصلة الحميمة بالأحداث الجارية، يجلس مع أتباعه فى هذا المكان العالى ليحظى برؤية جيدة لمقتنيات زوجة المستقبل. كان يرتدى ثيابا من الطراز العثمانى الحالى وعليها شارة ماسية. إنه رجل وسيم تبدو عليه معالم الرجولة، له من العمر ما يقرب من الثلاثين عاما. وجدير بالذكر ان زينة فرسه كانت فاخرة. تبع حاملى الرماح فى الموكب، عدد من الضباط فى البزة الاعتيادية لرجال الجيش، وكانت ثيابهم مطرزة بإبداع ومنظرهم العام غاية فى الأبهة. جاء بعد ذلك جمع من تلاميذ المدارس الإسلامية، يتلون آيات مناسبة من الذكر الحكيم ؛ تبعهم رجال على طوالات خشبية، يرتدون صدريات قصيرة وأثوابا نسائية فضفاضة؛ ثم فرسان من فرقة الباشا الموسيقية فى ملابس قرمزية وذهبية يعزفون ألحانا أوربية وفرقة من حاملى الرماح. كانت زغاريد مئات النساء فى الشوارع والمساكن ومن أسطح المنازل تذهل أحيانا ولكن دويها كان مرحا، وإن لم يتناسق مع النغمات الأوربية. مرت بعد ذلك فرقة من حاملى الدروع لم يشهد مثلها كثير من قدامى

سكان القاهرة ؛ ثم جاء مصارعون يرتدون سراويل من الجلد وأجسامهم مدهونة بالزيت . تبعهم عديد من فرق مشاة الجيش ، يحملون أعلاما من الحرير الأحمر والأبيض ، وعلى كل منها الهلال والنجمة . ثم فرقة موسيقية أخرى من الجيش وفصائل عديدة من ضباط الفرسان ، يرفلون بأبهى الحلل ويمتطون متون جياد بديعة المظهر . ثم جاء مائة وخمسون رجلا في ثياب فخمة ، يحملون فوق رؤوسهم صينيات مغطاة بقماش رقيق جعد تزينها أشرطة بذوق رفيع ؛ كانوا ينقسمون إلى قسمين ، الأول يتكون من أربعين رجلا ومعهم عدد من الخصيان في مقدمة ومؤخرة عربات تحمل المجوهرات والفضيات وغيرها من الأشياء الثمينة مكشوفة للعيان . وتكونت مؤخرة الموكب من كتيبة من جند المشاة وفرقة موسيقية عسكرية و فرقة من حاملي الرماح وأخرى من حاملي الدروع وفرقة أخرى موسيقية . لم يكن في الموكب ما يذكّر بالمهرجانات الشرقية القديمة ، ولم يبدُ أنه استعين بالشرطة للحفاظ على النظام إذ لم يكن هناك داع لذلك ، كما قيل لي .



الرســـالة
الثالثة والثلاثون

نهاية
احتفالات العرس

ديسمبر
١٨٤٥

فى صبيحة يوم الثلاثاء، رجعت بصحبة مسز ليدر إلى القصر حيث قوبلنا بلطف مميز من نظله هانم وترحيب حار من الكثيرات. وهذا الاهتمام الخاص الذى تغدقه علينا السيدة أمينة الصندوق، بل كل من لهن صلة بقصر النيل، ليس إلا تأكيدا لما ذكرته لك من قبل من أن صديقتى العزيزة مسز ليدر قد استطاعت أثناء إقامتها فى مصر أن تكتسب ثقتهن الكاملة ومحبتهن. لم يكن هذا بالأمر الهين حينما قُدِّمت فى بادئ الأمر إلى حريم محمد على، إذ كان عليها أن تتغلب على الكثير من الريبة وسوء الظن ولكن ما كادت تمر بضعة أسابيع، حتى ساد شعور عام بأن «السيدة الإنجليزية» لا تُكن لهن سوى الخير، فأصبحن



يتطلعن إلى مقدمها بسعادة. ومع الزمن تطور هذا الشعور إلى ودٍ ومحبة، وكنت أراهن دائما يرحبن بها كأقرب أقربائهن. كانت حرارة مودتهن بادية جلية يوم عودتنا، خاصة وأن مسز ليدر لم تجعلهن يتوقعن عودتها حينما غادرت الحريم يوم السبت الماضى.

إلى أن حان ميعاد الإفطار، شغل الوقت بعروض راقصات تركيات وعربيات وبعزف فرقة عربية كاملة. فى الساعة الواحدة أعدت وجبة إفطار تحت إشراف أم محمد على ولكن الأوربيات اللاتى كلفن بإعداد وجبات الضيوف كان لهن - دون شك - تأثير واضح، إذ كان كل شيء يتم بهدوء ونظام دقيق للمئات العديدة التى وفدت على القصر مما أثار دهشتى و إعجابى. ولو ترك التنظيم للأتراك، لما خلا الأمر من شيء من الهرجلة والفوضى ولكن بحصرها فى نطاق الأوربيات لم يشارك أفراد الحريم إلا بمقدار ما طلب منهن، وبالتالى وقعت مسئولية إرضاء الضيوف كاملة على الأوربيات اللاتى كلفن بذلك.

حينما نزلنا إلى الصالون السفلي، كانت فرقة من الراقصات التركيات تقوم بأداء رقصاتهن، تبعتهن عوالم مصريات يرقصن ويغنين بالتعاقب. في هذه الأثناء اصطفت ثماني فتيات صغيرات حسناوات ينتظرن إشارة لبدء رقصة مرحة. كانت ملابسهن من الكشمير الأسود مطرزة بغزارة بالذهب وفوق رأس كل واحدة قلنسوة من الحرير الأسود تزينها «شرابة» طويلة من حبات اللؤلؤ تتدلى أمام الأذن اليسرى. كان منظر هذه القلانس جميلا جدا ويناسب الشعر المنطلق الأشعث لأولئك الفتيات الجميلات من جورجيا، ذوات الأعين السود. أبدت نظلة هانم ارتياحا كبيرا لعبارة استحسان صدرت من سيدة كان لي شرف معرفتها، فطلبت سموها أن أرد التحية نيابة عنها، وأضافت وهي تجول بناظرها على ضيوفها من السيدات الأوربيات وتبتسم «إن ضيوفنا حقا جميلات؛ وبيتنا بيتهن، وإني أشكرهن على صُحبتهن."

كانت حرم سعيد باشا (التي أدعوها «ملكة الجمال») ، ترأس مائدة العشاء في الساعة السادسة، ولقد أدت مهمة الضيافة بكل رقة ولياقة. و كان عدد الأوربيات قد زاد عن أي يوم مضى فيما عدا اليوم الأول للاحتفالات، وكانت القهوة تقدم بعد كل وجبة، بل كثيرا ما كانت تقدم أثناء النهار. نزلنا بعد العشاء إلى الصالون السفلي حيث وجدنا الجوقة العربية تتوسطه كالمعتاد، وحولها مئات من المستمعات و نظلة هانم، أيضا في مكانها المعتاد تحيط بها السيدات المسنات من عائلة الباشا، يشاهدن رقص العوالم أمامهن. وبعد دخولنا بقليل، أتحفتنا هؤلاء المغنيات الماهرات بألحان عربية، ملأت موسيقاها أرجاء الصالون الكبير وكأنهن أوركسترا كاملة، هذا مع انسجام تام في طبقات الصوت، جعل وقعها على الأذن عذبا ومريحا. بعد الانتهاء من غناء العوالم، تقدمت المجموعة الأكثر طولا من الراقصات التركيات، وقمن بالرقص على أنغام ألحان تركية، تؤديها بعض المغنيات. وقد تأسفت لشيء واحد، وهو أن الراقصات التركيات قمن في هذه المناسبة، ولأول مرة خلال زيارتنا، بتقليد طريقة رقص العوالم المقزز: كان هذا إفسادا تاما لرقصاتهن السالفة بريئة المظهر، وقفزاتهن الرشيقة التي كانت فعلا تبعث على السرور. ولكن دعينا الآن من هذا الموضوع. جاءت بعد ذلك امرأة عجوز، مفرطة في البدانة و متنكرة في زي رجل يرتدي عباءة قطنية وطرطورا عاليا

لمهرج ؛ جاءت تركض، وهي تحمل صينية من الحلوى وتبعها على الفور، ممثلات الليالي السابقة. قدمت لهن الحلوى ليشترينها : واحدة زجرتها وأخرى احتالت عليها وثالثة سرقت ما لديها من حلوى، ورابعة قذفت بها وبصينيتها أرضا وتركتها تندب ضياع الحلوى وتشكو من الضربات التى نالتها. وأثناء عويلها العالي، أحست بخطوات خفيفة تقترب منها، فهبت واقفة واستطاعت أن تمسك بتلابيب إحدى المعتديات، جاءت تسرق مزيدا من الحلوى و أوسعت المذنبة ضربا بدا كأنه مبرح. ثم فى نوبة من الكرم، أغدقت بعض الحلوى على اثنتين خصتهما بعطفها فى حين أصرت على معاقبة الأخريات. تركناها وشأنها وغادرنا المكان حيث إن الليلة كانت قارصة البرودة والريح تصفر بشدة فى أرجاء الصالون الكبير. إن من يمر بسلام من حر الصيف اللافح، يجد شتاء مصر قاسيا للغاية ويخشى التعرض لبرودته الحادة النافذة إلا وهو محصن بمزيد من الملابس الواقية؛ والشرقيون عاقلون فى هذا المجال فلا يترددون فى أن يلتفوا بأبسط إزار فى أرقى الأوساط ؛ ولكن هذا الإزار الذى يبدو بسيطا، هو فى الواقع غالى الثمن ولو أنه غير مطرز إلا نادرا باللون الأسود، ولكن عادة ما يكون مبطنا بالفراء. إننى لا أشير إلى «السلطة» التى غالبا ما تكون مطرزة ببذخ ودقة متناهية، ولكنى أعنى سترة من الشكل نفسه ولكنها أوسع بكثير لها أكمام تصل إلى اليدين كما أن السترة ذاتها طولها غير مناسب. وكثير من السيدات يرتدين أيضا معطفا شتويا على طراز القسطنطينية، يشبه كثيرا المعطف الثقيل الذى يلبس حاليا فى إنجلترا الذى ينطبق على مقاس الظهر تماما وله ياقة عالية ويصل طوله عادة إلى الركبة. يبدو أنى تماديت فى موضوع المعاطف ويجدر بى الآن أن أعود لأخبرك عن استعدادات الليل بالنسبة لنا.

وجدنا فى غرفة نومنا المألوفة حشيتين ولوازمهما تحت ناموسية من الكريب (قماش رقيق جعد) أزرق اللون ؛ وحيث إن عدد رفيقات الليل يتوقف على عدد الحشايا، أدركنا أن اثنتين فقط سوف تنضمان إلينا، أى صديقة لنا وابنتها الصغيرة. كنت قد طلبت أن يغلق بابا غرفتنا بالمفتاح أثناء الليل، ولُبيت رغبتى إذ أغلق البابان : واحد من الخارج والآخر من الداخل ولكن ظل أحد المفتاحين بالخارج. ماكدنا نستكين، حتى فتح الباب ببطء وتسللت سيدتان شرقيتان إلى

الداخل ورقدتا فوق الديوان متخذتين مسندين كوسادة تحت الرأس، و خلعت كل منهما النطاق من حول وسطها والتفت به كلية، فبدتا مثل كومتين ضخمتين في شال كشميرى. وقبيل الصباح دخلت إحدى السيدات وحاولت أن تفتح الباب الثانى لتخرج منه ولكن المسكينة وجدت نفسها فى مأزق لا تحسد عليه ! لقد ظلت تشاهد الحفل الترفيهى مدة أطول مما كانت تتوقع وحينما أحست بالنعاس أرادت أن تختصر الطريق إلى مخدعها بأن تمر من غرفتنا لتوفر على نفسها مشقة المرور فى ممرات طويلة وهبوط وصعود العديد من الدرجات فى الساعة الثانية صباحا والإضاءة على وشك أن تخمد في السلالم والطرقات. اغتاظت وهى تحاول باضطراب أن تفتح الباب المغلق دون جدوى وصبت وابل سبابها ليس علينا ولكن على الذين يبذلون كل طاقتهم للسعى وراء راحة الإنجليزيات. كان الأفضل لو قضت الوقت الذى استغرقته في اللعن والشتم فى الإتجاه إلى غرفتها ولو بالطريق الأطول. أخيرا خرجت واستطعت أن أنام، ولكن الصديقة التى تشاركنا حماية الناموسية بقيت متيقظة بسبب دخول عدة أفراد إلى غرفتنا وبقين بها بعد أن أطفأن النور. أذكر هذه التفاهات لكى أقدم نبذة عن العادات الليلية أو بالأحرى عدم وجود عادات للراحة ليلا، في الحريم. ولا يقتصر عدم الانتظام فى ساعات الراحة على مناسبات الاحتفالات فقط، ولكنه يكون أكثر وضوحا فى مثل هذه المناسبات حينما تكون أهم العروض الترفيهية ليلا. كما أن ضجعة الظهيرة بعد الغداء من العادات المألوفة بين القوم ويتوقف على طولها ما إذا كان النوم ليلا طويلا أو قصيرا أو إذا استغنى عنه كلية، كما يحدث أحيانا.

بعد انقضاء الليل، أفقنا كعادتنا مع بزوغ الشمس وبعد قليل، دخلت علينا جارية تحمل صينية، فوقها عدد من الأكواب، وتبعتها أخرى تحمل وعاء كبيرا مليئا بسائل ساخن جدا وبداخله مغرفة ضخمة؛ ثم جاءت ثالثة ومعها خبز محمص (توست) وزبد. جيء بالمنضدة الصغيرة الجميلة ووضعت فوقها الصينية؛ الخبز والزبد فى الوسط وكوب أمام كل منا، وأثناء هذه الترتيبات، انضمت إلينا بعض الصديقات وهكذا كونّا حلقة مرحة، في حين ظلت زائرتا الليلة الماضية كومتين لا حراك بهما فوق الديوان، بالضبط كما كانتا حينما تأهبتا ليلا للنوم. بدأ التفريغ بالمغرفة، وكم كانت سعادتنا حينما أدركنا أن ما كنا نظنه بسبب غرابة طريقة

تقديمه، حساء بنيا، لم يكن في الواقع سوى قهوة ممتازة بالحليب. حقا إن المظاهر خداعة !

كان في إنتظارنا بعد الافطار، مشهد غريب في الصالون السفلي. حينما جاءنا خبر وصول الباشا نزلنا بسرعة إلى الصالون الذى وجدناه شبه مهجور؛ فقد كان سموه مثل المرة السابقة، في غرفة النافورة. وقف الأغوات عند كل مدخل لمنع الدخول إلى الصالون، ولكن بالطبع لم يتحرش بنا أحد، فاخترنا مكانا ممتازا لمشاهدة الباشا وهو يمر. بعد فترة وجيزة، ظهر متكئا على ذراع ابنته نظلة هانم وكان يبدو رائعا بلحيته ناصعة البياض التي تضفي مظهرا مهيبا لملامح وجهه المعبرة. وما كاد يمر، حتى فتحت جميع أبواب الصالون العديدة، ولا يمكنني أن أصف اندفاع النساء من كل جانب إلا بتدفق سيل من المياه: كان شيئا مفزعا ما لبثنا أن علمنا سببه وهو أن الباشا كان أثناء ولوجه الصالون، يبذر العملات الذهبية (قيمتها تساوى الجنيه عندنا). من المؤسف أنه يسمح بهذه العادة البربرية من إلقاء النقود، بل ويحبذها بأن يقدم بنفسه المثل لذلك. العاقبة دائما مروعة حينما تمارس في حريم عظيم يسمح فيه بدخول كافة الطبقات من النساء أثناء الاحتفالات، وكذلك عند مرور المواكب في طرقات مدينة شرقية ضيقة مزدحمة. وهذه عادة تتنافى و آراء محمد على الحضارية المتفتحة.

في صباح هذا اليوم (الأربعاء) وهو آخر أيام الاحتفالات في الحريم، رجعت معظم السيدات الأوربيات اللاتي حضرن عشاء أول يوم في القصر، ووصلت أيضا كثيرات أخريات من الإسكندرية. كان هذا هو اليوم السابع، يوم الحناء الذي تحنى فيه يدا العروس بعد الحمام وفقا للعادات القديمة، وهو أيضا اليوم الذي تُقدم فيه للعريس. كان من بين من حُضر مؤخرا من الشرقيات منذ يومين، فتاة صغيرة تبلغ من العمر ما يقرب من ست سنوات؛ كان رداؤها مطرزا بالذهب، ويتوج رأسها مجوهرات نفيسة من أغلى نوع؛ كانت تصاحبها جارية زنجية صغيرة، تسير أحيانا خلفها وأحيانا بجانبها تتحدث وتضحك مع السيدة الصغيرة عظيمة الشأن، ممسكة دائما بطرف ذيل الرداء الطويل البراق. عجيب هذا المزيج من الألفة والاحترام لدى هؤلاء التابعات الصغيرات؛ فالطفلة التي هي في آن واحد جارية

ورفيقة لسيدتها الصغيرة، تكون لها أيضا فى الغالب، حظوة لدى والديها.

لقد سبب تدفق الجماهير على القصر أثناء الاحتفالات بعض القلق على سلامة البناء ولهذا دُعى عدد من المهندسين والخبراء لمعاينة الصالون العلوى، و صادف أن كانت مسز ليدر تمر فى الصالون حينما حضروا وفجأة انتابتها دهشة شديدة لرؤية جيش من الأغوات يندفعون من السلم ويسوقون أمامهم كل من كان موجودا من نساء الحريم وجواريهن وكأنهن خراف؛ كانوا يلوحون بعصيان طويلة ليفرضوا طاعة الجوارى فى حين كانت معاملتهم أرق فى طرد السيدات. لم تكد تمر دقيقتان حتى خلا الصالون تماما إلا من مسز ليدر والأغوات الذين اقتادوا بعض الرجال الملثمين تحت حراستهم المشددة ؛ وحينما أقول ملثمين، أعنى أن وجوههم كانت معصبة بمناديل لم يسمح لهم بإزالتها إلا بعد أن وقف الأغوات أمام كل باب يحرسونه. لُفت الحصر[٤] وبدأ الرجال يفحصون الأرض والحيطان بحثا عن أى تشققات؛ كانت النتيجة مرضية، ولكن خوفا من الخطر الذى قد يصيب البناء من جراء احتفالات المساء قرروا أن تقام فى الطابق السفلى. يخيل لى أن سلامة أى بناء مهما كان، تتعرض للخطر مع الآلاف المؤلفة التى تعج بها القلعة.

كان الترفيه يوم الأربعاء يقتصر على ما تقدمه العوالم. دعينا لتناول الإفطار فى الساعة الواحدة، ولكن ما كدنا نصل إلى غرفة الطعام حتى وصلنا الخبر بأن العروس سوف تنزل لتذهب إلى الحمام، وسوف تبقى بعض الوقت فى الصالون السفلى. هبطنا إليه، وشاهدنا منظرا غاية فى الغرابة؛ اصطف الأغوات على الجانبين من أسفل السلم و عبر الصالون حتى مجلس الشرف فى أحد الأركان. مررنا وسط هذا الممر المكون من الأغوات يتصدرون الجموع المحتشدة على الجانبين ويمنعون أى فرد من اقتحام الطريق الذى يكونونه، باستثناء السيدات الأوربيات والشرقيات من النبيلات.

كان مجلسى قريبا جدا من المكان المُعد للعروس. دوت المدافع كالرعد من القلعة، ترد عليها مدافع قلعة جبل المقطم؛ وحين سكن صداها، جاءتنا أصوات

(٤) The mats were rolled up

الزغاريد من غرفة نائية بالقصر تقترب رويدا رويدا لتمتزج بقرع الدفوف المرحة وما لبث أن ظهرت فتيات راقصات زاهيات بألوانهن الوردية والذهبية، يهبطن السلم الكبير، وخلفهن تابعات في أبهى الملابس تتوسطهن العروس وهي تنزل ببطء. حينما اقتربت منا، رأينا الجوهرات التي عُرضت في الموكب الذي طاف بالأزبكية، تزينها وكان رداؤها في هذه المناسبة يضفي على الجواهر بريقا وفخامة تفوق الوصف. غطاء رأسها لم يتغير فيما عدا عددا لا حصر له من رقائق الذهب الرفيع طول كل منها حوالي قدمين مثبتة على جانبي رأسها أمام الأذنين ومن خلف أذنيها ظهر ذنبان قصيران من فراء السمور فاحما السواد كما تدلى خمار بنفسجي اللون من قماش رقيق مخطط بالذهب من وراء غطاء رأسها. كانت ترتدي الزنار والقلادة الرائعتين من الماس المبهر وغطاء رأسها مرصع أو بالاحرى مكدس بالجواهر البراقة. اليلك والسروال من الحرير الأخضر الفاتح المطرز ببذخ وجمال وحافتة من الذهب، أما السلطة، فمن المخمل الأحمر المحلى بالذهب والجواهر ومبطن بالفراء.

اتخذت مجلس الشرف، وحولها لفيف من السيدات في أبهى الملابس، يروِّحن لها بالمراوح؛ ثم بدأت السيدات من أسرة محمد على المقربات، يبذرن الذهب. كان تدفق المئات من البشر حيث كان يتساقط غامرا، وبالقرب منا دهست طفلة صغيرة ذات ثلاث سنوات تحت الأقدام ! لحسن الحظ لم نسمع بوفاة الطفلة الغالية، وبحزن أمها المسكينة إلا بعد حدوث الكارثة، كما لم نسمع صراخها. الاندفاع نحو النقود دائما في اتجاه بعيد عن مكان جلوسنا نحن الأوربيات إذ إن السيدات الشرقيات اللاتي يقذفن بها يجلسن بيننا ولهذا فنحن في مأمن تام، ولكن الخروج مستحيل أثناء الجلبة. خيل لي أن العروس بدت أقل كآبة من الأيام السالفة، وحينما مسّتها عفوا على وجهها إحدى المراوح، ابتسمت. أخلي الطريق بالطريقة نفسها بواسطة الأغوات لدخول العروس الثانية التي جاءت مصحوبة بالطريقة نفسها مثل إبنة الباشا وتكرر المشهد مرة أخرى. كان غطاء رأسها أيضا كما كان من قبل بإضافة الرقائق الذهبية المتدلية؛ أما اليلك والسروال فكانا من الحرير الأبيض المطرز بذوق رفيع بخيوط الذهب على شكل أزهار و أوراق متعددة الألوان. مكثت العروسان حوالي عشر دقائق ثم أفسح الأغوات أمامهما الطريق

من جديد، لتنصرفا.

دعينا كلنا لتناول العشاء، وبلغ عدد من جلسن حول المائدة التى رأستها نظلة هانم، ما يقرب من الثلاثمائة. بعد العشاء بدأ الترفيه، تارة الرقص العربى والتركى وتارة غناء العوالم الشجى. ظلّ الحشد يتدفق حتى منتصف الليل حين تقدم ما يقرب من عشرين جارية، تحمل كل واحدة منهن رداء مطويا فى قطعة من القماش المقصب قيل إنها هدايا توزع باسم العروس الرئيسية. بعد ذلك أخلى فرع من فرعى السلم المزدوج لتهبط منه العروس، فى حين اكتظ الفرع الآخر بالمتفرجات، وبدأ موكب الشموع. فى البداية، نزل ببطء عدد من الأغوات، يحمل كل منهم شمعة ملونة كبيرة، طولها حوالى أربعة أقدام: ثم ظهر من خلفهم على رأس السلم بريق من وهج شموع لا حصر لها تنساب بلطف إلى أسفل مثل نهر من النور من جراء سير عدد من الجوارى، تحمل كل واحدة سبع شمعات أو ثمانى مثبتة فى سلة مزينة بأزهار زاهية الألوان فوق إناء صغير أخضر يحوى، كما قيل لى، عجينة من الحناء لخضاب الأيدى كى تكسبها لونا أحمر داكنا يميل قليلا إلى اللون البرتقالى، وكثير من النساء يكررن استخدام الحناء مرة ثانية وبطريقة مختلفة ليصبح اللون الناتج أميل إلى السواد. وكانت الجوارى يحملن الآنية فى كلتا اليدين ويرفعنها عاليا فوق رؤوسهن و العروس تسير بينهن متألقة بجواهرها الماسية التى تعكس مئات الأضواء من حولها؛ وكانت تتقدمها وترافقها كالمعتاد الراقصات وضاربات الدفوف. حينما وصلت حاملات الشموع إلى الصالون السفلى وتخطينه زادت صيحات الزغاريد الحادة الثاقبة، وزاد ضرب الدفوف حتى كادت الضوضاء تصم الآذان.

وظلت العروس فى الصالون السفلى حوالى ربع ساعة، ثم عبرته لتصعد السلم برفقة المغنيات وعدد من حاملات الشموع. انتابتنى رغبة ملحة فى الصعود إلى الصالون العلوى والنظر إلى أسفل لمشاهدة منظر العروس الثانية، وهى تهبط السلم؛ فعلت هذا وكدت أدفع ثمنا غاليا لتهورى. لم أدرك أن نقودا كانت قد بُذرت بين النساء أثناء خروج العروس الأولى، وكنت أتوقع فقط أن أصعد مع التيار؛ ولكن ما كدت أصل إلى منتصف الصالون حتى وجدت نفسى فعلا فى

مأزق. كان تياران أو ثلاثة من النساء، تتدفق من اتجاهات مختلفة والأغوات يندفعون بينهن يحاولون بالقوة الحفاظ على النظام. ارتطمت بي كتلة من النساء، وقذفتني مثل الكرة نحو حشد مقبل من جهة أخرى. واستمر الحال هكذا، أقذف من فئة إلى أخرى، وفي كل مرة أقترب شيئا فشيئا من السلم، ولحتُ مسز ليدر، التي كنتُ قد فقدتها في الزحام، قد وصلت هي الأخرى إليه سالمة. كان أمامي بضعة أقدام لأصل إليها ولكن قواي خارت، ولم أستطع المضي قدما؛ وجدت نفسي بالقرب من أحد الأغوات، فطلبت مساعدته وأفهمته أني أريد الوصول إلى السلم. في دقيقة واحدة، حملني مثل الطفل، و أوقفني بسلام على درج السلم.

في الصالون العلوي، وجدنا أن كل الأغوات المسنين قد منحوا هدايا من شيلان كشميرية وكثير منهم نالوا اثنين؛ بل إن واحدا منهم لف ثلاثة أو أربعة منها حول نفسه في اتجاهات مختلفة. كما وجدنا أيضا حاملات الشموع في انتظار مصاحبة العروس الثانية. ما لبثت أن ظهرت ومعها حاشيتها، واخترقت الصالون وبدأت تهبط السلم. كان طريفا أن ننظر إلى أسفل ونشاهد الأنوار والراقصات والعروس التي أضفت بجواهرها مزيدا من البريق على المشهد؛ ولكن المنظر كان، دون شك، يبدو أكثر روعة حين رأيناه من أسفل. انتظرنا عودتها ثانية إلى الصالون العلوي وهكذا شاهدنا نهاية هذا الاحتفال الباهر في حوالي الساعة الثانية من صباح يوم عيد الميلاد المجيدُ.

كان الأمر أهون علينا الآن أن نخترق الحشد؛ وجدنا الأنوار تخفت تدريجيا في ساحة القصر المضيئة، وركبنا عربة أخذتنا من خلال شوارع القاهرة التي بدت خاوية. لم نر سوى شخصين على صهوة جوادين في طريق الأزبكية وحامل المشعل يجري أمامهما بنوره الوهاج. كان الوميض المنبعث من الخشب المحترق يضفي بهجة على ملابسه البسيطة، تجعله يبدو كأنه يرتدي ملابس يوم العيد.

لم يمر موكب زفة العروس من القلعة إلى قصرها إلا بعد قداس عيد الميلاد، ولكنني كنت مرهقة لدرجة لم تمكنني من الخروج من الدار لمشاهدته ولهذا أعطيك وصفا له جاءني من بعض الأصدقاء.

بالرغم من أن جميع أهل القاهرة اجتمعوا لمشاهدته، إلا أن موكب الزفة لم

بشبع التطلعات المتوقعة؛ إذ أنه اقتصر فقط على عرض عسكرى ومرور عدد من العربات. كانت تبدو على ملابس الجنود مسحة شبه أوربية، والعربات معظمها كمثيلات لها في شوارع لندن وباريس. وكان يتصدر الموكب فرقة كاملة من موسيقى الجيش، يتبعها ثلاث فصائل من حاملى الرماح، ومثلها من نافخى الأبواق. جاء بعدهم، أولا فرقة كبيرة من الفرسان حاملى الدروع، وبعدهم حوالى اثنتى عشرة آلية ميدانية بذخيرتها الحربية ؛ كما تخلل الموكب الحربى بعض المصارعين ومحاربون وهميون بالسيوف، ثم تبعهم بعض الرواد وأربع كتائب مشاة كل واحدة بفرقتها الموسيقية. وأخيرا ظهرت جماعة كبيرة من الفرسان من بينهم محمد على بك وأحد أبناء إبراهيم باشا و كذلك عدد كبير من نبلاء القاهرة وكان حاملو أعلى الرتب، يحتلون المؤخرة. تبع هذا الموكب حوالي ثلاثون أو أربعون عربة؛ آخرها العربة الرسمية التى تقل العروس، يحيط بها مجموعة من الفرسان من الضباط والأغوات وأربعة رجال يحمل كل منهم حزمة من أفرع شجر البرتقال محملة بثمارها، و كانت ستائر العربة مسدلة ويجرها ستة جياد. يسوق كل عربة حوذي يضع فوق كتفه الأيمن شالا كشميريا يربطه من جانبه الأيسر؛ وأنهت الزفة، إن صحت هذه التسمية، مجموعة كبيرة من حاملى الرماح. عند مرور عربة العروس، انبثقت زغاريد الجزء النسائى من المتفرجين لتضاعف الضوضاء التى ملأت الجو، وأثناء مرور الموكب كان عدد من الشاويشية يقذفون إلى أعلى قطعا من النقود على أسطح البيوت المنخفضة وإلى نوافذ الطبقات السفلى من المنازل وبين الجمهور فى الطريق، وكانت النتيجة الحتمية لهذا أن مات ستة أشخاص تحت الأرجل ! وعلى مسافة من الزفة، جاءت عربة نظلة هانم، يتبعها موكب من طهاة الباشا، يحملون صوانى من الطعام يوزع على الفقراء.

أما الشال وكيس النقود من فوق العمود المدهون بالصابون، فقد فشلت كل المحاولات لتسلقه حتى نهاية الاحتفالات حينما فاز بالغنيمة مبتدع الفكرة. لم يقدم هو على هذه المغامرة الفذة إلا بعد خروج كل المتسابقين من الحلبة. أما الفيل المزيف والسفينة فقد نقلا إلى القلعة بدلا من تفجيرهما، كما كان منتظرا.



الرســـالة

الرابعة والثلاثون

العريس يستقبل العروس

مارس ١٨٤٦

لا بد أنك متطلعة لمعرفة طريقة استقبال العريس لعروسه. حينما دخلت عربتها ساحة الحريم بقصرها، كان كامل باشا عند الباب ليرحب بها ولكنها ظلت داخل العربة لمدة ساعتين والأبواب مغلقة والستائر مسدلة حسب تقاليد التمنع القديمة؛ ولا شك أن بقاءها فى عربتها، أى حصنها كانت ستطول لولا هرج ومرج الجماهير الغفيرة التى تزاحمت خارج أبواب القصر لمشاهدة هذه اللحظة الفريدة. وأخيرًا فتح باب العربة وتقدم كامل باشا وكشف عن يدى وقدمى العروس وقبّلها باحترام، ولكنه لم يكشف الحجاب عن وجهها. ثم حملها بين ذراعيه، وأخرجها من العربة، وصعد بها السلم وأجلسها على ديوان فى غرفة مفروشة بأبهى الأثاث حيث تركها لبضع

ساعات مع أتباعها . وفي المساء المتأخر استأذن لزيارتها في حضرة عديد من الزوار والأتباع . كانت محجبة عندما دخل الصالون ، وتقدم نحوها بكل خشوع وبعد أن قبل يديها وقدميها ، أزاح الحجاب عن وجهها ، وتقهقر إلى الوراء ، يمعن النظر فيها مدة دقيقة ، ثم قبّل ثانية يديها وقدميها . تحدث معها في بعض الأمور لمدة ما يقرب من ساعة ونصف ، ثم انسحب إلى جناحه الخاص ؛ ظل مدة أحد عشر يوما يزور عروسه على هذا المنوال الرسمي حتى أنست له ، كما قيل لى ، وتخلت عن تحفظها .

ولكن أفراح أسرة محمد على ، سرعان ما انقلبت إلى أحزان إذ إنه من المنتظر من ساعة لأخرى ، أن يلفظ شخصان قريبان جدا منه آخر أنفاسهما . واحدة منهما هي زوجته الثالثة والأخرى أرملة ابنه إسماعيل باشا التي ينصب كل اهتمام الوالي عليها(٥) . من الغريب أنها أرملة صبي قتل في سنّار ، وعمره لا يتجاوز السادسة

(٥) هي ابنة القاضي عارف بك (الذى عمل فترة بمصر) وحفيدة وزير السلطان ، خليل باشا ؛ يذكر الجبرتي مناسبة عقد قرانها على إسماعيل باشا وقد حضرت بصحبة أبيها من «الديار الرومية» (أى تركيا) وكان هذا في ٢٧ من رمضان ١٢٢٨ / ٢٣ سبتمبر ١٨١٣ في الوقت نفسه الذى تم فيه عقد قرا نظلة هانم على «محمد أفندى الذى تقلد الدفتردارية» .

عشرة ! منذ وفاته وهي تقضى معظم وقتها فى القسطنطينية حيث لها شأن عظيم لدى والدة السلطان، وعلى هذا فهى تستخدم نفوذها لصالح محمد على، وهدفها دائما مصلحته هو الشخصية، ولذلك يخشى أن يفقدها ويتشبث بكل أمل لشفائها. وأكثر الناس رعاية لها، عروس كامل باشا وسيدة أخرى من قريبات محمد على. إن هاتين السيدتين تتناوبان السهر على المريضة كل ليلة ومن الغريب حقا أنهما مثل باقى التابعات، يرتدين الحداد التام. لا يمكننى أن أتصور وقع مثل هذه المجاملة غير المناسبة على المريضة، ولكننى واثقة من شيء واحد وهو أن منظرا مقبضا كهذا كفيل بأن يقضى على أى شخص متوتر الأعصاب.

لم أتوقع أن أعيد ذكر الزفاف الكبير الذى تم مؤخرا، ولكن يبدو أن إحدى عواقبه كانت وخيمة فبعد انتهاء الاحتفالات زاد عدد السرقات بشكل غير مألوف فى القاهرة، والسبب فى ذلك كما أظن، يرجع إلى عادة قبيحة فى مثل هذه المناسبات وهى الإفراج عن كافة المجرمين من السجون. و لصوص مصر، فى اعتقادى، لا يفوقهم أحد فى الوقاحة و مايلى مثال لذلك سمعته مؤخراً: أثناء غياب أسرة من دارها، اقتحمت امرأة البيت، وصعدت إلى الحمام، وهو مكان لا يستخدم إلا قليلا جدا فى الشرق، إلا بين الطبقات العليا؛ أما الطبقتان الوسطى والسفلى، فيفضلان دائما الحمامات العمومية. حينما رجعت الأسرة، سمعوا صياح طفل صغير، تتبعوا مصدر الصوت الذى قادهم إلى الحمام حيث وجدوا المرأة ومعها طفل حديث الولادة. بكل جرأة تصدّت لهم وطلبت بكل وقاحة أن يحسنوا معاملتها هى ومولودها «إذ إن «حسب ادعائها «هذا ابن ساكنى الحمام». كان وقع كلامها مثل السحر على سامعيها فقد كانوا يؤمنون مثل كافة الشرقيين، أن كل حمام يسكنه عفريت أو أحد أفراد الجان الأشداء، ولهم تأثير قوى فى مصير الأسرة. عاملتها الأسرة المخدوعة بكل كرم وسخاء وكان الخوف يسيطر على كل من يقترب منها خلال الأيام الثلاثة اللازمة للعناية بها بعد الولادة. وفى نهاية هذه المدة، استطاعت الزائرة أن تستولى على مجوهرات و ما غلا ثمنه من مقتنيات السيدة المحسنة وأسرتها، وأن تهرب بها، تاركة الناس الأفاضل يندبون سذاجتهم و لم يعثروا عليها أبدا. الشخص الذى حكى لى القصة السالفة، روى لى أيضا ما يلى:

منذ فترة شرع أحد المغاربة وزوجته في القيام برحلة الحج، وكانا يحملان معهما كمية من الجوهرات الثمينة يخفيانها جيدا، ولكن الزوجة كان لديها عقد من اللؤلؤ النفيس وضعته في كيس معلق بخيط يمر من فوق كتفها الأيمن إلى تحت إبطها الأيسر و بطريقة ما اكتشف هذا الأمر، وقبل أن تبتعد عن القاهرة بضعة أميال، هجم عليها لصوص جردوها من نفائسها. اتهم بالسرقة سائس حمارها الذى كان قد غادر القافلة، ورجع إلى بيته في القاهرة، ولكن غيره كانوا قد اقترفوا الإثم. انتهز اللصوص فرصة أن الشبهات تحوم حوله، فدفنوا بعض اللآلئ تحت عتبة بابه وأخبروا مدير الشرطة أن لديهم شكا قويا في حيازته لبعض الجوهرات المفقودة، وأنهم رأوه ينبش الأرض بجوار بابه بطريقة تدعو إلى الريبة. وجدت اللآلئ المخبأة وقبض على سائس الحمير وجُلد ؛ ولكنه لم يعترف بشىء إذ إن المسكين لم يقترف ذنبا. في أثناء ذلك لم يتخذ اللصوص الحذر الكافى مما دعا أحد الأشخاص الحاذقين أن يقترح جلد الجميع. قبض عليهم في الحال وتحت وطأة السوط، اعترفوا بالحقيقة، واتهم بعضهم بعضا و هكذا تمت تبرئة الرجل المسكين، و أخذ بثأره من المذنبين؛ ولكن ما جدوى هذا إذ لم يعوضه عن الجلد الذى تسبب في ورم قدميه ومنعه من مزاولة عمله. يخطر لي حادث آخر من حوادث السرقة الخرقا ء:-

وحدث أن امرأة كانت جاثية بجوار نهر تشرب منه بأن تملأ يدها اليمنى بالماء وترفعها إلى فمها عدة مرات وكان فوق رأسها سلة تحافظ على توازنها بمهارة على عادة الشرقيات. جاءت امرأة أخرى وبلباقة ودون أن تشعر، رفعت السلة ووضعتها فوق رأسها هى وأمسكتها بيدها اليسرى بينما قبعت هى أيضا تشرب بيدها اليمنى. قامت المرأة الأولى بعد أن ارتوت وشعرت أن الحمل الذى كان فوق رأسها قد زال، فزعت لفقدانه، وجعلت تولول وتندب حظها. خاطبتها اللصة قائلة «انظرى إلي... أنا لا أترك السلة فوق رأسي دون أن أسندها هكذا بيدى اليسرى؛ لو كنت فعلت مثلى، ما كنت فقدت سلتك.» أقرت المرأة الساذجة بأنها مخطئة وقررت أن تتبع هذه النصيحة السديدة في المستقبل !

أتحول إلى موضوع مختلف تماما. فقد وصلتنى أمس دعوة لمقابلة البطرق

الأرمنَى لهذه المدينة ولكنى تعرضت لبعض المشاكل فى الطريق إذ صادف أنه كان آخر أيام الاحتفالات بمولد النبى ووجدت نفسى فجأة ودون قصد أنضم إلى موكب المشايخ والتابعين المتجهين إلى منزل الشيخ البكرى للاشتراك فى مراسم «الدوسة». لوصف الاحتفال بمولد النبى ومراسم الدوسة، أحيلك إلى ما ذكره أخى عن هذا الموضوع فى كتابه «المصريون المحدثون»[٦]. كان الموكب الذى حضرته أمس، يتحرك بسرعة فائقة وكثيرون يحملون أعلاما كبيرة معظمها خضراء. لم يكن هناك مفر لى من وسطهم وأنا ممتطية حمارى، وتابعت طريقى حتى وصلنا إلى الأزبكية حيث المكان واسع يسمح لى بأن أستقل عنهم. كان المنظر بهيجا بصفوف الخيام على جانبى الطريق الذى يحف الأزبكية، ألوانها متعددة ولكن يغلب على معظمها اللون الأخضر، و كلها مزينة بطرق جذابة ؛ كما كان هناك أيضا أراجيح كثيرة و دواميات للأطفال ولكن لم يستعملها أحد، إذ إن نصف الجمهور كان بقرب منزل الشيخ، والنصف الآخر يهرع إليه. كما كان هناك أيضا إنشاءات مختلفة من قوائم وحبال، علقت فيها قناديل عربية الشكل ومزينة بأعلام ملونة. لقد قلد المسلمون الزينات الإفرنجية التى استخدمت فى احتفالات الفرح سالف الذكر، وكذلك بعض طرق التسلية إذ كان هناك أيضا العمود المدهون بالصابون، وفى أعلاه كيس من النقود وهلال ونجمة. تنفست الصعداء حينما ابتعدت عن الحشد ولحقت بأصدقائى فى طريقنا إلى مقر البطرق الأرمنَى[٧].

وجدنا البطرق الجليل يجلس فى غرفة الشتاء متدثرا بمعطف طويل مبطن بفراء السمور الأسود. إنه شخص يبدو عليه الوقار، له وجه معبر لطيف، ينم عن ذكاء لماح. استقبلنا بلطف، وتجاذبنا أطراف الحديث الشيّق فى شتى المواضيع. أثناء جلوسنا معه، دخل الغرفة أحد القساوسة، وانضم إلى مجموعتنا، كان واحدا من

---

(٦) انظر «المصريون المحدثون» ترجمة على نور جـ٢ من ص ١٠٩ - ١٢٣.

(٧) كان للأرمن مكانة خاصة لدى محمد على وقد عين منهم بوغوص بك وزيرا. يقول الجبرتى: «وأما نصارى الأرمن - وما أدراك ما الأرمن ! - الذين هم أخصاء الدولة الآن، فإنهم أنشأوا دورا وقصورا وبساتين بمصر القديمة لسكنهم فهم يهدمون أيضا (القصور القديمة) وينقلون لأبنيتهم ما شاءوا، ولا حرج عليهم. وإنما الحرج والمنع والحجز والهدم على المسلمين من أهل البلدة فقط. (ذى القعدة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م).

أكثر من رأيت من الشيوخ وسامة؛ طويل القامة، وقور الهيئة، ذا جلال وتواضع في السلوك، له لحية طويلة ناصعة البياض. عندما دقت الأجراس لقداس المساء، أبديت رغبة في حضوره لرؤية الكنيسة؛ استأذنا البطرق في الخروج، فقام وسار معنا حتى حافة بساط الحجرة، وأمسك بيد كل منا وهو يودعنا. دخلنا الكنيسة قبل وصول القساوسة، وتفقدنا المكان، وهو صالون عال له ست نوافذ على الجانبين، ومن خلف النوافذ حاجز مزركش من الحديد، شكله متين وجميل؛ في الواقع كان يسود الكنيسة وملحقاتها جو لطيف يشعر المرء بالراحة والطمأنينة، وهذا من مميزات المنشآت الدينية التي تخص الأرمن في الشرق. كانت ستارة مسدلة أمام المذبح وأمامها صورة معلقة، تمثل مشهد صلب المسيح والماريات الثلاث عند قدم الصليب؛ وقبالة هذه الصورة سراج مضيء ليل نهار. يكسو الكنيسة بساط وعلى الجانبين رصت في خطوط متوازية مجموعة من الشلت المستطيلة ليركع عليها المصلون. في مقابلة المذبح، في الطرف الآخر من الكنيسة، مكان مرتفع فوقه بساط وعدد من الكراسي؛ كما يتدلى من السقف كثير من الثريات الكبيرة وعديد من القناديل الفضية الصغيرة. وهناك فيض من الزخارف والزينة من فوق وحول المذبح تتكون من أكاليل مذهبة من الأزهار والغصون وكذلك نجوم مذهبة مبعثرة على خلفية زرقاء من وراء المذبح. أدى القداس قسيسان يلبسان قلنسوة الراهب، وكانا يقومان بالتراتيل ويرافقهما صبيّان، يبلغ عمر كل منهما عشر سنوات تقريبا. كان الأداء جيدا، والقداس كله مهيبا.

كان الشخص المهيب ذو اللحية البيضاء الذى تركناه عند البطرق حين دقت أجراس الكنيسة، أحد القسيسين اللذين قاما بالقداس؛ اقترب منا بعد القداس، وبكل لطف سمح لي بمرافقته خلف الستارة التي تختفي من ورائها المذبح. خلعت حذائي قبل أن تطأ قدماى قدس الأقداس لديهم. رأيت صورة العذراء والطفل المسيح معلقة من وراء المذبح، تحيط بها هالة متألقة، وأمامها سراج مضاء بصفة مستمرة. عند ذكر هذه الصور، يجب أن أؤكد أن الأرمن لا يضفون عليها أية قيمة في حد ذاتها، ولا يجوز أبدا أن تقدس، فهي موجودة فقط لتذكرهم بأحداث لها صلة وثيقة بخلاصهم، وهذا ما يؤكده البطرق دائما للمصلين.

لا شك في أنك تعلمين أن المسيحيين في البلاد الشرقية، يشبهون المسلمين كثيرا في عاداتهم وطريقة معيشتهم العامة، وكذلك في كثير من معتقداتهم الخرافية ؛ ولكن فيما يخص الخزعبلات، فأملي بل اعتقادي أنها لن تدوم طويلا إذ إنهم على أتم استعداد للاستفادة من تعاليم الأوربيين؛ وكثير منهم من جيراني، تبعوا فعلا مقترحات قدمتها لهم تخص شئون أطفالهم، فتحسين حالتهم موضوع يهمني وقريب جدا من قلبي. تختلف الحال تماما بالنسبة للمسلمين الذين يأتون عندي يطلبون الدواء لأنفسهم ولأولادهم ولكن ريبتهم الشديدة الممضة لا تجعل مساعدتي لهم مفيدة، و كثيرا ما يثيرون غضبي في مثل هذه الحالات وإليك مثلا لذلك :

جاءتني امرأة من معارفي، دأبت أن تسليني بنوادر وأقاويل ابن أختها الطريفة، كما تذكر دائما ولع الأبوين بهذا الطفل الصغير الوحيد، جاءتني بعد زيارة لهم، وهي في قلق بالغ لتخبرني أنها وجدت الصبي الصغير يتألم بشدة من خُرّاج في أذنه وأن عينه اليمنى مطبقة تماما. في اليوم التالي جيء بالطفل لأراه، وأخبر والدته عن العلاج اللازم له. كيف يمكنني أن أنسى المنظر المقزز المؤثر ! كان فتى مخيلتي الذكي اللماح، للأسف الشديد، مثيرا للاشمئزاز، كائنا مسكينا ينفر المرء من لمسه إلا إذا كان هناك أمل لإنقاذه: لم يكن فقط عليلا، بل قذرا، وكما يبدو ظل على هذه الحال عدة أسابيع. كان واهنا ساكنا من شدّة الهزال، في شبه غيبوبة ورأسه مسترخية على كتف حاملته القلقة التي كان مظهرها النظيف يتعارض بشدّة ومنظره هو البائس. أعددت له بعض الدواء وغسيلا للعين كان يفيد دائما إذا استخدم قبل أن يتحول الرمد إلى العمى؛ وطلبت أن تغسل العين والأذن بإستمرار عدة مرات يوميا وكذلك باقي الجسم. أرسلت بعد يومين للسؤال عما إذا كان الدواء قد أتى بنتيجة، ولأسفي الشديد علمت أن غشاء قد تكون فوق العين المصابة. سألت الرسول وأنا في أشد القلق «هل استخدموا الدواء؟» أجابني «مرة واحدة فقط لأن الطفل لم يسمح لهم باستعماله». انتابني حزن وخيبة أمل لأنني أعلم فائدة الدواء وأنه كان دائما بمشيئة الله، يأتي بنتيجة حسنه. تكلمت بلهجة متحمسة كأم تعرف معزة الأبناء ورجوت أن يستغل الوالدان الأحمقان المساعدة المقدمة لهما؛ ولكن دون جدوى. لقد فقد الطفل عينه، ونتج عن الخراج في أذنه

نزح استنزف قواه المتداعية ولا يمكنني أن أرجو له سوى الرحمة وأن يريحه الله من عذابه.

منذ أن دونت الأسطر السالفة وصلني خبر وفاة الطفل. مسكين هذا الصبي الصغير ! كان يخشى ظلام القبر ؛ كان يقول لوالدته في الأسبوع الأخير قبل وفاته «سوف أموت، ولكن لا تضعوني في القبر، فأنا أخشى أن أكون وحيدا هناك في الظلام الدامس». لقد تذكرت أمه كلماته الأخيرة هذه وحينما سُجي جسده في الغرفة الصغيرة بضريح الأُسرة، جلست الأم بجواره، ورفضت أن تترك المكان وأن تسمح بإغلاق المدخل وقالت بتضرع «سوف أمضي الليل مع ولدي، إنه يخشى أن يبقى بمفرده». لم يكن هذا القول خاطئا إذ إنه في اعتقاد المسلمين أن الروح لا تنفصل لتوها من الجسد، ويسمون أول ليلة بعد الدفن «ليلة الوحدة».



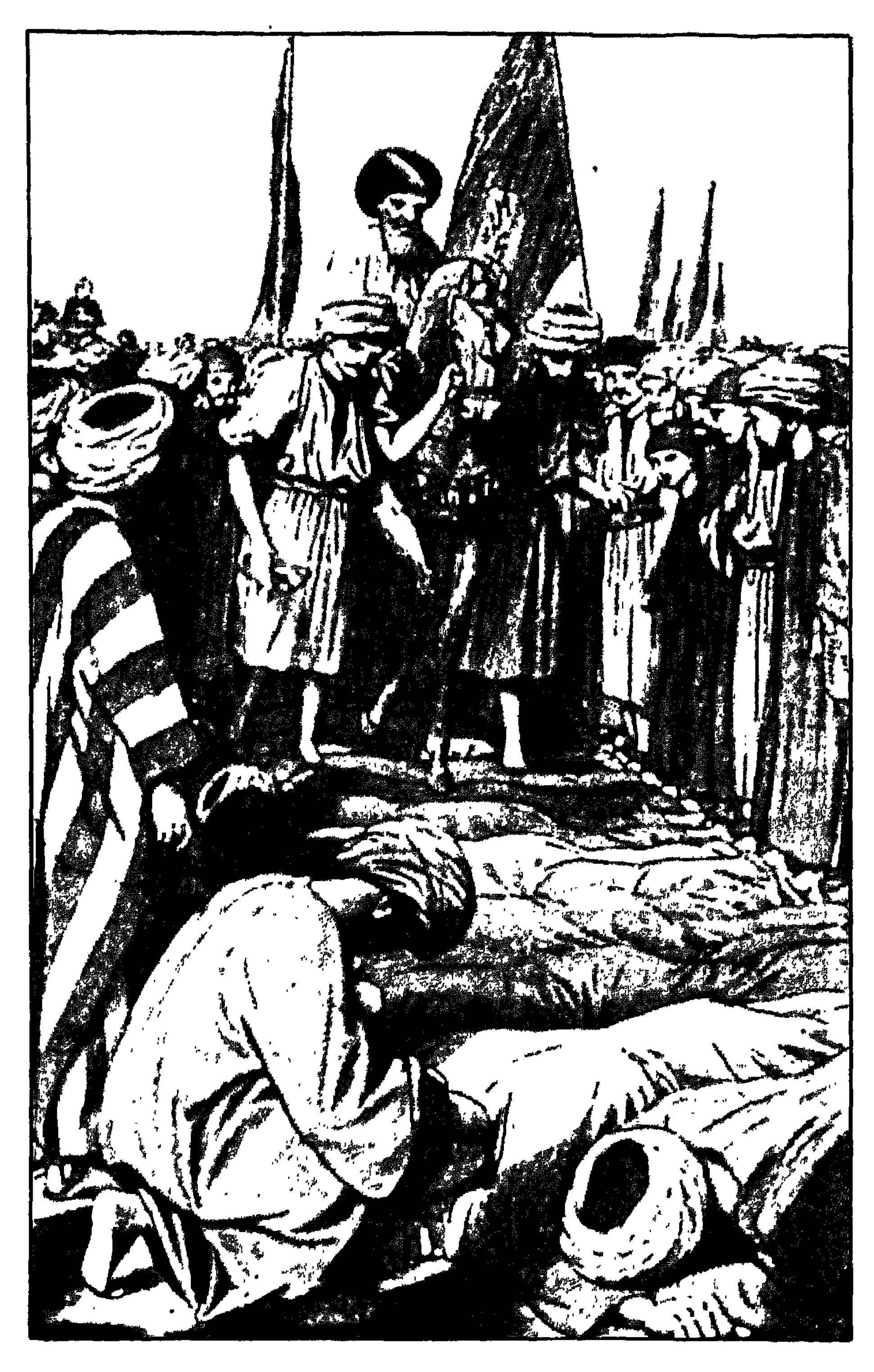
الرسالة الاخيرة

حداد فى حريم محمد علي

مارس ١٨٤٦

ذكرت فى خطابى الماضى أرملة إسماعيل باشا و مرضها الذى أثار فى نفس محمد على قلقا شديدا، إنها تتماثل الآن للشفاء، ولكن السيدة الأخرى العجوز التى أشرت إلى مرضها فى الوقت نفسه والتى كانت فيما مضى زوجته المفضلة، فقد توفيت منذ حوالى أسبوعين بعد مرض عضال دام مدة عامين.

استيقظت نظلة هانم فى صباح يوم الوفاة، على أصوات صراخ تأتى من قصر المريضة المجاورلقصرها إذ إن قصر النيل يتكون من مجموعة من القصور القائمة بذاتها، تقطن فيها المسنات من حريم الباشا وأتباعهن. صدر النواح من جوارى المحتضرة وهى لا تزال تعانى من



مشهد الدوسة

سكرات الموت. أسرعت نظلة هانم إلى غرفتها، وأمرت بمراعاة الهدوء وباستخدام بعض المنعشات حتى لفظت السيدة موضع اهتمامها، آخر أنفاسها. حينذاك ملأ نواح وعويل التابعات أرجاء القصر كما جاء من القصور المجاورة، وسمع صداه من مسافات بعيدة.

في الصباح الباكر، وقبل الوفاة بفترة، أرسل الأغوات في أرجاء القاهرة لنشر الخبر بين النبلاء وأصحاب المناصب الرفيعة وحريمهم لحضور الموكب الجنائزي؛ وما كادت الساعة تبلغ الثانية عشرة حتى امتلأ القصر بهؤلاء الأشخاص وسيدات الحريم يرتدين ملابس حداد هذا البلد بلونيها الأسود والأزرق. أما أقارب وجواري المتوفاة فكن منهمكات في كسر الأواني الصينية والزجاجية البديعة التي كانت تمتلكها المرحومة؛ ومقدار إتلاف الأشياء بعد الوفاة يتوقف على ما تمتلكه المتوفاة، وفي هذه المناسبة كانت كثيرة جدا. كانت الجثة مكسوة برداء ثمين جدا وملفوفة في شال كشميري، ثم أحضر النعش الذي وضعت فيه وغطي بشال آخر كشميري، يعلوه عند الرأس تاج رائع مرصع بالماس. كان العظماء مترجلين يتبعون قارئي القرآن الذين يتقدمون الموكب: أما السيدات، فكن وراء النعش ممتطيات الحمار العالي وكذلك سيدات كثيرات أخريات. أمام النعش كانت إحدى عشرة جاموسة تساق وقد أعدت لتذبح وتوزع على الفقراء؛ لا يمكن تصور انفعال الجماهير المرافقة لتحصل على هذه الهبة، فمثل هذه الجنازات تعتبر احتفالا بالنسبة للفقراء. وتضمن الموكب عددا من الأغوات، يحملون قنينات من ماء معطر ومباخر، يحترق فيها لبان وروائح زكية.

كان الدفن في قبر بمدافن الباشا. بسط شال كشميري في القبر، وطوى آخر ليكون مثل الوسادة تحت الرأس، ثم رفعت الجثة من النعش، و وضعت في القبر؛ غطيت بشال كشميري ثالث أخفى تحته تماما، رداء الجثة القيم. غادرت النادبات الضريح، وهن يولولن بحدّة وأغلقت البوابة.

كانت المرحومة تدعى «شمس الصفا» والمعنى يسمح بعدة تفسيرات، ولكن المقصود هو «شمس السعادة»، و يقول بعض الناس إنها كانت تتمتع بلقب وحقوق الزوجة، ولكنها في الواقع لم تكن زوجة بالمعنى القانوني الدقيق. ومراسم الدفن في مصر الحديثة، تذكرني بمناظر مشابهة صورت في كثير من المقابر القديمة

فى هذا البلد ؛ ولكنى أقول هذا وأنا فى الواقع لا أعرف الكثير عن الآثار المصرية سوى ما أراه فى الكتب والرسومات والمتاحف.

تمتعت مؤخرا برؤية المجموعة الفريدة من آثار وتحف جمعها طبيبنا الإنجليزى المقيم الدكتور آبوت، لن أقوم بوصف عام لها الآن، ولكن بعضها غاية فى الغرابة وبعضها الآخر آية فى الجمال مما يجعلنى أظن أن أى أثرى لن يجد مثلها فى القاهرة. أبدأ بأكثرها قدما : هناك قلادة وزوج من الأقراط عثر عليها داخل إناء فى دندرة ويظن أنها أقدم شيء من هذا النوع فى العالم، وقد صنعت من صفائح الذهب المشابهة للتى يختم عليهم عادة بالهيروغليفية ؛ مثبت فى الوسط ثلاث دلايات من اللازورد (lapis lazuli) وخرزتان من الزجاج الأزرق وأخرى من الجمشت (amethyst) كل منها مزودة من الجانبين بغطاء من الذهب، ولكن ما هو مثير للدهشة فعلا هو وجود اسم «مينا» أول ملوك مصر، مختوما على كل واحد من القرطين وعلى ثمانى صفائح بيضاوية الشكل تزين القلادة. شيء آخر يثير الدهشة ضمن هذه المجموعة ألا وهو خاتم له أهمية قصوى إذ إن من الموثوق به أنه خاتم الملك خوفو. أعتقد أن ما من أحد سواء كان عالم آثار أو غير ذلك، يمكنه رؤية أو لمس هذا الخاتم، دون أن يشعر برعشة من الغبطة تهز كيانه لأن مثل هذا الأثر من عصر بانى الهرم الأكبر لا يزال موجودا. إنه من الذهب الخالص، وزنه يعادل تقريبا ثلاثة جنيهات ويحمل اسم «شوفو»، أى «صوفيس» الذى ذكره مانيتون وأسماه اليونانيون خيوبس Cheops. هذا الأثر القيم فى حالة ممتازة، وعثر عليه فى مقبرة بجوار أهرامات الجيزة. وطريقة الكتابة الهيروغليفية مطابقة تماما للموجودة فى المقابر المحيطة بالهرم الأكبر، وقد روعى فى صناعته كل التفاصيل الدقيقة التى أنجزت بمهارة فائقة. وهناك أيضا، ضمن أقدم الأشياء فى هذه المجموعة الفريدة، سوار من الذهب الملفوف ينتهى بشكل زهرة اللوتس، قريب الشبه جدا بالأساور البديعة التى تتزين بها نساء مصر فى الوقت الحاضر ولكن ما يثير الدهشة أن صناعته أجود. كما أعجبت أيضا بتمثالين جميلين من الذهب لطائرين، لكل منهما رأس إنسان وجناحان ممتدان، ويمثلان الروح الراحلة. هناك أيضا شموس مجنحة، ترمز إلى الروح الطيبة، تمتاز بالذوق السليم والصناعة الراقية فى إنجازها ؛ كذلك بعض التماثيل من اللازورد، تمثل نماذج جميلة للنحت القديم، و مما أثار إعجابى الشديد سحليتان من البرونز فى حالة ممتازة وكأنهما صنعتا أمس، و منظرهما مطابق تماما للواقع.

المحتويات

صدر من هذه السلسلة

محمد.. سيرة الرسول

تأليف : كارين آرمسترونج، ترجمة : د. محمد عنانى ود. فاطمة نصر

صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمى

تأليف : صامويل هنتنجتون، ترجمة : طلعت الشايب

عصر الجينات والإلكترونات

تأليف : والتر تروت أندرسون، ترجمة د. أحمد مستجير

القدس مدينة واحدة.. عقائد ثلاث

تأليف كارين آرمسترونج، ترجمة د. محمدعنانى، ود. فاطمة نصر

العولمة والعولمة المضادة

تأليف : د. عبد السلام المسدى

التاريخ السرى الموساد

تأليف جوردون توماس، ترجمة أحمد عمر شاهين ومجدى شرشر

رقم الإيداع بدار الكتب

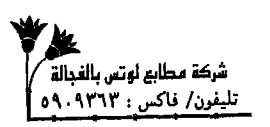
٩٩/٨٣٥٧

الترقيم الدولى

٩٧٧-١٩-٩٠٢٠-٩

صدر عن سطور: ٨ تقسيم الشيشيني - بجوار الكوبري الدائري أمام النيل جاردن - عمارة بستان النيل - كورنيش المعادى

تليفون: ٥٢٤٠٠٢٠ - ٥٢٤٠٦٦٧





حينما ظهرت فى لندن عام ١٨٨٤، الطبعة الأولى لكتاب «المرأة الإنجليزية فى مصر» بقلم صوفيا پول (١٨٠٤ - ١٨٩١)، أخت المستشرق المعروف إدوارد لين (١٨٠١ - ١٨٧٦)، حازت قبولا حسنا من القارئ الإنجليزى، يدل على ذلك ما جاء فى مقال بقلم الرحالة كنجليك حيث يقول: «إن هذا الكتاب الممتاز، وهو نتيجة المشاهدات الشخصية للكاتبة، يعطينا فى بضع صفحات معلومات عن السر الغامض للحريم الشرقى، تفوق فى غزارتها أى مصدر آخر». وبعد عام من هذا التاريخ، ظهرت فى ١٨٤٥، طبعة أمريكية لهذا الجزء الأول. أما الجزء الثانى للكتاب وهو الذى يضم وصفا للاحتفالات بزفاف زينب هانم، ابنة محمد على باشا، فقد طبع فى لندن عام ١٨٤٦؛ ولم تصدر أى طبعات أخرى للكتاب منذ ذلك الحين.

كانت الرحّالة من الأجنبيات يحاولن جهد طاقاتهن أن يحظين بزيارة «الحريم» وبذلك يتفوقن على الرجال الذين لا معرفة لهم بنساء مصريات سوى العوارى والعوالم ومن على شاكلة «كوچك هانم»، صديقة الكاتب الفرنسى جوستاف فلوبير. أما السيدات المحترمات فمحجبات ومصونات فى حريمهن. كان زيارة الأجنبيات تتم بشتى الطرق وغالبا ما يكون الخدم هم الوسطاء؛ ولا شك أن الفضول كان من الجانبين؛ إذ إن سيدات الحريم كن أيضا يتشوقن لرؤية هؤلاء النساء السافرات اللاتى لهن مطلق الحرية فى الترحال حيثما يردن. وغالبا ما كانت هذه الزيارات فاشلة إذ يغلب عليها التكلف ولا يتعدى الحديث بعض عبارات المجاملة الجوفاء والملاحظات السطحية عادة عن طريق الإشارة أو الترجمة؛ لذلك جاءت غالبية روايات الزائرات الأجنبيات أقرب إلى السطحية وتعبيرا عن أفكارهن المسبقة عن الشرق عامة، فهن لا يرين فى الحريم سوى كل ما هو قبيح وتافه.

تصميم الغلاف جولى